



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة جيلالي ليايس - سيدي بلعباس -
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
قسم العلوم الانسانية



الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية في تونس خلال العهد العثماني - الأسرة الحسينية -

رسالة تخرج لنيل شهادة دكتوراه علوم في التاريخ الحديث والمعاصر

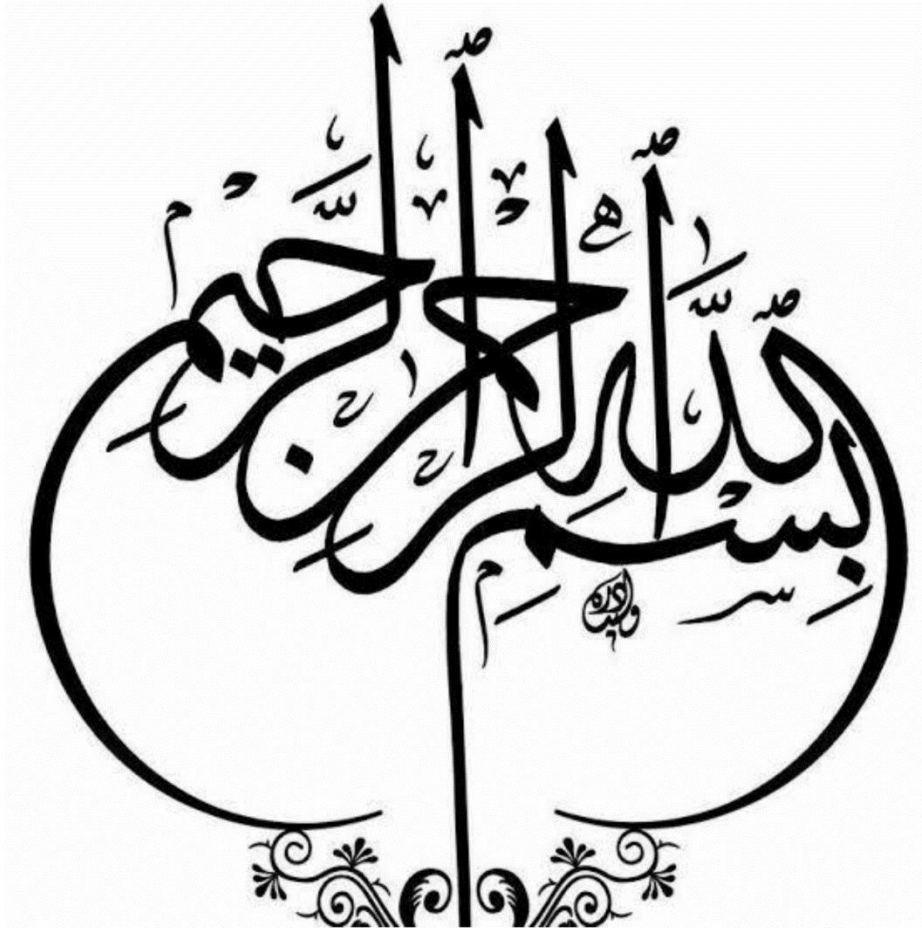
إشراف الأستاذ الدكتور:

مكحلي محمد

إعداد الطالب:

أحمد بن تيشة

الاسم و اللقب	الرتبة	الجامعة	الصفة
الزوين محمد	استاذ	سيدي بلعباس	رئيسا
مكحلي محمد	استاذ	سيدي بلعباس	مشرفا و مقورا
زايدي عز الدين	استاذ محاضر أ	سيدي بلعباس	عضوا مناقشا
دارة محمد	استاذ	وهراڻ 1	عضوا مناقشا
بن جبور محمد	استاذ	وهراڻ 1	عضوا مناقشا
حصام صورية	استاذ محاضر أ	وهراڻ 1	عضوا مناقشا



إهداء

الى الوالدين الكريمين اللذين كانا سبب وجودي.
إلى روح أمي الطاهرة التي بذلت ما عندها من أجل تعليمي
ووصولي إلى هذه المرتبة وكانت عبارات الفرح تغمرها كلما
حققت نجاحا.

الى زوجتي الفاضلة التي وفرت لي جو العمل وسهرت على
راحتي وتحملت اعباء اسرتي.

الى ابني محمد الفاتح المدعو "الساسى"
الى بناتي انفال، جمانة، لجين، بلقيس، غفران.
الى الشهداء والشرفاء والعلماء اهدي هذا العمل

شكر وتقدير

الحمد والشكر لله سبحانه وتعالى الذي ألهمنا الصبر والقوة على التعلم،

فلولا مرضاه عنا وإعانتته لنا بكل خير لما وصلنا لإنجاز هذا العمل، ومن

قلبي النابض بحب الله ومرسوله وأولياء الله الصالحين والوالدين الكريمةين .

أتقدم بجزيل الشكر والاحترام والتقدير إلى الأستاذ المشرف

مكحلي محمد الذي لم يتوانى بمد يد العون لنا بالإرشاد والتوجيه في

إنجاز هذا العمل .

وإلى كل من ساهم في إنجاز هذا العمل من قريب أو من بعيد .

قائمة المختصرات

أولا باللغة العربية:

ج: الجزء.

د.م.ج: ديوان المطبوعات الجامعية.

د.ت: دون تاريخ.

د.م.ط: دون مكان الطبع.

ص: صفحة

ط: طبعة.

تح: تحقيق

تع: تعليق

تق: تقديم

تر: ترجمة

م.ت.م: المجلة التاريخية المغربية

ص.د: صندوق

مل: ملف

ح: الحافظة

أ.و.ت: الأرشيف الوطني التونسي

ثانيا: باللغة الأجنبية

N: Numéro

P: Page

R-A: Revue Africaine.

T: Tome

R-T : RevueTunisiene

C-T : Les Cahiers de laTunisie

المقدمة

مقدمة

إن دراسة الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية لدول المغرب خلال الحقبة العثمانية تعتبر ذات أهمية بالغة من حيث أنها تهدف إلى التعرف على مميزات ونظام حكمها وأوضاع مجتمعاتها والتحولات الديمغرافية كما تمكنا من معرفة الحياة الثقافية والدينية لمجتمعاتها وإيالة تونس هي إحدى الايالات المغاربية والتي أردنا دراسة أوضاعها السياسية والاجتماعية والثقافية.

فخلال القرن الثامن عشر الميلادي شهد تطور الايالات المغاربية أدى إلى بروز معالم لدول ترابية تعتمد على سلالات عائلية طمحت أن تكون عائلات ملكية باستثناء الجزائر وهي العلوية في المغرب، والقرمانلية في طرابلس الغرب والحسينية في تونس على أساس غير قبلي من حيث أصولها الاجتماعية على عكس الفترة السابقة الوسيطة، وهذه الأخيرة حكمت البلاد التونسية مدة قرنين ونصف من الزمن من 1705م إلى غاية 1957م.

لهذه الاعتبارات وغيرها كان موضوعنا الموسوم بـ: "الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية في تونس خلال العهد العثماني-الأسرة الحسينية".

يمتد حكم الأسرة الحسينية في تونس من سنة 1705م إلى غاية 1957م، لكن المجال التاريخي الذي أردناه لهذه الدراسة قد حددناه من سنة 1705م/1117هـ إلى سنة 1881م أي الفترة العثمانية، فسنة 1705م تمثل تاريخ تأسيس الدولة الحسينية أو نظام حكم هذه السلالة وسنة 1881م تمثل إنتصاب الحماية الفرنسية على تونس.

وقد حاول الكثيرون الاشتغال على نفس الموضوع، ونحن بدورنا نحاول أن نحذوا حذوهم، ونقدم بعض الإضافات المهمة للمتعارف عليه، وقد آلينا على أنفسنا البحث في هذا الموضوع متحلين بذهنية الإقدام وتحريك السواكن.

فالباحث الذكي يدرك أن الخروج من وضعية الناقل والملخص إلى وضعية المجتهد والمجدد في الدراسة حول العهد الحسيني بتونس خلال الفترة العثمانية والذي كتب عنه المؤرخون عشرات الدراسات ليس بالأمر الهين، لكن أملنا هو إمطة اللثام عن أشياء جديدة وإخضاع معطيات قديمة لقراءة جديدة.

تتدرج دراستنا كما هو واضح من المدى الطويل إذ يتراوح ما بين القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وقد أتاح لنا هذا الخيار إمكانية المقارنة بين الفترات الزمنية، كما يمثل الإطار المناسب لتتبع سيرورة تشكيل الكيان السياسي للإيالة وتطوره خلال هذه الفترة، وهو ما مكننا من وضع معالم التحولات الكبرى التي كان لها معنى ضمن المجال الترابي للدولة.

إن الأسرة الحسينية في تونس برزت على أنقاض الأسرة المرادية التي حكمت البلاد من 1631م إلى 1702م، واستفادت من سياسة حكامها المنفتحة على دواخل البلاد، وعلى الرغم من التعثر الذي شاب بداية مسيرتها من خلال الصراع على السلطة بين المؤسس حسين بن علي وابن أخيه علي باشا، فقد استطاع إبننا هذا المؤسس بعد إستعادة حكم أبيهما من طي صفحة الماضي ونشر الطمأنينة في أغلب أرجاء البلاد.

واختيارنا لهذا الموضوع جاء انطلاقا من ميولاتنا الشخصية ورغبنا في دراسة الجوانب الاجتماعية والثقافية للمجتمعات المغاربية خلال الفترة الحديثة والتي لم تحض في نظرنا بالدراسة الكافية إلى حد الآن.

وإنه لمن دواعي الفخر والاعتزاز دراسة مواضيع ذات طابع اجتماعي وثقافي لدولة شقيقة وجارة أثناء الفترة العثمانية والتي اشتركت مع بلادنا في العديد من المميزات، وما دفعنا للعمل في هذا الموضوع أيضا:

- نقص الدراسات الأكاديمية في الجامعات الجزائرية التي تهتم بالجوانب الثقافية والاجتماعية للمجتمعات المغاربية وخاصة تونس وليبيا.

- أغلب الدراسات الأكاديمية لتاريخ تونس تركز على جهة معينة أو فترة صغيرة محددة مما يجعل الباحث المغربي يجد صعوبة في الاطلاع على تاريخ تونس وخاصة القرن 19م.

- محاولة إضافة الجديد إلى التاريخ التونسي بحكم أنني باحث محايد وغير متأثر بالأحداث والآراء المدروسة خلال هذه الفترة.

- إمطة اللثام عن بعض القضايا السياسية والاجتماعية التي تهم التاريخ المغربي في الفترة الحديثة.

- المساهمة في إثراء المكتبة الجزائرية بالدراسات الاكاديمية الخاصة بالتاريخ التونسي عامة والتاريخ الحسيني خاصة.
- اعتقادنا الراسخ أننا في حاجة إلى دراسات جديدة حول مجتمعات أخرى غير الجزائر من أجل معرفة عاداتهم وتقاليدهم ونمط معيشتهم.

لقد عرفت الايالة التونسية خلال العهد الحسيني العديد من التغيرات والتطورات السياسية والاجتماعية والثقافية وهذا من خلال التعديلات التي أدخلها البايات الحسينيون على الموروث الحفصي على جميع مجالات الحياة على الرغم من الصعوبات التي واجهوها وأبرزها كان التنافس الأوربي على الايالة والذي اشتد بعد احتلال فرنسا للجزائر سنة 1830، وأصبحت تونس مطمع الدول الأوربية وتحول البايات الحسينيون إلى أداة في يد النفوذ الأجنبي مما جعل الايالة في الأخير تقع فريسة في يد الاستعمار الفرنسي سنة 1881م، ومن هذا المنطلق كانت هذه الدراسة تعالج اشكالية عامة تتمثل في ما يلي:

فيما تتمثل أهم التحولات والتطورات السياسية والاجتماعية والثقافية التي طرأت على الايالة التونسية خلال العهد العثماني زمن الأسرة الحسنية؟
وتندرج ضمن هذه الاشكالية العامة اشكاليات جزئية متمثلة فيما يلي:

ما طبيعة نظام الحكم الحسيني؟ وماهي أبرز مؤسساته السياسية والقضائية؟ وماهي أهم المحطات التاريخية التي ميزته طيلة القرنين الثامن عشر والتاسع عشر؟ وكيف كانت علاقته مع المجتمع؟ ماهي أبرز التحولات التي طرأت على المجتمع التونسي في العهد الحسني؟ وبما تميزت عادات وتقاليده المجتمع التونسي؟ ماهي أبرز مظاهر الحياة الثقافية والدينية في تونس خلال العهد الحسيني؟

وللإجابة عن هذه التساؤلات إعتمدنا على خطة إشتملت على مقدمة ومدخل وثلاثة أبواب تناولنا في المدخل الأوضاع السياسية قبل تأسيس الحكم الحسيني بتونس أما الباب الأول فقد جاء تحت عنوان تونس الحسينية، وقسمناه إلى ثلاثة فصول تناولنا في الفصل الأول الأطوار الكبرى للحكم الحسيني متبعين التسلسل الزمني للأحداث، أما الفصل الثاني فخصصناه للحديث عن طبيعة الحكم الحسيني وأبرز مؤسساته السياسية والقضائية والمالية

والإدارية، وفي الفصل الثالث تطرقنا فيه إلى العلاقات السياسية والخارجية للإيالة أثناء العهد الحسيني.

أما الباب الثاني فقد تناولنا فيه الاقتصاد والمجتمع بتونس الحسينية وقسمناه إلى أربعة فصول تحدثنا في الفصل الأول عن الواقع السكاني للإيالة ومكونات المجتمع التونسي والوضع الصحي ودور المرأة في المجتمع الحسيني، أما الفصل الثاني تطرقنا فيه إلى علاقة المجتمع بالسلطة الحاكمة من حيث طبيعتها ومحدداتها، أما الفصل الثالث فقد ركزنا فيه عن الأنشطة الاقتصادية الممارسة وتأثيرها على الواقع الاجتماعي وختمنا هذا الباب بفصل رابع تناولنا فيه العادات والتقاليد التي كانت سائدة بتونس في تلك الفترة.

أما الباب الثالث تحدثنا فيه عن العلم والعلماء والثقافة في تونس الحسينية وقد قسمناه إلى ثلاثة فصول تطرقنا في الفصل الأول إلى المؤسسات العلمية والثقافية والمتمثلة في المدارس، الجوامع والكتاتيب، الزوايا، المكتبات العامة والخاصة، أما الفصل الثاني فقد خصصناه للحديث عن السياسة التعليمية للبايات الحسينين وجهودهم في الاهتمام بالعلم والعلماء، وبخصوص الفصل الثالث فقد أشرنا فيه إلى العلوم والثقافة بتونس الحسينية فتحدثنا من خلاله عن واقع الثقافة بتونس وعن النهضة الإصلاحية وختمناه بذكر أصناف العلوم المتداولة وأهم أعلامها.

وقد إعتدنا في بحثنا هذا على المنهجين التاريخي والوصفي التحليلي، فاستعنا بالأول في تتبع وقائع الأحداث التاريخية، أما المنهج الثاني فلتحليل الوقائع تحليلا علميا بعيدا عن الذاتية والاحكام المسبقة وللإجابة عن التساؤلات المطروحة في ثنايا أبواب البحث واستخلاص النتائج المرجوة.

وقد حاولنا قدر الإمكان الابتعاد عن التصنيفات الجاهزة والمسلمات ونزعة اليقين والثبات في قراءة الماضي وذلك عبر تحليل مواقف الفاعلين والاستماع الى أقوالهم لاسيما داخل مركز الحكم، غير أننا لا نحيد عن الصواب إذا قررنا تجردنا من كل الأفكار المثبة والأحكام الجاهزة.

الدراسات السابقة

إن أهمية هذه الفترة-العهد الحسيني-من تاريخ تونس جعلت العديد من الباحثين يهتمون بكل تفاصيل أحداثها سواء الأقدمين منهم أو المحدثين فألّفوا فيها الكتب والأطاريح الجامعية والمقالات فمن مؤرخو الجيل الأول للمدرسة التاريخية التونسية الذين بنوا التاريخ الحسيني نذكر الاستاذ محمد الهادي الشريف، رشاد الامام، خليفة الشاطر، توفيق الشروش.

فالأستاذ محمد الهادي الشريف تناول في أطروحته¹ تاريخ الباي المؤسس حسين بن علي والحرب الأهلية التي دارت بينه وبين ابن أخيه علي باشا(1728م -1740م) كما تناول علاقة الباي بالمجتمع ورجال المخزن وطرق جمع الجباية في الإيالة، أما الأستاذ رشاد الامام فقد قدم دراسة مستفيضة حول تاريخ حمودة باشا،² حيث تناولها من كل الجوانب أما الاستاذ خليفة الشاطر فقد قدم أطروحة جامعية سنة 1984مخصصها للحديث عن تاريخ الايالة في عهد أحمد باي³.

أما الباحث توفيق الشروش فقد تناول في أطروحته التي طبعت سنة 1989م،⁴ باللغة الفرنسية النخب المهيمنة خلال العهد الحسيني وعلاقتها بالسلطة كما تناول مواضيع أخرى لها علاقة بالتاريخ الحسيني كالجباية، النظام النقدي، المحلة، المجتمع التونسي وقد ترجمت هذه الأطروحة من طرف المؤلف نفسه وطبعت سنة 2003م في جزئين⁵.

أما جيل المؤرخين المعاصرين في الجامعة التونسية فنجد الاستاذ الباحث المتميز عبد الحميد هنية من خلال دراساته وأبحاثه القيمة حول الفترة المدروسة وأبرزها على

¹-Cherif Mohamed Hadé:Pouvoir et société dans la Tunisie de Husayn Ben Ali. PU. Tunis. 1984-1986, Tom 1/2.

²-رشاد الإمام: سياسة حمودة باشا في تونس (1782-1814)، منشورات الجامعة التونسية، 1980.

³-Khalifa Chater ،Dépendance et Mutations Précoloniales Tunis 1984.

⁴-Bachrouche Taoufik: le Saint et le Prince en Tunisie Puplication de L'Université de Tunis, 1989.

⁵-الشروش توفيق: الولي الصالح والأمير في البلاد التونسية، ج1/ج2، تر المؤلف، دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس، 2013.

الاطلاق مؤلفه "تونس العثمانية"¹ فقد تناول فيه تطور تشكل مجال الدولة التونسية وهذا من خلال التتبع التاريخي للأحداث وتسلسلها، كما نذكر الأستاذ لطفي عيسى الذي ركز في دراساته على ظاهرة الطرقية وانتشارها خلال العهد الحسيني وعلاقة الولي بالسلطة كما درس المجتمع والقبيلة دراسة مونوغرافية.

أما الدراسات الجامعية والصادرة حديثاً فهي كثيرة لذا سنتناول أبرزها وأهمها بالنسبة للتاريخ الحسيني فمن الباحثين نذكر الاستاذة فاطمة بن سليمان،² التي تناولت تشكل مجال الدولة التونسية من سنة 1574م إلى غاية 1881م، وخلال هذه الدراسة طرحت عدة مسائل كمسألة الحدود مع إيالتي طرابلس والجزائر ومسألة استقلالية إيالة تونس عن الدولة العثمانية كما ناقشت مدلولات المصطلحات، إفريقية، تونس، الوطن، المملكة.

كما نذكر الباحثة المتميزة سلوى هويدي،³ التي درست بالتفصيل الأجهزة العسكرية والمالية والإدارية والشرعية للدولة وتركيبية المجال المحلي وطرق احتوائه وتنظيمه، كما تناولت العلاقات الأفقية والعمودية داخل الهيكل المخزني، لكن فترة الدراسة كانت قصيرة ولم تشمل كامل الفترة المدروسة إذ انتهت سنة 1814م.

أما الجانب الثقافي فقد تناولته عدة دراسات ومقالات أبرزها على الإطلاق دراسة الاستاذ أحمد عبد السلام،⁴ الذي تناول الوضع الثقافي بالإيالة خلال العهد العثماني وكذا المؤرخون التونسيون ومنهجية الكتابة التاريخية لمؤرخو المخزن.

¹ - هنية عبد الحميد: تونس العثمانية بناء الدولة والمجال، تبر الزمان، تونس، 2012م.

² - بن سليمان فاطمة: الأرض والهوية، نشوء الدولة الترابية في تونس، 1574م-1881م، منشورات كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تونس، 2009م.

³ - هويدي سلوى: أعوان الدولة بالإيالة التونسية: الأفراد-المجموعات-شبكات العلاقات (1735م-1814م)، دكتوراه في التاريخ الحديث، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، مطبوعات مخبر، البحث اقتصاد المتوسط ومجتمعاته، 2014م.

⁴ - عبد السلام أحمد: المؤرخون التونسيون في القرون 17م و18م و19م، تر: عبد السلام أحمد وعبد الرزاق الحليوي، بيت الحكمة، قرطاج، تونس، بلا تاريخ.

أما الدراسات الأجنبية فهي كثيرة ومتنوعة، لكن نجد أغلبها مهتمة بالجاليات الأوروبية وخاصة اليهودية منها على وجه التحديد فكل الرحالة والمؤلفون يفردون جزءا هاما من دراستهم لهذه الفئة، وفي المقابل يقع تقزيم دور المجتمع الأهلي وكأنه خارج مجال الزمن، ومن أبرز هذه الدراسات نذكر دراسة جون قانياج،¹ والباحثة لوسات فلنزي،² التي قدمت أطروحة طبعت سنة 1977م تناولت فيها الاقتصاد الريفي والحياة داخل الارياف التونسية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

المصادر والمراجع المعتمدة في البحث:

لقد اعتمدنا خلال انجازنا لهذا البحث على كم كبير من المصادر والمراجع أبرزها:

أولا-المصادر:

اعتمدنا خلال بحثنا على مجموعة من المصادر والوثائق الأرشيفية والمخطوطات والمصادر المنشورة وغير المنشورة.

1-الوثائق الأرشيفية:

لقد استند عملنا على بعض المعطيات التي وفرتها لنا مجموعة الدفاتر الجبائية الموجودة في خزينة الأرشيف الوطني التونسي.

-السلسلة التاريخية: وقد تضمنت بعض الرسائل الصادرة عن البايات والموجهة إلى أعوانهم وبعض المعاهدات التي وقعت بين الدول الأوروبية وإيالة تونس وطلبات تحرير الأسرى وهي متواجدة بالأرشيف الوطني التونسي.

2-المخطوطات:

-الكتاب الباشي:وقد ألفه حمودة بن عبد العزيز(ت 1788م) الذي كان كاتباً ومستشاراً لعلي باي وابنه حمودة باشا، ثم أصبح فيما بعد من مصدري الحبوب وقد نسج علاقات مع المخزن القسنطيني المجاور، إذ كانوا يطلون عليه ضيوفا بصفة دورية،

¹-GaniageJean: Les origines du protectorat Français en Tunis(1861-1881), Presses Universitaires de France, Paris, 1959.

²- Valensi Lucette: Fellah Tunisiens.L' Économie Rural et la Vie de s Campagnes Aux XVIII^{ème} et XIX^{ème} Siècles Mouton Paris, Lahaye, 1977.

ويعتبر كتابه مصدرا هاما إذ يتناول فترة علي باي بن الحسين بن علي وجزء من فترة ابنه حمودة باشا.¹

وقد عرف عنه ولوعه بالأدب والشعر، ألف كتابه سنة 1776م ومما يعاب عليه أنه غير مرتب كرونولوجيا، كما اكتفى بسرد تاريخ مخدومه علي باي لذا غلب عليه التزلف والانحياز اتجاهه.²

وقد قام الاستاذ محمد ماضور بتحقيق الجزء الأول منه سنة 1970م تحت عنوان قسم السيرة أما القسم الآخر منه فما يزال مخطوطا وهو موجود بدار الكتب الوطنية التونسية تحت رقم 18666.

-العقد المنضد في أخبار المشير الباشا أحمد: ابن سلامة محمد الطيب (ت1849م)، وهو من علماء تونس تولى القضاء ثم الإفتاء، والكتاب عبارة عن تاريخ لأحمد باي وقد نحا فيه صاحبه منحى حمودة بن عبد العزيز في كتابة الباشي وذلك في التعظيم والاطناب أثناء حديثه عن ذكر أعمال وصفات مخدومه.

والكتاب مخطوط موجود بالمكتبة الوطنية تحت رقم: 18618.

3-المصادر المطبوعة:

أ-المصادر العربية:

-ذيل بشائر أهل الايمان بفتوحات ال عثمان: لمؤلفه حسين خوجة، والمؤلف أصله تركي، حنفي المذهب، يبدو أنه تلقى تعليمه في جامع الزيتونة، تقرب من محمد باي المرادي إذ اتخذه كاتباً له لإتقانه اللغة التركية. تاريخ وفاته غير معروف لكن يرجح أنه قبل اعتلاء علي باشا الحكم عام 1735م.³

1 - العزيزي محمد الحبيب: ظاهرة الحكم المتجول، رسالة دكتوراه في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر، 2006-2007، ص 12

2 - عبد السلام أحمد: المؤرخون التونسيون في القرون 17م و18م و19م، المرجع السابق، ص 302-303

3 - عبد السلام أحمد: المؤرخون التونسيون في القرون 17م و18م و19م، المرجع السابق، ص 219-221

لقد كانت استفادتنا من هذا المصدر كبيرة بحكم أنه أرخ للباي المؤسس حسين بن علي فتناول الحياة السياسية والثقافية للفترة العثمانية، كما ذكر العلماء الذين عاصروهم والذين ماتوا في عهده.

-**الحلل السندسية في الأخبار التونسية:** لمحمد بن محمد الاندلسي الوزير السراج، (ت 1736م) وهو في ثلاثة أجزاء ولد المؤلف بتونس العاصمة 1659م وهو من أصل أندلسي.¹

ولقبه الوزير وهو لقب تحمله في تونس عدة أسر إسبانية الأصل، أما اسمه السراج فلعل فيه إشارة إلى مهنة أجداده،² وكانت حرفته شواشيا، مارس خطة التدريس بجامع الزيتونة والكتاب ثري من حيث ذكر الأحداث فهو يمدنا بجزئيات ثمينة حول السلطة السياسية من الفترة البونيقية إلى عهد حسين بن علي³، تقرب إلى الباي محمد الثاني المرادي، كان فقيها وكاتبا بارعا كما تقرب من الحسين بن علي فأعقد عليه النعم، وكان كلما يكمل جزء من مؤلفه يهديه إلى الأمير،⁴ وقد انفرد محمد مخلوف في شجرته بتاريخ وفاته 1736،⁵ لكن لا يعلم كيف قضى آخر حياته زمن علي باشا بعد موت حسين بن علي 1740م.

وقد ذكر حمودة بن عبد العزيز أن علي باشا أحرق الجزء الرابع الخاص بحروبه مع عمه في جبل وسلات^{6,7}.

¹-المختار باي: حسين بن علي، مؤسس الدولة الحسينية تر: البشير بن سلامة الأطلسية للنشر والطباعة، تونس، 2009، ص 554

²-عبد السلام أحمد: المؤرخون التونسيون في القرون 17م و18م و19م، المرجع السابق، ص 238

³-مختار باي: حسين بن علي، المرجع السابق، ص 554-555

⁴-عبد السلام أحمد: المؤرخون التونسيون في القرون 17م و18م و19م، المرجع السابق، ص 238

⁵-مخلوف محمد: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة، ج2، 1350هـ، ص 323

⁶-جبل وسلات: يقع على بعد 40 كلم غربي مدينة القيروان وأصل تسمية الجبل تعود إلى كلمة ايزلاي (Uzlae)، وهي كلمة بربرية ترمز إلى الحديد والصلابة والشدة والشجاعة للمزيد ينظر: المكنى عبد الواحد: شتات أهل وسلات (مقاربة في الإنثروبولوجيا التاريخية)، دار السحر، تونس، ط2، 2020، ص 08 وما بعدها.

⁷-عبد السلام أحمد: المؤرخون التونسيون في القرون 17م و18م و19م، المرجع السابق، ص 238

-المشرع الملكي في سلطنة أولاد علي تركي: لمؤلفه محمد الصغير بن يوسف الحنفي المدعو الصغير بن يوسف، معاصر لحسين بن علي، وهو كورغلي عمل بالجيش النظامي التركي، شارك في بعض المعارك ضد جند علي باشا أو أنصاره، ولد بباجة حوالي سنة 1693م¹، فهو يختلف إذن عن بقية المؤرخين المخزنيين فهو المؤرخ الوحيد الذي لم ينشأ في العاصمة ولم يكتب تحت طلب الحكام.²

عاصر الحرب الاهلية وتعرض لبطش علي باشا، سكن مدينة تونس في ظروف غير مريحة كما أخبرنا هو بذلك ثم رجع إلى مدينته وتوفي هناك في أفريل سنة 1771م لا كما يعتقد بعض المؤرخين سنة 1764م تاريخ الإنتهاء من مؤلفه المشرع الملكي.³ وقد استفدنا من هذا المصدر كثيرا خاصة أثناء حديثنا عن الحرب الاهلية (1728م-1740م) والحديث عن الحياة الثقافية والاقتصادية بالايالة زمن علي باشا.

وقد قام فيكتور سيريس (Victor Serres) ومحمد الأصرم بترجمته إلى الفرنسية في المجلة التونسية ما بين (1869م-1900م) ثم طبع في مؤلف ضخم سنة 1900م تحت عنوان أخبار تونسية (Chronique Tunisiennes) ثم أعادت دار بوسلامة طبعه سنة 1978م.

وقد قام الأستاذ أحمد الطويلي بإعادة تحقيقه سنة 1998م في ثلاثة أجزاء.

- نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار: لمؤلفه محمود بن سعيد مقديش الصفاقسي، كان الشيخ مقديش عالما مشهورا في تونس، سافر في طلب العلم إلى أهم المراكز العلمية الإسلامية في عصره، منه جامع الزيتونة والجامع الأزهر، وبعد أن حصل على مبتغاه أجازة مشاهير علماء الجامعتين الإسلاميتين، ثم رجع إلى بلاده لتولي تعليم الطلبة.

¹- مختار باي: حسين بن علي، المرجع السابق، ص ص 55-56

²- العزيزي محمد الحبيب: ظاهرة الحكم المتجول، المرجع السابق، ص 10

³-مختار باي: حسين بن علي، المرجع السابق، ص 556

ويشمل كتابه فترة تاريخية تبدأ بصدر الإسلام، وتنتهي بسنة 1833م، وقد أفادنا هذا المصدر في تتبع الأحداث السياسية للبايات الحسينيين، وذكر أهم الأوبئة والأمراض التي ظهرت بالايالة.

- **إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان:** لأحمد بن أبي الضياف (ت1874م) وهو يتكون من 8 أجزاء، وهو كتاب شامل لتاريخ الحسينيين، لا يمكن لأي باحث في التاريخ الحسيني الاستغناء عنه، لأن مؤلفه كان يتردد على رجال البلاط وعلى دواوين الحكومة وهو في صحبة والده الذي كان يعمل في الدولة أثناء فترة حمودة باشا، وقد تولى المؤرخ ديوان الانشاء سنة 1827م، ثم تولى عدة مناصب هامة إلى غاية وفاته، لذا فالكتاب يعتبر مصدر مهم اعتمدنا عليه في كامل فترات بحثنا.

- **صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار:** لمحمد بيرم الخامس، هو مصدر قيم حول القطر التونسي في الفترة الحسينية حيث تناول الكتاب وصفا للإيالة، من خلال ذكر الاقتصاد وذكر أنواع الأراضي والمحاصيل الزراعية، وتبيان سياسة البايات مع إبراز عادات وتقاليد المجتمع التونسي.

- **مسامرات الظريف بحسن التعريف:** لمؤلفه السنوسي محمد بن عثمان (ت1900م)، وهو مصدر مهم يشتمل على ترجمة علماء جامع الزيتونة والذين تولوا خطتي القضاء والافتاء خلال الفترة الحسينية.

ب- المصادر المعربة:

- **الحواليات التونسية:** لمؤلفه ألفونس روسو (Alphonse Rousseau)، وعربه محمد عبد الكريم، والكتاب يؤرخ للفترة الممتدة من (1535م - 1830م). وقد استفدنا منه في العلاقات الخارجية في الايالة التونسية، لكن ما يلاحظ أن هناك تشابه في المادة التاريخية مع كتاب إتحاف أهل الزمان لأحمد بن أبي الضياف.

ج- المصادر الأجنبية:

- **Plantet Eugène:** Correspondances des Beys de Tunis et des Consuls de France avec la cour (1577-1830), Paris. Tome: 1/2/3.

يعتبر هذا المصدر من أهم الكتب التاريخية التي تناولت الفترة الحسينية، حيث يذكر لنا الأحداث مرتبة سنة بسنة مثل الحواليات، وتعود أهميته إلى كون غالب محتوياته

أصلية، حيث اعتمد فيه المؤلف على نشر المراسلات التي جرت بين قناصل فرنسا في تونس وحكوماتهم، بالإضافة إلى التقارير العسكرية والتجارية.

لذا كان اعتمادنا عليه بخصوص نصوص المعاهدات التي أبرمت بين تونس وفرنسا، وفيما يتعلق بسياسة حمودة باشا الخارجية، وفي أحداث الحروب بين تونس والجزائر وغيرها من المعلومات القيمة.

-Frank Louis et Marcel Jean Joseph : Histoire deTunis ،precede d'une description de cette regence par le Dr.Louis Frank, Tounis Edition, Bouzlama (2éme Edition)1979.

أقام هذا الطبيب الشهير في تونس حوالي ثمانية سنوات ابتداء من سنة 1806م، وهو هولندي الجنسية، فرنسي الأصل جمع في تونس بين خطتين كبيرتين في ميدان الطب وهما: كونه طبيب حمودة باشا الخاص، ورئيس الأطباء، وقد أهله مركزه هذا لأن يصبح كتابه من أكثر الكتب فائدة في وصفه لعهد البايات.

حيث قسم كتابه إلى موضوعات مستقلة، كوصف العمران والأبنية والآثار ووصف تونس، وقد اعتمدنا هذا الكتاب في دراستنا هذه لان عمل المؤلف أهله للإطلاع على شؤون الدولة نتيجة عيشه في القصر¹.

ثانيا: المراجع

1-المراجع العربية:

- سياسة حمودة باشا في تونس 1782م-1814م: لمؤلفه الدكتور رشاد الإمام، ويعتبر هذا الكتاب أهمما ألف حول تاريخ حمودة باشا الحسيني، لذا كانت استفادتنا منه كبيرة، لكن ما يلاحظ انه لم يتناول العلاقات الخارجية في عصر الباي بالتفصيل، واكتفى بإعطاء لمحة قصيرة عن المعاهدات التي أبرمها حمودة باشا مع دول أوروبا الغربية، دون الخوض في حيثياتها.

¹رشاد الامام: سياسة حمودة باشا في تونس، ص ص 30-31.

- حسين بن علي مؤسس الدولة الحسينية: لمؤلفه المختار باي، وقد قام بترجمته الأستاذ بشير سلامة، ويعتبر هذا المصدر رئيسي لبحتنا لأن معلوماته دقيقة ومركزة لكنه يقتصر على دراسة الباي المؤسس فقط.

- أعوان الدولة بالإيالة التونسية الأفراد- المجموعات- شبكات العلاقات (1735م- 1814م): للباحثة سلوى هويدي، وهو عبارة عن رسالة دكتوراه في التاريخ الحديث وقد أفادنا هذا المرجع أثناء تناولنا للمؤسسات السياسية والادارية والقضائية والمالية للإيالة التونسية.

- تونس العثمانية: بناء الدولة والمجال: لمؤلفه عبد الحميد هنية، وهو مرجع مهم أفادنا كثيرا في هذا البحث اذ اعتمدناه في أغلب فترات البحث.

- تاريخ معالم التوحيد في القديم والجديد: لمحمد بن الخوجة، هو كتاب قيم تناول الناحية العمرانية والثقافية والدينية، من خلال تعرضه إلى المدارس والجوامع والزوايا في القطر التونسي، وهو مصدر مهم جدا، وقد استفدنا منه خلال تطرقنا للمدارس والمؤسسات العلمية للإيالة.

- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية: لمؤلفهم محمد مخلوف (ت 1941م)، ولد حوالي 1864م بالمنستير¹ درس بجامع الزيتونة 1896م، اشتغل بالافتاء في قابس ثم عين في خطة باش مفتي في المنستير وظل بها الى غاية وفاته، ألف كتابه سنة 1926م، وطبع بالقاهرة بالمكتبة السلفية 1932م²، هذا المصدر يشمل رجال الطبقات الذين عاشوا في البلاد التونسية، من الفتح الإسلامي إلى عهد مؤلفه، حيث ذكر لنا فترة كل البايات وأشار إلى سياساتهم تجاه البلاد وإصلاحاتهم وأهم رجال دولته، وقد استفدنا منه خلال ترجمتنا لأبرز القضاة والمفتيين بالإيالة.

2- المراجع المعربة:

¹ - المنستير: مدينة قديمة بناها الرومان على ساحل البحر المتوسط تقع على بعد 12 ميل (21 كلم) ينظر حسن الوزان: المصدر السابق، ج2، ص456.

² - محمود محفوظ: المرجع السابق، ج4، ص258

- تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال: لمحمد الهادي الشريف، وقد قام حمد الشاوش ومحمد عجينة بتعريبه، ويتناول في دراسته أهم العصور التاريخية لتونس من الفتح الإسلامي إلى غاية الاستقلال، لذا كانت الدراسة مختصرة، ورغم ذلك فقد اعتمدنا عليه لتطرقه لبعض المواضيع دون غيره.

- المغرب العربي قبل احتلال الجزائر 1790م-1830م: للوسات فلنزي، وترجمه إلى العربية حمادي الساحلي، وهو مرجع مهم لأنه يتناول الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الايالة التونسية خلال الفترة الحديثة.

3-المراجع الأجنبية:

-Rouard De Card: Traités de la France avec les Pays de l'Afrique du Nord Algérie Tunisie Tribolitaine Maroc A Pédone Paris 1906,

وقد استفدنا منه أثناء حديثنا عن العلاقات الخارجية للايالة التونسية خاصة مع الايالات المغربية المجاورة.

-Grand Champ Pierre: La France en Tunisie à la fin du XVIIIe Siècle Inventaire des archives du Consulat de France à Tunis de (1583-1705) Tunis 1920-1933, 10 Vol Umes.

يقدم الكتاب معلومات مهمة عن حمودة باشا وعلاقته بالدول الأوربية، لذا استخدمناه عند تناولنا للعلاقات الخارجية للايالة.

أما عن الصعوبات التي إعترضتنا خلال إنجازنا لهذه الأطروحة فإنه لا يخلو أي بحث علمي من الصعوبات التي تشكل للباحث عقبة سرعانما تصبح في طي النسيان بعد ما يكتمل عمله ولعل أبرز هذه الصعوبات تتمثل في مايلي:

-جمع المادة من مصادرها الأصلية مما جعلنا نتوجه إلى تونس عدة مرات لهذا الغرض زرنا خلالها مراكز البحث المتعددة الأرشيف الوطني التونسي، المكتبة الوطنية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية لجامعة تونس الأولى، وكذا جامعة منوبة، معهد ابن شرف، معهد الحضارة، معهد التراث والفنون.

-غلق الحدود بين تونس والجزائر منذ مارس 2020م لأسباب صحية جراء انتشار وباء كوفيد (19).

- أغلب المصادر تنقل عن بعضها البعض مما صعب علينا التحري وأخذ المعلومة من مصدرها الأصلي.
- أغلب الدراسات وخاصة الأكاديمية منها تتوقف عند بداية القرن 19م، مما جعلنا نبذل جهداً أكبر خلال دراستنا للفترة الممتدة 1815م-1881م، وهي فترة امتازت بكثرة الأحداث وتداخلها.
- طبيعة الموضوع الذي يشمل إطاراً جغرافياً شاسعاً وفترة زمنية طويلة مما يصعب الالمام بالموضوع من كل جوانبه المختلفة.
- المصادر والمراجع الأجنبية فبالرغم من سهولة الحصول عليها في تونس إلا أنها أخذت منا وقتاً طويلاً في ترجمتها والاستفادة منها.
- وفي الأخير لا يسعني سوى أن أشكر كل من ساعدني في إنجاز هذا البحث من قريب أو بعيد وفي مقدمتهم الأستاذ الدكتور محمد مكحلي الذي أشرف على هذه الأطروحة بتوجيهاته وإرشاداته.
- فإن أصبنا في عملنا هذا فبتوفيق من الله وإن كان غير ذلك فمن أنفسنا ومن الشيطان وحسبنا أن نستفيد من توجيهات اللجنة الموقرة التي أوكل إليها عملنا للتقويم والمناقشة والتصحيح والله ولي التوفيق.

حاسي خليفة في 02-05-2021م

الطالب: بن تيشة أحمد

مدخل

الأوضاع السياسية في تونس قبل تأسيس

الدولة الحسنية

لقد شهدت تونس¹ خلال الربع الأخير من القرن السابع عشر الميلادي عدة تمردات وانتفاضات بسبب تنافس الأمراء المراديين على السلطة منها حرب الأخوين محمد باي وعلي باي أبناء مراد باي (ت 1675م) وكذا الحرب مع عمهما محمد الحفصي (ت 1686م). والتي دامت عشر سنوات، وهو ما أصطلح عليه عند بعض المؤرخين بالحرب الأهلية.

وفاة مراد باي وبداية الصراع على السلطة:

يذكر صاحب المؤنس أنه لما توفي مراد باي أواخر جمادى الأولى من سنة 1086هـ/1675م. اتفق أهل الحل والعقد على توليه الأخوين الاثني عشر معاً، لكن سرعان ما طلب محمد باي الانفراد بالسلطة على حساب أخيه بحكم كبر سنه، إلا أن علي باي رفض ذلك وطلب التحاكم إلى أهل الحل والعقد، ثم اتفقا على تسليم الأمر إلى عمهما محمد الحفصي ورضي جماعة أهل الديوان بذلك.²

في حين يذكر صاحب الإتحاف أن محمد الحفصي حسد محمد باي فأغرى أخيه علي- وقد كان متبنيا له- على أن يطلب المشاركة مع أخيه في سفر المحال، واستطاع أن يقنع جماعة الديوان بذلك، كما وعد علي أن يحول الأمر إليه بعد التمكن من ذلك ولهذا قال علي باي أثناء اجتماع الديوان " الحق لعننا".³

¹ تونس: ظلت هذه المدينة حتى الفتح الإسلامي قرية صغيرة تعرف بتينيس (Tynes)، واتخذها حسان بن النعمان قاعدة بحرية لمواجهة البيزنطيين وأصبحت حاضرة ومقر الحكم في العهد الحفصي، وبعد استيلاء سنان باشا عليها سنة 1574 جعلها عاصمة لباشاوية عثمانية. للمزيد ينظر: ايريس: هابنسترايت. ج. أو رحلة إلى الجزائر وتونس وطرابلس (1732م-1145هـ)، ترجمة وتعليق ناصر الدين سعيدوني، ط1، دار الغرب الإسلامي، 2008، ص113.

² - ابن أبي دينار، محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني: المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، دار المسيرة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط3، 1993، ص ص 273-274

³ - ابن أبي الضياف أحمد: إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، ج2، تح: لجنة من كتابة الدولة للشؤون الثقافية والأخبار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، والدار التونسية للنشر، 1977، ص 61

أما الوزير السراج فيذكر أن تقديم الأخ الأكبر محمد باي أثار ضغينة عمه محمد الحفصي الذي ألّب عليه أخاه واستعان في ذلك بالداي مامي جمل، وقد أستجاب هذا الأخير لطلبهما رغبتا منه في استعادة السلطة من جديد¹.

ومهما يكن من أمر فقد بويع محمد الحفصي بالديوان سنة 1675م وعند مباشرته لتسيير شؤون البلاد. أنفت نفس محمد باي من تقديم عمه فخرج من الحاضرة مع بعض أنصاره إلى مدينة الكاف² وهناك رحب به أهلها وبدأ يعد لقتال عمه³.

تفاقم الصراع بين الأخوين علي باي ومحمد باي:

عندما سمع عمه بالخبر سارع بخلع نفسه من الحكم وبعث لابن أخيه أعيانا من العلماء والصلحاء يخبرونه بذلك ويطلبون منه العودة، لكنه رفض الرجوع واشتراط خروج عمه من الحاضرة، عندما علم بخروجه أقبل إلى البلد وأخذ البيعة من أهلها⁴. وألزم أخوه علي على الإقامة خارج المدينة، ثم سافر مع محلة الشتاء إلى بلاد الجريد لجمع الضرائب على العادة.

وخلال تلك الفترة وقع طاعون بالحاضرة قضى على الكثير من الناس فمات عمهما حسن باي بن حمودة باشا وأقبل علي باي لحضور جنازته، وبعد مدة شاع الخبر أن علي باي توجه إلى الغرب لخوف لحقه⁵ وفي هذا الصدد يذكر صاحب المؤنس أنه عزم على الخروج من العمالة فسافر مع عدد من رفاقه منهم الشلبي بن يوسف داي أبو العباس أحمد وركبوا البحر حتى وصلوا بلد العناب، وبعث خاله أحمد إلى مدينة الجزائر لقصد

¹ - الوزير محمد السراج: الطل السندسية في الاخبار التونسية، تح: محمد الحبيب الهللة، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1985م، ج3، ص ص 452-453

² - مدينة الكاف: وتقع في الشمال الغربي للبلاد على مقربة من الحدود الجزائرية وتبعد عن العاصمة قرابة 160 كلم، بنيت على جبل مرتفع يشرف على سهول ساحلية مما جعلها موقعا حصينا للدفاع والمراقبة. للمزيد ينظر: الموقع الالكتروني: <https://www.alquds.co.uk> القدس العربي، روعة قاسم، مدينة الكاف موطن النسيم العليل والفن الأصيل، 17 فبراير 2018، تمت المشاهدة يوم: 04-12-2021، بتوقيت: 12:05.

³ - ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص 274

⁴ - ابن أبي الضياف: المصدر السابق، ج 2، ص 62

⁵ - ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص 276

نصرته، وفي الجزائر أتته جماعة من أولاد سعيد وجمع غفير من دريد ثم سار إلى قسنطينة وصاهر شيخ الحنانشة سلطان بن منصر.¹

أما محمد باي فبعد عودته من محلة الشتاء واضطراب نار الفتنة خرج إلى محلة الصيف في سنة 1087هـ، وجاء الخبر أن محمد الحفصي نال رتبة الباشوية فرجع إلى الحاضرة وعقد مجلسا بجامع الزيتونة حضره جمع الأعيان واتفقوا على أنهم لا يقبلون أحدا جاءهم من عمه ولا من أخيه، وفي هذه الأثناء سمع أن الصبايحية المتواجدة قرب عمدون استولى عليها القائد مصطفى سبنيول صاحب علي باي فخرج إليه مسرعا، ثم بعث برؤوس الأعراب لتهدئة الأوضاع هناك.²

ثم توجه إلى القيروان³ وقصد جبل وسلات لما سمع بنفاق أهله وحاصره من كل الجهات، ولما أبوا الطاعة صعد إليهم لمقاتلتهم وقد كان أخوه علي باي في أحد نواحيه بطائفة من جنده دون علمه وعندما توسط جيش محمد باي الجبل وكاد أن ينتصر على أهله قام أخوه بارسال سرية بقيادة مصطفى سبنيول لمهاجمة محلة أخوه محمد باي أسفل الجبل، ولما سمع جنوده صوت المدافع من المحلة نزلوا مسرعين منهزمين ولحقهم أهل الجبل بالقتل والأسر وبذلك انهزم محمد باي وجيشه وارتحل إلى القيروان كان ذلك في ذي العقدة (1087-1677م).

طلب محمد باي المدد من الحاضرة فأنته ثلاث محال بعث أحدها إلى بلاد الجريد لاستيفاء المجابي، وعندما سمع بأن أخيه نزل من جبل وسلات في جمع قليل طمعت نفسه بلقائه فلحقه بمكان يسمى سببية، لكنه انهزم شر هزيمة وهرب إلى مدينة الكاف، فقام على

1 - المصدر نفسه: ص 281

2 - مقديش محمود: نزهة الانظار في عجائب التواريخ والأخبار، تح: علي الزواري ومحمد محفوظ، ج 2، دار الغرب الاسلامي بيروت، 1988م، ص ص 108-109

3- القيروان: مدينة كبيرة أسسها عقبة بن نافع سنة (52هـ/672م) تقع في سهل شاسع الأطراف تبعد بحوالي 100 ميل عن تونس. ينظر حسن الوزان: المصدر السابق، ج2، ص 40.

إثرها محمد باي بالاستيلاء على محلة أخيه وكان ذلك في يوم (عيد الأضحى) من سنة 1087هـ/1677م.¹

انهزام محمد باي وتولية أخيه علي باي:

ولما انتهت الحرب بعث جماعة من أصحابه إلى المحلة المتوجهة إلى الجريد فاستوثقوا بها وجبيت المجابي باسمه وأرسل الخبر إلى الحاضرة طالبا البيعة له،² وبذلك تحقق مطلبه وبويع بالمحلة (في مكان يقال له باطن القرن قريب من القيروان) فقام بعزل الداوي مامي جمل وعوضه بالداوي الحاج-محمد بشارة، وكان ذلك في مارس 1677م، أواخر ذي الحجة 1087هـ.

بعدها رحل إلى مدينة الكاف لمحاربة أخيه هناك، وحدثت مناوشات بينهما ونتيجة لتواطؤ عسكر علي باي مع أخيه هرب فوراً إلى بلاد الجريد، وهناك أقبل إليه أغلب مشائخ العربان ثم توجه إلى القيروان لكن أهلها حاربوه فخرج إلى الفحص.

أما محمد باي لما استولى على محلة جند أخيه ذهب إلى الحاضرة وعزل الداوي محمد بيشارة وأعاد مامي جمل إلى منصبه. وزادت الهوة بين الأخوين ولم تنفع محاولات بعض العلماء لإصلاح ذات البين بينهما،³ ولما سمع محمد باي بوصول أخيه إلى الفحص ذهب إليه والتقى الجيشان من جديد وكانت الهزيمة عليه، وكان ذلك آخر ربيع الأول سنة 1088هـ وتم عزل مامي جمل وعوض بأحمد أوزون ثم محمد طاباق.⁴

ذهب علي باي إلى مدينة باجة لجمع الضرائب وكانت له حروب مع أخيه هناك قتل فيها صهره سلطان الحناشي ثم رجع منتصراً إلى الحاضرة في رمضان 1088هـ/1677م، بعدها خرج إلى محلة الشتاء وحارب أهل القيروان وحاصرهم ولما سمع بأخبار أخيه أنه في بلاد الجريد فقصدته، فهرب إلى بلاد الزاب. عندها استكمل علي باي مجابي الجريد

1 - ابن أبي الضياف: المصدر السابق، ج2، ص ص 64-65

2 - مقديش محمود: المصدر السابق، ج2، ص ص 110-111

3 - ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص ص 284-285

4 - ابن أبي الضياف: المصدر السابق، ج2، ص 66

ورجع إلى الحاضرة، وأثناء ذلك جاءت الأخبار أن أخاه سبقه إليها وحاصر القلعة التي بها محمد طاباق وأحرق أبوابها، لكنها بقيت صامدة في وجهه.¹

عندما أحس محمد باي بقدوم أخيه من بلاد الجريد ترك حصار القسبة وخرج بمحلته لملاقاة أخيه،² ودارت معارك بينهما انتهت بانتصار علي باي، ورجع إلى الحاضرة، وفي الصيف رحل مع المحلة وأثناء غيابه قدم عمه من اسطنبول أواخر شعبان (1089هـ/1678م) بمنصب الباشوية.³

بعد رجوع علي باي من محلة الصيف خرج إلى المنستير لمحاربة أخيه فدارت حروب بينهما وطالت،⁴ فتدخل أتراك الجزائر للصلح بين الأخوين كان ذلك في ذي الحجة من سنة 1091هـ/1697م وانفقوا أن يكون الملك بالحاضرة لعلي باي ويكون محمد الحفصي باشا معه، أما محمد باي فبقي في القيروان والساحل ويجعل ابنه أحمد تحت يد أخيه في محلته.⁵

لكن سرعان ما تقض هذا الصلح فلم يرض الداوي محمد طاباق بهذا التقسيم لأنه جرده في كل سلطة فقام ينفي العم إلى جزيرة كندية إلى غاية وفاته 1686م وفي المقابل استطاع محمد باي أن يوقع العداوة بين محمد طاباق وعلي باي مما جعل هذا الأخير يقدم على قتل محمد طاباق ويعوضه بالداوي أحمد شلبي سنة 1682م.

لقد نشب نزاع بين علي باي والداوي الجديد بسبب إسراف خدام علي باي بظلم الرعية، مما جعل الداوي يستقوي بمحمد باي فطلب منه العودة إلى الحاضرة وأخذ البيعة له من أهلها، فرجعت الحرب بين الأخوين من جديد.⁶

1 - ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص ص 287-288

2 - ابن أبي الضياف: المصدر السابق، ج 2، ص 67

3 - ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص ص 288-290

4 - ابن أبي الضياف: المصدر السابق، ج 2، ص ص 68-69

5 - ألفونس روسو: الحوليات التونسية من الفتح العربي حتى احتلال الجزائر، تع-تح: محمد عبد الكريم الوافي،

منشورات قار يونس، بنغازي، 1992، ص ص 132-133

6 - ابن أبي الضياف: المصدر السابق، ج 2، ص ص 69-72

وفي شهر مارس من سنة 1683م/1094هـ وقعت معركة باب الخضرة تمكن من خلالها محمد باي الدخول إلى مدينة تونس واستلام مقاليد السلطة وخلع أخيه علي باي، وعلى إثر ذلك قتل هذا الأخير ابنه أحمد المرهون عنده¹، ولما سمع بقدم أتراك الجزائر لمساعدة محمد باي خرج إليهم لمقاتلتهم في مدينة الكاف لكنه فشل وهرب إلى مدينة سوسة² واستقر بها سنة 1684م³.

لقد لعبت الدسائس-كالعادة- دورا كبيرا في القطيعة بين الداوي أحمد شلبي ومحمد باي مما جعل هذا الأخير يتصالح مع أخيه لمحاربة الداوي وفي شهر يناير 1685م، صفر 1096هـ زحف الإخوان على العاصمة تونس لمحاربة أحمد شلبي لكنهما فشلا وانهزما شر هزيمة ونصب أحمد شلبي بايا جديدا من أحد مماليكه وهو محمد منيوط⁴.

ثم إن الأخوين جمعا الجموع وأعادوا الكرة من جديد والتقى الجيشان قرب القيروان وكانت الهزيمة على الأخوين مرة أخرى، عندها قاما بالاستتجاد بالجزائر فأرسلا محمد بن شكر كاهية إلى صاحبهما إبراهيم خوجة وطلبا منه إعانتهم⁵ فقدم على رأس محلة وبصحبه عامل قسنطينة عبد الرحمن باي في محلة أخرى والتحمت هاتان المحلتان تحت قيادة الأخوين المراديين وحاصروا مدينة تونس طيلة ثمانية أشهر من شهر ذي الحجة 1096هـ/ 1685م إلى غاية رجب 1097هـ/1686م انتهى الحصار بهزيمة أحمد شلبي وتعيين الداوي الجديد محمد بقطاش 1097هـ/1686م.

وبعد أيام حدث تمرد حيث اجتمع الجند التونسي واتجهوا نحو منطقة "رأس الطابية" في مكان تواجد الجيش الجزائري حيث كان الإخوان متواجدين هناك، فلما رآهم علي باي خرج إليهم بجواده محاولا قمع التمرد إلا أن المتمردين اعترضوه ففر إلى جهة منوبة

1- ألفونص روسو: المرجع السابق، ص 135

2- سوسة: مدينة كبيرة وقديمة بناها الرومان على ساحل البحر المتوسط وهي على بعد 100 ميل من تونس (150 كلم). ينظر حسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص 455.

3- ابن أبي الضياف: المصدر السابق، ج2، ص ص 72-73

4 - ألفونص روسو: المرجع السابق، ص 136

5 - ابن أبي الضياف: المصدر السابق، ج2، ص 74

فلحقوه وتمكنوا من قتله وكان ذلك في 27 رجب 1097هـ / 10 مارس 1686م، وبعدها ببيع أخوه محمد بايا من جديد وارتحل الجيش الجزائري إلى بلاده.¹

تولية محمد باي وثورة محمد بن شكر:

وهكذا أصبح محمد باي حاكما للبلاد عرفت خلال عهده الإيالة التونسية هدوءا نسبيا لكنه لم يطل، حيث ثار عليه كاهيته وصهره على أخته محمد بن شكر.²

حيث عمل على إيقاد فتنة بينه وبين داي الجزائر حسن ميزو مورتو³ فقد طلب من محمد باي الخروج للحج، لكنه توجه إلى الجزائر وقام بتحريض الداي ضد محمد باي مما أدى إلى عزل حسن ميزو مورتو لكن ابن شكر بقي في الجزائر يلتمس من الداي الجديد شعبان مساعدته في الاطاحة بمحمد باي، وقد وافق على ذلك مقابل مال يدفعه إليه، كما أوهما صاحب طرابلس أن محمد باي يسعى إلى الاستيلاء على طرابلس والجزائر فأجابهما ووجه لهما أسطولا في البحر وبذلك تم هزيمة محمد باي وطرده وتعيين مكانه ابن شكر وذلك سنة 1794م / 1106هـ.⁴

بعدها عين ابن شكر محمد طاطار دايا على تونس وقد عمل منذ توليه الحكم على مصادرة أموال الناس، وفرض ضرائب استثنائية على جميع أصحاب المهن والحرف وذلك من أجل استيفاء المبلغ الذي طلبه الجزائريون مقابل دعمهم له.⁵

1 - ألفونص روسو: المرجع السابق، ص ص 137-139

2- ابن أبي الضيافأحمد: المصدر السابق، ج2، ص 75

3- حسن ميزو مورتو: هو الحاج حسن باشا، وميزو مورتو كلمة إيطالية تعني نصف الميت، وهو إيطالي الأصل، كان يمارس القرصنة في البحر المتوسط وضبط ذات مرة وضرب بالسياط حتى كاد يموت ومنذ ذلك الحين صار يلقب "حسن ميزو مورتو" قدم إلى الجزائر وصار علجا بها وأسلم وحسن اسلامه ودامت ولايته ما بين (1094-1100هـ) (1680-1687م) ينظر نور الدين عبد القادر: صفحات في تاريخ مدينة الجزائر، من أقدم عصورها إلى إنتهاء

العهد التركي، ط2، دار الحضارة، الجزائر، 2006، ص ص 114-115

4-مقديش محمود: المصدر السابق، ج2، ص ص 136-140

5 - ألفونص روسو: المرجع السابق، ص 143

وقد أطلق ابن شكر أيدي الجند في المدن فأكثرُوا من أعمال النهب والاعتصاب من آثار ضغينة الناس عليه، فثار الناس في سوسة والقيروان ومدن أخرى،¹ وأرسلوا البشائر إلى محمد باي يستقدمونه فزحف نحو القيروان والتقى بابن شكر في مكان يدعى مرق الليل قرب جبل وسلات انهزم على إثرها ابن شكر سنة 1106هـ/1695م وهرب إلى فاس وبقي بها إلى أن هلك.

أما محمد باي فسار إلى القيروان ثم إلى العاصمة تونس أين حاصر الداوي طاطار بالقصبة وقتله،² وبذلك استعاد حكمه من جديد وأعاد الهدوء والسكينة إلى جميع ربوع الأيالة، لكن الموت فاجئه في 17 من شهر ربيع الأول 1108هـ/1696م.³

فخلفه أخوه رمضان باي الذي كان ضعيف الهمة معدوم الإرادة ميالا إلى اللهو والطرب شغوفا بالألحان، إلى درجة أنه لم يعد قادرا على تسير شؤون البلاد بنفسه، وكان له مغن اسمه مزهود وهو مطرب بندقى إعتنق الإسلام، وبلغ عنده مرتبة خاصة فترك له التصرف في شؤون البلاد.

ولم يكن هذا الأخير كفؤا لهذه المنزلة، فأكثر من الفساد مما سبب له إستياء وتذمرا شعبيا واسعاً، واستطاع في هذه الظروف مراد باي ابن أخ رمضان باي أن يثور على رمضان باي ويقتله في مارس 1699م/1110هـ.⁴

مراد باي ونهاية الدولة المرادية:

كان مراد باي يعاني من حالة نفسية حادة جعلته يكرس حكمه للانتقام من أعدائه وأعداء أبيه أشد الانتقام واستهوى عمليات التعذيب الدموي فكان يباشرها بنفسه،⁵ ثم وجه عداوته ضد أتراك الجزائر، فخرج في حرب ضدهم انتهت بهزيمته في 1701م، لكنه أراد أن يحاول مرة ثانية فأرسل أغا صبايحية الترك إبراهيم الشريف إلى الباب العالي

1 - الوزير محمد السراج: المصدر السابق، ج 3، ص 590

2 - ابن أبي الضياف: المصدر السابق، ج 2، ص 81

3 - الوزير محمد السراج: المصدر السابق، ج 3، ص 590

4 - ألفونص روسو: المرجع السابق، ص ص 146-147

5- هنية عبد الحميد: تونس العثمانية بناء الدولة والمجال، تبر الزمان، تونس، 2012م، ص 151

لطلب العون فصادف هناك مبعوثين جزائريين عند السلطان العثماني الذي عقد الصلح بين ابراهيم الشريف ومبعوثي الجزائر ثم رجع ابراهيم الشريف ومعه الصلح إلى مراد باي الذي لم يعترف بهذا القرار وأصر على خوض الحرب ضد الجزائر وأثناء خروجه للحرب قام ابراهيم الشريف بقتل مراد باي قرب منطقة باجة في سنة 1702م/1113هـ¹ وذلك بإيعاز من السلطان العثماني وبمقتله ينتهي حكم الأسرة المرادية بتونس.²

رجع ابراهيم الشريف إلى تونس وعقدت له البيعة في محرم 1114هـ/ 9 جوان 1702م،³ وقد جمع بين مناصبي الباي والداي، وودّ عليه من الباب العالي منصب الباشا فأصبح يكتب أوامره باسم الباشا باي داي.⁴

لقد وصف عهده بكثرة الظلم والاستبداد المسلط على السكان ولم تحن سنة 1704م حتى شن حربا على طرابلس وانتصر على عسكرها ثم شن حربا ثانية على أتراك الجزائر فانهزم فيها وأسر في 09 جويلية 1705م/ 18 ربيع الأول 1117هـ.

بعد انهزام الباشا إبراهيم باي داي وأسرته انتهت دولته التي دامت ثلاث سنين وشهرين وخمسة أيام. ألت البلاد إلى حرب ودمار،⁵ ونظرا لهذه الحالة المزرية اجتمع أهل الحل والعقد من العلماء وأكابر العسكر بتونس، ونصبوا ديوانا لتولية من يصلح للقيام بأمر البلاد والعباد، فلم يجدوا أصلح من أغا صبايحية الترك حسين بن علي تركي⁶، والذي بويع في العشرين من أشرف الربيعين سنة 1117هـ الموافق ليوم الاحد 12 جويلية 1705م بالمكان المعروف بديوان المدافعية أمام باب القصبة⁷.

¹-المسعودي محمد الباجي: الخلاصة النقية في أمراء افريقية، تح: محمد زينهم محمد عزب، دار الأفاق العربية القاهرة، مصر، 2012، ص 113

²-هنية عبد الحميد: المرجع السابق، ص 151

³-مقديش محمود: المصدر السابق، ص 148

⁴-خوجة حسين: ذيل بشائر أهل الايمان بفتوحات آل عثمان، تح وتق: الطاهر المعموري، الدار العربية للكتاب، تونس-ليبيا-1975م، ص 28

⁵-الوزير محمد السراج: المصدر السابق، ج3، ص ص 706-708

⁶-مقديش محمود: المصدر السابق، ج2، ص 155

⁷- ابن أبي الضياف أحمد: المصدر السابق، ج2، ص 107

الباب الأول: تونس الحسينية

1881/1705م

الفصل الأول: الأطوار الكبرى للحكم الحسيني

الفصل الثاني: مؤسسات نظام الحكم الحسيني

الفصل الثالث: العلاقات السياسية الخارجية للإيالة التونسية خلال

العهد الحسيني

الفصل الأول

الأطوار الكبرى للحكم الحسيني

أولاً: مرحلة التأسيس والصراعات الداخلية (1705م-1756م)

ثانياً: مرحلة إعادة التأسيس والبناء والازدهار (1756م-1815م)

ثالثاً: مرحلة ظهور الأزمة ومواجهة التحديات (محاولات الإصلاح)

(1815م/1881م)

أولاً: مرحلة التأسيس والصراعات الداخلية (1705م-1756م)

أ/- حسين بن علي وتأسيس الحكم الحسيني (1705م-1735م)

ولد حسين بن علي تركي سنة 1675م من أب يوناني قدم إلى تونس في أوائل العهد المرادي¹ فانخرط في سلك الجند ثم بعث إلى الكاف لحفظ قلعتها، حيث تزوج هناك بامرأة من الشنانفة أنجب منها ابنه محمد ثم تزوج بأخرى من قبيلة شارن والتي أنجبت له حسين².

تقلد حسين بن علي العديد من المناصب حيث شغل وظيفة خزندار في عهد محمد باي ثم تولى خطة كاهية في عهد ابن شكر ثم وظيفة أغا صبايحية الترك في عهد رمضان باي وعينه مراد الثالث (أبو بالة) قائد الأعراض ثم كاهية له ثم تولى الاشراف على دار الجلد وبعدها ولاء إبراهيم الشريف ووظيفة أغا صبايحية الترك³.

هذه المغامرة السياسية مكنته من حيازة خبرة عميقة ومتينة سمحت له بنسج علاقات مع عدة أطراف اجتماعية وسياسية وعسكرية⁴ كما كانت استقامة خلقه ورجاحة عقله قد شدت إليه الأنظار وفتحت أمامه سبل الارتقاء إلى اعلى الوظائف خلال أمد قصير⁵.

تذكر بعض المصادر أنه ضرب بالعصا في عهد مراد الثالث وسجن لعدة أيام في عهد إبراهيم الشريف⁶. ورغم ذلك لم يغادر موقعه السياسي وبقي محافظا على نزعته البراغماتية.

أما بالنسبة لثقافته وتعليمه فلم يكن على قدر من التعليم والتحصيل بحكم تخصصه المبكر في العمل السياسي والعسكري، بالإضافة إلى نشأته في محيط قبلي تقليدي¹. يقول

¹-خوجة حسين: المصدر السابق، ص 112.

²- ينظر الملحق رقم 02، ص 277

³- ابن أبي الضياف أحمد: المصدر السابق، ج2، ص ص 106-107

⁴-Cherif Mohamed Hadé: Pouvoir et Société Dans la Tunisie de Husayn Benali (1705-1740)،Tunis،Publication de l'Université de Tunis،1984. p120

⁵-ألفونس روسو: المرجع السابق، ص 161.

⁶-GuellouzAzzedine:la Tunisie Husseinite Au XVIII Es In Histoire de la Tunisie: Les Temps Moderens STD. 1983. p 163

عنه سان جرفي " تلقى تعليما محدودا لكنه تميز بطموح كبير... وبقدرة هامة على العمل والمثابرة.²

بعد دراستنا لشخصية المؤسس للحكم الحسيني نتساءل ما هي الظروف التي تم فيها وصوله إلى السلطة؟ وما السياسة التي انتهجتها من أجل تدعيم حكمه وبناء أسس متينة لبقائه فيه؟

لقد عرفت البلاد التونسية في الفترة الممتدة من 1701م و1705م صعوبات جمة، فبالإضافة إلى المحاصيل الرديئة وقحط سنتي 1702م و1703م، تسبب النقص في العملة في كساد التجارة وانضاف إلى ذلك ظهور الوباء في جنوب البلاد وفي الحاضرة بداية من سنة 1705م ليستفحل في كامل الايالة.³

رغم صعوبة المرحلة التي تولى فيها الحكم، استطاع حسين بن علي أن يظهر على مسرح الأحداث أنه منقذ تونس وخاصة بعدما أسر عسكر الجزائر إبراهيم الشريف ومحاصرتهم للمدينة فقاد بنفسه المقاومة ووأجرهم على التراجع والتفكير، وفي هذه الظروف العصيبة عين بايا وبويح في 12 جويلية 1705م الموافق ل 20 ربيع الأول 1117هـ.

وفي هذا الصدد نجد أحمد بن أبي الضياف يصف هذا الموقف في كتابه الاتحاف قائلا "ولما بلغت المنهزمة إلى الحاضرة جزع أهلها وخافوا هجوم العدو (أتراك الجزائر) عليهم وهم فوضى بلا أمير يجمع عصابتهم، ويدافع بهم عنهم. فتفاوضوا في هذا الأمر الواجب شرعا وعقلا وهو البيعة لإمام. وأتفق أهل الحل والعقد من العلماء وأكابر الجند ووجوه الحاضرة على المبايعة لحسين بن علي لما يعلمون من حميد خلاله

¹-Cherif Mohamed Hadé:Op.cit, P119

²-Saint Gervais :Memoire Historique Qui Concerne le Gouvernement de L'ancien et le Nouveau Rovaume de Tunis Paris, P96-99.

³-Cherif Mohamed Hadé: Op.cit. P114.

وحزمه... فخرج إليه أهل الحل والعقد وكثير من أهل الحاضرة وطلبوا منه قبول بيعتهم وجمع كلمتهم، فامتنع مصرا على عدم القبول فقال له العلماء «يجب عليك القبول لا سيما والحالة هذه " فأجاب دعوتهم. ودخل معهم الحاضرة لقبول البيعة».¹

لقد اتبع حسين بن علي بعد مبايعته سياسة اضعاف المؤسسات الموازية له فقام بالتخلص من الداوي محمد خوجة الأصفر وعين مكانه قارة مصطفى وزوج ابنه محمد من بنت هذا الأخير ليضمن ولائه وتبعيته². كما منع الداوي من الحكم بالإعدام أو تنفيذه دون استشارته وبأشر بعض المهام بنفسه كترأسه للمحكمة وقيادته للمحلة التي عن طريقها يعيد تجديد الولاء لشخصه داخل البلاد ويتفقد أحوال رعيته ويقضي بين الناس.³

أما مؤسسة الديوان فقد جردها من أي نفوذ ولكن أبقى على وجودها الشكلي⁴، أما بخصوص مجلس الشرع (أكبر هيئة قضائية شرعية) فقد أغدق عليهم النعم والألقاب الشرفية فظلوا خاضعين لإرادته. كما أجبر المجلس بالمثول أمامه مرة في الأسبوع للنظر في أمهات القضايا المطروحة عليه⁵، وبهذا صار القضاء تحت تصرفه مباشرة.

لقد كان الباوي حسين بن علي يحظى بمساعدة الأعيان من الأهالي فهو كورغلي إذ استطاع أن يوفق بين العناصر الأهلية والعناصر التركية المكونة للطبقة الحاكمة آنذاك فبواسطة الأتراك استطاع أن يسيطر على دواخل البلاد، وبواسطة الأعيان من الأهالي وقعت عملية تفصل دواخل البلاد مع المناطق الحضرية بصفة عامة ومع السلطة المركزية بصفة خاصة.⁶

¹- ابن أبي الضياف أحمد: المصدر السابق، ج2، ص 103.

²-Peyssonnel et Desfontaines: Voyages Dans le Régences de Tunis et D'alger (1783-1786) Présentation et Nots de Valensi (Lucette) Paris Publication Centre Nationale de s Lettre 1987،P 59.

³-هنية عبد الحميد: المرجع السابق، ص 164

⁴-Peyssonnel et Desfontaines: Opcite،P60

⁵-الشريف محمد الهادي: تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال، تعريب: محمد الشاوش، محمد عجينة، ط3، دار سيرا للناشر، تونس، 1993، ص 82

⁶-هنية عبد الحميد: المرجع السابق، ص ص 163-164

ويمكن القول أنه بعد انتصار الباي حسين على الداوي محمد خوجة الأصغر وإبراهيم الشريف عرفت البلاد رخاء اقتصاديا واستقرارا سياسيا إلى غاية سنة 1728م. استطاع خلالها أن يدعم حكمه ويبنى أسسا متينة لبقائه فحقق نجاحا هاما إلى حد قوله «إن افريقية كسجادة طويتها وجلست عليها»¹

إن سبب الرخاء الاقتصادي والاستقرار السياسي يرجع إلى عدة اعتبارات أبرزها الظروف الطبيعية والعالمية الملائمة وتمكن الطبقة الحاكمة من خلق دعامة قوية لنفوذها في الداخل والخارج ففي الخارج ربط حسين بن علي علاقات سلمية مع بعض الدول الأوروبية حيث عقد معاهدات تجارية مع كل فرنسا 1711م، إنجلترا 1716م، إسبانيا 1720م، النمسا 1725م، هولندا 1728م.²

أما في الداخل، فقد عمل على ربط علاقات مع دواخل البلاد عن طريق تدعيم علاقات التحالف مع الأعيان من كل الفئات الاجتماعية وأبرزها التجار، القيادة للزامة الذين شكلوا المحور الأساسي في النظام الحسني، وفي عهده صارت أغلب القبائل الكبرى مخزنيه مثل قبيلة جلاص. كما قام باستغلال محكم لفائض الانتاج الفلاحي للأرياف وبذلك خدم صالح المجتمع المدني عموما والطبقة الحاكمة بصورة أخص، بالإضافة إلى ذلك كله أدخل الباي حسين بن علي تغييرات جبائية وعقارية كالتخفيف من وطأة الضرائب النقدية والمساواة الجبائية بين الأتراك والبلدية وإبطاله ضريبة الجزاء على الأراضي القريبة من مدينة تونس واستبدالها بضريبة العشر.

أما على مستوى الأرياف فقد انتهج طرقا وأساليب متعددة منها اعتماده على طريقة المشتري وبسط الدولة يدها على أراضي الموات واحكام راقبتها لغاية احتكارها، وهذا بعدما تزايد الطلب الخارجي على الحبوب. فجعل الدولة تقدم على استغلال الأراضي الموات عبر طرق قانونية من أجل اقتطاع جزء من فائض انتاج الأرياف عن طريق انتداب وسطاء لاستغلال الهناشير وهم بدورهم ينتدبون الخماسة واللزامة والقوامة³. ولئن

¹ - ابن أبي الضياف أحمد: المصدر السابق، ج2، ص 131.

² - هنية عبد الحميد: المرجع السابق، ص ص 164-165

³ - نفسه، ص ص 165-175

كانت نسبة الضرائب الفلاحية التقليدية قد خفت في غالب الأحيان إلا أن جملة المبالغ المستخلصة من الجباية كانت تنحو إلى التعاضم ولذلك لا ينبغي للمرء أن يندهش عندما يرى البوادي بما جبلت عليه من الفساد على حد تعبير مؤرخو ذلك العصر تتحين الوثبة كما في سنة 1717م، وأخطرها سنة 1728م¹.

ب/-الفتنة الباشية الحسينية (1728م -1740م):

تذكر المصادر المعاصرة للأحداث أن السبب الرئيسي لهذه الفتنة هو الخلاف الذي نشب بين حسين بن علي وابن أخيه علي، والمتمثل في توليه الباي ابنه الأكبر محمد علي رأس الأمحال وترشيحه لخلافته عوض عن ابن أخيه علي باشا. وكان الباي قد عينه وليا للعهد عندما لم يكن له أبناء، لكن بعدما رزق فيما بعد فضل تقديم ابنه الأكبر محمد المولود سنة 1711م، وفكر في أبعاد ابن أخيه محاولا إرضائه بلقب الباشا سنة 1725م². فلماذا أقدم الباي حسين بن علي على هذا التصرف؟

لقد حاول مؤرخو العهد الحسني تبرير هذا العمل فنجد حمودة بن عبد العزيز في مؤلفه الكتاب الباشي يحمل المسؤولية لأهل الحل والعقد أما محمد الصغير بن يوسف في كتابه المشرع الملكي يرى أن الأعيان وخواص الأمير هم المسؤولون عن اختيار الباي توليه ابنه ثم يأتي دور الباي لما استشار أحد خواصه لكنه لم يذكر اسمه³، أما أحمد بن أبي الضياف فيبدو أقرب إلى الواقع لما ذكر أن هناك عوامل دفعت بالباي إلى ايثار أبنائه بالسلطة كعاطفة الأبوة واتباعه للتقاليد الملكية القائمة على الوراثة. إن هذا التصرف الذي أقدم عليه الباي حسين بن علي أغضب علي باشا وجعله يفكر بالثورة عليه. وبالفعل في 20 فيفري من سنة 1728م، هرب إلى جبل وسلات شمال غربيا القيروان⁴. ويضيف بعض المؤرخين أسبابا أخرى ساهمت في إشعال النار الفتنة منها ما هو محلي ودولي.

¹- الشريف محمد الهادي: تاريخ تونس، المرجع السابق، ص 83.

²- هنية عبد الحميد: المرجع السابق، ص 178.

³- بن سليمان فاطمة: قراءة الأخباريين التونسيين للفتنة الباشية الحسينية وعملية بناء الذاكرة الرسمية، الكراسات التونسية، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد 164، تونس، 1993م، ص ص 64-66.

⁴- ابن أبي الضياف أحمد: المصدر السابق، ج2، ص ص 131-133.

- الظرفية الاقتصادية المحلية والدولية (المتوسطة) السيئة ابتداء من سنة 1720م حيث عرفت سنوات جذب مما نقص على أثرها الانتاج الفلاحي وهذا بدوره أدى إلى تقليص الصادرات وخاصة الحبوب، كما عرفت القرصنة نقصا كبيرا نتيجة معاهدات الصلح التي عقدتها تونس مع الامبراطورية النمساوية، بالإضافة إلى سياسة الباي الاستغلالية (المشترى مثلا) وجبايته المجحفة تجاه المجموعات الريفية بالخصوص¹.
ومهما يكن من الأمر فقد بدأت الانتفاضة في فيفري 1728 مانطلاقا من جبل وسلات ففي البداية انهزم الباي في موقعة برحال مارس 1728م ثم تجدد الصراع من جديد وانتهى بانتصار الباي وفرار علي باشا إلى الجزائر²، واستفحل الخلاف في تونس حيث انقسمت البلاد إلى معسكرين متنافرين يستبجح كل منها الآخر وهي الحزب الحسيني والحزب الباشي.

فأما الحزب الحسيني الذي يدافع عن الأمير ويؤيد دعوته فرجاله ينتمون إلى القيروان وسوسة والمنستير والمهدية والقلعة الكبرى وصفاقس وبعض القرى من الساحل ومن العربان من بني رزق ومكثر ودريد وقبائل جلاص وأولاد عون وأولاد سعيد والهمامة. أما الحزب الباشي الذي يؤيد دعوة علي باشا فرجاله ينتمون إلى مساكن وجمال والقلعة الصغرى وزاوية سوسة وجبل وسلات وقبائل ماجر والفراشيش وأولاد عيار وورتان.³لما وصل علي باشا الجزائر اعتقله صاحبها عبيد باشا إذ كانت له صداقة مع الحسين بن علي وبعد وفاته وولي مكانه إبراهيم باشا الذي أفرج عنه وحصل على مساعدته في حكم تونس⁴.

¹-هنية عبد الحميد: المرجع السابق، ص ص 179-180

²- ابن أبي الضياف أحمد: المصدر السابق، ج2، ص ص 135-137

³-نفسه، ص 140

⁴-الركباني عمر: خلاصة تاريخ تونس، ط3، مطبعة النهضة، تونس، 1365هـ-1946م، ص 64

خرجت محلة الجزائر في أبريل-ماي 1735م ولما بلغ الباي حسين الخبر خرج إليهم عسكره في 20 أوت 1735م، لكنه إنهزم في موقعة سمنجة قرب وادي مجردة،¹ وجرح في فخذه وهرب إلى القيروان ليلا ثم لحق به أبنائه فيما بعد.² أما علي باشا فقد دخل إلى الحاضرة وتلقى البيعة هناك وأصبح باي تونس بداية من 1735م، وتواصلت مقاومة حسين بن علي لابن أخيه إلى غاية 1740م، فخلال خمس سنوات شهدت البلاد حربا أهلية مضمّنية كانت نهايتها مقتل الباي حسين بن علي على يد يونس بن علي باشا³، الذي قام بحصار القيروان إلى أن وصل إلى عمه حسين بن علي فقال له: "أتخضب شيبى بدمي يا يونس وقد طهرت أباك في حجري " فأجابه يونس " الملك عقيم يا سيدي " وقام بقتله أما أبنائه فقد هربوا إلى الجزائر.⁴

ج/- عهد علي باشا (1735م-1756م):

حكم علي باشا البلاد بصرامة وحزم، وقد امتازت سياسته بمزيج من العنف والقتل وسلب أموال الأعيان والعلماء، وهذا الحكم استخلصناه من خلال قراءتنا للمصادر المعاصرة له. فعلى المستوى الداخلي انتهج سياسة قمعية ضد معارضيه وكثف استغلاله

¹- وادي مجردة: وهو أطول الأودية التي تجري في شمال البلاد التونسية، يأخذ منبعه قرب سوق أهراس غربي الجزائر ويصب في خليج تونس قرب بحيرة غار الملح. يبلغ طول مجردة 460 كلم منها 350 كلم بتونس ليكون بذلك أطول أنهار البلاد الدائمة الجريان. ينظر: السعداوي أحمد: تونس زمن حسين بن علي وعلي باشا (1705م-1756م)، وثائق أوقاف من العهد الحسيني، الشركة التونسية للنشر وتنمية فنون الرسم، تونس، 2015، ص 464.

²- ابن أبي الضياف أحمد: المصدر السابق، ج2، ص ص 138-140

³- هنية عبد الحميد: المرجع السابق، ص 179

⁴- العامري محمد الهادي: تاريخ المغرب العربي في 7 قرون بين الإزدهار والذبول، الشركة التونسية للتوزيع القصبية، تونس، 1974، ص 274.

للمجموعات المحلية فبالغ في استعماله للمشتري،¹ حتى أصبحت في عهده آفة اجتماعية حسب ما ذكره حمودة بن عبد العزيز في الكتاب الباشي.² لقد أدت هذه السياسة إلى ردود فعل عنيفة مثل انتفاضة الهمامة سنة 1750م وانتفاضة عسكر الإنكشارية في سنتي 1743م و1752م. أما على الصعيد الخارجي فلم تكن سياسته مخالفة للسياسة الداخلية في الحدة والعنف³ فقد استطاع أن يجبر قنصل فرنسا أن ينحني أمامه ويقبل يده وكان ذلك في 14 ماي 1740م.⁴ وفي صائفة 1741م افتك محطتي طبرقة⁵ وتماكرت الأولى (الرأس الأسود)⁶ من الجنوبيين والثانية من الفرنسيين حيث أرسل ابنه يونس في جيش كبير إلى مرسى طبرقة فقام بإخراجهم من المنطقة وأسر جاليتها الأجنبية بأكملها ثم اتجه إلى مركز كاب نيقرو أي تماكرت التجاري فأخذه من الفرنسيين ودمره⁷. أما علاقاته مع أتراك الجزائر فكانت جد متوترة منذ البداية نظرا لأنه لم يقبل الخضوع كليا إلى داي الجزائر إذ كان حريصا على استقلالية الأيالة وفي حدود 1745م توقف عن دفع الإتاوة له فجهز له داي الجزائر حملتين ضده أخفقت الأولى أمام أسوار الكاف سنة 1746م وأعاد الكرة سنة

¹-المشتري وصورته أن يعطى من جانب الدولة مال يوزع على الفلاحين من الرعايا على صورة السلم في القمح والشعير لكنه يقع بثمن بخص، لا يبلغ في بعض السنين القيمة أو أقل منه ويقتضي ذلك منهم عند الاقتضاء، ينظر: حمودة بن عبد العزيز: الكتاب الباشي، المخطوط، ص 351.

²-هنية عبد الحميد: المرجع السابق، ص 181

³-الشريف محمد الهادي: تاريخ تونس، المرجع السابق، ص ص 84-85.

⁴-Jules Ferry :La Tunisie Avant et de puis L'occupation Française. L' Librairie Coloniale Paris 1893 Tom1.P162

⁵- طبرقة: تقع على الساحل الشمالي التونسي، توجد بها بحيرتان، إحداهما مالحة والأخرى عذبة. ينظر إسماعيل العربي: المدن المغربية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص 214.

⁶-الرأس الأسود: ميناء صغير شرق طبرقة يمتد لأكثر من 06 أميال على شكل جزيرة طولها 800م وعرضها 100م، وارتفاعها حوالي 50م. للمزيد ينظر:

François Arnoulet: Les installation du comptoir corailleur du Capnegro au 18ème siècle in R-H-M. N°: 25-26, Tunis,1982,p7

⁷-الشريف محمد الهادي: تاريخ تونس، المرجع السابق، ص 85

1756م واستطاع دخول تونس واحتلالها ونهبها وقتل علي باشا ونصب مكانه محمد بن حسين بن علي.¹

إن الدارس لفترة علي باشا (1735م-1756م) يدرك أن أغلب المصادر المحلية تشين بسمعته وتنتعته بأبشع الأوصاف وتعتبر فترة حكمه فترة عرضية انتقالية ضمن العائلة الحسينية وفي المقابل تبرأ ساحة أبناء حسين بن علي ولا غرابة في ذلك لأن جميع هذه المصادر كتب في ظل الحكم الحسيني.

وعلى الرغم من هذه النظرة السيئة فإن حكمه لا يخلو من الايجابيات فقد كان علي باشا عالما شجاعا حازما مهيبا وقور المجلس أبي النفس، عالي الهمة، شديد على العمال، وكان يعظم العلماء ويتجاوز لهم ما لم يتجاوز لغيرهم. وكان يتحرى في اسناد الخطط الشرعية كما كان له شرح على كتاب التسهيل لابن مالك في النحو² وقد جلب مقدمة ابن خلدون من المغرب الأقصى سنة 1750م.³

ثانيا: مرحلة إعادة التأسيس والبناء والازدهار (1756م-1815م)

أ- استرجاع أبناء حسين بن علي الحكم:

ظل أبناء حسين بن علي في الجزائر يتحينون الفرص للعودة إلى تونس واسترجاع ملكهم وقد تحقق لهم مرادهم عندما قرر أتراك الجزائر تجهيز حملة ضد تونس عام 1756م تحت قيادة حسن باي قسنطينة من أجل قلب نظام الحكم وارجاع محمد وعلي ابني حسين بن علي إلى كرسي العرش، فوصلت الحملة إلى الكافي 06 جوان 1756م/1169هـ، واستولت عليها ثم سارت إلى الحاضرة،⁴ وهناك دارت معارك عديدة انتهت باحتلال المدينة في 05 ذي الحجة 1169هـ/ الموافق ل 31 أغسطس 1756م وتم القبض على علي باشا وعلي ابنه محمد ثم قطع رأسيهما. ومنذ تلك اللحظة انتقل الحكم

¹- هنية عبد الحميد: المرجع السابق، ص 183

²- ابن أبي الضياف أحمد: المصدر السابق، ج2، ص ص 147-130

³- هنية عبد الحميد: المرجع السابق، ص 183

⁴- ابن أبي الضياف أحمد: المصدر السابق، ج2، ص 181

في تونس إلى يد محمد النجل الأكبر لحسين بن علي على اعتبار أنه الوريث الشرعي للعرش التونسي الذي اغتصبه علي باشا المقتول¹.

ب/- عهد محمد باي بن حسين بن علي: (1756م-1759م)

بعد انتهاء الحرب ضد ابن عمه علي باشا تولى محمد باي الحكم ونظرا لما كان يتمتع به من حلم وحسن خلق استطاع أن يكسب ود رعيته ومحبتهم له حتى أطلقوا عليه لقب " الرشيد " وقد جمع بين اللين والشدّة في حكمه².

لم تكن الظروف التي تولى فيها محمد باي الحكم جيدة فقد كان وصوله مقابل غنائم تحصل عليها الجيش التركي الجزائري إثر استباحة مدينة تونس كما شهدت فترته محاولات عديدة لقتله في أكتوبر 1756م وفي أبريل وجوان وجويلية من سنة 1757م وفيفري 1759م وهذه المحاولات المتتالية تدل على الضعف الذي وصلت إليه الدولة الحسينية وفقدان هيبتها³.

وعلى الرغم من ذلك بدت الأمور تتبئ عن دخول عهد مزدهر. غير أن الوفاة المفاجئة لمحمد باي في 14 جمادى الثانية 1172هـ/ الموافق ل 11 فبراير 1759م نتيجة لإصابته بحمى داء الدق أربكت الأهالي وجعلتهم يخشون دخول البلاد في مآسي جديدة لكن لحسن الحظ جاءت الأحداث عكس ذلك، وقد ترك محمد باي بعد وفاته ابنين قاصرين هما إسماعيل ومحمود ولم يكن أكبرهما قد بلغ سن الرشد لتولي الحكم، فتولى عمه علي بن حسين الحكم تعهدا بترك الأمر لإسماعيل عند بلوغه سن الرشد⁴.

ج/- عهد علي باي بن حسين بن علي (1759م-1782م):

لقد كانت الفترة الأولى من حكمه أي من 1759م إلى 1763م عسيرة ففي بداية حكمه اندلعت ثورة قادها إسماعيل بن يونس حفيد علي باشا انطلاقا من جبل وسلات

¹-ألفونص روسو: الحوليات التونسية، ص 213

²-نفسه، ص 217

³-هنية عبد الحميد: المرجع السابق، ص 184

⁴-ألفونص روسو: المرجع السابق، ص 217

وتواصلت إلى عام 1762م، لكن بخبرة وحنكة علي باي استطاع اخمادها بسهولة ثم أقدم على خطوة أخرى تمثلت في اخلاء جبل وسلات من سكانه سنة 1762م وكانت هذه الخطوة بداية لحملة قمعية شملت جبل عمدون وبعض المناطق الأخرى.

يرى المؤرخ عبد الحميد هنية في كتابه تونس العثمانية أن هذا الاجراء يعتبر خطيرا لأنه أخلى منطقة بأسرها بمساحة تقدر 135 كلم² أهلة بالسكان وثرية بإنتاجها الفلاحي كما انتقد المؤلف المؤرخين المعاصرين لتلك الفترة للتعتيم الذي أضفوه على هذه العملية مبررين الاجراء الذي قام به علي باي وساق رأي كل من الصغير بن يونس وحمودة بن عبد العزيز،¹ وفي المقابل نسي أو تناسى رأي المؤرخ أحمد بن أبي الضياف الذي كان واقعا إلى حد بعيد عندما تطرق إلى حادثة اخلاء جبل وسلات من أهله إذ يقول " وكان له أن يدفع ضرره بالزام أهله المأسورين بتسهيل طرقه، أو بناء قلعة لحامية ومدافع بحيث لا يعدم المملكة نفع مزارعه وأشجاره، وازالة الضرر غير محصورة في الخلاء".² أما بخصوص الفترة من سنة 1765م إلى 1775م فقد شهدت البلاد التونسية رخاء اقتصادي لم تعرف البلاد له مثل،³ فما هي العوامل التي ساعدت على هذا الرخاء يأتري؟

فبالإضافة إلى الاستقرار السياسي والاجتماعي نذكر بعض العوامل:

- اتباع علي باي لسياسة اقتصادية حكيمة تمثلت بتقليصه لحجم الضرائب المستحقة على الفلاحين والغائه الضرائب المتأخرة من عهد أخيه.
- الانفتاح الدولي وتنامي النشاط التجاري العالمي مما انعكس ايجابا على تونس وأدى إلى ارتفاع مردود التجارة الخارجية.⁴
- ابطاله للمشتري واعادة تنظيم التزام الهناشير.

¹-هنية عبد الحميد: المرجع السابق، ص 184

²-ابن أبي الضياف أحمد: المصدر السابق، ج2، ص 199

³-هنية عبد الحميد: المرجع السابق، ص 187

⁴-Faucon Narcisse : la Tunisie avant et de puit L'Occupation Française Histoire et Colonisation T2 Libraire Colonial, Paris 1893 P 167

- وفرة الانتاج الفلاحي وسياسة تصدير الحبوب.

- النمو الديمغرافي الذي شهدته البلاد خلال هذه العشرية.¹

إن هذه الظروف الاقتصادية المواتية جعلت علي باي ينتهج سياسة على نفس القدر من المرونة والليبرالية حيث فتح الباب أمام أعيان البلاد للقيام بأنشطتهم الاقتصادية بأكثر حرية سواء مع البايك أو مع التجار الأجانب، كما ساعدته على هذه السياسة فئات اجتماعية لها تأثير في المجتمع من ذلك العلماء ورجال الدين والقياد واللزامة فأسسوا سلالات تتوارث الوظيفة أبا عن جد مثل عائلة بن عياد والجلولي والمرابط ونويرة وغيرها. ومن تلك الفئات أيضا شيوخ الأرياف وأعيانها ممن كسبهم النظام إلى صفه بشتى الطرق كالإعفاء من الضرائب والألقاب الشرفية.²

وعلى الصعيد الداخلي أيضا استطاع علي باي أن يخلق سياسة متوازنة بين القوى السياسية حيث عمل مع أبرز رجاله مصطفى خوجة وحمودة بن عبد العزيز على الارتباط بالرأسمالية الأوربية إذ كانت هذه الأخيرة مصالحتها تتكامل وتتعايش مع مصالح البايك وطبقة التجار التونسيين ومع كبار صانعي الشاشية³ وقد عمل أيضا على ايجاد توازن بين عناصر أجنبية (ماليك وأترك) وأخرى محلية أهلية مثل: محمد لصرم (باش كاتب) من القيروان أحمد بن عياد (خزندار).⁴

أما على الصعيد الخارجي فقد كانت العلاقات حسنة مع الدول الأوربية حيث أبرمت تونس جملة من المعاهدات منها معاهدة مع هولندا عام 1760م.⁵ أما مع فرنسا فكانت العلاقات حسنة في مجملها ما عدا تلك الحرب القصيرة التي لم تكن لها نتيجة تذكر والتي

¹-هنية عبد الحميد: المرجع السابق، ص ص 187-188

²-الشريف محمد الهادي: تاريخ تونس، المرجع السابق، ص 88

³-الشاشية: ج. شواشي، وهي غطاء رجالي للرأس يصنع في تونس في سوق الشواشين. وتزايد إنتاج الشاشية في تونس بعد قدوم الجالية الأندلسية إليها في بداية القرن السابع عشر، وكانت تصدرها بكثرة إلى البلاد الشرقية، وكانت سببا من أسباب ثراء المدينة. ينظر: السعداوي أحمد، المرجع السابق، ص 344.

⁴-هنية عبد الحميد: المرجع السابق، ص 193

⁵-Faucon Narcisse, Opcit P 167

اندلعت سنة 1769م،¹ وانتهت بتوقيع معاهدة صلح بينها سنة 1770م، رجعت بموجبها الأمور إلى سابق عهدها، أما علاقة البلاد التونسية بأتراك الجزائر فكانت علاقة الدولة التابعة والمهيمن عليها فبالإضافة إلى تحطيم حصن الكاف المنيع وظلت تونس تدفع أموالاً طائلة سنوياً إلى حدود سنة 1807م.²

وخلافاً لما تعهد به علي باي بالتخلي عن الحكم لأبناء شقيقه المتوفي محمد باي وهما "إسماعيل باي" و"محمود باي" طبقاً للمبدأ الذي يقضي يتولى الحكم للأمير الأكبر سناً،³ عمل علي باي على إعداد ابنه حمودة لولاية العهد منذ ولادته حسب الظاهر حيث لقبه بالباشا على حساب ابن عمه "محمود باي" وشقيقه "سليمان" الذي توفي في ديسمبر 1765م،⁴ ثم عينه مساعداً له في تيسير شؤون الولاية وعمره لا يتجاوز الثامنة عشرة لكن حمودة أثبت قدرته على ممارسة السلطة في كنف أبيه،⁵ فقد لعب دوراً بارزاً في توطيد العلاقات بين تونس وفرنسا بعد معاهدة الصلح سنة 1770م إلى جانب كل من الوزير الأول مصطفى خوجة والقنصل الفرنسي "دي سيزيو".⁶

وفي سنة 1774م عينه أبوه في منصب القضاء للنظر في القضايا المعروضة على محكمة الباي وفي سنة 1777م تولى بنفسه قيادة الجند فتميز عن جميع من تولوا قبله هذا المنصب.⁷

إن قدرة وكفاءة حمودة باشا في إدارة البلاد أهلته لمنصب باي تونس¹ فلما طعن علي باي في السن وبدأ المرض ينهكه طلب منه رجال دولته أن يولي ابنه حمودة من

¹ - الشريف محمد الهادي: تاريخ تونس، المرجع السابق، ص 87

² - هنية عبد الحميد: المرجع السابق، ص 194

³ - ألفونس روسو: المرجع السابق، ص ص 230-231.

⁴ - المستغامي محمد فوزي: بلاط باردو زمن حمودة باشا (1782-1814)، رسالة دكتوراه في التاريخ الحديث، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تونس، 2006-2007، ص 234

⁵ - السنوسي محمد بن عمر: تشييد الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان، تح: خليل محمد عساكر ومصطفى محمد مسعد، الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1965 ص 118

⁶ - Plantet Eugène: Correspondances de s Beys de Tunis et de s Consuls de France Avec la Cour (1577-1830), T3, Paris, P 4

⁷ - المستغامي محمد فوزي: المرجع السابق، ص 243

بعده وحذروه من وقوع خلاف بعده فبدأ علي باي بتقريب ابن أخيه محمود باي وهو المنافس لابنه علي العرش فأكرمه وزوجه من احدى بناته، واستطاع أن يقنعه بأهلية حمودة عليه بالولاية ثم طلب منه تقديم الولاية لابنه متحججا بأن ذلك هو مطلب أهل الحل والعقد وأنه أصبح غير قادر على مواجهة أتراك الجزائر بسبب عدم جاهزيته ومرضه فوافق " محمود باي " على عرض عمه فعند ذلك قدم ابنه نائبا عنه في مباشرة أمور المملكة ثم راسل الدولة العثمانية في عهد السلطان عبد الحميد خان بأن " الناس اتفقوا على تقديم ابني لكبر سني وضعف بدني" فجاءه الفرمان السلطاني بالموافقة وتمت البيعة في شهر محرم 1191هـ/ الموافق ل 09 فيفري 1777م، وظل حمودة باشا ينوب أباه في تسيير شؤون البلاد إلى أن وافاه الأجل في يوم السبت 13 جمادى الثانية 1196هـ/ الموافق ل 25 ماي 1782م.²

د/-عهد حمودة باشا الحسيني (1782م-1814م)

تعتبر فترة حكم حمودة باشا الحسيني العصر الذهبي للدولة الحسينية حيث عرفت الايالة تطورا وازدهارا في مختلف المجالات وهذا راجع إلى الاصلاحات التي أدخلها هذا الباي وإلى جملة الأهداف التي حققها فما أبرز هذه الاصلاحات؟ وما الأهداف التي تحققت في عهده؟ وقبل الاجابة عن هذه التساؤلات نعرض بعض الشيء من حياته وجوانب من شخصيته.

ولد حمودة باشا ليلة السبت 8 ديسمبر 1759م/ 1173م من أم جارية من القرج تسمى محبوبة³. اهتم به أبوه علي باشا اهتماما كبيرا ففي بداية حياته تربي كبقية أفراد العائلة على يد المربية " جنات العلجية " وفي سن الخامسة حفظ جزء من القرآن ثم تتلمذ

¹-ألفونص روسو: المرجع السابق، ص 290.

²- ابن أبي الضياف أحمد: المصدر السابق، ج2، ص ص 213-215

³-حمودة ابن عبد العزيز: الكتاب الباشي، تح: محمد ماضور، ج1، قسم السيرة، الدار التونسية للنشر، تونس، 1970،

على يد الامام الفقيه " أبو محمد حمودة باكير" فأخذ عنه الفقه الحنفي وعلم الكلام كما أخذ عن الكاتب حمودة بن عبد العزيز النحو والحساب والتاريخ، ولما بلغ سن الثامنة عشرة زوجه أبوه من ابنة المفتي " أبو عبد الله محمد بن أبي عبد الله الحاج حسين البارودي وأنجبت له عدة أولاد لكنهم توفوا جميعا وهم صغار.¹

وقد أثنت عليه المصادر والمراجع المحلية والأجنبية على حد سواء وأطنبت في مدحه، فقد إمتاز حمودة باشابشدة تعلقه بالحياة العسكرية وميله للمشاركة فيها مما أكسبه صفة الشجاعة والأقدام ومن جهة أخرى أظهرت فيه صفة القساوة والفظاظة كما عرف أثناء حكمه بالعدل والنباهة والشهامة وعزة النفس.²

لقد إستطاع حمودة باشاخلال فترة حكمه تحقيق جملة من الأهداف منها تعزيز أركان السلطة المركزية، وذلك عن طريق حسم مسألة الشرعية، فحموده باشا لم يكن الوريث الشرعي للحكم، حسب القاعدة التي وضعها المؤسس حسين بن علي، لذا نراه يحاول كسب ود الوريث الشرعي محمود بن محمد باي، فأغذق عليه النعم وأصبح يحتل مكانة مرموقة عنده، وصار يحصل على أعلى راتبته مثل شقيقه اسماعيل 350 ريال.³

كما عمد حمودة باشا على تكوين فريق من المساعدين المقتردين من أجل تطبيق سياسته، فجدد الثقة في الوزير مصطفى خوجة لخبرته ووفائه، وكذلك في حمودة بن عبد العزيز.⁴

هذا وقد أدخل عناصر شابة في فريقه فقرب مملوكه يوسف إليه وقلده خطة صاحب الطابع،¹ بالإضافة الى الكاتب محمد الأصرم، المستشار رجب بونمرّة، حميدة بن عياد،² ومترجمه ماريانو ستينكا.³

¹ ابن أبي الضياف أحمد: اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، المجلد 02، ج3، تح: لجنة من وزارة الشؤون الثقافية، الدار العربية للكتاب، تونس، 1999م، ص ص 15-21.

² رشاد الإمام: سياسة حمودة باشا في تونس (1782م-1814م)، منشورات الجامعة التونسية، 1980م، ص ص 89-90

³ المستغامي محمد فوزي: المرجع السابق، ص ص 55-56

⁴ حسن العنابي: حمودة باشا أوج السلطة الحسينية، تونس عبر التاريخ، ج2، من العهد الإسلامي إلى حركات الإصلاح، مطبعة سناكت، مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، تونس، 2007، ص 228

أما بخصوص تقوية الاقتصاد وتطويره لمواكبة الاقتصاد المتوسطي، فقد تمكن الباي من تنشيط السوق الداخلية وتشجيع الصناعة المحلية من أجل بناء اقتصاد قوي⁴، ففي الميدان التجاري اتخذ الباي عدة اجراءات من شأنها تشجيع التجار التونسيين⁵، فقدم لهم الرخص لتصدير الحبوب والزيت وأعفاهم من دفع السراج⁶، وبهذا كثر عددهم حتى وصلوا المائة وخمسون تاجرا⁷.

وفي الميدان العسكري قام بتطوير القدرات العسكرية للبلاد من خلال اهتمامه بالجيش والأسطول الحربي حيث اعتنى بالتحصينات وطور انتاج الأسلحة والمعدات الحربية ورفع من عدد الجنود⁸.

وقد استطاع حمودة باشا التصدي للأخطار الخارجية التي تواجه الايالة، ففي سنة 1794م، وكردّ فعل على احتلال القائد علي برغل مدينة جربة، وضمها إلى ايالة طرابلس قام الباي بحملة عسكرية تحت قيادة وزيره مصطفى خوجة، استطاع من خلالها استرداد المدينة⁹ والتوغل في التراب الليبي والاستيلاء على مدينة طرابلس وطرده علي برغل واسترجاع علي القرمنلي الى عرشه من جديد¹⁰.

¹- Frank Louis et Marcel Jean Joseph : Histoire de Tunis ,Précédé D'une de scription de Cette Régence Par le Dr.Louis Frank, Tounis Édition, Bouslama (2éme Edition)1979.p 66

²-ابن ابي الضياف أحمد: المصدر السابق، ج3، ص 43

³-Plantet Eugène: Opcite, T3,p413

⁴- حسن العنابي: المرجع السابق، ص 230

⁵- رشاد الأمام: سياسة حمودة باشا الحسيني في المجال التجاري، م.ت.م، العدد02، جويلية 1974م، ص 84

⁶- ابن ابي الضياف أحمد: المصدر السابق، ج7، ص 96

⁷-Frank Louis et Marcel Jean Joseph : Opcite, P82

⁸-حسن العنابي: المرجع السابق، ص 232

⁹-ابن ابي الضياف أحمد: المصدر السابق، ج3، ص ص 24-25

¹⁰- بن اسماعيل عمر علي: انهيار حكم الأسرة القرمانيّة في ليبيا -1835م، مكتبة الفرجاني، طرابلس، ليبيا 1966،

ص ص 57-58

لئن كان إعلان الحرب على علي برغل مسألة عرضية أملت ظروف معينة سرعان ما تمت معالجتها فإن الأمر قد اختلف مع دايات الجزائر فمئذ مساعدتهم لمحمد الرشيد وأخيه علي على استرداد الحكم اكتسبوا سطوة ونفوذاً على بآيات تونس لم يكن من السهل وضع حد لها.¹

لقد واصل حمودة باي مثل أسلافه في تقديم الهدية -الضريبة- إلى الجزائر وكذا تقديم الخدمات المعتادة من استضافة الجزائريين و اتحافهم بالهدايا² وبيع حيواناتهم في الأسواق التونسية والاستجابة لطلباتهم ورغباتهم، وتحمل ما يصدر عنهم من تجاوزات في تونس أو ضد الأجانب ومسايرة مواقف حكام الجزائر في بعض القضايا الخارجية،³ ولكنه كان في نفس الوقت يجد في استكمال قوته العسكرية وتحسين الوضعية الدفاعية لبلاده، يذكر صاحب الاتحاف أن حمودة باشا " لما أحس من قوته على دفع الضيم صار يتعلل على أهل الجزائر، وأخذ في ازالة ما اعتدوه من التعدي،⁴ وقد كانت مطالبة داي الجزائر باي تونس ببيع عدد من البقر الجزائري على الطريقة المعهودة خلال سنة 1806م، سببا في اعلان القطيعة مع الجزائر وإعلان الحرب.

ففي 25 ديسمبر 1806م⁵، أرسل حمودة باشا حملة عسكرية الى الجزائر، فوصلت مدينة قسنطينة يوم 24 جانفي 1807م، وقامت بمحاصرتها، واستمر الحصار الى أواخر شهر أفريل من نفس السنة⁶، وانتهى هذا الحصار بهزيمة الجيش التونسي في 03 ماي 1807م⁷.

¹- حسن العنابي: المرجع السابق، ص 235

²- أرشيف دار البايتونس: الدفتر 227

³- رسائل القنصل الفرنسي دوفواز الى حكومته سنة 1799، المتواجدة في كتاب بلانتي، ج3، الصفحة 387 والصفحة 453 والصفحة 371.

⁴- ابن أبي الضياف أحمد: المصدر السابق، المجلد 02، ج3، ص 40.

⁵- أما ابن أبي الضياف أحمد: فيذكر أن الحملة خرجت من تونس يوم 24 جانفي 1807، وبالتالي لا يتفق مع ما ذكره القناصل الأوروبيون في مراسلتهم إلى حكوماتهم.

⁶- رشاد الأمام: سياسة حمودة باشا في تونس، المرجع السابق، ص 395

⁷- ابن أبي الضياف أحمد: المصدر السابق، ج3، ص 42

وكادت هذه الهزيمة أن تقضي إلى احتلال البلاد من جديد لولا حزم الباي الذي جهز في ظرف أربعين يوماً محلة أخرى قوامها ما يقارب الأربعين ألف مقاتل.¹ وقرر الذهاب بنفسه على رأس الجيش في حملة ثانية على الجزائر غير أن مستشاره رجب بونمرّة عارضه في ذلك الأمر وأقنعه بوجود البقاء في تونس عندها اختار الباي لقيادته يوسف صاحب الطابع ومنحه التفويض في اتخاذ القرار المناسب.

التقى الجيشان قرب الحدود الجزائرية التونسية يوم 13 جويلية 1807م، ووقع القتال وكان الانتصار هذه المرة حليف التونسيين.²

وبهذا الانتصار قضى حمودة باشا على أكبر خطر خارجي كان يهدده ولكن في الحقيقة لم يكن في معزل عن خطر داخلي تعذر حله والمتمثل في تفاقم سطوة الجند التركي، ففي بداية الأمر كانت سياسة حمودة باشا تركز على تقوية الجيش وزيادة عدد أفرادها حيث وصل عدد الترك 9 آلاف مقاتل سنة 1811م، وكان هدف الباي من ذلك امتلاك جيش أقوى من جيش الجزائر.³

لكن الجند لم يزد لهم هذا الاهتمام الا شعورا بالرفعة فمارسوا والحقد فقد مارسوا الاستبداد والنهب والاعتداء بين السكان،⁴ مما جعل الباي يقدم على نزع أسلحتهم رتين خلال العشر سنوات من حكمه (1782م-1792م)، وقد ظهر للباي هشاشة ولائهم له من خلال حرب طرابلس الغرب سنة 1794م وحرب الجزائر الأولى 1807م، وعلى الرغم من ذلك لم يقرر الباي القضاء عليهم إلا عندما أعلن هؤلاء الثورة عليه سنة 1811م.

وفي ليلة 30 أوت 1811م اجتمع عدد كبير من جند الترك في قلعة القصبة المشرفة على العاصمة وانتخبوا واحدا منهم ليصبح دأياً على تونس بعد مقتل حمودة باشا وعينوا وزراءه حتى يصبح حكم البلاد بأيديهم.⁵

¹- حسن العنابي: المرجع السابق، ج2، ص 235

²- ابن ابي الضياف أحمد: المصدر السابق، ج3، ص ص 42-49

³-رشاد الامام: سياسة حمودة باشا، المرجع السابق، ص 190

⁴- حسن العنابي: ج2، المرجع السابق، ص 236

⁵-رشاد الامام: سياسة حمودة باشا، المرجع السابق، ص ص 193-199

أما رد فعل الباي فقد كان عنيفا حيث أمر بالقضاء على هذه الثورة في مهدها وبالفعل فقد تم الحاق الهزيمة بالثائرين وارغامهم على الهروب من المدينة ثم لاحقهم إلى الحدود الجزائرية أين تم القضاء عليهم نهائيا هناك وبالقضاء على هذه الفتنة التي أبيد فيها معظم أفراد جند الترك تخلصت تونس من أخطر أداة مجرمة كانت بالبلاد.¹ بعد دراستنا إلى الأهداف التي حققها الباي حمودة باشا وإلى الأليات المستعملة في ذلك يتساءل الباحث عن العوامل التي ساعدت هذا الباي على تحقيق أهدافه: وتكمن العوامل المساعدة في نظرنا الى استغلال حمودة باشا للوضع السياسي للدول الأوروبية، وكذا ضعف الدولة العثمانية.

فخلال فترة حكمه (1782م-1814م) عرف نشاط القرصنة تطورا كبيرا مستغلا الوضع السياسي المضطرب الذي شهدته أوروبا والتمثل في الحروب النابليونية². أما الدولة العثمانية فقد كان وضعها الخارجي يسير الى الانهيار، فمع نهاية القرن 18م، أصبح في موقع الدفاع بدل الهجوم، أما داخليا فقد فقدت قوتها وهيبتها على أقاليمها الشاسعة وسارت في طريق الضعف والانحطاط على غرار وضعها في أوروبا. وفي المقابل كان حمودة باشا مطلعاً على كل ما يجري من أحداث للدولة العثمانية داخليا وخارجيا عن طريق وكيله عبد الرحمن بدر الدين الذي كان يتردد بين الإسكندرية وإسطنبول ويبعث له التقارير والرسائل الشاملة لكل أحداث المنطقة وبصفة مستمرة بالإضافة إلى سفرائه ومبعوثيه والتجار وبعض قناصل الدول الأوروبية المعتمدين لدى الحكومة التونسية. فالوضع السيء للدولة العثمانية إذا ساهم في تكوين سياسة حمودة باشا الداخلية والخارجية³.

وفاة حمودة باشا وتولية أخيه عثمان باي: (1814م)

¹- نفسه، ص 201

²- هنية عبد الحميد: المرجع السابق، ص 200

³- رشاد الامام: سياسة حمودة باشا، المرجع السابق، ص ص 141-149

توفي حمودة باشا يوم الجمعة بعد الغروب في آخر يوم من شهر رمضان عام 1229هـ/ 16 سبتمبر 1813م بعدما أتم صومه.¹ وقد اختلف المؤرخون حول تاريخ وفاته، فالتاريخ المذكور يتفق عليه كل من ابن أبي الضياف وغيرهم أما البعض الآخر فيرجع تاريخ وفاته إلى سنة 1814م، وقد ذكر أ.بلانتي في الرسالة التي بعث بها السيد سيالف المكلف بأعمال القنصلية الفرنسية بتونس يخبر بها حكومته بوفاة حمودة باشا في سبتمبر 1814م.² إضافة إلى هذا فقد وقع اختلاف بين المؤرخين حول سبب وفاة الباي فألفونص روسو، يرجع السبب إلى السم الذي دس له في فنجان القهوة واتهم سليمان. شقيق الباي بأنه تأمر على أخيه لتكون له الخلافة³ وفي الرسالة الثانية التي بعث بها السيد: سيالف أشار إلا أن سبب الوفاة هو استنشاق حمودة باشا لمسحوق من التبغ ممزوج بالسم قدمه له أمينه العسكري " مريانوستكا" (Marimostihca)⁴ وقد نفى أحمد بن أبي الضياف كل هذه الأسباب حيث ذكر أن السبب الحقيقي لوفاته كان مرض القلب الذي عانى منه طيلة فترة حكمه، دون أن يعلم الناس عن مرضه، لذا كان خبر وفاته مفاجيء للجميع بقوله "...هي تهمة يبعدها العقل وتحيلها العادة، لأنه مبتلى بمرض مصاب به في القلب.⁵

وفي ليلة وفاة حمودة باشا بويح أخيه عثمان باي من طرف كبار الدولة وهم يوسف صاحب الطابع، الشيخ المفتي أبو العباس، أحمد البارودي، الوزير محمد العربي زروق، الوزير محمد الأصرم، أحمد بن عمار، حميدة بن عياد، وغيرهم من أهل الحل والعقد البيعة الخاصة ومن الغد بايعه الناس البيعة العامة وقد كان ابن عمه محمود بن محمد الرشيد حاضرا أثناء البيعة الخاصة وهو المرشح الحقيقي للولاية على العادة الجارية في البيت الحسيني من تقديم الأكبر فالأكبر سنا. لكن رجال الدولة وعلى رأسهم يوسف صاحب الطابع لم يحترموا هذه القاعدة في الحكم حيث قال " الميت يرثه أخوه " وفي هذا

¹- ابن ابي الضياف أحمد: المصدر السابق، ج3، ص88

²Plantet Eugène: T3,Opcit , P 524.

³-ألفونص روسو: المصدر السابق، ص 302

⁴Plantet Eugène: T3,Opcit, P 525.

⁵-ابن أبي الضياف أحمد: المصدر السابق، المجلد 02، ج3، ص 98.

الصدد يقول ابن أبي الضياف " واستكان ابن عمه أبو الثناء محمود باي، ولم يدر سر العدول عنه، مع سنه وعدم كفاءة من قدموه فصبر على داء دفين، وبقي يتربص امكان الفرصة، ولم يكن لمن قدموه من خلال المقتضية للإمارة سوى أنه ابن علي باي".

لم يكن الباي عثمان صاحب سياسة ولم تكن له الكفاءة المؤهلة لذلك نراه يقدم الوزير يوسف صاحب الطابع لخطة خزندار بعد أن أبطلها أخوه حمودة باشا.¹ وغير زي لباسه ولباس رجال الدولة، ولم يعامل منافسه في الحكم حمود باي مثل أخيه حيث غفل عن ابن عمه وأهمله، ورأه مثل صغار البيت ولم يخصه بمزيه، بل أخرجه من دار سكناه التي هي دار علي باي المعروفة في باردو بالدار الكبيرة.

في غرة محرم سنة 1230هـ/ الاربعاء 14 ديسمبر 1814م، مرض عثمان باي فأراد رجال دولته تولية ابنه صالح باي كولي للعهد لكنهم وجدوا معارضة² من طرف الوزير يوسف صاحب الطابع لذلك اشتد الخلاف بين رجال الدولة فانتهز محمود باي الفرصة وهجم ليلا مع أبنائه على عثمان باي وقتله في فراشه ليلة الاربعاء 9 محرم 1230هـ، (21 ديسمبر 1814م) وبويع في تلك الليلة البيعة الخاصة وفي الغد البيعة العامة.³

ثالثا: مرحلة ظهور الأزمة ومواجهة التحديات (محاولات الاصلاح)(1815م/1881م)

وتمتد هذه المرحلة من 1815م إلى غاية 1881م ويمكن نعتها بفترة الأزمة حسب تعبير الباحث عبد الحميد هنية،⁴ أما المؤرخ محمد الهادي الشريف فأطلق عليها القرن العصيب⁵ وقد اعتبرها البعض الآخر بقرن التراجع والأزمات.

لقد شهدت الفترة من (1815م-1830م) انقلاب موازين القوى لصالح الدول الأوربية التي تمكنت عن طريق سياسة المدفعية بداية من حملة اللورد اكسموث على

¹-ابن أبي الضياف أحمد: المصدر السابق، المجلد 02، ج3، ص ص 91-92

²-نفسه، ص ص 94-98

³-نفسه، ج3، ص 97

⁴-عبد الحميد هنية: المرجع السابق، ص 207

⁵-الشريف محمد الهادي: تاريخ تونس، المرجع السابق، ص 96

بلدان المغرب العربي سنة 1816م ثم احتلال الجزائر 1830م من فرض تفوقها العسكري والاقتصادي.¹ سنة 1815م تشهد على التغيير الحاصل في ميزان القوى بين أوروبا المسيحية والبلاد التونسية فإلى حدود ذلك التاريخ ظل البايلك يمثل حاجزا بين أوروبا والمجتمع التونسي،² أو كوسيط بين دواخل البلاد والرأسمالية المركنتلية لكن بعد 1815م ستجبر الطبقة الحاكمة عن التخلي عن هذه الوساطة لصالح التجار الأوربيين في مرحلة أولى ثم إلى الاستعمار الفرنسي في مرحلة لاحقة ومن هذا المنطلق يمكن تقسيم هذه المرحلة العصبية إلى فترتين.

أ/- الفترة الأولى (1815م-1830م) بداية ظهور الأزمة:

منذ سنة 1815 أصبحت البلاد تواجه هجوما اقتصاديا وعسكريا أوربيا خانقا فقد بدأت أوروبا حملتها ضد بلدان أفريقيا الشمالية بعد 1815م من أجل الحد من نشاط القرصنة،³ ففي 12 أبريل 1816م قدم اللورد اكس ماوث على رأس أسطول حربي بريطاني كمفوض من قبل الدول الأوربية لوضع حد للقرصنة وإطلاق الأسرى وفي 21 سبتمبر 1819م جاء الأسطول البريطاني الفرنسي ليعلم البايلك بلهجة حادة مقررات مؤتمر اكس لا شابيل المنعقد سنة 1818م القاضية بوضع حد نهائي للقرصنة.⁴ لقد نتج عن هذه الحملات الأوربية توقف نشاط القرصنة وبالتالي تقلص موارد الطبقة الحاكمة كما نشير إلى أنه وقع تغيير حقيقي يتمثل في الشروط الجديدة للتبادل التجاري مع أوروبا وهذا التغيير كانت نتائجه وخيمة على البلاد فالالاتصال المباشر بين الرأسمالية والمجتمع التقليدي أدى إلى انحطاط في قيمة المنتوجات التي تصدرها البلاد التونسية وبالتالي انتقال الأرباح للتجار الأوربيين وحدوث تضخم في الواردات محدثا خلا

¹- بن الطاهر جمال: الاقتصاد والمجتمع في القرن التاسع عشر، تونس عبر التاريخ، ج2، مركز الدراسات والبحوث

الإقتصادية والاجتماعية، مطبعة سنيباكت، تونس، 2007، ص 265

²- الشريف محمد الهادي: تاريخ تونس، المرجع السابق، ص 95

³- عبد الحميد هنية: المرجع السابق، ص 208

⁴- ألفونس روسو: المرجع السابق، ص ص 317-334

في الميزان التجاري ونزيف نقدي وهبوط في العملة المحلية.¹ أما على المستوى الداخلي فقد عرفت البلاد بداية من 1814م إلى 1830م سلسلة طويلة من سنوات الجفاف كما ظهر وباء الطاعون سنة 1818م الذي أدى إلى فراغ ديمغرافي انعكس على الإنتاج الفلاحي الذي عرف بدوره ركودا كبيرا.²

ب/- الفترة الثانية (1830م-1881م) استفحال الأزمة ومواجهة التحديات:

بعد سنة 1830م أصبحت السلطة المركزية تواجه تحديات وصعوبات كان مصدرها من أوروبا ومن الدولة العثمانية، بالنسبة لأوربا تمثلت في احتلال الجزائر 1830م، ثم دينة قسنطينة 1837م وكذا الحملات العسكرية البحرية للدويلات الايطالية على البلاد التونسية بالإضافة إلى فرض بنود معاهدة 8 أوت 1830م التي بمقتضاها استولى الإفرنج على منافع المملكة، أما الامبراطورية العثمانية فأصبح الباي يواجه ضغوطات الباب العالي خاصة بعد انتهاج الدولة العثمانية سياسة الاصلاحات حيث ضمت الولاية الطرابلسية بالقوة سنة 1835م، ثم حاولت اخضاع الايالة التونسية كذلك لكن التنافس الأوربي على الايالة حال دون ذلك حيث عملت فرنسا على دعم استقلالية البلاد التونسية.³

إن التحركات الأوربية والعثمانية أوجدت شعورا بالخوف وعدم الاستقرار لدى الطبقة الحاكمة في تونس مما جعلها تتخذ اجراءات من شأنها تطوير وسائل نفوذها في الداخل وتدعيم استقلالها في الخارج وهو ما عبر عنه المؤرخون بالإصلاحات.⁴ ولقد شملت هذه الاصلاحات جميع الميادين العسكرية والادارية والصناعية والدستورية وغيرها. إلا أنها لم تحقق الهدف المرجو منها. وسرعان ما استدانّت الدولة من السوق العالمية قروضا لم تكن تعد بالفائدة إلا على المقرضين والوسطاء وزادت الأزمة تعقيدا فسارع البايك إلى هاوية الافلاس ووضعت أحواله تحت وصاية اللجنة المالية العالمية

¹- الشريف محمد الهادي: تاريخ تونس...، المرجع السابق، ص 96

²- عبد الحميد هنية: المرجع السابق، ص 209

³- نفسه، ص ص 216-217

⁴- عبد الحميد هنية: المرجع السابق، ص 217

التي أنشأت عام 1869م¹ وكانت النتيجة أن فقدت الدولة حرية التصرف في شؤونها المالية وبالتالي فقدان استقلالها السياسي.² إلا أن الأوضاع في أوروبا سنة 1870م وبعض السنوات ذات المحاصيل الفلاحية الطيبة وعهد الوزير المصلح خير الدين (1873م-1877م) كلها عوامل أمهلت النظام التونسي بضع سنوات قبل سقوطه سنة 1881م.³

1- عهد محمود باي (1815م-1824م):

ولد هذا الباي في ذي القعدة 1170هـ/ جويلية-أوت 1757م⁴ وهو تاريخ يختلف عن ابن أبي الضياف الذي يقدمه على أنه ولد يوم السبت 22 شوال من نفس السنة،⁵ وأمه جارية تدعى عائشة وتذكرها الدفاتر باسم " جارية سيدنا " ربما يعود ذلك إلى كونها الزوجة الخامسة للباي محمد الرشيد⁶، ببيع البيعة العامة يوم 21 ديسمبر 1814م الموافق ل 09 محرم 1230هـ وأقر وزراء ابن عمه حمودة باشا ورجال دولته على مناصبهم ومراتبهم.⁷

تولى يوسف صاحب الطابع خطة الوزارة الأولى في بداية عهد محمود باي ووضع فيه الباي ثقته وقلده سلطة البلاد الحقيقية لما له من حسن الرأي ومعرفة أحوال البلاد.⁸ وبدأ صاحب الطابع إدارة شؤون وزارته بكفاءة وإخلاص ولكن اغتيال أهل السوء من نجاحه بسبب اعتماد الباي عليه حرك فيهم الغيرة فسدوا له الدسائس إلى ان قتل غيلة في قصر الباي يوم 23 جانفي سنة 1815م.⁹ وخلف يوسف صاحب الطابع في منصب الوزير الأول سليمان كاهية ثم حل محله حسين باشي المملوك الذي حضي ذلك الوقت بحضوة

1- الشريف محمد الهادي: تاريخ تونس...، المرجع السابق، ص 97

2- عبد الحميد هنية: المرجع السابق، ص 228

3- الشريف محمد الهادي: تاريخ تونس...، المرجع السابق، ص 97

4- أ.و.ت: الدفتر رقم 85 مصاريف مختلفة بين 1755م-1758م فترة محمد الرشيد، ص 14

5- ابن أبي الضياف أحمد: المصدر السابق، المجلد 02، ج3، ص 105

6- محمد فوزي المستغامي: المرجع السابق، ص 55

7- ابن أبي الضياف أحمد: المصدر السابق، المجلد 02، ج3، ص 105

8- رشاد الامام: سياسة حمودة باشا، المرجع السابق، ص 125

9- Zmerli (S): Une Figure Aubllée ،Youssef SohebEt – Tabaa ،RT ،N°:21 (1935) Pp 45-50

متزايدة في قصر باردو¹. وفي شتاء 1815م سافر بالمحلة أبو عبد الله حسين باي إلى بلاد الحريد ثم سافر بمحلة الصيف ثم أعاد السفر بمحلة الشتاء 1816م، وتنافس أهل النواحي التي مر بها في مهاداته وفي 13 جوان 1816م تخلى عن السفر بالمحال إلى أخيه مصطفى وخلع عليه أبوه الولاية وذلك بحضور الوزير محمد العربي زروق ورجال دولته من الكواهي والأغوات، وعقد العزم على مؤازرة أبيه ومساعدته على تسيير المملكة.²

وفي عهده تزامن وصول اللورد اكسماوث إلى مرسى حلق الوادي في 12 أبريل سنة 1816م³ زيارة زوجة سلطان الانجليز التي استقبلها الباي محمود أحسن استقبال على مقتضى مقامها وخلال هذه الزيارة افتدت من مالها سائر من في الحاضرة من الأسرى وبذلت في ذلك أموالا طائلة حتى لم يبقى في المملكة إلا من اختار البقاء في المقام بها برضاه.⁴ إلا أن ألفونسو وسويغزو ذلك إلى تهديدات اللورد اكسماوث بعد حملته على دول شمال إفريقيا⁵.

لقد كان للبخ والاسراف الذي تكبدته ميزانية الولاية خلال استقبال ملكة انجلترا وكذا حملة اللورد اكسماوث وما ترتب عنها من اذلال مخز للولاية الاثر الكبير في تصاعد نقمة التونسيين وازدياد سخط مرتزقة الترك الإنكشاريين ومما زاد الطين بلة نقمة واستياء قبائل دواخل البلاد جراء الضرائب الباهظة التي أثقلت كواهلهم حتى اضطرت بعض القبائل إلى النزوح إلى طرابلس والجزائر.⁶ عندئذ صار احتمال قيام ثورة على السلطة الحاكمة أمرا مفروغا منه، وقد اندلعت هذه الثورة بالفعل في 4 جمادي الثانية 1231هـ/ 1 ماي 1816م حيث اجتمع عسكر الترك الإنكشاري ليلا بحانوت في أعلى سوق الترك تحت قيادة أربعة من كبار الضباط " الحوانب " يرأسهم الضابط " دالي باش " وجمعوا اهل

¹-الفونص روسو: المرجع السابق، ص 315.

²-ابن أبي الضياف أحمد: المصدر السابق، المجلد 02، ج3، ص ص 112-113

³-ألفونسو روسو: المرجع السابق، ص 318

⁴-ابن أبي الضياف أحمد: المصدر السابق، المجلد 02، ج3، ص ص 113-114

⁵-ألفونسو روسو: المرجع السابق، ص ص 319-320.

⁶-نفسه، ص 323

المجلس والعلماء وأصحاب الخطط ووجوه البلاد¹ مطالبين بولاية اسماعيل باي وابن أخيه مصطفى باي ورفعوا طلبهم هذا إلى السلطان العثماني². إلا أن هذه الثورة لم يكتب لها النجاح بسبب رفض كل اسماعيل باي وابن أخيه مصطفى التعاون مع المتمردين³، وبعد هذه الثورة استكثر الباي محمود من جند زوارة وجعل لهم الرتب واعتنى بهم واعتضد بشوكتهم⁴.

وفي عهده قتل الوزير محمد العربي زروق خردار، وكان سبب مقتله أنه انفرد بأمر المملكة وازدرى بأولاد الباي على حد تعبیر ابن أبي الضياف واختار حسين باي صهره حسين خوجة باش مملوك وأعطاه حرية التصرف في مشاركة العمال على الأقاليم وبذلك اشتدت المنافسة بينه وبين الوزير زروق وكثرت الوشائيات، فأراد حسين خوجة الانتقام وأخذ الثأر لسيدته يوسف صاحب الطابع. فأوشى به إلى حسين باي الذي أمر بإلقاء القبض عليه ثم قتله يوم 29 أكتوبر 1822م / 13 صفر 1238هـ ودفن في مقبرة الجلاز^{5,6}.

يتحدث ألفونص روسو عن تمرد وقع في المناطق الشرقية من الإيالة في ربيع 1819م وأن الباي أرسل محلة عسكرية بقيادة صهره سليمان كاهية الذي استطاع خلال شهرين من اخماد ذلك التمرد ويذكر روسو أن التمرد سببه حالة القحط وفداحة الجباية وقد لقي تأييدا من باشا طرابلس يوسف القرمانلي في حين أن أبي الضياف لم يذكر لنا هذا التمرد⁷.

¹ محمد الباجي المسعودي: المصدر السابق، ص 266

² ابن أبي الضياف أحمد: المصدر السابق، المجلد 02، ج 3 ص ص 116-117.

³ للمزيد حول ثورة الجند ينظر: ألفونص روسو، ص ص 323-327 وكذلك ابن أبي الضياف أحمد: ج 3، ص ص 115-121

⁴ ابن أبي الضياف أحمد: المصدر السابق، المجلد 02، ج 3، ص 121

⁵ جبل الجلاز: ينتصب هذا الجبل الصغير الذي لا يتجاوز ارتفاعه 88 متر، على ضفاف البحيرة جنوب مدينة تونس، قريبا من باب عليوة. وتمتد فوقه مقبرة تونس الكبرى التي تحمل نفس الاسم، وينتصب المقام الشاذلي والمغارة الشاذلية فوق إحدى قممه، وعلى القمة القبلية المقابلة يرتفع حصن بناه حمودة باشا يسمى برج سيدي علي ريس. ينظر: السعداوي أحمد، المرجع السابق، ص 425.

⁶ ابن أبي الضياف أحمد: المصدر السابق، المجلد 02، ج 3، ص ص 138-139

⁷ ألفونص روسو: المرجع السابق، ص ص 332-333

كان محمود بآيا غرا كريما حلما ذا همة عالية ونفس ملوكية رقيق القلب، سخي الطبع، وله من المباني الأنيقة البيت المعروف ببيت البلار في قصر باردو، وقد فتح هذا الباي باب السرف في الترف من الملابس والحلل وغير ذلك مما يتعلق بالشهوات الملوكية غافلا عما يقتضيه حال المملكة¹، وفي 1824م اشتد به مرض النقرس المصاحب له فلزم الفراش حتى توفي في ليلة الأحد 28 رجب 1239هـ / 23 مارس 1824م.²

2- عهد حسين باي (1824م-1835م):

ولد هذا الباي يوم الخميس 12 ربيع الثاني 1198هـ / 04 مارس 1784م بويج صبيحة يوم الأحد 28 رجب 1239هـ / 28 مارس 1824م وكان أخوه مصطفى يومئذ في بلاد الجريد لخالص الجباية.³ وقد كان حسين باي في الحقيقة استحوذ على مقاليد الحكم الفعلي في حياة والده حيث كان يصرف أمور الايالة باسمه، وقد احتفظ بنفس رجال الحكومة السابقة⁴ وفي عهده توفي آخر ذرية علي باشا واسمه يوسف وكان ذلك في يوم الثلاثاء 19 أكتوبر 1824م / 25 صفر 1240هـ،⁵ وفي 21 ديسمبر من نفس السنة فر علي بن مصطفى إلى جبل باجة وادعى أنه حفيد يونس ابن الأمير علي باشا، فبعث له محلة عسكرية تحت قيادة أخيه مصطفى باي في 24 جويلية 1825م، واستطاع أن يخمد ثورته في وقت قصير.⁶

وفي عهده وقعت الايالة في أزمة مالية خانقة نتيجة عدم اكرات الباي بكل ماله مساس بإدارة البلاد، وبذخ واسراف موظفي رجال الدولة دون حساب ولا عقاب. ولم تنفع السياسات الاقتصادية التي انتهجها وزيره مصطفى باش مملوك فأقاله الباي من منصبه

¹- ابن أبي الضياف أحمد: المصدر السابق، المجلد 02، ج 3 ص ص 146-149

²- المسعودي محمد الباجي: المصدر السابق، ص 267

³- ابن أبي الضياف أحمد: المصدر السابق، المجلد 02، ج 3، ص 153

⁴- ألفونس روسو: المرجع السابق، ص 345

⁵- ابن أبي الضياف أحمد: المصدر السابق، المجلد 02، ج 3، ص 154

⁶- المسعودي محمد الباجي: المصدر السابق، ص 268

واستعان بشاكير صاحب الطابع الذي تقلد المنصب بكل حزم وثبات وراح ينتهج سياسة اقتصادية صارمة استطاع في وقت قصير أن يخرج البلاد من أزمتها المالية.¹ في فترة هذا الباي تم احتلال الجزائر من طرف فرنسا في 1830م، وقد اتخذ موقفا سلبيا من احتلال الجزائر، وخلال هذه المدة وقع الارجاج بأن الدولة العثمانية ستهاجم المملكة التونسية قد فشا ذلك في العامة وعندها أرسل الباي حسين بعثة إلى إسطنبول لهذا الغرض وكان ضمن البعثة أحمد ابن أبي الضياف، وكان ذلك في ماي 1831م وقد نجح مؤرخنا في مهمته حيث رجع في نوفمبر 1831م ومعه الزي العسكري النظامي والشعار الملكي النظامي وعندها باشر الباي في ترتيب العسكر النظامي وكان ذلك في شعبان 1246هـ/ جانفي 1831م.²

أسس حسين باي نواة جيش نظامي يضم 1000 عسكري من العناصر المحلية وبعض جند الترك وزوارة وتم اختيار الضباط من المماليك وأسكنهم المحمدية وسوسة وانتدب لهم علمين أجانب لتدريبهم على صناعة الرمي بالمدفع والمكحلة حسب تعبير ابن أبي الضيافوعين الوزير شاكير صاحب الطابع للسهر على شؤون العسكر الجديد.³ ولم يزل الباي ينجز الإصلاحات العسكرية حتى طوقه المرض في ديسمبر 1834م وبقي يصارع مرضه حتى توفي يوم الأربعاء 23 محرم 1251هـ/ 20 ماي 1835م.⁴

3- عهد مصطفى باي (1835م-1837م):

ولد هذا الباي في شوال 1201هـ/ جويلية-أوت 1787م يوبع البيعة الخاصة يوم وفاة أخيه حسين باي وفي الغد ببيع البيعة العامة. قدم ابنه أحمد باي للسفر بالمحلة وقرب إليه ابن أخيه محمد باي جبرا لخوابره واهتم بأبناء أخيه وأحسن تربيتهم. انتهج الباي مصطفى سياسة أكثر استقلالية اتجاه الدولة العثمانية وتجلى ذلك حين قدم له وزيره شاكير صاحب الطابع رسالة من الدولة العلية العثمانية تطلب توظيف شيء

¹- ألفونس روسو: المرجع السابق، ص ص 354-355

²- ابن أبي الضياف أحمد: المصدر السابق، المجلد 02، ج3، ص ص 179-180

³- عبد الحميد هنية: المرجع السابق، ص ص 218-219

⁴- ابن أبي الضياف أحمد: المصدر السابق، المجلد 02، ج3، ص 193

من المال على مملكة تونس في كل سنة، فرفض الباي هذا الطلب بحجة أن المملكة فقيرة وأكثر أهلها من العربان لا تسمح نفوسهم بذلك.¹ أما بخصوص الجيش النظامي فقد واصل الباي سياسة سلفه إذ أنجز في بداية عهده برنامج نقل لواء الطبجية إلى العاصمة وغير لباس أهل الديوان والإنكشارية. كما حاول تجنب تجنيد الأهالي وخاصة سكان العاصمة² وفي سنة 1837م أدخل حوالي ألف من السودان المعتوهين إلى الجيش النظامي³ لكن هذا العمل أغضب الأعيان الذين كانوا يشغلونهم في ديارهم وضيعاتهم فتراجع الباي عن ذلك وطلب من مشايخ المدينة احصاء الشبان لتجنيدهم فنظم سكان الحاضرة حملة احتجاج واجتمعوا للتظاهر قرب زاوية سيدي محرز وعندها قرر مصطفى باي اعفاء سكان الحاضرة من الخدمة العسكرية.⁴

وفي نفس السنة تآقت روحه إلى الحج فأرسل العلامة الشيخ ابراهيم الرباحي مكانه أخذا بالمذهب الحنفي بجواز الانابة ودفع له من ماله الخاص تكاليف الحج فسافر الشيخ إلى الحج ثم رجع في 13 رجب 1253هـ/ الجمعة 13 أكتوبر 1837م أي بعد وفاة الباي بثلاثة أيام⁵، وفي عهده قتل الوزير شاكير صاحب الطابع بتهمة استبداده بالعسكر لا سيما عسكر الساحل في سبتمبر 1837م⁶، مرض الباي بدمل في قفاه وبقي على هذا الحال حتى توفي يوم الثلاثاء 10 رجب 1253هـ/ 10 أكتوبر 1837م.⁷

4- عهد المشير أحمد باشا باي (1837م-1855م)

ولد هذا الباي في 21 رمضان 1221هـ/ 02 ديسمبر 1806م أمه جارية من سبي سنبيرة، بويح ضحى يوم الثلاثاء 10 رجب 1253هـ/ الثلاثاء 11 أكتوبر 1837م اثر وفاة

¹- ابن أبي الضياف أحمد: المصدر السابق، المجلد 02، ج3، ص ص 197-199

²- خليفة الشاطر: المشروع الإصلاحي بين الطموح والواقع، تونس عبر التاريخ، مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، مطبعة سنباكت، تونس، 2007، ص 291

³- ابن أبي الضياف أحمد: المصدر السابق، المجلد 02، ج3، ص 207

⁴- خليفة الشاطر: المشروع الإصلاحي بين الطموح والواقع، تونس عبر التاريخ، المرجع السابق، ص 291

⁵- ابن أبي الضياف أحمد: المصدر السابق، المجلد 02، ج3، ص 211

⁶- خليفة الشاطر: المشروع الإصلاحي بين الطموح والواقع، تونس عبر التاريخ، المرجع السابق، ص 291

⁷- ابن أبي الضياف أحمد: المصدر السابق، المجلد 02، ج3، ص 227

أبيه مصطفى باي، وأبقى رجال أبيه في مناصبهم القيادية وبعث مصطفى البهلوان باش حانبه إلى الدولة العلية لطلب الفرمان والعناية السلطانية على القادة¹، وقد كان تكوينه متواضعا سمح له بحفظ القرآن ومبادئ اللغة العربية ولكن حيه للعلم وولعه بالتاريخ دفعا به إلى الاطلاع على بعض أمهات الكتب مثل مقدمة ابن خلدون وكتاب الامامة والسياسية لابن قتيبة وتاريخ نابليون الأول وكما تعلم اللغتين التركية والايطالية².

عرف عهد أحمد باي بالإصلاحات فهو أحد أبرز رجال الاصلاح في تونس في العصر الحديث حيث أعطى الدفع الحقيقي للإصلاحات التي بدأها الباي حسين وأبوه مصطفى باي وشملت جميع النواحي العسكرية والاقتصادية والثقافية والسياسية والإدارية. ففي المجال العسكري أسس أحمد باي المدرسة الحربية عام 1840م وانتدب لها خبراء عسكريين أوربيين وأرسل البعثات العسكرية إلى النمسا واطاليا³. وجلب لها الكتب من اسطنبول وأروبا وعين لها أدباء وعلماء من تونس وكانت هذه المدرسة نواة لنشر الثقافة العصرية⁴، طور أحمد باي تدريجيا هذا الجيش الذي أصبح بعد سنة 1846م يعد حسب تقرير "فولي" 26156 رجلا بعد أن كان لا يتجاوز 5900 سنة 1837م⁵. كما اهتم الباي أيضا بما يلزم الجيش من الالبسة العسكرية فأنشأ مصنعا للقماش (دار الملف) بطبرية سنة 1844م⁶. ومصنع لصهر المعادن وصنع المدافع بالحفصية ومصنع البارود

¹- ابن أبي الضياف أحمد: إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمام، ج4، تح: لجنة من كتابة الدولة للشؤون الثقافية والأخبار، نشر كتابة الدولة للشؤون الثقافية والأخبار، تونس، 1963، ص 11

²- خليفة الشاطر: المشروع الإصلاحي بين الطموح والواقع، تونس عبر التاريخ، المرجع السابق، ص 292

³- رشاد الأمام: التفكير الإصلاحي في تونس في القرن التاسع عشر إلى صدور قانون عهد الأمان، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس 2010، ص 181.

⁴- الطويلي أحمد: تاريخ مدينة تونس الثقافي والحضاري، الشركة التونسية للنشر وتنمية فنون الرسم، تونس، 2002، ص 145

⁵- عبد الحميد هنية: المرجع السابق، ص 219

⁶- ابن أبي الضياف أحمد: المصدر السابق، ج4، ص 76

بالقصة ومدينة عصرية ومطحنة بالجديدة وفابريكة الدبابة بالعاصمة التي تحتوي على مخبزة عصرية.¹

أما في المجال الاقتصادي فقد أسس الباي بنك (دار المال) أواخر شهر أوت 1847م، عرض من خلالها أوراقا بنكية للتداول، ووكل عليها محمود بن عياد،² وأصبحت نشاطات الدولة المالية تتم عبر هذا البنك، واستجابة لمتطلبات المرحلة صدرت أوراق نقدية مؤتمنة ومنحت التراخيص لإنشاء بنوك أجنبية بهدف ضمان السيولة النقدية وتشجيع الاستثمار والمعاملات التجارية، لأن البلاد كان يعوزها المال الناض.^{3.4} لكن هذه الخطوة قوبلت بتحفظ خاصة من قبل التجار الأجانب وإنتهت هذه التجربة بالفشل الذريع إثر فرار محمود عياد إلى فرنسا سنة 1852م، وتواصل العمل بالنقود المعدنية حتى الحماية الفرنسية 1881م.⁵

وفي المجال الثقافي أنشأت أول مطبعة حجرية سنة 1847م،⁶ ويعود له الفضل في تأسيس أول وأضخم كتبة عصرية بجامع الزيتونة سنة 1840م، وفي هذا الصدد يقول محمد بن الخوجة " أما جامع الزيتونة... فقد كساه ثوب العلم والفخار الأمير المشير الأول أحمد باي إذ وفقه الله لتأسيس دراسة العلم به مع تعميره بخزائن الكتب النافعة صدر منه ذلك سنة 1256هـ / 1840م.⁷

¹ - عبد الحميد هنية: المرجع السابق، ص 219

² - البشروش توفيق: الولي الصالح والأمير في البلاد التونسية، ج2، تر: المؤلف، المركز الوطني للترجمة، تونس، 2013، ص 371

³ - الناض: هي الدراهم والدنانير عند الحجاز، وانما يسمونه ناضا إذا تحول عينا بعد أن كان متاعا، ينظر: محمد ابن أحمد الهروي: تهذيب اللغة، ج11، تح: محمد عوض مرعب، دار احياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 2001، ص 322.

⁴ - رشاد الامام: التفكير الاصلاحى في تونس، المرجع السابق، ص 216

⁵ - البشروش توفيق: المرجع السابق، ج2، ص 371.

⁶ - الطويلي أحمد: المرجع السابق، ص 172

⁷ - محمد بن الخوجة: كيف نشأت خزائن الكتب لدراسة العلوم بجامع الزيتونة، المجلة الزيتونية، هيئة مدرسي جامع الزيتونة، بتونس، مج 1، العدد 01، سنة 1936، ص ص 74-75

أما في المجال السياسي والاداري فقد عمم أحمد باي القيادات الترابية بالنسبة لكافة المناطق الداخلية وأصبح نظام القائد يمثل احدى القواعد الأساسية للحكم المركزي.¹ وفي جانفي 1846م قرر أحمد باي الغاء العبودية وتحرير العبيد وقد كان القرار رائدا في العالم الاسلامي وقد جاء القرار عبر مراحل فمنع سنة 1841م بيع العبيد في الأسواق ثم أصدر في ديسمبر 1842م أمرا بأن المولود في الايالة حر لا يباع ولا يشتري ثم توج عمله بإلغاء الرق نهائيا في 1846م كما أسلفنا.

لقد شهد عهد أحمد باي أول زيارة لباي حسيني لدولة أوربية وهي فرنسا حيث قام بزيارتها في نوفمبر 1846م وهذا بعد أن استشار رجال دولته ووجد القبول والاستحسان منهم وكان ضمن الوفد المرافق للباي مؤرخنا أحمد بن أبي الضياف الذي وصف لنا الرحلة بكل تفاصيلها في كتابة الاتحاف ورجع الباي من زيارته يوم 31 ديسمبر 1846م.²

ونختم حديثنا عن المشير أحمد باي بما خلص إليه الباحث العراقي ابراهيم حسين جبار في مؤلفه الذي صدر مؤخرا عن مركز دراسات الوحدة العربية تحت عنوان " ايالة تونس في عهد أحمد باشا باي".

لقد سعى أحمد باي (1837م- 1855م) لجعل ايالة تونس دولة مستقلة وذات سيادة، وتتمتع بقوة عسكرية كبيرة، فقام بمحاولات اصلاحية مهمة وعديدة كلها كانت تخدم ذلك الهدف، واعتقد أن الدولة العثمانية التي كانت تمر آنذاك بأزمات دولية لم تعد ذات فائدة وجدوى على خلاف فرنسا القوية المحايدة لتونس فتقرب منها أكثر مما يجب واعتمد عليها في جميع محاولاته الاصلاحية وحاول من خلالها التخلص من القيد العثماني فاستغل الفرنسيون طموحاته وشجعوه على توجهاته الانفصالية فتغلغوا في مفاصل دولته بواسطة القناصل والتجار والضباط بالإضافة إلى وضعه على رأس السلطة مجموعة من الفاسدين

¹-عبد الحميد هنية: المرجع السابق، ص 220

²-السنوسي محمد بن عثمان: المصدر السابق، ج1، ص ص 140-141

والانتهازيين الذين أوقعوا البلاد في هوة الافلاس واثاحوا لفرنسا التدخل في شؤونها مما جعل البلاد عرضة للاستعمار¹.

أما الباي فقد أصيب بفالج في شقه يوم الأربعاء 13 شوال 1268هـ/ السبت 31 جويلية 1852م وبقي يصارع المرض مدة طويلة عجز الأطباء عن انقاذه إلى أن توفي يوم الجمعة 15 رمضان 1271هـ / 1 جوان 1855م.²

5- عهد المشير محمد باي (1855م-1859م):

ولد هذا الباي في شعبان 1226هـ/ أوت-سبتمبر 1811م قرأ شيئا من القرآن في أوائل سنه، ولم يعرج به والده على شيء من طرق التهذيب وأخلاق الكمال فكان على الفطرة إلى الأمية أقرب، بويع بعد وفاة ابن عمه المشير أحمد باي فقدم أخاه محمد الصادق للسفر بالمحال وأقر الوزراء ورجال الدولة على مراتبهم دون تغيير³، ولم يكن محمد باي في بداية عهده متحمسا للإصلاحات التي باشرها سلفه الباي أحمد، بل كان يرى فيها تخليا وتفريطا في حق الملك وكان ينكر على ابن عمه عدم باشرة الحكم في حين لازم الجلوس بالمحكمة لظنه أن ذلك هو معنى الملك⁴، لكن الأحوال تغيرت، ليصبح عهده منطلقا لتأسيس نظام حكم دستوري.

فأول ما قام به بخصوص الجباية عمل على تخفيفها ثم أسس ضريبة الاعانة بمقتضى منشوره صادر في جوان 1856م وهي الضريبة التي سيطلق عليها لاحقا " المجبى " وهي ضريبة نقدية شخصية، تفرض على الرؤوس من الذكور البالغين ما عدا أصيلي بعض المدن (تونس، القيروان، سوسة، المنستير، صفاقس) كما يعفى من دفعها

¹ - حسين جبار إبراهيم، إيالة تونس في عهد أحمد باشا باي (دراسة تاريخية) ينظر الموقع: <https://Platform.Almanhal.Com/Files/2/109815>، شوهد بتاريخ: 02-08-2021، بتوقيت: 20:35.

² - ابن أبي الضياف أحمد: المصدر السابق، ج4، ص 140

³ - السنوسي محمد بن عثمان: المصدر السابق، ج1، ص 146

⁴ - نفسه، ص 231

الطلبة والعلماء وأعيان البايك والعجزة ومقدارها 36 ريال سنويا¹، ورغم أن هذا القانون وصفها بالمؤقتة إلا أن السكان استمروا في دفعها مكرهين ولم تسقط فيما بعد.² ومن أعماله أنه أبطل دار الباشا وجعلها لبعض أغراض العسكر النظامي وحول ديوان جند الترك إلى دار المجلس التشريعية ثم شكل مجلس تشريعي يحكم في القضايا يوميا يشارك فيه القاضيان الحنفي والمالكي والمفتيان، وكان القضاة قبل ذلك يحكمون في بيوتهم والمفتون تعرض عليهم الفتاوى وهم في بيوتهم أيضا.³

وفي عهده صدر عهد الأمان يوم 09 سبتمبر 1857م/ 20 محرم 1274هـ وقد حرره ابن أبي الضياف وكان محل تشاور رجال الدولة،⁴ وعد فيه الباي جميع سكان الايالة بالأمان على أنفسهم وممتلكاتهم، دون تمييز أساسه الدين أو اللغة أو اللون. وقد جاء هذا العهد بعد حادثة قتل اليهودي "باطو سفر" والتي استغلتها الدول الأوروبية كذريعة لحمل الباي على ادخال اصلاحات دستورية على غرار ما حدث في الدولة العثمانية كخط كالخانة 1839م والخط الهمايوني 1856م،⁵ وعهد الأمان يتكون من احدى عشرة قاعدة تدور حول الحقوق والحريات والمساواة أمام القانون، وبمقتضاه أمكن للأجانب تعاطي سائر المهن من فلاحه وامتلاك الأراضي والعقارات، وانتهى بذلك عصر الممنوعات وخاصة بالنسبة لليهود.⁶

كما أنشأ أول مجلس بلدي "بلدية العاصمة" في شهر محرم 1275هـ/ أوت 1858م وأسند رئاسته إلى الجنرال حسين. أحد أعيان المماليك، ومن أبرز خريجي المدرسة الحربية بباردو، وقد تولى هذا المجلس تنظيم المدينة واصلاح طرقاتها.⁷ ونختم حديثنا عن

1- عبد الحميد هنية: المرجع السابق، ص 223، وكذلك ابن أبي الضيافأحمد، ج4، ص ص 203-207

2- حسنحسني عبد الوهاب: المرجع السابق، ص 141

3- السنوسي محمد بن عثمان، المصدر السابق، ج1، ص 149

4- ابن أبي الضياف أحمد: المصدر السابق، ج4، ص 231

5- فان كريكن: خير الدين والبلاد التونسية: تر: بشير بن سلامة، دار سحنون، تونس 1971، ص ص 03-07

6- ابن أبي الضياف أحمد: المصدر السابق، ج4، ص 243

7- نفسه، ص 255

هذا الباي بقضية جلبه للماء من زغوان¹ إلى الحاضرة ففي ذي الحجة من سنة 1275هـ/جويلية 1859م قدم للحاضرة مهندس فرنسي اسمه كجولات اتصل بالقنصل الفرنسي ليون روش وأشار عليه بأن يجلب الماء من زغوان إلى الحاضرة دون تكلفة وذلك عبر الحنايا القديمة في أنابيب من معدن يؤتى بها من فرنسا. ذهب القنصل الفرنسي إلى الباي وأقنعه بضرورة قبول المشروع وأنه يعود بالفائدة لصالح البلاد التونسية، فجمع الباي رجاله واستشارهم في الأمر لكن أغلبهم عارض الفكرة لعدم الضرورة الملحة لجلب الماء وأن هذا المشروع يكلف الدولة خسارة كبيرة لكن الباي أصر على تنفيذ هذا المشروع وقال مقولته المشهورة " عطيت كلمتي للقنصل " وأمر بعمل ذلك الاتفاق المنحوس مع المهندس على يد القنصل وبذلك أدخل الدولة في ديوان لا قبل لها بها، توفي الباي محمد اثر مرض لازمه حتى وفاته يوم الخميس 24 صفر 1276هـ/ 22 سبتمبر 1859م ببستانه في المرسى ثم نقل إلى باردو مقر سكناه وفي يوم السبت دفن بالتربة قرب والده.²

6- عهد المشير محمد الصادق باي (1859م-1881م):

ولد محمد الصادق بن حسين بن محمد باي في 07 فيفري 1813م ورث الحكم عن أخيه في 23 ديسمبر 1853م وهو الباي الثاني عشر من سلسلة الأسرة الحسينية، وقد تحصل على لقب المشير دون صعوبة من السلطان العثماني مثل سابقيه أخيه وابن عمه ولم يختلف هذا الباي عن أخيه سوى أنه أقل منه أمية وجهالة³، وقد كان أكثرهم ضعفا في الشخصية كما امتاز بالخمول الذهني والميل إلى الترف دون حدود⁴، اتسمت سياسته الخارجية كالبايات السابقين أحمد باي ومحمد باي وهي محاولة الحفاظ على الارتباط

¹ زغوان: مدينة صغيرة قديمة من أهم البلدان التي أستوطنها المهاجرون الأندلسيون في بداية القرن السابع عشر، وهي تبعد عن تونس نحو 50 كلم. ينظر: السعداوي أحمد، المرجع السابق، ص 433.

² ابن أبي الضياف أحمد: المصدر السابق، ج4، ص ص 261-265

³ مزالي محمد الصالح: الوراثة على العرش الحسيني، الدار التونسية للنشر، تونس، 1969، ص34، وكذلك ابن أبي

الضياف أحمد، ج5، ص 11

⁴ كريكن: المرجع السابق، ص 55

بالدولة العثمانية ثم الاندفاع بقوة نحو فرنسا،¹ وقد حاول الصادق باي جاهدا الحفاظ على نوع من التوازن بين الاتجاهين خاصة عن طريق وزيره خير الدين سواء بواسطة سفرائه لإسطنبول أو أثناء توليه الوزارة الكبرى.²

أما داخليا فقد قام ببعض الإصلاحات خاصة الدستورية منها وذلك بعد أن وجد عهد الأمان جاهزا وقع عليه وأقسم على العمل به، ثم رتب الباي ثلاث مجالس من أجل إتمام الحياة الدستورية في البلاد وذلك في شهر صفر 1277هـ الموافق ل 19 أوت 1860م وهذه المجالس هي:

- المجلس الأكبر: وهو البرلمان ويتكون من ستين عضوا كلهم عينون.

- مجلس الجنایات والأحكام (المحكمة): وعدد أعضائه ثلاث عشر.

- مجلس التحقيق: وعدد أعضائه سبعة وهو شبيه بالمحكمة العليا.³

وفي 29 جانفي 1861م صدر أول دستور في الوطن العربي والاسلامي وأصبح ساري المفعول بداية من 23 أفريل من نفس السنة ويضم 114 مادة مؤسسة على قواعد عهد الأمان.⁴

ودعما لهذه المبادئ الدستورية صدرت مجلة الجنایات والأحكام العرفية يوم 26 أفريل وهذه المجلة ستعتمدها المحاكم في عملها تضم القانون الجنائي والاجراءات الجنائية والمدنية وغيرها وبذلك دخلت البلاد في مرحلة الفصل بين السلطات الثلاث⁵، وفي عهده حدثت أول ميزانية للدولة أكتوبر 1860م ولهذا الحدث أهمية بالغة فهو يحدد مجالات الصرف والقبض.

¹-التميمي عبد الجليل: تقرير عن الأحداث السياسية بتونس خلال عشرين سنة (1838-1858)، م.ت.م، العدد2، جويلية 1974، ص 107

²-خليفة الشاطر: البلاد التونسية والدولة العثمانية، مجلة تاريخ العرب والعالم، العدد 41، مارس 1981، ص 88

³-السنوسي محمد بن عثمان، المصدر السابق، ج1، ص 161

⁴-عبد العزيز الثعالبي: تونس الشهيدة، تر: سامي الجندي: دار القدس، بيروت، 1975، ص 31

⁵-الهادي التيمومي: المرجع السابق، ص ص 121-122

وقد تواصل العمل بالدستور أربع سنوات، حتى جاءت ثورة 1864م التي وضعت حد لهذه الإصلاحات وقد كان في اعتقاد سكان البلاد أن أوضاعهم أصبحت سيئة بسبب هذه الإصلاحات¹ وأن المماليك رجال الدولة هم المسؤولين عن ذلك كله وعلى رأسهم الوزير الأكبر مصطفى خزندار (1837م-1873م) الذي فتح البلاد لسياسة القروض الأجنبية بعد فراغ الخزينة وافلاسها وقد كان يتصرف في الوزارات الهامة ويساعد البايات على الاسراف والقسوة في جباية الضرائب لئلا كان شعار الثورة " كفانا مجبي، ومماليك، ودستورا"، وهذا الشعار يلخص المشهد السياسي والاقتصادي والاجتماعي في تونس.²

وقد استغل الباي هذه الثورة فقرر توقيف المجلس الكبير والمحاكم المحدثه واسترجاع كامل نفوذه وبذلك تدعم نفوذ مصطفى خزندار وأبعد فريق الإصلاح عن جهاز الحكم وتردت الأوضاع وبلغت الأزمة المالية أوجها إذ عجزت الدولة عن تسديد مستحققاتها المالية ثم أجبر الباي على التنازل عن مباشرة الشؤون المالية للجنة دولية استجابة لطلب القناصل وقد عين خير الدين رئيسا لهذه اللجنة فعاد هذا الأخير إلى دوايب الحكم من جديد، وقد كان خير الدين قد ترأس المجلس الأكبر الذي أحدثه الباي بمقتضى دستور 1861م لكنه استقال منه سنة 1862م واعتزل العمل السياسي حينما أيقن أن مصطفى خزندار الوزير الأكبر لا يسمح للمجلس بالقيام بدوره.

ونظرا لخبرته وحنكته السياسية عين رئيسا للجنة المالية الدولية سنة 1868م ثم وزيرا مباشرا 1870م³، ثم أسندت له الوزارة الكبرى يوم 28 شعبان 1290هـ/ الموافق ل 21 أكتوبر 1873م⁴، عين خير الدين صديقه الجنرال حسين وزيرا للتعليم والجنرال رستم وزيرا للحرب وكلف محمد خزندار بوزارة العدل والداخلية واضطر لإبقاء مصطفى بن اسماعيل في حكومته لقرابته من الباي وعينه وزيرا للبحرية.

¹-فان كريكن: المرجع السابق، ص 103

²- الخامس محمد بيرم: صفوة الاعتبار بمستودع الأنصار والأقطار، جزئين، دار الكتب العلمية، لبنان، 1417هـ/1996م، ص 157

³- خليفة الشاطر: المشروع الإصلاحي بين الطموح والواقع، تونس عبر التاريخ، المرجع السابق، ص 304

⁴- السنوسي محمد بن عثمان: الرحلة الحجازية، ج1، تح: علي الشنوفي، الشركة التونسية للتوزيع، 1976، ص 20

لقد قام خير الدين بعدة إصلاحات حيث إهتم بتنظيم الإدارة والقضاء والفلاحة والتجارة والصناعة والاداءات والأوقاف والتعليم.¹ فشهدت البلاد في عهده فترة من الرخاء إذ انتعش الاقتصاد التونسي نسبيا لكن قوى الردة ممثلة في الباي وزمرته وعلى رأسها الوزير مصطفى بن اسماعيل افشلت برنامج خير الدين واصلاحاته واجبرته على الاستقالة يوم 21 جويلية 1877م.²

بعد استقالة خير الدين استمر الوضع الداخلي في التدهور بشكل جعل الباي وسلطته تحت رحمة النفوذ الأوربي المتربص بالبلاد.³

واعتقد الباي أن التنافس الأوربي في تونس دائما في صالحه لذا يمكن توظيفه والاستفادة منه، لكن الوضع تغير في أوربا بعد معاهدة برلين 1878م، ولما استفاق وجد نفسه في نهاية المطاف أمام واجهة محتومة مع الفرنسيين⁴ الذين أرغموه على توقيع معاهدة الحماية الفرنسية يوم 12 ماي 1881م. الموافق ل 12 جمادى الثانية 1281هـ التي عرضها عليه الجنرال بريار غداة حصاره للقصر السعيد بباردو، ثم بعدها بسنة توفي محمد الصادق باي في 16 ذي الحجة 1299هـ/ 28 أكتوبر 1882م.⁵

وبذلك تنتهي فترة حكم البايات الحسينيين خلال العهد العثماني وقد كان عددهم 12 بايا⁶.

¹- عبد الحميد هنية: المرجع السابق، ص 228

²- بن الطاهر جمال: الاقتصاد والمجتمع في القرن التاسع عشر، تونس عبر التاريخ، المرجع السابق، ص 284

³- عبد السلام أحمد: رسائل حسين إلى خير الدين، ج3، بيت الحكمة، قرطاج، تونس، 1997، ص 76

⁴- عبد المجيد الجمل: بريطانيا العظمى والمغرب العربي التنافس الانجليزي الفرنسي بتونس والمغرب الأقصى (1881-1939) رسالة دكتوراء في التاريخ المعاصر، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة تونس الأولى، ص

⁵- حسن حسني عبد الوهاب: خلاصة تاريخ تونس، تح: حمادي الساحلي، دار الجنوب للنشر، تونس، 2007، ص 151

⁶- ينظر الملحق رقم 01، ص 276

الفصل الثاني

مؤسسات نظام الحكم الحسيني

أولاً: طبيعة نظام الحكم الحسيني في تونس

ثانياً: المؤسسات السياسية والقضائية

ثالثاً: المؤسسات المالية والإدارية

أولاً- طبيعة نظام الحكم الحسيني في تونس:

أ- انتقال السلطة داخل العائلة الحسينية:

لقد أرسى المؤسس للأسرة الحسينية حسين بن علي نظاماً وراثياً للحكم يكون على ترتيب السن أي الأكبر سناً، لكن هذه القاعدة لم يقع دائماً احترامها وقد أدى ذلك إلى قيام حروب أهلية ونزاعات بين أفراد العائلة¹.

فبعد أن تولى علي باي الحكم سنة 1759م قدّم ابنه حمودة باشا لولاية عهده رغم وجود من كان أكبر منه سناً وهو محمود بن محمد الرشيد، ثم أعيدت مسألة الخروج عن القاعدة بعد موت حمودة باشا سنة 1814م، قدّم عثمان باي علي محمود صاحب الحق مما جعل هذا الأخير يستعمل العنف ويقتل عثمان للوصول إلى حكم العرش الحسيني، وابتداء من هذا التاريخ صارت الوراثة على العرش بدون عثرات، حيث تمّ تنفيذ قاعدة الأولوية للأكبر سناً من أبناء الأسرة الحسينية².

ب- مراسم انتقال السلطة داخل البيت الحسيني:

تقع مبايعة الباي الجديد من طرف الوزراء والمقربين مباشرة إثر وفاة الباي السابق وقبل مواكب دفنه، وتسمى هذه البيعة (البيعة الصغيرة) أو (البيعة الخاصة)، ومن الغد تقع البيعة الكبيرة أو (البيعة العامة) التي يحضرها أعضاء المجلس الشرعي والعلماء وكبار الدولة والقناصل الأجانب، ويولي كل هذا توافد نواب الجهات والقبائل لتهنئة الباي الجديد باعتلائه العرش، ثم يقع إرسال وفد محمّل بالهدايا إلى الباب العالي لإعلام السلطان بذلك وطلب فرمان التعيين.

ج- علاقة النظام الحسيني بالدولة العثمانية:

كانت إيالة تونس خلال العهد الحسيني من الناحية النظرية جزء من الدولة العثمانية، خاضعة للباب العالي، ولم يكن الباي سوى ممثل للسلطان، إلا أنّ البايات الحسينيين كانوا

¹-Mezali Mohamed Salah; L'hérité Dans la Dynastie Husseinite, Évolutions et Violations, P 15.

²-بن عاشور، محمد عبد العزيز: المؤسسات السياسية في عهد الدولة الحسينية القرنان 18 و 19م، م.ت.م، العدد 5/6 فيفري 1992، ص 14.

خاصة منذ عهد أحمد باي (1837م-1855م) شبه مستقلين¹، وأصبحت علاقاتهم مع إسطنبول تكاد تكون شكلية².

ثانياً-المؤسسات السياسية والقضائية:

عندما غادر سنان باشا تونس في صائفة 1574م أرسى مجموعة من المؤسسات السياسية والعسكرية والقضائية ومجموعة من الرموز السياسية والأيدولوجية التي تؤمّن كلها تبعية الإيالة للباب العالي³. منها دار الينشورية⁴ -وقد ضمت هذه الدار قرابة 3000 جندي أو 4000 حسب اختلاف المصادر⁵، أمّا حكم البلاد فقد أُسند للباشا الذي يعينه الباب العالي مباشرة⁶.

أ-المؤسسات السياسية:

1-مؤسسة دار الباشا:

وهو جهاز مركزي يضمّ أعوانا إداريين وعسكريين من الطائفة التركية والمحليين، تتولى هذه المؤسسة العناية بالنواحي الاقتصادية والمالية للجهاز العسكري، إذ كانت تقوم بدفع رواتب الجند وتتكفل بمصاريف المحلّة⁷، ومدة حكم الباشا ثلاث سنوات، وتذكر المصادر أنّ أولّ باشا حكم البلاد التونسية هو حيدر باشا⁸. بعد ذلك منح هذا اللقب إلى البايات فتحصل عليه مراد باي ثم ابنه حمودة باشا، وبعد وفاته بقي المنصب شاغرا، حتى أرسل الباب العالي خليفة له سنة 1088هـ/1677م. فاجتهد في أمور الحكم وغيّر السكة

¹- ينظر الملحق رقم 03، ص 278

²-كريم عبد الحميد: طبيعة السلطة الجهوية بتونس في القرن التاسع عشر، شهادة الكفاءة في البحث، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة تونس الأولى، 1976-1977م، ص 9.

³-هنية عبد الحميد: المرجع السابق، ص96.

⁴-ابن أبي دينار:المصدر السابق، ص 223.

⁵-بالنسبة لصاحب المؤنس يذكر العدد 3000 جندي، أما الوزير السراج الأندلسي يذكر العدد 4000 جندي في الحلل السندسية، ج2، القسم الأول، دار الكتب الشرقية، تح: محمد الحبيب الهللة، تونس، 1973م، ص 151.

⁶-خوجة حسين:المصدر السابق، ص21.

⁷-هويدي سلوى:المرجع السابق، ص 19.

⁸-الوزير محمد السراج:المصدر السابق، ص 151.

لكنه سافر إلى البلاد التركية وترك البلاد بدون باشا ووضعت المرتبات والمجاني في الديوان.

وعلى إثر الصراع بين الأخوين محمد باي وعلي باي تراجع الباب العالي عن فكرة إرسال باشاوات من الأستانة، وعيّن لهذا المنصب محمد الحفصي سنة 1091هـ/ 1680م ثمّ الداوي الحاج بكتاش وأخيراً إبراهيم باي. ولما تولى حسين بن علي الحكم سنة 1705م مأسر له بعض الباشاوات من الأستانة ثمّ منح له اللقب سنة 1712م، وعندما رزق الباي حسين بابنه محمد طلب من الباب العالي توجيه رتبة الباشوية إلى ابن أخيه علي باشا... وظل هذا اللقب يتلقب به الباشاوات الحسينيين¹.

أما بخصوص دار الباشا في العهد الحسيني فقد كان يشرف عليها كاهية دار الباشا وهو ممثل الباي في هذه المؤسسة، وتتركز مهامه في الإشراف على استخلاص رواتب الجند بالإضافة إلى فصل الجنايات الخفيفة في منطقته الحاضرة²، وظلت تقوم بمهامها حتى عهد محمد باي (1855م-1859م) الذي أبطل مرتب دار الباشا وجعلها لبعض أغراض العسكر النظامي³.

2- مؤسسة الديوان:

عبارة عن مجلس موسع يمثل الطائفة التركية في الإيالة وقد اقتبس عن التنظيم العثماني⁴، ويتكون من حوالي 47 إلى 51 عنصراً يتألف من 12 أظباشي⁵ و24 بلكباشي⁶ وستة إلى ثمانية شاوش إلى جانب ترجمان وكاهية ويرأسها لاغا الذي كان ينتخب لمدة 06 أشهر، وكان يتمتع بصلاحيات سياسية وقضائية واسعة أبرزها إبرام

¹-خوجة حسين:المصدر السابق، ص ص 24-25.

²-هويدي سلوى:المرجع السابق، ص19.

³-ابن أبي الضيافأحمد:المصدر السابق، ج5، ص210.

⁴-البشروش توفيق:موسوعة مدينة تونس، السلسلة التاريخية، العدد 8، مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، تونس، 1999، ص 238.

⁵-أودباشي وتكتب أيضا أودباشي أو أوضة باشي: رتبة عسكرية في الجيش العثماني، تعادل رتبة الملازم. ينظر: السعداوي أحمد: المرجع السابق، ص 191.

⁶-بلقباشي: وهي رتبة عسكرية، والبلكباشي هو قائد الطابور الواحد أو البلوك من جند الينشيرية. نفسه، 173.

المعاهدات، البت في الخلافات التي تنشب بين العسكر التركي¹، كما اضطلع بمهام قضائية إذ كان يبتّ في الخلافات التي تنشب بين العسكر التركي.

لقد عرفت هذه المؤسسة عدّة تحولات سياسية وتغيرات على مستوى وظائفها²، ففي بداية الأمر لم يكن لها مكانة هامة أمام نفوذ الباشا والآغا فكانت تابعة للباشا ممثل السلطان العثماني في الإيالة التونسية³، ثم تراجعت صلاحياته لفائدة الضباط الساميين من الآغاوات والبلكباشية⁴، ومن ثمّ أصبحت مؤسسة الديوان صاحبة النفوذ الحقيقي في الإيالة عوضاً عن الباشا وبموازاة ذلك حدث تحول آخر تمثّل في أنّ الآغا لم يعد يتلقى الأوامر من إسطنبول، بل أصبح يعينه الضباط السامون لمدة 6 أشهر ثم يعزل ويسمى (معزول آغا) وهذا من أجل عدم تمكينه من الإنفراد بالحكم.

لقد انتهجت فئة البلكباشية سياسة الغلظة والتسلط إزاء الأهالي وحتى على الجنود الإنكشاريين كذلك⁵، وقد كانت النتيجة أن ثار هؤلاء الجنود على البلكباشية في يوم الجمعة الموافق لـ 18 أكتوبر 1591م آخر يوم من ذي الحجة 999هـ، وقد ذكر هذه الثورة صاحب المؤنس ثم لخصها الوزير السراج في حله السندسية⁶.

قاد هذه الثورة مجموعة من الضباط الصغار يلقبون بالدّيات وكان عددهم حوالي ثلاثمائة⁷، فقاموا بقتل أعضاء الديوان المتواجدين في القسبة وقتلوا ثمانين رجلاً وألقوا أشلاءهم ببطحاء القسبة وتتبعوا منازلهم بالنهب، وتدعى هذه الواقعة بواقعة البلكباشية⁸.

¹-BachrouhToufik:Formation Social Barbaresque et Pouvoir à Tunis auXVII^{ème}siècle, Tunis, Publication de L'université de Tunis, 1977 , pp 53 -54.

²-Guellouz Azzedineet Masmoudi Abdelkader et Smida Mongi: Histoire de la Tunisie des Temps Modernes, Tunis Société Tunisien de Diffusion, 1983, p 69.

³-هنية عبد الحميد:المرجع السابق، ص 98.

⁴-Cherif Mohamed Hadè:Pouvoir et Société Dans la Tunisie de Husayn Ben Ali(1705-1740), Tunis, Publication de l'Université de Tunis, 1984, p 74.

⁵-هنية عبد الحميد:المرجع السابق، صص 102-105.

⁶-الوزير محمد السراج:المصدر السابق، صص 151-152.

⁷-ابن أبي دينار:المصدر السابق، ص 225.

⁸-ابن أبي الضياف أحمد:المصدر السابق، ج2، ص32.

ورغم ذلك ظلت هذه المؤسسة خلال هذه الفترة محافظة على صلاحياتها السياسية الهامة، إلى جانب مهامها القضائية اتجاه الأتراك والسكان المحليين علاوة على دورها الإداري المتعلق بالعسكر¹، وظل نفوذها في تقلص مستمر خلال القرن السابع عشر، إذ يشير الوزير السراج في الحلل السندسية أنّ أحمد خوجة داي فكر في إلغاء هذه المؤسسة نهائياً، مما يدل على مكانتها الثانوية التي أصبحت عليها، ثم تقلص دورها أكثر فأكثر بداية من عهد الباي حسين بن علي مؤسس الأسرة الحسينية (1705م-1735م)²، إذ لم يتعدى دورها خلال القرن 18م الإشراف على تسجيل أفراد الجند وأبنائهم في سجلات خاصة والسهر على الانتدابات الجديدة وعلى الترقيات والإحالة على التقاعد³، وبالتالي فقدت مؤسسة الديوان دورها الفاعل في الشؤون الهامة لفائدة الباي⁴.

بعد حادثة البلكباشية ظلّ الديوان يسيطر على الحياة السياسية فما الذي تغير إذن؟ الذي حصل أنّ مجموعة البلكباشية تمّ تعويضهم بمجموعة الدايات وظلّ هؤلاء يحكمون هذه الرتبة ضمن حكم جماعي في إطار مؤسسة الديوان، وبقوا على هذه الحال حتى استطاع أحد الدايات الوصول إلى الحكم، فكيف ظهرت هذه الرتبة على مسرح الأحداث؟

3- مؤسسة الدايات:

كلمة الدايات تعني الخال باللسان العربي وهي عند الأتراك تكبرة بمن ينادى بها⁵. ولم يستعمل في تسمية رسمية إلا في ولايات الجزائر وتونس، وقد استعملت هذه اللفظة في تونس في أواخر القرن العاشر الهجري، وأطلقت على رئيس إحدى الفرق الأربعين لعساكر الإنكشارية الذين تركهم سنان باشا في تونس⁶.

¹-Cherif mohamed Hadè: Opcit, P 186.

²-هنية عبد الحميد: المرجع السابق، ص 109.

³-العبيدي السلطاني نبيهة: القوة العسكرية القارة بتونس وتكاليفها المالية من (1756-1814)، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث، جامعة تونس الأولى، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، 1999-2000، ص 39.

⁴-هويدي سلوى: المرجع السابق، ص 19.

⁵-ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص 225.

⁶-خوجة حسين: المصدر السابق، ص 25.

استطاع الداوي عثمان الانفراد بالحكم سنة 1598م¹، وبذلك قويت شوكته في البلاد وتحول الديوان في عهده إلى مجلس استشاري واختفى اسم الباشا في تسيير شؤون البلاد².

وبذلك بقيت مؤسسة الداوي مهيمنة وصاحبة السيادة طيلة فترة عهد الدايات بالبلاد التونسية، وخاصة الدايات الأربعة الأوائل عثمان داوي (1598م-1610م) يوسف داوي (1610م-1637م) أسطا مراد الجنوازي (1637م-1640م) أحمد خوجة داوي (1640م-1647م)³.

ومنذ منتصف القرن 17م بدأت مؤسسة الداوي في الانحدار والانحسار وبرزت مؤسسة الباوي على مسرح الأحداث، ولم تنقرض مؤسسة الداوي إلا بعد وفاة كاشك محمد في سنة 1860م، حيث انقرضت بوفاته وعوضت بمجلس الضبطية الذي قام مقام الداوي مع بعض التنقيحات⁴.

4- مؤسسة الباوي أقوى مؤسسة سياسية حسينية:

كلمة الباوي لفظ معرّب من لفظ بك في التركية ومعناه السيد العظيم، وهو في أصله عند الترك من ألقاب رؤساء الجيش وأبناء الباشاوات، كما أنّ لفظ الباوي معناه أمير في اللغة الفارسية⁵. وتذكر أغلب المصادر أنّ رمضان باوي هو أوّل من تقلّد هذه الرتبة. منها ما ذكره صاحب المؤنس أنّ أوّل من سما وأظهر ناموسا لقيادة المحلّة وتسمّى بايّا هو رمضان من الأعلاج وأصله من أهل الجزائر انتقل إلى الديار التونسية فافتنى المماليك، وتخرّج من مماليكه عدة رجال تسمّوا بايات في حياته⁶. ويتساءل المؤرخ بول صباغ عن

¹- ابن أبي الضياف أحمد: المصدر السابق، ج2، ص 32، أما الوزير محمد السراج فيجعل توليته في 1594م. المصدر السابق، ص 195.

²- خوجة حسين: المصدر السابق، ص 25.

³- هنية عبد الحميد: المرجع السابق، ص 109.

⁴- ابن عاشور: محمد عبد العزيز، المرجع السابق، ص 13.

⁵- محمد بن الخوجة: صفحات من تاريخ تونس، نقوتح: حمادي الساحلي والجيلاني بن الحاج يحيى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1986م، ص 57.

⁶- ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص 251.

أصول خطة الباي في تونس العثمانية، ويقول أنها خطة غير معلومة ويتساءل إن كانت قد وجدت فعلا لكنه في الأخير يقرّ بأنّ أوّل من شغل هذه الخطة هو رمضان باي ويؤكد ظهوره في عهد عثمان داي (1595م-1610م) دون ذكر المصدر الذي استقى منه المعلومة¹.

بعد وفاة رمضان باي سنة 1613م أسندت قيادة المحلّة إلى أحد مماليكه ويدعى مراد كورسو، الذي احتكر المهمة إلى سنة 1631م تاريخ وفاته. وقد طلب الباشوية من الباب العالي وتحصل عليها سنة 1631م²، ثم تنازل عن منصب الباي لابنه حمودة باشا وساعده على ذلك استغلاله للقوة العسكرية التي يستعين بها على تنظيم أمر القبائل³. ونلاحظ أيضا أنّ حمودة باي طلب هو أيضا الباشوية وحصل عليها سنة 1655م، وبعد حمودة باشا (1631م-1666م) لم يعد هناك بايات يطلبون الباشوية لأنفسهم، وقد اعتاد البايات الحسينيون طلبها خاصة لولي العهد.

من ذلك نستنتج أنّ ظهور مؤسسة الباي على يد المراديين كان تدريجيا⁴، وأنّه ابتداء من عهد حمودة باشا المرادي بدأ بروز أمر البايات وتراجع الدايات الذين تزعزعت مكانتهم ونقص نفوذهم، وبعد وفاة حمودة باشا ازداد ضعف الدايات وساءت أحوالهم وتوالى العزل عليهم. وقلّ أنّ تجد دايا لم تنته حياته بمأساة وخاصة في عهد الخلاف بين الأخوين محمد وعلي ابني مراد باي⁵. وبعد انقراض الدولة المرادية سنة 1702م على يد إبراهيم الشريف جمع هذا الأخير بين مناصبي الباي والداي وفي سنة 1703م أتاه الأمر العثماني بتسميته باشا فصار يكتب أوامره باسم الباشا إبراهيم باي داي⁶. وانتهج هذا الأخير سياسة سلبية اتصفت بالتعسف نحو الأهالي وبالحرّوب الفاشلة ضد طرابلس

¹- Paul Sepag : Tunis au XVIIème siècle une cité au temps de la course, Edition L'Harmattan, 1989, p78.

²- هنية عبد الحميد: المرجع السابق، ص133.

³- خوجة حسين: المصدر السابق، ص27.

⁴- هنية عبد الحميد: المرجع السابق، ص134.

⁵- خوجة حسين: المصدر السابق، ص ص 27-28.

⁶- ابن أبي الضياف أحمد: المصدر السابق، ج2، ص ص 95-96.

والجزائر، التي أدت إلى هزيمته وأسرته سنة 1705م من طرف الجزائريين¹. ولما بلغ الخبر أهل تونس اجتمع أهل الحلّ والعقد وأكابر العسكر وبايعوا الحسين بن علي التركي بايا عليهم وذلك في 12 جويلية 1705م².

بعد ذلك دخلت البلاد التونسية في مرحلة جديدة وهي تأسيس الدولة الحسينية على يد الحسين بن علي التي توالى على حكمها تسعة عشرة بايا في مدة تزيد عن القرنين ونصف القرن³، ولقد فضلّ حكام هذه الأسرة لقب الباي لأنّ كلمة الداوي تعرضت للامتهان إبان تغلب الأسر المرادية وتمسك الحسينيون بهذا اللقب حتى بعد أن أصبحت اسطنبول تمنحهم لقب الباشا فكان حاكم البلاد يتحلّى باللقبين معا⁴.

بعد تأسيس الدولة الحسينية على يد حسين بن علي التركي سنة 1705م، استطاع هذا الأخير في مدة وجيزة من توحيد جميع السلطات بين يديه وقد ساعدته الظروف على ذلك، كما استطاع إحتكار النفوذ لصالح مؤسسة الباي وذلك بفضل اتخاذ العديد من الإجراءات ضد الداوي فحجّر عليه الحكم بالإعدام كما حجّر على القاضي تكليف الداوي بتنفيذ القصاص. وهكذا أصبح الداوي مجرد موظف سام فقد منصبه الأصلي تدريجيا وامتزج الدايات بأهل البلاد ممثلين للسلطة الحسينية ومقتصرين على القيام بأعباء ما بقي لهم من صلاحيات⁵. وفي المقابل باشر الباي عدّة أعمال بنفسه منها المهام القضائية في المحكمة، وكذا قيادة المحلّة التي عن طريقها يعيد تجديد الولاء لشخصه في داخل البلاد⁶. وهكذا استطاع حسين بن علي تحقيق احتكار النفوذ لصالح مؤسسة الباي على جميع

¹-ابن عاشور:محمد عبد العزيز، المرجع السابق، ص 12.

²-مقديش محمود:نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تح: علي زواري ومحمد محفوظ، مجلد 2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1988، ص 154.

³-GaniageJean;Les Origines du Protectorat Français en Tunis(1861-1881), Presses Universitaires de France, Paris, 1959, P 10.

⁴-غلاب عبد الكريم:قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي، العهد التركي في تونس والجزائر، ج2، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2005، ص 351.

⁵-ابن عاشور:محمد عبد العزيز، المرجع السابق، ص 13.

⁶-هنية عبد الحميد:المرجع السابق، ص164

المؤسسات السياسية الأخرى وبهذا ظلت مؤسسة الباي مهيمنة حتى منتصف القرن التاسع عشر.

كان حكم الباي حكماً مطلقاً، وإذا كان يحكم بين الناس في النوازل مباشرة بمحكمته وتنفيذ أحكامه حالاً¹، وكان يسمّى ويعزل بمقتضى أوامر جميع أصحاب المناصب الدينية والمدنية والعسكرية، أما مبايعته فقد كانت تتمّ من طرف الأهالي على أن تتمّ تزكيتهم من طرف الدولة العثمانية.

5- المؤسسات السياسية الحسينية في النصف الثاني القرن التاسع عشر:

عرفت الدولة الحسينية في عهد الباي محمد باي (1855م-1859م) حدث سياسي مهم تمثّل في الإعلان عن عهد الأمان، الذي صدر في 20 محرم 1274هـ الموافق لـ 9 سبتمبر 1857م في اجتماع حضرته السلطة التونسية وأعيان القوم والقناصل وأمير الأسطول الفرنسي ومن معه من الأعيان ورجال الدين اليهود والنصارى²، وهو عبارة عن إقرار صريح للباي بالالتزام بتحقيق المساواة لجميع سكان الإيالة على اختلاف الأديان والألسنة والألوان³.

يعتبر عهد الأمان -رغم التنازلات التي يمنحها للأجانب- بداية عهد إصلاح دستوري جذري يمنع تجاوزات الباي ويساوي بين كل السكان أمام القانون والأداء، ويمهد السبيل لإلغاء نظام الحكم المطلق أو القهري حسب تعبير ابن أبي الضياف والذي يسمح للبايات باحتكار كل عناصر النفوذ⁴.

المؤسسة البلدية أبرز الهياكل الإدارية والسياسية:

¹-كريم عبد المجيد: المرجع السابق، صص 9-12.

²-ابن أبي الضياف أحمد: إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، ج5، تح: لجنة من وزارة الشؤون الثقافية، ط2، الدار العربية للكتاب، تونس، 2004، ص ص 231-240.

³-ابن عاشور: محمد عبد العزيز، المرجع السابق، ص 15.

⁴-خليفة الشاطر: المشروع الإصلاحية، تونس عبر التاريخ، المرجع السابق، ص 300.

لقد شهد عهد محمد باي إنشاء أول مجلس بلدي "بلدية العاصمة" في شهر محرم 1275هـ الموافق لـ شهر أوت 1858م، وأسندت رئاسته إلى الجنرال حسين¹، فما هي الدواعي الحقيقية لإنشاء المؤسسة البلدية في حاضرة تونس؟

لقد تعددت القراءات التاريخية القديمة والحديثة حول نشأة وتطور المؤسسة البلدية، فقد عالج كل من بنوس جميلة وجلال عبد الكافي في كتاب "تونس" الإشكالية بتأكيدهما على أنّ نشأة المؤسسة البلدية ناجم عن تنامي الاتجاه التحديثي الإصلاحي، في حين يؤكد الباحث عبد الحميد الأقرش أنّ الإشكالية العامة التي تندرج ضمنها المؤسسة البلدية بالحاضرة تعبّر عن نفسها من خلال وحدة وصراع الهيمنة الخارجية المتصاعدة مع عوامل التدهور الداخلي والمقاومة والتكيف للمجتمع المحلي².

إنّ إنشاء مؤسسة البلدية لم يكن منعزلاً عن تدخلات القناصل الأوربيين في شؤون الإيالة، وهذا ما أكدّه المؤرخ أرتور بلقرين حيث ذكر أنّ تكوين المجلس البلدي كان نتيجة مباشرة لنصائح القنصل الفرنسي ليون روش³، وقد أسندت رئاسة البلدية إلى الجنرال حسين وهو أحد أنصار المدرسة الإصلاحية، وينتمي إلى النخبة التحديثية، وبالتالي لم يكن تعيينه محل صدفة كما يذكر البعض، فهو رجل يحمل تصوراً واضحاً ومكتملاً وجديداً لمسألة النهضة والتطور ومنتشع بقيم جديدة بدأت تنتشر على مستوى العالم الإسلامي⁴.

لقد جسدت مؤسسة البلدية العلاقة الجذرية بين المسار المزدوج والمتناقض أي مسار الركود والتدهور الذي عبّر عن أزمة المجتمع المحلي التقليدي ونخبه وبين مسار الصعود والتجديد، وكانت البلدية أهم أدوات تلك المعركة المحسوبة مسبقاً، فنشاطاتها ارتبطت منذ البداية بالهيمنة الخارجية، مما جعلها شبيهة بمؤسسة استعمارية سبقت الاستعمار ببضع عقود وآلية من أبرز آلياته.

¹- ابن أبي الضياف أحمد: المصدر السابق، ج4، ص 255.

²- الأقرش عبد الحميد: المؤسسة البلدية-الهيكلية العمرانية الجديدة والتبعية في تونس خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر-، مجلة الحياة الثقافية، العدد 44، أكتوبر 1987، ص 7.

³- بلقرين أرتور: التاريخ المصور لتونس وضواحيها، تونس، 1955، ص 114.

⁴- الأقرش عبد الحميد: المرجع السابق، ص ص 8-13.

ولما تولى أخوه محمد الصادق باي (1859م-1882م) تعهد باحترام مبادئ عهد الأمان والسير على دربه، ففي سنة 1860م قام بمحاولات للإصلاح الإداري والدستوري للبلاد. حيث تمّ إحداث الوزارة الكبرى بموجب أمر شعبان 1276 الموافق لـ 27 فيفري 1860م التي يديرها وزير أكبر، وبهذا تمّ إحداث مجلس وزاري بالمعنى العصري للكلمة، ذلك أنه قبل هذه الفترة كان للباي وزراء متفرقون لا مجلس موحد. لذا نرى الباحث محي الدين مبروك يطلق على سنة 1860م سنة التحول¹، وفي شهر صفر 1277ه الموافق لـ 19 أوت 1860م قام الباي بإنشاء مجموعة من المجالس لإتمام الحياة الدستورية للبلاد أهمها:

المجلس الأكبر وهو البرلمان²، مجلس الجنائيات والأحكام (المحكمة)، مجلس التحقيق³، بالإضافة إلى هذه المجالس تمّ إنشاء كل من مجلس خاص بالباي، مجلس تجاري، مجلس عسكري وقانون التجنيد⁴.

وفي يوم 29 جانفي 1861م، أصدر الباي محمد الصادق أول دستور في الوطن العربي والإسلامي⁵، وأصبح ساري المفعول بداية من 23 أفريل من نفس السنة وقد ضم 114 مادة مؤسسة على قواعد عهد الأمان، كان لحقوق الأجانب نصيب وافر منها (خاصة المواد من 105 إلى 114)، ولقد نظم هذا الدستور السلطات العامة وبيّن صلاحيات كل منها وأصبح بمثابة الميثاق الأساسي أو وثيقة إعلان الحقوق⁶.

من خلال دراسة الدستور 1861م، نجد أنّ المجلس الكبير يراقب عمل الباي ويمكن له عزله عند عدم احترامه للدستور (المواد 9 و 20 من الدستور) كما يراقب هذا المجلس الوزراء ويمكن له محاكمتهم (المادة 70) وحسب الدستور أيضا يجب على كل وزير

¹-كريم عبد المجيد: المرجع السابق، ص 15.

²-ابن أبي الضياف أحمد: المصدر السابق، ج3، ص ص 36-38.

³-ابن أبي الضياف أحمد: المصدر السابق، ج5، ص ص 33-37.

⁴-ابن عاشور: محمد عبد العزيز، المرجع السابق، ص 17.

⁵-رشاد الإمام: التفكير الإصلاحية في تونس في القرن التاسع عشر إلى صدور قانون عهد الأمان، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، 2010، ص 387.

⁶-الثعالبي عبد العزيز: تونس الشهيدة، تر: سامي الجندي، دار القدس، بيروت، 1975، ص 313.

الإطلاع على قرارات الباي الخاصة بوزارته والنظر فيها وإمضائها وبدون إمضاءه لا تكون هذه القرارات نافذة (المادة 38).

كما نلاحظ في هذا الدستور أيضا أنّ الباي فقد سلطته القضائية التي أصبحت بين يدي المحاكم والقياد ورؤساء الضبطية (المادة 22)¹، إذا فدستور 1861م أنهى نظام الحكم المطلق في البلاد ودشن عهد الملوكية الدستورية أي "الملوكية المقيدة بقانون" حسب تعبير ابن أبي الضياف، إذ يباشر الباي السلطة التنفيذية ويعين وزراءه أما السلطة التشريعية فترجع بالنظر إلى مجلس أكبر يتكون من ستين عضوا يتم تعيينهم لمدة 5 سنوات، كما يؤسس الدستور شبكة من المحاكم تباشر القضاء حسب الاختصاص، وهذا يعتبر تحول جذري يحدّ من مشمولات محاكم الشرع وجهاز القضاة².

وفي الأخير نستخلص من كل ما تقدم أنّ دستور 1861م بقطع النظر عن ظروف إعلانه والخلفيات التي تكمن وراء موقف من شجعوا على تطبيقه -أدخل في بلاد لم تعرف إلاّ الحكم المطلق طيلة قرون عديدة- تغييرا جذريا، فقيد سلطة الباي وأفقدته كل وسائل الحكم الحقيقية لكن هذه التجربة سوف لن تعمر طويلا، إذ سيتخذ الباي من انتفاضة 1864م ذريعة لإيقاف العمل بالدستور والرجوع إلى طرق وسائل حكم أسلافه.

ب- المؤسسات والخطط القضائية:

1- خطة القضاء قبل مجيء الحسينيين إلى السلطة:

بعد الدخول العثماني للإيالة التونسية أصبح القضاء تحت نفوذ قاضي حنفي يلقب بالأفندي يعين من طرف شيخ الإسلام في أسطنبول لمدة ثلاث سنوات ويشمل نفوذه القضاء المدني والعسكري فهو بمثابة قاضي الجماعة³، لكنه بالمقابل لا يعرف اللغة

¹-GaniageJean:Opcit, p117

²- خليفة الشاطر: المشروع الإصلاحية، تونس عبر التاريخ، المرجع السابق، ج2، ص 302.

³-خوجة حسين:المصدر السابق، ص 30.

العربية وذو معرفة محدودة بالفقه¹، الأمر الذي جعل أكثر من يأتي من القضاة أشبه بالجندي منه بالعالم².

لقد تميز القضاة في تلك الفترة بقلّة الكفاءة وتغلب النزعة العسكرية عليهم وقصور علمهم³، مما أدى إلى وقوعهم في "العسف... في اقتضاء مغارم رتبوها على تنفيذ أحكام الشريعة وقسمة التركات بين الورثة وغير ذلك"، حيث أصبح تصرفهم "بمجرد التشهي والهوى والأغراض المالية والديوية"⁴.

أما أول من تقلّد خطة القضاء بعد دخول الأتراك إلى الإيالة فكان المولى حسين أفندي حسب حسين خوجة صاحب ذيل البشائر⁵، أما صاحب مسامرات الظريف فيذكر أن أول قاضي هو علي أفندي، وأصله من الجزائر، ثم تولى بعده رمضان أفندي⁶، ولما تمت ولايته أمسكه يوسف داي وقدمه إلى خطة الإفتاء إلى أن توفي، ثم جاء بعده كمال أحمد أفندي⁷، ثم محمد قارة خوجة⁸، ويدعى أيضا محمد برناز، وهو أول قاضي حنفي من أبناء البلد استقضى بتونس⁹.

¹-Ben Achour, Mohamed El Aziz:Organisation de la Justice Religieuse dans la Tunisie Husaynite 18-19 Siècle, I-B-L-A N ° = 153/1984, pp 57, 92.

²-ابن أبي الضيافأحمد:المصدر السابق، ج2، ص 95.

³-خوجة حسين:المصدر السابق، ص ص 31-33.

⁴-ابن أبي الضيافأحمد:المصدر السابق، ج2، ص 95.

⁵-خوجة حسين:المصدر السابق، ص 88. وكذلك:الوزير السراج الأندلسي، المصدر السابق، ج2، ص 338.

⁶-ينظر ترجمته في:خوجة حسين، ذيل البشائر، ص 169.

⁷-السنوسي محمد بن عثمان:مسامرات الظريف بحسن التعريف، تح:النيفر محمد ومحمد الشاذلي، ج3، دار الغرب

الإسلامي، بيروت، لبنان، 1994م. ص 8.

⁸-ويدعى محمد برناز ولد في 1012هـ وهو ابن مصطفى برناز، قدم والده في حملة العسكر العثماني حجّره أبوها إلى المولى أحمد أفندينشأأولا في الخدمة العسكرية، ثم تعاطى العلم فتفقه وولع بالحديث، قدمه محمد باي المرادي للإمامة في جامع الذي أمام زاوية سيدي محرز، اختاره الداوي أحمد خوجة إماما له وقربيه عنده وسعى له في ولاية خطة القضاء بالحاضرة، فكان أول قاضي حنفي من أبناء البلاد التونسية، غير أنه تولى عنها بعد مدة، مات قتيلا سنة 1673م/ 1084هـ. ينظر: ذيل البشائر، ص 172. وكذا الحلل، ج2، ص 400.

⁹-خوجة حسين:المصدر السابق، ص 31.

وقد اقتصر القضاء في بداية الحكم العثماني على القاضي من المذهب الحنفي، إلا أن المراديين حرصوا في إطار تقربهم من السكان المحليين إلى تعيين قاضي من المذهب المالكي، وبذلك أصبح هناك قاضي لكل مذهب¹. وقد استمر العمل على ذلك مدة مئة وخمسة وسبعون سنة إلى عهد علي باشا فاستأذن الدولة العلية في تقديم القاضي من علماء الحاضرة، وورد له الإذن بذلك فأقام قاضيا حنفيا وقاضيا مالكيا من أهل البلد².

والباحث خلال الفترة الحسينية يجد أصناف متعددة من القضاة أبرزها: قاضي الحضرة ويسمى أيضا قاضي الجماعة، وتتمثل مهامه إلى جانب النظر في القضايا ممارسه الحسبة ومراقبة الأسواق³، كما نجد خطة قضاء باردو الذي يشارك في المجلس الشرعي المنعقد كل يوم الخميس في محكمه باردو، وهو لا يتدخل إلا عندما يختلف قاضي الجماعة والمفتون حول أمر معين ويكون تدخل الباي لحل هذا الاختلاف مشابه الرأي قاضي باردو⁴، كما نجد أيضا قاضي المحلة ومهمته السفر مع الباي في محلاتي الشتاء والصيف اللتين تخرجان لاستخلاص جباية البلاد⁵.

2- خطة القضاء خلال العهد الحسيني:

لقد اهتم البايات الحسينيون بالقضاء وسعوا لتنظيمه وبسط نفوذهم عليه بوضعه تحت مراقبتهم المباشرة، وهذا من أجل الحدّ من نفوذ الأتراك في هذا المجال، كما سعوا إلى تطويق السلط القضائية المنافسة لهم مثل الدايات والقضاء المحلي عن طريق نشر المزيد من القضاة داخل البلاد، وقد مارس البايات الحسينيون بأنفسهم القضاء أسوة بالسلطين العثمانيين⁶.

¹- هويدي سلوى: المرجع السابق، ص ص 84-85.

²- السنوسي محمد بن عثمان: المصدر السابق، ج 3، ص 11.

³- هويدي سلوى: المرجع السابق، ص 84.

⁴- Brunschfig Robert: Justice Religieuse et Justice Laïque Bon la Tunisie des Deys et des Baies la Salle Jusqu'à au Milieu de xixsiècle, In Studia Islamica, Tome XXII, 1965, p 242.

⁵- السنوسي محمد بن عثمان: المصدر السابق، ج 3، ص 72.

⁶- هويدي سلوى: المرجع السابق، ص 83.

فمنذ عهد حسين بن علي أصبح الباي يشارك في الأمور القضائية، حيث أحيا المجلس الشرعي اقتداء بالمراديين¹، وهو يمثل أعلى سلطة قضائية في البلاد. وتتمثل مهامه في الفصل بين المتخاصمين إلى جانب إعادة النظر في الأحكام المتخذة من قبل قضاة المدن الداخلية. يجتمع المجلس مرتين في الأسبوع تحت إشراف الباش مفتي حنفي والباش مفتي مالكي وهي خطة وضعها علي باي (1759م-1782م)² يوم الأحد في قصر باردو بحضور قاضي باردو والمفتيين المالكيين والحنفيين إضافة إلى قاضي الحنفية والمالكية، ويوم الخميس في محكمة الداوي، ثم أضاف الباي يوماً آخر وهو الثلاثاء بالمحكمة الشرعية³، وجرى العمل بذلك إلى غاية سنة 1251هـ/1835م وفيها أقيم شيخ إسلام خاص للجماعة المالكية إتماماً للتسوية المعنوية بعد التسوية الحسية الموجودة من قبل بين علماء المذهبين، وألغي بذلك لقب الباش مفتي بتونس واستبدل بلقب كبير أهل الشورى كما تقرر انعقاد المجلسين كل منهما بانفراد، واحتفظوا بيوم الخميس للسادة الحنفية، وعينوا يوم الاثنين للسادة المالكية⁴.

وقد تولى العديد من القضاة خلال العهد الحسيني (1705م-1881م) نذكر أبرزهم: الشيخ أحمد الطرودي، مراد بوسيقة، محمد بيرم الثاني، أحمد بن الخوجة، علي درويش، مصطفى بيرم، محمد بيرم⁵، أما بالنسبة لقضاة المالكية فأول من تولى خطة نيابة القاضوية الشيخ ساسي نونية الأنصاري الأندلسي⁶، وقد تولّاها مكرها من طرف علي أفندي لما وفد إلى تونس. لم يجد من أعلم منه لكنه امتنع فهدده بالقتل فلازمها إلى غاية وفاته ثم تولى بعدة محمد النفاتي.

¹-Brunschfig Robert:Opcit, p27.

²-هويدي سلوى:المرجع السابق، ص 83.

³-حمودةابن عبد العزيز: المصدر السابق، ص 226.

⁴-محمد بن الخوجة:المصدر السابق، ص 188.

⁵-السنوسي محمد بن عثمان:المصدر السابق، ج3، ص ص 12-17.

⁶-ينظر ترجمته في: الحلل السندسية، ج2، ص 488. وكذا:مخلوف محمد: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، ج1، المكتبة السلفية، القاهرة، 1350هـ-1931م، ص 292.

وفي بداية مرحلة التأسيس للدولة الحسينية على يد أميرها حسين بن علي قام بتعيين قاضيا مالكيا بباردو، وقاضيا مالكيا للمحلة وقاضي مالكيا للفرائض في بيت المال يدعى قاضي الفريضة، ثم حدث التغيير القضائي الجذري على يد علي باشا حيث أصبح القاضي المالكي مستقل عن القاضي الحنفي وقد قام بتعيين محمد سعادة كأول قاضي مالكي مستقل وبهذا رجعت خطة القضاء المالكي إلى سالف عصرها قبل مجيء العثمانيين إلى تونس¹. وقد اشتهر من القضاة المالكية خلال الفترة الحسينية (1705م-1881م) كل من الشيخ محمد سويسي محمد الطويبي الطرابلسي، عمر المحجوب، إسماعيل التميمي، محمد السنوسي، محمد بن سلامة، طاهر بن عاشور، صالح النيفر، محمد النيفر².

3- خطة الإفتاء قبل مجيء الحسينيين إلى السلطة:

لقد تم توظيف المفتي ضمن الجهاز القضائي خلال العهد الحفصي وكان عددهم يصل إلى ستة أي ثلاثة من كل مذهب³، أما بخصوص ظهور خطة الإفتاء في العهد العثماني فيذكر صاحب المؤنس أنها ظهرت في المائة التاسعة وصارت أرفع درجة من درجة القاضي، ويضيف أيضا؛ "إذا أشكل على القاضي بعث إلى المفتي يسأله ولا سيما في تلك الدولة التركية فإنها القضاة تجيئها من بلاد الترك والغالب عليهم العجمة ومذهبهم مذهب الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه، وأهل الحضرة على مذهب الإمام مالك ... فاحتاجوا إلى نائب يكون بين يدي القاضي بمثابة قاضي الخصومات والقاضي التركي مقام قاضي الجماعة"⁴.

لهذه الأسباب احتاج الأتراك إلى تشكيل مجلس قضاء وجعلوه تحت سلطة الباشا، ويتكون من الباشا أو من ينوبه (خليفته)، القاضي المفتون، نقيب الأشراف⁵، وهذا المجلس

¹- السنوسي محمد بن عثمان: المصدر السابق، ج3، ص ص63-80.

²- نفسه، ج3، ص 117.

³-Brunschfig Robert:Opcit, p 41.

⁴-ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص ص 316-317.

⁵-خوجة حسين: المصدر السابق، ص 31.

يجتمع في دار الباشا كل يوم خميس، وعندما انتقلت السلطة إلى الدايات أصبح المجلس بعد إصدار الأحكام يرجعون بها إلى دار الدايات للموافقة عليها أو رفضها.

لم يكن للأتراك في بداية حكمهم للإيالة التونسية مفتي حنفي إلا القاضي¹، لذا ظلّ محدود النفوذ لأنّ المجلس يحتوي على مفتيين مالكيين مما دعا يوسف داي (1610م-1637م) في آخر أيام حكمه إلى تعيين مفتي حنفي هو الشيخ أبو العباس أحمد الشريف، وبالتالي هو أول من تصدر لرتبة الفتوى وذلك بعد الأربعين والألف (1040هـ)².

أما صاحب مسامرات الظريف فيذكر أن يوسف داي قلد القاضي رمضان أفندي بعد نهاية عهده خطة الإفتاء، وبالتالي يجعله أول من تقلد هاتاه الرتبة في حاضرة تونس³، والراجح أن الشيخ أحمد الشريف الحنفي تتلمذ على يد رمضان أفندي كما ذكر صاحب ذيل البشائر، وأنه بعد وفاته ولّاه يوسف داي الإفتاء وهو أول مفت للمذهب الحنفي⁴.

أما في العهد المرادي فقد ظهر العديد من المفتيين كان أبرزهم الشيخ محمد بن مصطفى الأزهرى ابن زروق الذي وفد إلى تونس من طرابلس وقرأ على فحول علماء الأزهر، قدّمه حمودة باشا المرادي لخطة الإفتاء بعد تخلي من قبله عنها، توفي سنة 1067هـ. بعد وفاته عوضه الشيخ مصطفى بن عبد الكريم البنزرتي. ثم تقلد بعده الخطة الشيخ يوسف درغووث ولازمها إلى أن قتل فخلفه ابنه عبد الكبير الذي أدرك الدولة الحسينية⁵، لكنه عزل من طرف مراد باي سنة 1110هـ وعوضه بالشيخ علي الصوفي، لكن هذا الأخير اعتذر بالعجز وطلب معونته فرجع من جديد إلى منصبه وصار علي الصوفي مفتيا ثانيا، وذلك أول عهد تعدد فيه المفتيين من الحنفية.

4- خطة الإفتاء خلال العهد الحسيني:

¹- ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص 317.

²- خوجة حسين: المصدر السابق، ص 32.

³- السنوسي محمد بن عثمان: المصدر السابق، ج2، ص 8.

⁴- خوجة حسين: المصدر السابق، ص 170.

⁵- السنوسي محمد بن عثمان: المصدر السابق، ج2، ص ص 10-11.

لقد سار البايات الحسينيون في البداية على نهج الحفصيين بخصوص خطة الإفتاء، لكن ما لبثوا أن أدخلوا تعديلات¹ ففي عهد حسين بن علي المؤسس تمّ إحداث خطة الباش مفتي الحنفي للإشراف على كل المجلس، ثمّ أضاف ابنه علي باي في إطار حرصه على خلق التوازن بين المذهبين وتماشيا مع سياسته الرامية إلى إشراك السكان المحليين في السلطة إلى إحداث خطة باش مفتي المالكي².

في عهد حسين بن علي تقلّد خطة الإفتاء الشيخ يوسف برتقيز سنة 1143هـ، وقد كان هذا الشيخ مقربا من الباي وتحت رعايته، ولمّا وصل علي باشا إلى الحكم ألقى عليه القبض سنة 1148هـ وعوّضه بالشيخ عبد الكبير الصوفي وبعد وفاته عوّضه بالشيخ محمد الأرنؤوط سنة 1150هـ³. وقد اشتهر خلال هذا العهد كل من: محمد بيرم الأول، محمد البارودي، محمد بيرم الثاني، مصطفى البارودي، حسين برناز، أحمد بن الخوجة، محمد بيرم الرابع، أحمد الأبّي⁴.

أمّا بخصوص خطة الإفتاء الخاصة بالمذهب المالكي فقد كانوا في بداية الدولة التركية أربعة مفاتي ضمن المجلس الذي أقاموه في بداية حكمهم⁵. وأوّل من تولّى الإفتاء لمذهب مالك الشيخ سالم النفاتي ثمّ تولّى بعده الشيخ محمد قشور والشيخ عبد الكافي والشيخ قاسم عظوم القيرواني هذا الأخير كان عالما بفقّه مالك وأبي حنيفة⁶. كما اشتهر في هذه الفترة أيضا الشيخ أبو الحسن بن سالم النفاتي حيث يذكر صاحب المؤنس أنّه أول من أظهر لهذه الرتبة تعظيما وزادها بشهامته تفخيما، وكان معاصرا لابن عظوم. وهو الذي أتى من دار الخلافة العثمانية بخط شريف أنّه لا يسأل عن نص أفتى به ولا يردّ ما حكم به فانحسنت هذه المادّة⁷.

¹- ينظر الملحق رقم 05، ص 282

²- هويدي سلوى: المرجع السابق، ص 84.

³- ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص 318

⁴- السنوسي محمد بن عثمان: المصدر السابق، ج 2، ص ص 41-99.

⁵- ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص 318.

⁶- السنوسي محمد بن عثمان: المصدر السابق، ج 2، ص 155.

⁷- ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص ص 318-319.

وقد كان أهل الحاضرة إذا ترتب على أحدهم حق وحكم القاضي أو أفتى بغير المشهور استشار العلماء بما جرى عليه العمل، وحرص في حضور جلسات المجلس الشرعي ومناقشة من أفتى بالحكم¹.

وفي بداية العهد الحسيني تقلد خطة الإفتاء كل من الشيخ علي الستاري ومحمد جعيط وحمودة الرصاص. أما علي باشا فقد تولّى في عهده الشيخ محمد سعادة المنستيري، إذ ولّاه القضاء أولاً سنة 1157هـ ثم الإفتاء كذلك تولّى الخطة الشيخ أحمد بن حسين المكودي، وفي زمن علي باي تقلد الخطة الشيخ أحمد الثعالبي البرنسي وهو من ذرية الثعالبي دفين الجزائر وبعد وفاته سنة 1197هـ تولّى بعده الشيخ محمد المحجوب².

ومن المفتين المالكيين المشهورين نذكر كل من: الشيخ اسماعيل التميمي، ابراهيم الرياحي، محمد بن سلامة، محمد النيفر، محمد بن الطاهر بن عاشور الاندلسي، صالح النيفر، محمد قبادو وهؤلاء كلهم تولوا القضاء أولاً ثم ارتقوا إلى درجة الإفتاء³.

5- عدول الإفتاء:

لقد شهدت هذه الخطة تطوراً في العهد الحفصي وتتمثل مهامها في تحرير الرسوم المكتوبة وإمضائها، وأصحابها ينتدبون من طرف قاضي الجماعة وتحت إشراف الباي نفسه، ويمكن تقسيمهم إلى مجالين، سلك يعمل في مقرّاتهم الخاصة والسلك الآخر يتولّى الخدمة في مختلف مؤسسات الدولة⁴، وتتنوع ميدان عملهم في المجال القضائي، المالي، الأعباس.

ففي المجال القضائي نجد شاهد الديوان، وشاهد الغابة، فالأول يتولّى الإشراف ومراقبة شؤون الأوقاف التابعة لمؤسسة الديوان، أمّا الثاني فيراقب موازين كيل أعشار الزياتين والتي يقدّمها لزامة هناشيرالبايلك لمنطقة تونس⁵، أمّا في المجال المالي فنجد

¹- نفسه، ص 31-32.

²- السنوسي محمد بن عثمان، المصدر السابق، ج 2، ص ص 168-185.

³- السنوسي محمد بن عثمان: المصدر السابق، ج 2، ص ص 208-309.

⁴- هويدي سلوي: المرجع السابق، ص 86.

⁵- Ben Achour Mohamed El Aziz; Les Ulamaa à Tunis aux XVIII^{ème} et XIX^{ème} Siècles, Thèse de 3^{ème} Cycle, Soutenue de vant Université Paris-Sorbonne, 1977, p 109

شاهد بيت المال، وشاهد دار السكّة، وشاهد مؤسسة الرابطة، فالأول يتولّى قسمة التركات وبيان نصيب كل أطراف الورثة كما يراقب مقبوض الآغا ومصروفه ويشرف على عملية تحويل الأموال من بيت المال إلى بيت خزندار ويساعده في هذه المهمة عون آخر يدعى الخوجة.

أمّا شاهد دار السكّة فيقوم بتسجيل وزن العملة ويراقب دخولها وخروجها في دار السكّة كما يراقب مختلف أنواع المعادن من ذهب وفضة ونحاس، في المقابل يضطلع شاهد مؤسسة الرابطة بمراقبة المداخل والمصاريف الخاصة بهذا الجهاز.

إنّ تعدد الأعباس لمختلف المؤسسات الدينية والتربوية أدّى إلى بروز عدول إسهاد متخصصين في هذا المجال مثل شاهد أوقاف الحرمين، وأوقاف جامع الزيتونة¹.

كما اقتضت الضرورة على تعيين عدول إسهاد على بعض المؤسسات العسكرية مثل شاهد أحوال الحفصية وتمّ إحداث هذه الخطة زمن حمودة باشا عند تأسيسه لمصنع المدافع بالقرب من قصر الحفصية².

ثالثاً: المؤسسات المالية والإدارية

أ- المؤسسات المالية:

تميزت الدول ما قبل الحديثة بظاهرة التحصيل الجبائي، كما هو شأن الإيالة التونسية خلال القرن 17م، ففرض الجباية على مختلف القوى الاجتماعية دليل على إذعانها لتلك السلطة، والجهاز المالي لأي سلطة يلعب دوراً رئيسياً في تدعيمها ووجودها، لذا شهد الجهاز المالي إعادة تنظيم على مستوى صلاحيات المؤسسات المالية للدولة، بالإضافة إلى خلق موارد جبائية تواكب التطورات الاقتصادية التي عرفت الإيالة منذ النصف الثاني من القرن 18م. مع تطور آليات الجباية والذهاب تدريجياً إلى فكره الجباية الفردية.

ونظراً لأهمية المؤسسات المالية في الإيالة التونسية خلال العهد الذي ندرسه، بدت لنا ضرورة تتبع التطورات التي عرفت هذه المؤسسات التي منها ما يعود إلى العهد

¹- هويدي سلوى: المرجع السابق، ص 87.

²- ابن أبي الضياف أحمد: المصدر السابق، ج 7، ص 165.

الحفصي وللاّثر العربي الإسلامي كبيت المال بيت خزندار ومنها ما هو جديد كالغرفة والرابطة¹.

1- بيت المال:

وتعود هذه المؤسسة للعهد الحفصي وللاّثر الإسلامي عموماً، وقد شكلت خلال هذا العهد المؤسسة المالية الرئيسية²، وحافظت على أهميتها خلال القرن 16م وبداية القرن 17م في ظل الحكم العثماني المباشر، لكن بعد مراقبة المراديين لموارد البلاد وتأسيس بيت خزندار شهد هذا الجهاز تراجعاً في صلاحياته وموارده³.

وقد قسمت إلى بيتين بيت مال المالكية وبيت مال الحنفية، ويشرف على تسييرها مجموعة من الأعوان يرأسهم آغا بيت المال الذي يوصف أحياناً بالوكيل، ومهمته تتمثل في جمع مداخيل البيت ودفع مرتبات الموظفين وتعيين النواب في الجهات، وإلى جانبه نجد الشاهد أو قاضي الفريضة الذي يقوم بقسمة التركة وبيان نصيب كل أطرافها، وتقييد مصروف الأغا ومقبوضه ومراقبة عملية بيع التركات أما الخوجة فيتولى تقييد التركات في مكان الوفاة في حين يقوم وكيل الحوانيت بالاهتمام بالأمر المالية، أما التوابع للمؤسسة فيشرفون على المزادات⁴.

2- مؤسسة بيت خزندار:

وتعود هذه المؤسسة إلى عهد المراديين بتونس حيث قاموا بتدعيمها وإضفاء الطابع المؤسسي لها، وتحدّر كلمة خزندار من كلمة خزانه بالعربية ودار بالفارسية، ويعتبر السلاجقة أول من طوّروا هذه الخطة إذ اقتبسوها من المغول، ويبدو أنّ العثمانيين أخذوا

¹- ينظر الملحق رقم 06، ص 283

²- المبسوط فاروق: مؤسسة بيت المال في البلاد التونسية خلال الفترة الحديثة القرن 17م و 19م، شهادة لنيل الدراسات المعمّقة في التاريخ الحديث، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، السنة الجامعية 2002-2003، ص 11.

³- البشروش توفيق: المرجع السابق، ص 91.

⁴- المبسوط فاروق، المرجع السابق، ص 91.

هذه الخطة عنهم وعمّوها على مختلف الولايات التابعة لهم¹. وقد برزت هذه المؤسسة في الإيالة التونسية بعد تنامي الموارد المالية للإيالة. وقد حافظ الحسينيون على هذه المؤسسة وعملوا على تطويرها حيث يلاحظ وجود فريق تقني يعمل تحت إشراف الخزنदार يتكون من قياد البيت وكتاب كما لوحظ وجود خزندارين إثنين في عهدي محمد الرشيد وعلي باي على غرار النموذج العثماني.

والمسؤول الأول لهذه المؤسسة يدعى الخزنदार ثم يأتي بعده مباشرة قياد البيت وهؤلاء يتعهدون بتنفيذ أصحاب القرار على الصعيد المالي، ومتابعة مختلف حسابات المخزن على مستوى المصاريف وجمع الموارد. وخلال السبعينات من القرن 18م ازداد نفوذ الأعوان إذ صاروا يصطحبون المحلّة لجباية الضرائب، كما ازداد نفوذهم زمن مصطفى خوجة². وفي زمن حمودة باشا (1782م-1814م) أبطل خطة خزنदार وباشير مراقبة قياد البيت بنفسه ومساعدة وزيره يوسف صاحب الطابع³، بالإضافة إلى هذا يستعين بيت خزنदार بمجموعة من الكتبة تسند إليهم راجعة الحسابات.

لقد عرفت هذه المؤسسة تطورا من خلال تنوع الأدوار داخلها أو من خلال تنوع مواردها، وذلك من أجل العمل على حسن استغلال الموارد لمواجهة تنامي مصاريف الإيالة نتيجة النمو الاقتصادي الذي عرفته منذ سنة 1763م، بعد استتباب الأمن والقضاء على الثورات السياسية⁴.

وقد تولى وظيفة الخزنदार في عهد حسين بن علي محمد النفطي الذي كان من رجال الدولة المرادية⁵، ثم عزل من قبل الباي لنقص في كفاءته وعوض بمحمود السرايري الأندلسي وقد اظهر مهارة فائقة في هذا الميدان حسب المؤرخ الصغير بن يوسف مما

¹-Nora Laafi: Une Ville du Maghreb entre Ancien Régime et réformes Ottomanes genèse des Institution Municipales à Tripoli de Barbarie (1795-1911), Paris, Harmattan, 2002, p 93.

²-هويدي سلوى: المرجع السابق، ص 51.

³- ابن أبي الضيافأحمد: المصدر السابق، ج3، ص 92.

⁴-هويدي سلوى: المرجع السابق، ص 52.

⁵-محمد الباجي المسعودي: المصدر السابق، ص 3.

جعله يحوز على ثقة الباي¹، وقد أصبح بفضل تمكنه ومقدرته أن يصبح المستشار الرئيسي للباي حسب الطبيب الفرنسي بايسونال الذي زار تونس سنة 1724م، وقد توفي هذا الخزندار في ظروف غامضة سنة 1727م² ولم نتحصل ضمن المصادر المتوفرة لدينا عن خليفته إلا أنه في الدفتر الجبائي العائد لسنوات 1730-1731 نجد إشارة لهذا الشخص واسمه سليمان وزوجته هي بنت أخت حسين بن علي³.

3-الغرفة:

تحتل الغرفة المرتبة الثالثة من حيث الأهمية بعد بيت المال وبيت خزندار، وقد برز دورها من خلال بعض الحسابات الموجودة في الدفاتر الجبائية لسنة (1781م-1782م)⁴ كمؤسسة مالية ممولة لبيت خزندار، أما ابن أبي الضياف فيعرفها بأنها مكان في القصر تحتوي على مدخرات الباي وأهم نفائسه⁵.

ومن أجل فهم هذا الجهاز سعت الباحثة التونسية سلوى هويدي إلى البحث عن مصادرها وطريقة استخلاص مواردها لكن دون جدوى، وأرجعت ذلك إلى عدم الفصل بين بيت خزندار والغرفة.

وعلى الرغم من تنامي مؤسسة الغرفة إلا أن بيت خزندار تبقى الهيكل المالي الأساسي متميزة بحسن تنظيمها، في حين أن الغرفة هي عبارة عن خزينة للباي ليس لها طابع رسمي. لذا سرعان ما فقدت صلاحياتها المالية إذ تبين أنه منذ 1818م أصبحت الغرفة هيكلًا إداريًا يهتم بالأقمشة وأزياء الباي وأهله وأعوانه⁶.

4-مؤسسات ملحقة بالمؤسسات المالية:

¹ - الصغير بن يوسف: المشرع الملكي في سلطنة أولاد علي التركي، تق وتح: أحمد الطويلي، ج2، المطبعة العصرية، تونس، 2009، ص ص 71-73.

2-Peyssonnel et Desfontaines: Opcite, p47.

³ -الدفتر رقم: 11، ص 100.

⁴ -هويدي سلوى: المرجع السابق، ص 53.

⁵ - ابن أبي الضياف أحمد: المصدر السابق، ج7، ص 130.

⁶ -هويدي سلوى، المرجع السابق، ص 55.

توجد بعض المؤسسات مرتبطة بصورة أو بأخرى بالمؤسسات المالية التي ذكرناها سابقا، وقد شهدت هذه المؤسسات تطورا تدريجيا عبر فترات تاريخيه، وهذا يعبر أيضا عن تطور الجهاز المالي للإيالة التونسية، وهذه المؤسسات هي: الرابطة، دار السكة، خطة العلاف.

4-1- مؤسسة الرابطة:

ظهرت الرابطة كمؤسسة تعتنى بخزن الحبوب القادمة من الموارد التابعة للدولة، ومكانها بربوة الرابطة بالجبل الأخضر¹، وظهرت هذه المؤسسة بهذا الاسم في زمن حمودة باشا وقد أطلق عليها وكيل الرابطة ابتداء من 1783م²، لكن يبدو أن هذه المؤسسة كانت موجودة من قبل، وهذا من خلال اطلاقنا على بعض الدفاتر الجبائية، التي تذكر أن هناك خطة يتولى صاحبها جمع الحبوب والزيت يسمى "بوكيل الطعام"، وهو ما يتطابق مع مهمة وكيل الرابطة المذكور آنفا، ومن خلال الدفاتر نستنتج أن وكيل الطعام يقوم بتجميع الحبوب ثم يقوم بصرفها على مستحقيها، ويذكر ابن أبي الضياف أن أحمد باي عين محمد بن عياد وكيلا برابطة الطعام في الجبل الأخضر وإليها ينسب برج الرابطة³، حيث عمد سنة 1843م، إلى توزيع القمح من الرابطة على الفقراء والمساكين دون مقابل بسبب ارتفاع الأسعار⁴.

وفي سنة 1854م قام أحمد باي بمساعدة فقراء مدينه تونس حيث وزّع عليهم كميات من الحبوب الموجودة بالرابطة ليحدّ من تأثير ارتفاع أسعار الحبوب وشبح المجاعة، أما في عهد محمد باي فقد عين سنة 1856م/1273هـ إسماعيل قائد السبسي وكيلا على

¹- الأكحل رشاد: مؤسسة الرابطة في العهد الحديث، شهادة لنيل الدراسات المعمقة في التاريخ الحديث والمعاصر كليه العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، السنة الدراسية 2001/2000، ص 51 53.

²- هودي سلوى: المرجع السابق، ص 56.

³- ابن أبي الضياف أحمد: المصدر السابق، ج 4، ص 37.

⁴- نفسه: ج 4، ص 74.

الرابطة، وهو دين ثقة أمين جدّي الطبع على حد تعبير ابن أبي الضياف،¹ وفي عهده ضجّ الناس من غلاء سعر الحبوب فقام جموعة من شبان مدينة تونس بحركة احتجاجية مطالبين بوقف عملية تصدير الحبوب، فتدخل الباي وأمر ببيع الحبوب من رابطة الدولة. وقد بلغت مداخيل الرابطة أدنى مستوى لها سنة 1867م حيث قدرت بـ 3000 قفيز من القمح و3139 قفيز من الشعير وأصبحت الرابطة في وضعية لا تستطيع حتى تلبية حاجة الدولة وتغطية نفقاتها المختلفة.²

4-2- مؤسّسة دار السكة:

ترجع هذه المؤسّسة إلى العهد العباسي وكان يطلق عليها دار الضرب، وهي مسؤولة عن صك العملة، وقد اعتمد البايات الحسينيون هذه المؤسّسة وخصّصوا لها مبنى بمكان التكنة المعروفة بقشلة³ باردو في عهد حمودة باشا (1782م-1814م)، ثم أضيف لها مبنى آخر بمنطقة الحفصية⁴، وقد عرفت هذه المؤسّسة تطورا بفضل الإجراءات المختلفة التي اتخذها البايات الحسينيون، حيث قاموا بضرب عدّة عملات جديدة كالنصف السلطاني والخروب في عهد علي باشا (1735م-1756م)، والفلس النحاسي في عهد محمد الرشيد⁵، والسلطاني ونصف الريال ونصف محبوب في عهد علي باي (1759م-1782م).⁶

يشرف على هذه المؤسّسة عون يسمى بـ "ناظر السكة أو الضرب" مهمته مراقبة الأموال الخارجة من السكة والداخلة إليها، ويساعده في التسيير الأمين الذي يشرف على

¹-نفسه: ج4، ص 227.

²- بن الطاهر جمال: الاقتصاد والمجتمع في القرن التاسع عشر، تونس عبر التاريخ، المرجع السابق، ج2، ص 268.

³-وجمعها القشل وهي التكنات بضم التاء وهي مركز التجنيد مأخوذة من قشلا التركية بكسر القاف وهي منزل العسكر.

⁴-الماسي هالة: دار السكة التونسية في العهد الحسيني (1705-1881)، شهادة لنيل الكفاءة في البحث كليه الأدب والعلوم الإنسانية بتونس، 1978، ص 39.

⁵-Fenina Abdelhamid; Les Monnaies de la Régence de Tunis sous les H'usaynides، Tunis، Faculté des Sciences Humaines et sociales de Tunis، 2003، pp 76-146.

⁶-الماسي هالة: المرجع السابق، ص 11

ضرب العملة ومراقبة ما يدخل من فضه ونحاس إلى دار السكة، أما الوكيل فانه يتولى تحضير ما تحتاجه المؤسسة من المواد ويراقب معيار السكة ووزنها.¹

ويذكر ابن أبي الضياف أنّ الباي محمود قام في سنة 1825م/ 1240هـ بتبديل السكة وذلك بالتنقيص من فضتها، فجمع ما أمكنه من ريات المملكة وأعاد ضربها على هذا الوزن الموجود الآن، وهو تنقيص ثمن أوقية من فضة الريال وإيداله بالنحاس. وكان وزن الريال خمسة أثمان الأوقية منها ثلاثة من الفضة واثنان من النحاس، فصار ثلاثة أثمان من النحاس واثنان من الفضة،² إلا أنّ هذا التبديل لم يحصل به الباي من الربح إلا النزر اليسير، بل ألحق ضررا عظيما بالمملكة حسب تعبير ابن أبي الضياف.³

ومع استفحال الأزمة النقدية في عهد أحمد باي، حاول عبثا إيجاد حلول لها وهذا من خلال تأسيسه لما عرف بدار المال، وهي بمثابة أول بنك مصرفي في البلاد يتولى إصدار الأوراق المالية لسد النقص المسجل في حجم العملة المتداولة ولتشجيع التجار⁴، وفي هذا الصدد يقول ابن أبي الضياف: "وكل على هذه الدار التي سماها "دار المال" (وهي القشلة المعروفة بقشلة سيدي عامر) أبا الثناء محمود بن عياد... وجعل الوزير أبا النخبة مصطفى خزندار ناظرا عليه، وكتب لهما أمرا في ذلك، وابتدأ العمل بهذه الدار أواخر شعبان (أوائل أوت 1847م)،⁵ ولما هرب إلى فرنسا سنة 1852م خلفه في قبض الأموال اليهودي نسيم شمامة⁶.

¹- هويدي سلوى: المرجع السابق، ص 56

²- ابن أبي الضياف أحمد: المصدر السابق، ج3، ص ص 155- 156

³- نفسه، ص 157

⁴- بن الطاهر جمال: الاقتصاد والمجتمع في القرن التاسع عشر، تونس عبر التاريخ، المرجع السابق، ج2، ص 276

⁵- ابن أبي الضياف أحمد: المصدر السابق، ج4، ص 114

⁶- نسيم شمامة: بدأ صعوده مع ولاية أحمد باي تحصل سنة 1847م على لزمته الخشب والحديد لمدة ثلاث سنوات مقابل أتاوة سنوية مقدرة ب 50.000 ريال.

⁷- السنوسي محمد بن عثمان: المصدر السابق، ج1، ص 139

وقد توقفت هذه الدار عن العمل لعدم وجود المال الناص بها في شعبان 1269هـ وكذلك بسبب هروب المسؤول عنها محمد بن عياد إلى فرنسا سنة 1852م.¹ وفي عهد محمد باي (1859م-1855م) استفحلت ظاهرة صك العملة النحاسية ولا سيما من الخروبة² وقلت الفضة حتى كادت أن تنعدم، وضاق الحال وصار الوافدون من التجار يشترطون في ثمن سلعهم الفضة أو الذهب، وضجّ تجار الإفرنج من ذلك، ورفعوا شكايتهم إلى قناصلهم، مما اضطر الباي أن يقوم بإبدال سكة النحاس وذلك سنة 1858م/1274هـ عبر ترتيبات وآجال معينة.³

وعلى الرغم من ذلك فقد عجز الباي عن الحد من تدهور قيمة الريال الفضي التونسي الذي سجل في عهده انخفاضا بنسبه 50%. وفي عهد محمد الصادق باي (1859م-1882م) تواصل الانخفاض في معيار العملة الفضية والذهبية وسعر صرفها وقد تسبب ذلك حسب ابن أبي الضياف في خراب اقتصاد البلاد وانهاره.⁴

4-3- مؤسسة العنافة:

وهي مؤسسة تتولى جمع الشعير من محاصيل هناشير البايك ثم تتعهد بتوزيعها على شكل علفة أو مؤونة للدواب بالنسبة إلى مختلف المصالح التابعة للدولة، ويلعب الشخص العلاف المشرف على هذه المؤسسة دورا بارزا أثناء الحروب والأزمات وكذا أثناء خروج المحلّة ولهذا السبب أطلق عليه تسميه وزير الحرب في المغرب الأقصى في العهد السعودي والعلوي.⁵

ب- المؤسسات والخطط الإدارية:

لقد عرفت البلاد التونسية كغيرها من الدول الحديثة الناشئة العديد من الخطط الشرعية كالقضاء والإفتاء، والإدارية كالكتابة وصاحب الطابع وغيرها، ولقد لقيت

¹-نفسه:ص ص 151-144.

²- بن الطاهر جمال: الاقتصاد والمجتمع ...، المرجع السابق، ص 276.

³- ابن أبي الضياف أحمد:المصدر السابق، ج4، ص ص 253-254.

⁴- بن الطاهر جمال: الاقتصاد والمجتمع ...، المرجع السابق، ج2، ص 276.

⁵- هويدي سلوى، المرجع السابق، ص 58.

الاهتمام الكبير من طرف البايات الحسينيين خلال الفترة المدروسة وفي نفس الوقت محاولة احتوائها ووضعها تحت مراقبتهم¹.

ونقصد بها جميع الخطط والمؤسسات التي تقوم بالإشراف على جميع هيكل الدولة وتسيير شؤونها، وسنركز على أبرزها خلال هذه الفترة وهما خطة صاحب الطابع ومؤسسة ديوان الإنشاء.

1- خطة صاحب الطابع:

وتتمثل مهامه حسب المتعارف عليه في وضع ختم الباي على المراسلات بعد صياغتها من قبل الكاتب ولهذا ارتبطت هذه الخطة بالباش كاتب².

إلا أنه برزت لصاحب الطابع بعض المهام المالية كمراقبة حسابات الباش كاتب ومراجعتها، كما يشرف على محاسبة بعض الوكلاء، فمثلا تولى كل من مصطفى وحسين وإسماعيل صاحب الطابع محاسبة الوكيل إبراهيم بن عياش وكيل ملك الكاف سنة 1746م. كما يقوم صاحب الطابع بتوزيع الصدقات والإحسانات لبعض الفئات كطلاب العلم وإصدار بعض التذاكر للأشخاص الذين يعملون لفائدة الباي³.

وأبرز من تقلد هذه الخطة المملوك يوسف خوجة الملقب بيوسف صاحب الطابع زمن حمودة باشا (1782م-1814م) وأصبحت هذه الخطة ذات شأن كبير⁴، وذلك بفضل صاحبها ونفوذه الشخصي لدى الباي⁵. وقد مارس يوسف صاحب الطابع بالإضافة إلى

¹- ينظر الملحق رقم 05، ص 282

²- فوزي محمد المستغامي: يوسف صاحب الطابع وعلاقته بربض باب السويقة نهاية القرن 18م، شهادة لنيل الدراسات المعمقة في التاريخ الحديث، كلية العلوم الإنسانية، جامعة تونس الأولى السنة الجامعية 2001/2000، ص 25.

³- هويدي سلوى: المرجع السابق، ص ص 88-89.

⁴- ابن أبي الضياف أحمد: المصدر السابق، ج 7، ص 90.

⁵- Frank Louis: Opcit p 60

هذه المهام تولّى الإشراف على عملية الإتفاق²¹. ومتابعة العلاقات الخارجية مع القناصل الأوروبيين. ومن خلال ذلك نستنتج أنّ هذه الخطة جمعت بين العمل الإداري والمالي والسياسي، كما برز أيضا في هذه الخطة شاكير صاحب الطابع زمن كل من البايين حسين ومصطفى (1824م-1837م).

2- مؤسسة ديوان الإنشاء:

وهذه المؤسسة تعود إلى العهد العباسي ويشترط للانتماء إلى هذه المؤسسة أن يكون الشخص متمكنا من فن الكتابة وأساليبها، وتطلق كلمة كاتب في العالم الإسلامي على كل شخص يتولى تحرير النصوص الخاصة بالدولة. وفي عهد الدولة الحسينية بتونس نظمّ البايات هذا الديوان على النمط الحفصي، واستعانوا بكتاب وقع انتداب معظمهم من رجال الدين والأدب، كما انتدبوا كتّابا يتقنون اللغة التركية وبعض اللغات الأوروبية كالايطالية والفرنسية، إلى جانب كتّاب آخرون يتوزعون على أهمّ مؤسسات الدولة كبيت خزندار ودار الباشا. وقد شمل الديوان مجموعتين من الكتبة، كتّاب باللغة العربية وكتّاب باللغة التركية، يرأس الكتبة باللغة العربية الباش كاتب الذي يتولّى الإشراف على مختلف الكتابات التي تصدر عن الباي، كما يتولى كتابة المعاهدات والمراسلات المبرمة مع مختلف الدول الأجنبية، في حين يتولى صاحب الطابع وضع العلامة عليها، كما يقوم الباش كاتب بمراجعته الدفاتر الجبائية العائدة للقياد.³

¹-الاتفاق: في عهد حمودة باشا (1782م-1814م) أصبح منصب القايد يباع ويشترى كالبطاعة بمقتضى اتفاق بين المشتري والحكم المركزي، ينص على أن المشتري يدفع مبلغا معيناً من المال للباي مقابل تحمله على رفع الأداءات على سكان الجهة التي يتولاها. ينظر: كريم عبد المجيد: المرجع السابق، ص ص 17-18.

²-ابن أبي الضياف أحمد:المصدر السابق، ج 3، ص 17.

³-هويدي سلوى: المرجع السابق، ص ص 89-90.

إذا فمهمته ربط الصلة بين السلطة المركزية والسلطة المحلية المرتبطة بها بصفه مباشرة أو غير مباشرة من قبل القياد والمشايخ والخلفاء.

وكانت المراسلات المركزية وممثليها في داخل البلاد تتم باللغة العربية¹. لذا لا غرابة أن نجد الباش كاتب يقوم بالوساطة بين السلطة المركزية والمجموعات المحلية لفض بعض النزاعات، فأثناء ثوره إسماعيل بن يونس سنة 1762م تولى أحمد الأصرم همة الاتصالات مع أعيان جبل وسلات².

وقد تولى هذا المنصب في عهد المؤسس حسين بن علي شخصيتين محليتين هما الحاج بلحسن السهيلي الوسلاتي وقاسم بن سلطانة، فالأول ينتمي إلى عائلة ذات زعامة سياسية وروحية لسكان جبل وسلات، وإلى جانب ذلك كان رفيقا للباي في مغامراته السياسية في العهد المرادي، وقد تمكن بفضل هذه الوظيفة من جمع ثروة طائلة بفضل جسعه وبعض تجاوزاته، لكنّ الباي تفتنّ إليه فاهتزت صورته لديه، فقرر التوجّه إلى الحجّ وفي الطريق توفي، فصادر الباي جميع أمواله وأملاكه³.

أما الثاني من أعيان مدينه باجة فقد كان يفتقر إلى ماضي سياسي، بدأ عمله ككاتب بعد أن قضى مدة جامعا للضرائب في إحدى مناطق باجة⁴، ثم ارتقى إلى رتبة باش كاتب بعد وفاة بلحسن السهيلي، استطاع هو أيضا تكوين ثروة كبيرة نتيجة مشاركته في العمل القرصني، تعكّرت علاقته بالباي فزجّ به في السجن مع ابنه وصادر جميع أمواله وثروته⁵.

وقد برز في هذا المنصب حمودة بن عبد العزيز في عهد علي باي (1759-1782) المؤرخ صاحب مؤلف الكتاب الباشي وقد خصّه هذا الباي برئاسة الكتاب، وأطلق عليه لقب "وزير في قلم الإنشاء" ولما تولى حمودة باشا أقره في منصبه وكلفه بتدريب يوسف

¹ - منصف التايب: بلاط باردو زمن الحسين بن علي، بحث المرحلة الثالثة، جامعة تونس الأولى، 1990، ص 49.

² - ابن أبي الضياف أحمد: المصدر السابق، ج7، ص 22.

³ - منصف التايب: المرجع السابق، ص ص 49-51.

⁴ Cherif Mohamed Hadè: Opcite, p264.

⁵ - الصغير بن يوسف: المشرع الملكي، ج2، المصدر السابق، ص ص 65-75.

صاحب الطابع على بعض الأعمال، ثم حصلت تطورات في علاقته مع الباي أدت إلى إبعاده ثم وفاته سنة 1787م¹. كما ظهر أيضا الكاتب عبد العزيز بوعتور في عهد محمد الصادق باي (1859-1882).

أما مجموعة الكتب باللغة التركية فيرأسها باش خوجة وتوازي هذه الخطة حسب ابن أبي الضياف رتبة الداوي². ويتولى الباش خوجة أيضا مهمة سفير لدى الدول الأجنبية، فقد تولّى إبراهيم خوجة تمثيل الباي سنة 1771م³.

وأبرز الشخصيات التي تولت هذا المنصب المؤرخ حسين خوجة صاحب مؤلف ذيل بشائر أهل الإيمان في عهد حسين بن علي، وهو ينتمي إلى عائلة تركية اندمجت في المجتمع المحلي ويبدو انه تحصل على جزء من ثقافته في جامع الزيتونة وفي مدارس العاصمة⁴.

وبالإضافة إلى وظيفته الأصلية كان حسين خوجة المؤرخ الرسمي للدولة والباي، وبالتالي كان له حضور قوي في البلاط الحسيني توفي سنة 1733م⁵.

¹-رشاد الإمام:سياسة حمودة باشا، المرجع السابق، ص 137.

²-ابن أبي الضياف أحمد:المصدر السابق، ج8، ص 17.

³-هويدي سلوى: المرجع السابق، ص 91.

⁴-عبد السلام أحمد: المؤرخون التونسيون في القرون 17 و18 و19م، تر:عبد السلام أحمد وعبد الرزاق الحليوي، بيت الحكمة، قرطاج، تونس، بلا تاريخ، ص ص 219-220.

⁵Cherif Mohamed Hadè: T2, Opcite, p77.

الفصل الثالث

العلاقات السياسية الخارجية للإيالة التونسية

خلال العهد الحسيني

أولاً: العلاقات السياسية مع الدول الأوربية الكبرى

ثانياً: العلاقات السياسية مع الدويلات الإيطالية

ثالثاً: العلاقات السياسية مع الإيالات المجاورة

أولاً: العلاقات السياسية مع الدول الأوروبية الكبرى

لقد عملت الإيالة التونسية على إقامة علاقات سياسية مع الدول الأوروبية المطللة على حوض البحر المتوسط بغية تعزيز استقلالها وتحقيق أهدافها شأنها في ذلك شأن كل الدول الفنية.

فهل كانت هذه العلاقات متأثرة بأوضاع الإيالة الداخلية؟ أم كانت نتيجة عوامل أخرى؟ هل كانت تلك العلاقات قائمة على أسس ثابتة ومتينة وفق مبادئ المساواة والندية؟ أم كانت علاقات ظرفية ومفروضة في أغلب الأحيان؟

لقد ابتدأت العلاقات السياسية بمبادلات إقتصادية، سرعان ماتطورت إلى علاقات سياسية،¹ وهذا بفضل الامتيازات² الممنوحة لتلك الدول وعلى رأسها فرنسا، إنجلترا، إيطاليا وبشكل أقل كل من إسبانيا والبرتغال وقبل الحديث عن تلك العلاقات نشير إلى هناك إشكالية قانونية كبيرة في التمثيل الدبلوماسي للإيالة فالبعض يعتبر القناصل أو الوكلاء الممثلون للإيالة في الخارج هم قناصل بكامل الصلاحيات لدولة ذات سيادة، والبعض الآخر من يعتبرهم جرد مبعوثين لحكومة الباي مكلفين بمهمة مؤقتة وهذا رأي المؤرخ التونسي محمد بن الخوجة حيث يذكر «تونس لم يكن لها نواب او قناصل في أوربا قبل عهد الحماية ... كما أن مملكة لم يكن لها كما رأيت نواب رسميون قارون بالبلاد الأورباوية ولكنها كانت كما لم تزل توجه المبعوثين بالمأموريات الهامة لمختلف البلدان».³

¹ سبق النظام القنصلي نظام التمثيل الدبلوماسي في وجوده واستقراره نتيجة لحاجيات التجارة الدولية وما كانت تقتضيه ظروفها في العصور الماضية من رعاية المشتغلين بها وحماية مصالحهم للمزيد ينظر: منير عبيد دور وكلاء وقناصل الإيالة التونسية باستانبول وطرابلس ومالطة على ضوء رسائلهم (1830-1881) أطروحة دكتوراة كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية جامعة تونس الأولى، 1995، ص 60

² -الامتيازات تعني خضوع رعايا الدول الممتازة لا للقوانين والمحاكم وجهات الإدارة المحلية ولكن لقوانين ومحاكم وهيئات أجنبية وهي بذلك تتعارض مع مبدأ السيادة (ظهرت أول فترة عند الرومان) للمزيد ينظر: محمد عبد الباري الإمتيازات الأجنبية مطبعة الاعتماد، مصر، 1930، ص ص 4-13.

³ -محمد بن الخوجة: هل كانلتونس نواب سياسيون يمثلونها في الخارج قبل عصر الحماية، المجلة الزيتونية، مج 1، ج 1، تونس، محرم 1356هـ/مارس 1937، ص ص 337-338

ومهما يكن من أمر فقد أرسلت الإيالة ممثلين لها برتب مختلفة في تلك الدول كما استقبلت ممثلين عنهم في مقر حكم الباي بباردو.¹

أ-العلاقات السياسية مع فرنسا:

ترجع العلاقات التونسية الفرنسية إلى زمن قديم نتيجة لعلاقات فرنسا بالشرق الإسلامي أيام فرانسوا الأول (1515م-1547 م) وسليمان القانوني (1520م-1566م)² والتي جعلت من فرنسا أول دولة أوروبية تحصل على إمتيازات تفضيلية عن باقي الدول الأخرى.

كانت نتيجة هذي الإمتيازات تأسيس قنصليات في الايالات المغاربية منها تونس وقد حددت السلطات الفرنسية مهام القناصل في العمل على حماية المصالح الفرنسية، والمحافظة عليها من أي تهديد داخلي أو خارجي.³

فما هي طبيعة العلاقات السياسية التي جمعت بين إيالة تونس وفرنسا؟ وما هي إنعكاساتها على الطرفين؟

بدأ أول تمثيل دبلوماسي بتعيين أول قنصل فرنسي بتونس بتاريخ 28 ماي 1577م حيث كانت مهمته رعاية مصالح التجار الفرنسيين وقد عرف مقره في مدينة تونس بإسم الفندق وكان يظم رعايا فرنسا من تجار وغيرهم وهو مبنى يتألف من طابقين.⁴

لقد انحصرت العلاقات حول قضايا متعددة كالأسرى والقرصنة والتجارة¹ وشهدت عدة معاهدات خلال العهد المرادي منها معاهدة السلم 25 نوفمبر 1665م التي كان إبرمها

¹-رشاد الإمام: المرجع السابق، ص 20.

²كان أول اتصال بين الزعمين سنة 1525 بعد هزيمة فرنسا في معركة بافيا (لومبارديا) 24/02/1525م حينها قرر فرانسوا الإستجد بالباب العالي وقد تبادل الطرفان الرسائل أثمرت عن تحالفهما فيما بعد للمزيد حول الموضوع ينظر: شكيب أرسلان، تاريخ الدولة العثمانية تح وتع: حسن السماحي سويدان دار ابن كثير للطباعة والنشر، دمشق، 2001، ص 154 وما بعدها

³-M.Moreuil: Manual des Agents Consulaires Français et Étrangers . videoq Fils Ainé.Édition Paris 1853p41

⁴-Grand Champ Pierre: la France En Tunisien A la Fin du XVII^{ème} Siecle Inventair de s Archives Du Consulat de France À Tunis de (1583-1705) Tunis1920-1933, 10 Vol Umes.pp07_10

تحت ضغط الأسطول الفرنسي بقيادة الدوق دوبوفور (Duc De Beaufort)،² وقد منحت الأولوية لفرنسا مقارنة بالدول الأوروبية الأخرى³ أما معاهدة 28 أوت 1685م فقد احتكرت فرنسا بفضلها صيد المرجان بالسواحل التونسية كما أعطت المعاهدة أهمية كبرى للمصالح التجارية الفرنسية بتونس وضمنت لها تفوقها على حساب الدول الأوروبية الأخرى.⁴

أما خلال العهد الحسيني وفي زمن المؤسس حسين بن علي فقد اتسمت العلاقات بعدم استقرار إذ شهدت تقلبات مابين التوتر والانفراج وذلك نتيجة عمليات الجهاد البحري وكثيرا ما توجبها القرارات الاقتصادية من الجانب التونسي المتعلقة بعمليات صيد المرجان والرسوم الجمركية التي يتخذها الباي أو خرق للقواعد البرتوكولية والأعراف الدولية.⁵

كانت نتيجة التوترات التي وقعت سنة 1706م⁶ عقد معاهدة 6 ديسمبر 1707م جددت بموجبها الامتيازات التي تتمتع بها فرنسا والعمل وفق شروط السلام بينهما،⁷ ثم سادت حالة الإستقرار والصداقة بينهما وبلغت أوجها عند زيارة سفير فرنسا إلى إسطنبول للإيالة

¹-الشافعي درويش: العلاقات التونسية الفرنسية (1577-1685) التميز والتنوع، مجلة روافد، مج4، ديسمبر 2020، ص 347.

²-ألفونس روسو: المرجع السابق، ص 52.

³-Rouard de Card: Traités de la France Avec Les Pays de L'Afrique Du Nord Algérie Tunisie Tribalitaine Maroc A Pédone Paris 1906, p121

⁴-الشافعي درويش: المرجع السابق، ص 356

⁵-المختار باي: المرجع السابق، ص 517

⁶-للإطلاع حول هذه التوترات ينظر:

Plantet Eugène: T2, Opcit, pp 31-32.

Jean Mallan: L'Influence Française Dans la Regence de Tunis Avant L'Établissement Du Protectorat Publication Colomiale Paris 1931 .p80

⁷-أ، و، ت: مل 58، ح 204.

سنة 1724م وهو الكونت داندرزال (D'andrezel)¹، وقد استقبله الباي بحفاوة كبيرة وبذل بكل ما في وسعه ليشمله بكل ضروب المودة والاحترام.²

على الرغم من حرص الباي على ديمومة الصداقة مع فرنسا إلا أن خرق القراصنة التونسيين لبنود معاهدات السلم والتجارة التي تربطها حال دون ذلك وكانت النتيجة أحداث سنتي 1727 و 1728م³ عقد معاهدة 1 جويلية 1728م أوهم بنودها أن أي قرصان تتم باغتهه متلبسا بحصار أي سفينة مهما كانت جنسيتها على السواحل الفرنسية فإنه سيقبض عليه،⁴ وقد تعرضت الإيالة للإذلال الشديد من جراء هذه المعاهدة.

إلا أن التونسيين لم يوفوا بتعهداتهم حيث ضبط مركب تونس سنة 1731م في حالة تلبس بالغزو عند السواحل الفرنسية فتم توقيفه وفي نفس السنة تم إرسال 4 بوارج بحرية إلى تونس تحت قيادة الجنرال دوجي تروان لمطالبة الباي تسليمه ستة أسرى جنوبيين إختطفوا من قبل مركب تونسي على متن سفينة فرنسية، وبعد مفاوضات تم تسليم الأسرى على أمل الإفراج عن المركب التونسي المحتجز، ومنذ هذه الواقعة استمر الوئام بين الحسين بن علي وفرنسا حتى نهاية حكمه.⁵

أما فترة علي باشا (1756م-1735م) فقد تميزت العلاقات بالعداء بين الطرفين نتيجة السياسة الإستقلالية التي انتهجها الباي ضدها وكذا نتيجة إهتمامه بنشاط البحرية التي كانت تمثل المصدر الرئيسي لمداخل البلاد فكان عليه لزاما ضرب المصالح الفرنسية بتونس فبدأ بخلق الحجج، فاتهم فرنسا بمساندة معارضيهِ⁶ وطلب من القنصل الفرنسي جوتيه (Gauthier Jean Louis) أن يقبل يده كلما دخل عليه القصر كبقية القناصل الأوربيين الآخرين، لكن القنصل رفض هذا الطلب فقام الباي بمحاصرة الفندق الفرنسي

¹-Faucon Narcisse: la Tunisie Avant et Depuis L'Occupation Française Histoire et Colomisation T2 Librairie Colenial Paris 1893p46

²-ألفونص روسو: المرجع السابق، ص 172

³-الإطلاع حول الموضوع ينظر: ألفونص روسو: المرجع السابق، ص 172

⁴-Faucon Narcisse;Opcit pp157_ 158

⁵-ألفونص روسو: المرجع السابق، ص ص 174-176

⁶-الصغير بن يوسف: المصدر السابق، ج2، ص ص 49-50

وهدهه بالإنصياح لأوامره، فاضطر القنصل إلى الإحناء أمامه وتقبييل يده في 14 ماي 1740م.¹

لما علم علي باشا أن فرنسا تسعى لشراء جزيرة طبرقة والإستلاء عليها أرسل جنوده بقيادة إبنه "يونس" في سنة 1741م الذي قام بهدم القرية وأسر جميع الجنويين المقيمين بالجزيرة² ووضع لها حامية من الجيش التونسي ثم توجه إلى جزيرة تامكرت التي كان بها مركز تجاري للفرنسين الذين لم يكن لهمقدرة على قتاله فاستسلموا ثم قادهم إلى منزل القنصل الفرنسي بتونس بعدما استحوذ على كل ممتلكاتهم،³ وعلى إثر ذلك قامت فرنسا بإرسال ستة سفن حربية لمحاصرة ميناء حلق الوادي،⁴ ثم قامت بالتفاوض مع الباي لاحتلال السلام بين البلدين وفي 10 رمضان 1155هـ / 9 نوفمبر 1742م، ثم توقع معاهدة السلام من طرف علي باشا⁵ التي نصت على ارجاع المراكز التجارية إلى ماكانت عليه مع إلزام القنصل الفرنسي بتقبيل يد الباي وعليه تم تعيين السيد فرانسوا فور قنصلا جديدا سنة 1743م.⁶

توترت العلاقات الفرنسية التونسية من جديد 1752م نتيجة قيام جنود علي باشا بتخريب منازل المسحيين واليهود بعد القضاء على ثورة يونس ابن الباي علي باشا فقدم الأسطول الفرنسي المؤلف من ست بوارج بحرية بقيادة دوقيلارزيل (Devillarzel) إلى تونس لتوطيط دعائم السلم من جديد وبعد مدة غادر الأسطول بعد نجاحه في توثيق العلاقات بين البلدين.⁷

¹-Ferry Jules:La Tunisie Avant et de puis L'occupation Française. L' Librairie Coloniale Paris 1893 T1,pp161-162

²-محمد الباجي المسعودي:المصدر السابق، ص 123

³-حمودة بن عبد العزيز: التاريخ الباشي، مخطوط بدار الكتب الوطنية بتونس، رقم 1794، ورقة 197.

⁴-نفسه -الورقة، 199.

⁵-Mantran Robert :Imentaire Documents D'archives Tures de Dar Elbey _ Universitaires Presses France Paris1961,p 34.

⁶-شارل أندري جوليان: تاريخ إفريقيا الشمالية، تر: محمد مزالي والبشير بوسلامة، ج2، ط3، الدار التونسية للنشر، 1978، ص 383.

⁷-الفونص روسو: المرجع السابق، ص 200-208

أما فترة علي باي (1759م-1782م) فقد تميزت بالإستقرار في العلاقات في بدايتها وهذا بفضل وزيره مصطفى خوجة الذي كان مرتبطا بالمصالح الفرنسية وكذا بتغلغل الرأسمالية الأوروبية داخل البلاد التونسية وتكامل مصالحها مع مصالح رجال البايك وكبار التجار التونسيين¹ لكن هذا الوضع لم يستمر طويلا حيث شهدت العلاقات بين سنتي 1768م و1770م توترا بسبب رفض علي بإيلاق سراح أسرى جزيرة كورسيكا التابعة لامارة جنوة المعادية لتونس بعد أن ضمتها فرنسا سنة 1769م.²

كما تجدد الخلاف من جديد حول صيد المرجان³ بإضافة إلى ظهور قضية سليمان ريس الجربي الذي طلب من أحد المراكب الفرنسية المساعدة في عرض البحر لكنه رفض فأغلظ له سليمان القول فاشتكى قائد هذا المركب إلى الإمبريالية الفرنسية⁴.

نتيجة لهذه الأسباب أرسلت السلطات الفرنسية أسطولا حربيا إلى حلق الوادي في 28 محرم 1181 هـ / ماي 1770م قادما من كورسيكا⁵ وفي المقابل شرع الباي في تعزيز تحصيناته الدفاعية⁶ واندلعت الحرب بين الطرفين لكن بفضل الوساطة العثمانية تم عقد الصلح وتوقيع معاهدة السلام في 25 أوت 1770م بين القنصل دي سيزيو وعلي باي بقصر بارودو،⁷ وظلت العلاقات تسودها الصداقة والوفاق حتى وفاة علي باي 1782م، فخلال هذه الفترة عقدت معاهدة 24 جوان 1781م تم بموجبها حصول فرنسا على حق احتكار صيد المرجان في جميع مياه الإيالة التونسية لصالح الشركة الملكية الأفريقية⁸.

أما زمن حمودة باشا (1782م-1814م) فقد تأرجحت العلاقات بين السلم والتوتر ففي العشرية الأولى من حكمه ظلت العلاقات سيودها الوفاق من الطرفين فخلالها ثم

¹- الشريف محمد الهادي: تاريخ تونس ...، المرجع السابق، ص 93.

²-Ferry Jules: Opcit, p167

³ -عزيز سامح التر: المرجع السابق، ص 357.

⁴ -مقديش محمود: المصدر السابق، ص 169.

⁵ -عزيز سامح التر: المرجع السابق، ص 358.

⁶ - أحمد بن أبي الضياف: المصدر السابق، ج2، ص 202.

⁷ -ألفونس روسو: المرجع السابق، ص 229.

⁸ -ينظر الملحق رقم 07، ص 284

تحديد معاهدة صيد المرجان 8 أكتوبر 1782م¹ وعند قيام الثورة الفرنسية سنة 1789م وسقوط النظام الملكي سنة 1791م، استغل حمودة باشا هذه الوضع فقرّر وضع العلاقات مع فرنسا وبدأ يجاهرها بالعداء² لكن حنكة القنصل الفرنسي دوفواز (Devoize) وسياسته نجح في معاهدة سلام ع حمودة باشا سنة 1795م.³

وعلى أثر حملة نابليون بوناپرت على مصر 1798م قام حمودة باشا وبتوصية من السلطان العثماني سليم الثالث بقطع علاقاته مع فرنسا في 25 ديسمبر 1798م،⁴ لكنه بعد ذلك قام لعقد هدنة معها في 7 أوت 1800م لكن هذه الهدنة لم يكتب لها النجاح بسبب ضغط الباب العالي وإعلان إنجلترا الحرب على فرنسا سنة 1800م،⁵ وعلى إثر الوفاق العثماني الفرنسي 1801م أقدم حمودة باشا على توقيع معاهدة صلح مع فرنسا في 23 فيفري 1802م.⁶

إبتداء من النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي تحسنت العلاقات التونسية الفرنسية بصورة واضحة، حيث قامت فرنسا بتجديد الإمتيازات الممنوحة لها، إذ تم توقيع المعاهدة في 15 ديسمبر 1823م بين محمود باي والقنصل الفرنسي الجديد السيد قسطنطينجيس وفي مارس 1825م أرسل حسين باي (1824م-1835م) كاهيته بحلق الوادي محمود خوجة نائبا عنه إلى فرنسا من أجل المشاركة في حفل تولية الملك شارل العاشر العرش،⁷ هذا فضلا عن توقيع العديد من المعاهدات قدرت بحوالي 12 معاهدة أبرزها معاهدة 08-أوت-1830م، وقد تم خلال هذه المعاهدات تجديد الامتيازات مع إضافة شروط جديدة أغلبها لصالح فرنسا.

¹ - نفسه، ص 239.

²Plantet Eugène: T3. Opcit,pp 10-11.

³Rouard de Card: Opcit,pp 202-203.

⁴زهير الزواوي: الاستعمار وتأسيس الحركة الإصلاحية الوطنية التونسية، المطبعة المغاربية للطباعة والنشر، تونس 2006، ص 47.

⁵-ألفونص روسو: المرجع السابق، ص 269.

⁶-Plantet Eugène: T3. Opcit,p 425.

⁷-ألفونص روسو: المرجع السابق، ص ص 344-348.

وبفضل هذه المعاهدات وجد النفوذ الفرنسي سندا قانونيا يعتمد عليه في الداخل والخارج خاصتا وأن تلك المعاهدات وقعت دون وساطة¹. كما وقع الباي معاهدة في 08 جويلية 1830م مع القنصل الفرنسي ماثيو دوليسبس جدد من خلالها الإمتيازات الفرنسية السابقة².

ب- العلاقات السياسية مع إنجلترا:

ظلت العلاقات التونسية الإنجليزية تتسم بالإستقرار والسلم طيلة القرن الثامن عشرة ميلادي ففي أغسطس 1716م تمت معاهدة الصداقة بين الجانبين وفي سنة 1762م قام الضابط كليفلاند قائد البحرية بزيارة مجاملة إلى تونس على متن بارجة بحرية لإبلاغ الباي بجلوس الملك جورج الثالث على عرش إنجلترا وقد رحب به الباي أحسن ترحيب فأقام على شرفه مأدبة رسمية في بيت ريفي في ضاحية منوبة كماقدم له عدة هدايا ثمينة³.

أما في بداية القرن التاسع عشر فقد إشتد التنافس البريطاني الفرنسي على تونس وأصبحت بريطانيا تتدخل للوساطة بين الإيالة التونسية والدويلات الإيطالية من أجل بسط نفوذها ففي شهر يناير 1812م وصلت إلى مرسى حلق الوادي بارجة إنجليزية تحت قيادة الضابط سميث من أجل إبرام صلح مع الإيالة بإسم حكومة صقلية إلا أن الباي حمودة باشا رفض هذه المبادرة وفي سنة 1815م حاول القنصل البريطاني في تونس السيد أوجلاندر الإشراف على المصالح التجارية لنابولي لكن محمود باي رفض الإعراف به كمثل لمملكة نابولي وبهذا قضى على أحلام إنجلترا التي كانت تتطلع إلى التحكم في علاقة الإيالة مع الدويلات الإيطالية وبسط ونفوذها عليها 1818م.

بعد مؤتمري فيناسنة 1815م واكس لاشابيل 1818م أصبحت العلاقات الانجليزية التونسية أكثر توترا وهذا بسبب التهديد البريطاني للإيالة، ففي عام 1816م شهد حملة

¹Rouard de Card: Opcit،p 107.

²مقديش محمود: المصدر السابق، ص 169

³ألفونص روسو: المرجع السابق، ص ص 200-202

اللورد إكسماوث على سواحل شمال إفريقيا ومنها الإيالة التونسية وهذا من أجل الضغط عليها لوقف الغزو البحري (القرصنة)، وفي 21 سبتمبر 1819م وصل أسطولها مرة أخرى إلى حلق الوادي مهددا الإيالة بوقف أعمال القرصنة ووضع حد لأعمال السلب والنهب التي تقتربها بواخرها البحرية¹.

من خلال ماتقدم ندرك أن إنجلترا كانت تنتهج سياسة تقوم على مبدأ المحافظة على التوازن في البحر الأبيض المتوسط لذلك نراها تؤيد ربط العلاقات بين الباي والسلطان العثماني من جهة وتحارب النفوذ الفرنسي في تونس من جهة أخرى²، فهي تريد الحصول على رضا السلطان والباي في آن واحد إلا أن هذه السياسة لم تعد ممكنة بعد منتصف القرن 19م.

وعلى الرغم من ذلك فقد ظل الموقف الإنجليزي يرفض الاعتراف بمنح تونس حق التفويض الفعلي لوكلائها في الخارج خاصة المتواجدين في موانئها، فعندما زار أحمد باي فرنسا سنة 1846م³ تأكد أن إنجلترا لا تقبله إلا بحضور مبعوث الدولة العثمانية بلندن جريا على مقتضى سياستها فأرسل إليها كتابا «إن إستنادي إلى الدولة العليا وثيق البنيان... وقد قبلتم رسلنا بغير واسطة والرسول نائب فكيف تتوقفون على واسطة في قبول المنوب عنه؟ ولنا معكم شروط محترمة على أن زيارتنا لدولتكم إنما هي زيارة تأكيد للمحبة وحيث توقفتم في ذلك على واسطة فإنه يتعذر عليا خرق عادة في آلي بيتي ولم يظهر لي سبب يفتضي خرقها فهذا عذري في عدم القدوم وبودّي أن ذلك لم يقع»⁴، لكن إنجلترا لم تأبه بذلك وظلت متمسكة بهذه السياسة إذا في عهد محمد الصادق باي (1859م-1882م)، رفضت أن تخصص جناحا خاصا لتونس بمعرض لندن الدولي سنة 1860م

¹-ألفونص روسو: المرجع السابق، ص ص 295-334

²-تشايحي عبد الرحمان: المسألة التونسية والسياسة العثمانية (1881-1913)، تع: عبد الجليل تميمي، دار الكتب

الشرقية، تونس 1973، ص 36

³-ابن أبي الضياف أحمد: المصدر السابق، مج 2، ج 4، ص 109

⁴- ابن أبي الضياف أحمد: المصدر السابق، مج 3، ج 6، ص 149

تحت راية الدولة التونسية وأصرت أن تكون ذلك تحت راية الدولة العثمانية وبنفس جناحها.

إن هذا الموقف يمثل نموذجا للموقف الراض لاستقلال تونس، فقد كانت وزارة الخارجية البريطانية تستعمل في مراسلتها الرسمية مع الباي لقب اللورد والى تونس، وهي نفس الصفة التي يقدمها الباب العالي¹.

إن هذا الموقف لعكس السياسة البريطانية الرامية إلى المحافظة على الوحدة الترابية للدولة العثمانية والولايات التابعة لها مثل طرابلس، تونس، الجزائر ومرد ذلك إبعاد الخطر الروسي والفرنسي عن مياه المتوسط،² إلا أن رغبة الأسرة الحسينية في الإستقلال جعل نفوذ إنجلترا يتأكل يوما بعد يوم رغم المصالح التجارية التي تربطها ورغم النفوذ القوي الذي يحظى به القنصل البريطاني في تونس توماس ريد وقد وصفه أحد الرحالة الأوربيين حين زار تونس لقوله «ولقد سمعت عن العديد من الأوربيين المقيمين بتونس أن نفوذه (أي القنصل) يفوق نفوذ الباي نفسه»³.

ج-العلاقات السياسية مع إسبانيا:

لقد تميزت العلاقات التونسية الإسبانية خلال القرن الثامن عشر بالتوتر والتنافس الشديد في الحوض الغربي للمتوسط كان ذلك نتيجة الصراع الديني (المسلمين والكاثوليك) إستمر هذا التنافس إلى أواخر القرن الثامن عشر وهذا بإستثناء الإتفاقية المبرمة 1720م /1132هـ بين حسين بن علي والراهب فرانسيسكو خمينيس المشرف على منظمة رهبانية الثلوث المقدس لافتداء الأسرى وقد تضمنت الترخيص لهذه المنطقة للعمل في تونس والملاحظة على هذه الإتفاقية أنها لم تنظر في السفن ولا التجارة ولا غيرها.

¹-منير عبيد: المرجع السابق، ص 89

²-عبد المجيد الجمل: المرجع السابق، ص 21

³-هاينريش بارت: سبع رسائل مخطوطة عن رحلته إلى تونس 1845-1846 تح وتع: منير الفندري، درا بيت

الحكمة، تونس، 1987م، ص 24.

وفي أواخر القرن الثامن عشر قامت إسبانيا بعقد سلسلة من المعاهدات مع الإيالات المغاربية والمغرب الأقصى كان آخرها مع تونس سنة 1791م،¹ وفي هذا الإطار طالبت إسبانيا سنة 1785م من داي الجزائر محمد بن عثمان باشا التوسط لإبرام الصلح مع تونس² فأرسلت الجزائر بعثه إلى تونس لإقامة الصلح بين البلدين إلا أن هذا الصلح تأخر بسبب قيام السيد خوان صولير (Juan Soler) المفاوض الثاني لإسبانيا إلغاء الهدنة التي عقدها سلفه السيد بازليني (Basselini) مع حمودة باشا في مارس 1786م. وفي المقابل إستغل الباي هذا الوضع لفرض شروطه على اسبانيا حيث طالب أن تكون المعاهدة مع تونس على شاكلة معاهدة اسبانيا مع الجزائر واستمرت المفاوضات من جديد بتعيين مفاوض ثالث السيد بيدرو سوتشيتا (Pedro Suchita) الذي قدم إلى تونس 21 فيفري 1787م لكنها فشلت بسبب تعنت الباي ورفضه التفاوض لعقد السلام النهائي وعدم استعداد البلاط الإسباني قبول الشروط المالية التي فرضها الباي.³

لقد إستطاع المفاوض الإسباني الجديد تخفيض المبلغ المالي المشروط من أربعة مائة ألف إلى مائة ألف بياستر مما أدي إلى إيداء حسن النوايا من الطرفين ونتج عن ذلك عقد معاهدة صلح سنة 1791م.

تضمنت المعاهدة ستة وعشرون مادة وكانت تهدف إلى تنظيم الملاحة البحرية بين البلدين ووضع قوانين تسليم السلع بينهما،⁴ لكن العلاقات سرعان ما عادت إلى توتر من جديد حيث قام حمودة باشا بإلقاء القبض على بعض الرعايا الإنسبان دون الإعلان المسبق بالقطيعة سنة 1802م فأرسلت له اسبانيا مجموعة من الهدايا الثمينة مع قنصلها الجديد

¹-الحلاوي نور الدين، وثائق عن العلاقات بين تونس وإسبانيا في أوائل القرن التاسع عشر، م.ت.م، العدد 15-16، جويلية 1979، ص 87

²-يحي بوعزيز: المراسلات الجزائرية الإسبانية في أرشيف التاريخ الوطني لمدريد (1780-1798)، د.م.ج، الجزائر، 1993، ص 60

³-يحي بوعزيز: إسبانيا توسط الجزائر لإبرام صلح مع تونس، دفاتر التاريخ المغربية، وهران، العدد 1، 1987، ص 66.

⁴-يحي بوعزيز: المراسلات الجزائرية الإسبانية، المرجع السابق، ص 66

سيقى (Segui) الذي عين سنة 1804م فقام الباي بإطلاق سراح الرعايا الإنسبان،¹ عندما تولى الملك جوزيف أخ نابليون بونابرت عرش إسبانيا في سنة 1807م،² أصبح القنصل الفرنسي الممثل الرسمي لإسبانيا لكن المجموعة العسكرية المعارضة للملك في إسبانيا أبقّت على القنصل سيقى الممثل الشرعي لإسبانيا. لكن سرعان ما عزل بسبب تباطله في تسديد ديون بعض أثرياء تونس،³ وحل مكانه القنصل أرنولد سولير الذي استطاع أن يفتح حكومته بضرورة دفع ديون سيقى السابقة إلى الإيالة التونسية،⁴ فأرسلت حكومة إشبيلية إلى الباي في 25 أفريل 1809م رسالة تخبره فيها بأنها ستسدد جزء من الدين، أما الجزء المتبقي فإنها ستقوم بإعفاء التجار التونسيون لذي لهم ديون على سيقى من الرسوم الجمركية في ميناء أليكانت الإسباني إلى غاية استيفاء ديونهم وبهذا إنتهت مشكلة ديون القنصل سيقى،⁵ وعادت العلاقات إلى التحسن من جديد ففي 13 سبتمبر 1810م بعث الملك الإسباني دون فرناندو السابع رسالة شكر وإمتنان إلى حمودة باشا بسبب رفضه مقترح نابليون بونابرت إستعمال موانئ تونس لضرب القوات الإسبانية.⁶

ثانيا: العلاقات السياسية مع الدويلات الإيطالية

إن علاقة تونس مع الممالك الإيطالية قديمة بحكم التاريخ والجغرافيا والهجرة صعودا ونزولا، لهذا نجد العديدات من العلاقات التجارية وحسن الجوار منذ القرن 13م.⁷ أما بخصوص العهد الذي ندرسه فقد شهد أيضا العديد من المعاهدات السياسية بين الإيالة التونسية والممالك الإيطالية منها المعاهدة التي وقعت أول سبتمبر 1763م الموافق

¹-ألفونس روسو: المرجع السابق، ص 271

²-عبد الفتاح أبو عليه وإسماعيل ياغي: تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر، دار المريخ للنشر، السعودية، 1993، ص 296.

³-ألفونس روسو: المرجع السابق، ص 288

⁴-Soler Arnaldo: Chargé D'affaires D'Espagne A Tunis et Sa Corres Pondance 1808 _ 1810 In R_ T ,№ 12,,1905,pp306-308

⁵-Ibid,p309.

⁶-Ibid: In R_ T Tunis,1905 №49,p 383

⁷-منير عبيد: المرجع السابق، ص 86.

ل22 صفر 1077هـ وهي معاهدة صلح وملحة بحرية وتجارية بين جمهورية البندقية وبين إيالة تونس.¹

أما في عهد حمودة باشا فقد انتهج سياسة متباينة مع الدويلات الإيطالية فالبعض منها أقام عها علاقات صداقة وسلام والبعض الآخر سلك معها سياسة الشدة والصرامة وذلك وفق ما يخدم صالح الإيالة² فقد شهدت الفترة (1784م- 1792م) حربا بطيئة ومتعبة حسب تعبير المؤرخ بلانتي (Plantet) بين جمهورية البندقية وإيالة تونس³ إنتهت بعقد صلح بين الطرفين في 20 ماي 1792م،⁴ أما مملكة نابولي فقد حاولت أن تنهي الصراع القائم بين البلدين في إطار نشاط القرصنة حيث طلبت من مندوب فرنسا بتونس السيد فامان سنة 1797م التوسط لعقد السلام عها لكن هذا المسعى لم ينجح⁵ وبعد ضم فرنسا لمملكة نابولي إليها سنة 1806م جرت مفاوضات عديدة مع الباي حمودة باشا من أجل عقد معاهدة صلح لكنها باءت بالفشل.⁶

وبعد خروج مملكة نابولي عن حكم فرنسا سنة 1814م طلبت من مفوضها بتونس السيد رناتومارينو ضرورة عقد الصلح مع الباي لكن هذا الأخير أضطر إلى عقد هدنة مدتها سنة واحدة في 26 مارس 1814م وذلك بسبب توتر علاقته مع الجزائر ثم عقدت مملكة نابولي معاهدة الصلح بعد وفاة حمودة باشا سنة 1816م.⁷

أما بخصوص علاقة الإيالة مملكة صقلية فإنه نتيجة لنشاط القرصنة الممارس من كلا الطرفين فقد ظل العداء والحرب بينهما مستمرة إلى غاية بداية القرن التاسع عشر الميلادي عندما استولى الإنجليز على الجزيرة⁸ عندها أصبحت إنجلترا تحاول عقد السلم

¹-ألفونص روسو: المرجع السابق، ص 221

²-Grand Champ Pierre:Opcit ,p 176

³-Plantet Eugène:T3, Opcit ,p10

⁴-ألفونص روسو: المرجع السابق، ص 255.

⁵-Plantet Eugène:T3, Opcit ,p315

⁶- Ibid,pp502_508

⁷-ألفونص روسو: المرجع السابق، ص ص 298-299

⁸-Maggil Thomas: Nouveau Voyage A Tunis Publie En 1811Editeur de de s Sienres Médicales Paris,1981,p77

بين تونس وحكومة صقلية كان ذلك سنة 1812م،¹ إنطلقت المفاوضات بين الباي محمود والأميرال سيدني سميث (Sidney Smith) في أبريل 1812م إنتهت بتوقيع هدنة بين صقلية وتونس مرهونة لمدة الوجود الإنجليزي في صقلية.²

أما بالنسبة للتمثيل الدبلوماسي بين الدويلات الإيطالية وإيالة تونس فقد كان الأقوى بين الدول الأوروبية من حيث الصفة لا النفوذ، فقد إعترفت الممالك الإيطالية بصفة رسمية بالقنصليات التونسية الموجودة على أراضيها.

فوجد نائب القنصل بمدينة نيزا يحصل على الموافقة الرسمية في 31 أوت 1818م أما جنوة، القرنة أنكونة بالرموكالياري فقد ذكرت أسماء تونس بالحوليات الدبلوماسية وهذا مايعطي لوظيفتهم الصبغة الرسمية. لكن بعد الوحدة الإيطالية 1861م سعت الحكومة الجديدة إلى إعادة النظر في الصفة الرسمية التي يتمتع بها ممثل الباي فجاء قرار الملك إيمانويل بالإمتناع عن تقديم وافقات جديدة لكن دون سحب التراخيص القديمة،³ وهو ما يضي على العلاقات البينية سمة الإستقرار والإستمرارية.

ثالثا: العلاقات السياسية مع الإيالات المجاورة

أ-العلاقات السياسية معإيالة الجزائر:

لقد إتسمت العلاقات السياسية بين الإياليتينالتونسية والجزائرية خلال عهد الحسيني عموما بطابع التوتر كما سادتها بعض فترات السلم الحذر وهذا على الرغم من تبعيتهما المباشرة للخلافة العثمانية وكان لكل طرف حججه ومبرراته لتدخل في شؤون الآخر وقد كانت لهذه السلوكات السياسية بين الإياليتين تأثير بالغ على أوضاعهما.

فخلال مرحلة الباي المؤسس حسين بن علي شهدت العلاقات تطورا مهما من حالة العداء والنزاع خلال الخمس سنوات الأولى من القرن الثامن عشر إلى حالة السلام وحسن

¹-Plantet Eugène:T3, Opcit ,p500

²-ألفونس روسو: المرجع السابق، ص 296

³-منير عبيد: المرجع السابق، ص ص 86-87

الجوار وظل هذا السلام قائماً لمدة تزيد عن ربع قرن¹ لكن بحلول سنة 1732م نحت العلاقات بشكل متسارع إلى التوتر والصدام وهذا بسبب إتهام داي الجزائر إبراهيم الكبير باي تونس بالتقاعس عن تقديم يد العون لتحرير مدينة وهران والمرسى الكبير من أيادي الإسبان² كما إتهمه بمظاهرة الإسبان بمأمدهم به من الأتوات فأعانهم بذلك على أخذ وهران³ لهذا نرى داي الجزائر يطلق سراخ علي باشا ابن أخ الباي حسين بن علي ويعده بالقيام بحملة عسكرية لتمكينه من الوصول إلى الحكم في تونس،⁴ بعد أن قدم له هذا الأخير وعود مغرية في حالة وصوله إلى السلطة.⁵

إنطلقت الحملة من الجزائر في ماي سنة 1735م الموافق لذي الحجة سنة 1147م،⁶ وقد قدرت قواتها بأربعة آلاف (4000) جندي مدعمن بقوات من قبائل الحناشنة،⁷ بوعزيز وبني مناصر،⁸ والتقت بالقوات التونسية في موقعة سمنجة في 4 سبتمبر 1735م وألحقت بها الهزيمة ثم وصلت إلى مدينة تونس ونصبت علي باشا باي على تونس.

¹ - ابن خروف عمار: العلاقات السياسية بين الجزائر وتونس في القرن 18م / 12هـ، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، تيزي وزو، الجزائر، 2017، ص 89

² - DeGrammont (H): Histoire d'Alger Sous la Déamination Turque (1515-1830), Paris, 1887, pp 288-289.

³ - حمودة بن عبد العزيز: المصدر السابق، المخطوط، ص 355.

⁴ - ابن خروف عمار: المرجع السابق، ص 93.

⁵ - يذكر المؤرخ عزيز سامح التري: بأن علي باشا وعده بدفع 200 ألف إيكو (عملة فرنسية في القرن السادس عشر) سنويا سامح عزيز التري: المرجع السابق، ص 487، بينما أحمد توفيق المدني، يذكر أنه وعده بدفع 3500 فرنك فرنسي سنويا مع كمية القمح، أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 70.

⁶ - حمودة بن عبد العزيز: المصدر السابق، مخطوط، ص 357

⁷ - للمزيد حول قبيلة الحناشنة وعلاقتهم بالسلطة في تونس يراجع العربي الحناشي: الحناشنة وعلاقتهم بالسلطة في تونس (1640-1740) مذكرة مقدمه لنيل شهادة الكفاءة في البحث، جامعة تونس الأولى، السنة الجامعة (1987-1988)

⁸ - ابن المفتي: تاريخ باشوات الجزائر وعلمائها، جمع فارس كعوان، ط1، بيت الحكمة، الجزائر، 2009، ص 72 وكذلك محمد الصالح العنترى: فريدة منسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستلائهم على أوطانها، تح: يحي بوعزيز، دار هومه للنشر والطباعة والتوزيع، الجزائر، 2005، ص 69.

أما في فترة علي باشا (1735م-1756م) فقد عرفت العلاقات تذبذب واضحا وخلال الخمس سنوات الأولى من حكمه مالت العلاقات نحو الفتور بل نحو التوتر وهذا يرجع إلى عدم جدية الجزائريين في مساعدة أحد طرفي النزاع لأن مصلحتهم في عدم للعمل على تغليب طرف على آخر، ثم البتت هذه العلاقات أن عرفت تحسنا خلال السنوات الثلاث الموالية (1740م-1743م) وبتوالي الداوي إبراهيم الصغير الحكم في الجزائر بدأ التوتر بينه وبين علي باشا فقرر داي الجزائر تجهيز حملة عسكرية من أجل مساعدة أبناءحسين بن علي لإسترجاع حكم والدهم¹، في ربيع الأول 1159هـ / أبريل 1746م خرجت المحلة من الجزائر،² وقد قدرت قواتها بحوالي 6000 جندي تركي، حسب فالبير بالإضافة إلى قوات حسن باي قسنطينة وقوات مختلفة من القبائل المناصرة لأبناء حسين بن علي،³ إلا أن هذه الحملة فشلت في تجاوز قلعة الكاف الحصينة وإنسحبت دون تحقيق أهدافها.

وظل السلام الحذريميز العلاقات بين الإيالتين حتى وفاة داي الجزائر محمد بن بكير في 11 ديسمبر 1754م،⁴ بعد تولي الداوي علي بوصبع الحكم الذي كان ميالا إلى الحرب محبا للصدام⁵ عكس سلفه، نظرا لعدة عوامل يطول الحديث لذكرها⁶ بدأت العلاقات تميل إلى الصدام. فجهز الداوي حملة عسكرية قوامها 7000 من الجنود المشاة ومن عدد غير محدد من فرسان بايلك الشرق الجزائري،⁷ وقد قاد الحملة الباوي حسن أزرق عينو، باي قسنطينة وبالتعاون مع أبنوي الحسين بن علي ومحمد وعلي.

لقد كان هدف الحملة هو تحقيق ما عجزت عنه حملة 1746م وهو إسترجاع محمد وعلي حكم والدهم. فواصلت الحملة إلى مدينة الكاف التونسية في 8 رمضان 1169م

¹-بن خروف عمار: المرجع السابق، ص ص 113-127

²-حمودة بن عبد العزيز: المصدر السابق، المخطوط، ص 421

³-بن خروف عمار: المرجع السابق، ص 131.

⁴-نفسه، ص 150.

⁵-DeGrammant (H): Opcit, pp 309 – 317

⁶-لمعرفة هذه العوامل بالتفصيل يراجع: بن خروف عمار: المرجع السابق، ص ص 154-159

⁷-Ventur de Paradis: Tunis et Alger Au 18 Es Paris, 1983, p30.

الموافق ل 6 جوان 1756م حسب رواية ابن يوسف¹ واستطاعت الدخول إليها والتوجه نحو مدينة تونس ومحاصرتها وبعد عدة معارك بين جيشي الإيالتين إستطاع الجزائريون الدخول إلى المدينة وقتل الباي علي باشا وتنصيب محمد بايا جديدا في 25 سبتمبر 1756م،² وتعهد خلالها محمد باي بتقديم هدايا لداي الجزائر ولباي قسنطينة فصارت ضريبة سنوية لا يمكن لتونس أن تتخلف عن أدائها.³

أما الفترة الممتدة من (1756م-1807م) فقد ظلت الإيالة التونسية تحت الهيمنة الجزائرية فتميزت العلاقات بنوع من السلام الطويل وأحيانا متبوعا بالحدز وذلك لإلتزام حكام تونس بشروط الجزائر بالرغم من كمال الحقهم منتعسفازائها خاصة ما يتعلق بالجانب الإقتصادي⁴.

لقد كان لطموح حمودة باشا الإستقلال عن الجزائر وكذا لتوفر عدة عوامل الأثر البالغ في إعلان حمودة باشا الإنسلاخ من كلالإلتزامات التي تربطه بالإيالة الجزائرية ومهاجمته بايالك قسنطينة،⁵ في حوالي 11 جانفي 1807م استمر حصار المدينة حتى أفريل من نفس السنة، ولم يستطع الحسين بن صالح باي مقاومة باي تونس وذلك لخطأ إستراتيجي ناجم عن تمركز جيشه في سطح المنصورة وعدم ملاقاته الجيش التونسي خارج المدينة،⁶ إلا أن قدوم القوات الجزائرية برا وبحرا قلب الهزيمة إلى نصر ورجعت القوات التونسية منهزمة إلى بلادها.⁷

¹-الصغير بن يوسف: المصدر السابق، ج2، ص ص 70-74.

²-بن خروف عمار: المرجع السابق، ص ص 170-183

³-Ventur de Paradis: Opcit,p 80.

⁴-بن خروف عمار: «علاقات الجزائر السياسية مع تونس في عهد الدايات (1082-1246هـ / 1671-1830م)، مجلة الدراسات التاريخية، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، العدد العاشر، 1977، ص 379.

⁵-MouloudGaid: Les Berbères Dans L'histoire _ Lutte Contre le Colonialisme 1 Er Tr :Edition Mimouni,Alger.2009,T3,p46.

⁶-رشاد الإمام: سياسية حمودة باشا في تونس، المرجع السابق، ص 395

⁷- الشريف الزهار أحمد: مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار نقيب أشرف الجزائر، تح: أحمد توفيق، المدني الشركة الوطنية لنشر والتوزيع، الجزائر، 1974، ص 96-97

استجمع حمودة باشا قوى دولته المرتبكة وقرر إرسال حملة ثانية للجزائر هذه المرة تحت قيادة وزيره يوسف صاحب الطابع فجمع جيش قدره أربعة وعشرون ألف مقاتل وخرج به إلى الجزائر والتقى الجيشان في مكان يدعى سلاطة بين مدينة الكاف والحدود الجزائرية إنهزم في هذه المعركة الجيش الجزائري شر هزيمة جويلية 1807م.¹ منذ ذلك الحين أصبح داي الجزائر يركز نشاطه الحربي ضد حمودة باشا على قواته البحرية مما أثرت تأثير كبير على تجارة تونس الخارجية² وفي مطلع القرن التاسع عشر عرفت العلاقات السياسية بين الإيالتين نموذج جديد من صور التوتر وهو الصراع البحري أو المناوشات البحرية،³ ففي سنة 1811م شن الجزائريون غارة على جربة نزولا عند أوامر الداوي الحاج علي باشا، لكن جهله لجغرافية المنطقة حال دون تمكنهم من الإستلاء عليها⁴، وفي سنة 1812م قامت القوات البحرية الجزائرية لمحاصرة ميناء حلق الواد من أجل عقد صلح مع حمودة باشا لكنها فشلت في مسعاها،⁵ وهكذا إستمرت العلاقات بين الطرفين بين مدوجزر إلى غاية 1821م أين كللت مساعي الدولة العثمانية بالنجاح حيث تمكنت من عقد صلح نهائي بين الإيالتين.⁶

الملاحظ أن هذه الصلح قد أنهى الصراع بين الإيالتين بشكل قطعي لكن عواقب الحقد المترسبة في أذهان حكام تونس ضد حكام الجزائر جعلتهم يتعاونون مع فرنسا أثناء إحتلالها للجزائر وإن كان البعض يرجع تعاونهم ناتج عن عدة إعتبارات أخرى. في

¹ -رشاد الإمام: سياسة حمودة باشا في تونس: المرجع السابق، ص 396-397

² - ابن سلامة محمد الطيب: العقد المنضد في أخبار المشير الباشا أحمد، مخطوط رقم: 18618، المكتبة الوطنية، تونس، ص ص 82-83.

³ - أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص 78

⁴ - الشريف الزهار أحمد: المصدر السابق، ص 106

⁵ -رشاد الإمام: سياسة حمودة باشا في تونس، المرجع السابق، ص 401

⁶ - الشريف الزهار أحمد: المصدر السابق، ص ص 107-108 وكذلك ينظر في إبراهيم شحاتة: أطوار العلاقات المغربية العثمانية قراءة في تاريخ المغرب عبر خمس قرون (1510-1947)، منشأة المعارف، مصر، 1981م،

الأخير يمكن لباحث التساؤل ماهي الأسباب الحقيقية التي كانت وراء كل هذه التواترات والصدمات بين الإيالتين طيلة القرنين الثامن عشر والتاسع عشر؟

يمكن تصنيفها إلى أسباب تاريخية وإقليمية وأخرى سياسة وإقتصادية إن تخلص الجزائريين لتونس من الإسبان وضمها للدولة العثمانية تكونت لديهم فكرة تبعية هذا الإقليم لهم حيث كان يتم تعيين باشاوات تونس عن طريق بايلرباي الجزائر.

أما الأسباب السياسة فتمثل في عمل حكام تونس على زعزعة إستقرار الجزائر من خلال مساعدتها على بعض التمردات داخل الجزائر وفي المقابل تدخل الجزائر في الشؤون السياسة الداخلية لتونس من خلال خلع الحكام وتنصيب حكام آخرين لضمان تحقيق مصلحتها.

في حين تتمثل الأسباب الإقتصادية في أنه عند تعين الجزائر بايا في تونس تقيده بشروط يتعهد من خلالها على أدائها للجزائر كتعبير عن تبعية لها فكلما حاول حكام تونس التملص من هذه الإلتزامات والشروط تثار ثائرة حكام الجزائر فيقومون بشن حملات تأديبية من أجل تنيهم عن هذه الخطوة.

بعد إحتلال الجزائر من طرف فرنسا سنة 1830م سيطرتها على مدينة قسنطينة عام 1837م أصبحت مسألة الحدود مطروحة من جديد بين الإيالة التونسية والمستعمرة الجزائرية.

وفي هذا الإطار إعتبرت السلطات الفرنسية أن منطقة نهد المتاخمة على الحدود التونسية الجزائرية أصبحت بعد 1830م من ممتلكات فرنسا وقد أسالت منطقة نهد حبرا كثيرا وأدعى كل طرف أحقيته عليها ونظرا لاختلال موازين القوى بين الطرفين لم يستطيع المشير أحمد باي (1837م-1855م) إقناع السلطات الفرنسية بحقه على نهد وبقي يماطل ويتلأأ ويتردد في إتخاذ الموقف المناسب وفي المقابل لم تتجرأ فرنسا في ضم نهد إلى الجزائر بصفة نهائية،¹ وفجأة قامت القوات الفرنسية سنة 1843م بهجوم واسع على

¹ ابن سليمان فاطمة: الأرض والهوية، نشوء الدولة الترابية في تونس، 1574-1881، منشورات كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تونس، 2009، ص ص 272-286.

القبائل الحدودية التابعة لباي تونس ونتيجة لهذه الأحداث قبل الباي بتسطير الحدود وفي سنة 1845م تم لأول مرة رسم خط حدودية بالمعنى الحديث بين إيالة تونس والجزائر وسمي هذا الخط بإسم الجنرال رندون الحاكم العام لعنابة والقالة¹.

يبتدي الحد من رأس الصقلاب أوكابوروسو لامن بيربرج القالة كما أراد الباي ولامن طبرقة كما أرادت فرنسا أما منطقة نهد فشملها وضع خاص إذ لم يبت نهائيا في شأنها².

بعد ست سنوات من رسم الحدود حافظت خلالها منطقة نهد على وضعها القانوني الخاص قررت فرنسا سنة 1851م ضمها نهائيا إلى الجزائر وكان سبب الضم على مايبودوا مسألة منجم الرصاص الواقع جنوبي منطقة نهد³.

بعد سنة 1851م أصبحت السياسة الفرنسية أكثر تهجما على السيادة الترابية للباي فحاولت إستدراج العروش المجاورة للدخول تحت حمايتها بشتى الطرق، كماقامت فرنسا بمراقبة الحدود عن طريق إنشاء أبراج مراقبة على طول الحدود بين البلدين مع منح التراخيص للوافدين والخارجين لضبط حركة الرعايا من الجانبين وتحديد هويتهم الترابية⁴.

ب. العلاقات السياسية مع إيالة طرابلس:

كانت سياسة البايات الحسينيون الأوائل قليلا ما تهتم بشؤون البلاد الطرابلسية وذلك لأنها بلاد «فقيرة ضعيفة جدا مقسمة ومضطربة» وبالتالي لم تحدث أي منازعات بينهما طيلة القرن الثامن عشر،⁵ وترى الباحثة التونسية فاطمة بن سليمان أن ذلك يعود إلى سببين الأولي تشابه طبيعة الحكم بين الايالتين والثاني ضعف القوة العسكرية لحكام طرابلس، وفي ظل هذا التوافق ظلت القبائل الحدودية الطرابلسية التونسية في نمط عيش يعتمد على

¹ - ينظر الملحق رقم 11، ص 293

² - بن سليمان فاطمة: المرجع السابق، ص ص 286-296.

³ - ينظر الملحق رقم 12، ص 294

⁴ - نفسه، ص ص 296-312.

⁵ - رشاد الإمام: سياسة حمودة باشا في تونس، المرجع السابق، ص ص 368-369

العلاقات التضامنية فيما بينها فنجد على جهة الحدود التونسية قبائل ورغمة،¹ والودارنة وفي الجهة المقابلة أي على الحدود الطرابلسية قبائل النوايل.²

أما في فترة حمودة باشا (1782م-1814م) فتغير الوضع في طرابلس بسبب الحروب والفتن بين أفراد عائلة القرماني حول السلطة ووصل الأمر إلى تهديد أمن إيالة تونس ففي جويلية 1793م وأثناء الصراع عن السلطة بين العائلة الحاكمة إستغل رجل من أتراك الجزائر يدعى علي برغل الوضع،³ وقام بالتعاون مع إسطنبول للدخول إلى طرابلس والإطاحة بعلي باشا القرماني المسن وهرب هذا الأخير إلى تونس ثم لحقه إبنه أحمد يوسف،⁴ لم يكتف علي برغل بالسيطرة على طرابلس فقام بضم جزيرة جربة التونسية إليه في 30 سبتمبر 1794م تحت قيادة قارة محمد التركي عندما علم حمودة باشا بالأمر قام بتجهيز حملة عسكرية تحت قيادة وزير مصطفى خوجة سارت إليه في 2 نوفمبر 1794م، ووصلت إلى طرابلس في 16 جانفي 1795م، واستطاعت إلحاق الهزيمة بعلي برغل وإعادة حكم الأسرة القرمانية من جديد وتم تنصيب أحمد باي القرماني على طرابلس ثم رجع الجيش التونسي إلى تونس في 12 مارس 1745م.⁵

أما بالنسبة لجزيرة جربة فقد جهز حمودة باشا أسطولا حربيا قوامه 4 آلاف مقاتل وخرج من حلق الوادي تحت قيادة الحاج علي الجزيري وخرج الأسطول في 8 نوفمبر 1794م وإستطاع أن يسترجع جربة في مدة قصيرة ودون قتال بعد هروب حاكمها قارة محمد التركي إلى طرابلس،⁶ ومنذ تلك الحقبة إزداد تمتين الصداقة والمحبة بين الأسرتين الحسينية والقرمانيية فقد أقام القرمانيون وكيلا دائما لهم في تونس كما أقام

¹- للمزيد حول موضوع: قبائل ورغمة يراجع ليسر(ف): تجمع ورغمة تحت الإدارة العسكرية الفرنسية (1881-1939)، شهادة التعمق في البحث، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، 1999.

²- بن سليمان فاطمة: المرجع السابق، ص 212-213

³- ابن أبي الضياف أحمد: المصدر السابق، ج 3، ص 21-22

⁴- ألفونس روسو: المرجع السابق، ص 265

⁵- ابن أبي الضياف أحمد: المصدر السابق، ج 3، ص 22-25

⁶- نفسه، ص 27

حمودة باشا وكيلا دائما في طرابلس وظل هذا الأخير يستقبل العديد من الضيوف الطرابلسيين سواء من عائلة القرمانلي أو من رجال دولتهم ويوفر لهم أسباب الراحة.¹ بعد وفاة حمودة باشا إستمر حكام طرابلس في مراسلة بايات تونس ففي سنة 1817م بعث باشا طرابلس لباي تونس محمود باي رسالة يقول له فيها «... لأن المحبة التي بيننا قديمة ليست حادثة وهي متصلة بالآباء ونحن كذلك لاثحول عن هذا الحال مادامت الأيام والليالي ... والمطلوب من سيادتكم أن لا تقطعوا علينا جواباتكم فبذلك ننسر غاية السرور ويحصل لنا من عالي همتكم ما نتشرف به الصدور...»² وعندما اشتد الصراع حول السلطة في طرابلس سنة 1835م طلب أهلها مساعدة باي تونس حسين باي لهم على تولية من يرضونه وهو إين أخي علي باي القرمانلي، لكن باي تونس لم يستطيع التدخل لعجزه على ذلك فعندئذ أرسلت الدولة العثمانية أسطولها إلى طرابلس فقام بخلع علي باي من منصبه وضم إيالة طرابلس إلى إدارة الدولة العثمانية³. وبذلك إنتهى حكم الأسرة القرمانلية في ليبيا.

أما بالنسبة لمسألة الحدود فالراجح أن الظروف الطبيعية كغلبة الطابع الصحراوي على المنطقة جعل عملية مراقبة الحدود تأخذ طابعا مميزا إذا ماقورنت بالجزائر⁴ وفي هذا الصدد يذكر الباحث خليفة الشاطر وجود إتفاقية تم توقيعها بين الطرفين سنة 1815م وأن حمودة باشا أثناء حربه مع علي برغل سنة 1794م قام بتثبيت الحد الفاصل بين الأياليتين⁵ كما قام بمكاتبة رعاياه المتواجدين في الجنوب الشرقي من الإيالة ينبههم إلى ضرورة الإلتزام بالحدود الفاصلة بين الإياليتين⁶.

¹ -رشاد الإمام: سياسة حمودة باشا في تونس: المرجع السابق، ص 378

² -أ. و. ت: مل 412 ورقة رقم: 274

³ -ابن أبي الضياف أحمد: المرجع السابق، ج3، ص ص 202-203.

⁴ -بن سليمان فاطمة: المرجع السابق، ص 212

⁵ - Khalifa Chater: Dépendance et Mutations Précoloniales: la Régence de Tunis de 1815 À 1857, Tunis, Faculté des Sciences Humaines et Sociales de Tunis, 1984. pp56 57

⁶ -جحيدر عمار: آفاق ووثائق في تاريخ ليبيا الحديث، الدار العربية للكتاب، 1991، ص 370.

الباب الثاني: الاقتصاد والمجتمع

في تونس اكسيئية

الفصل الأول: السكان والقضايا الاجتماعية في تونس

الفصل الثاني: علاقة المجتمع بالسلطة الحاكمة

الفصل الثالث: الاقتصاد وأثره على المجتمع

الفصل الرابع: عادات وتقاليد المجتمع التونسي

الفصل الأول

السكان والقضايا الإجتماعية في تونس

أولاً: الواقع السكاني

ثانياً: الوضع الصحي

ثالثاً: دور المرأة في المجتمع الحسيني

أولاً: الواقع السكاني

لقد عرفت الإيالة التونسية خلال الحكم العثماني تحولات عميقة على الصعيدين الديمغرافي والعرقى ولدراسة هذه التطورات والتغيرات التي طرأت تدريجياً على المستوى الديمغرافي والسلوكيات الناتجة عنها لزم علينا تتبع حركية السكان خلال الحقب الزمنية الماضية للسكان.

خضعت تونس لحضارات دول كبرى قدمت إليها من الشرق والغرب ومن هذه الأمم الفينيقيون والرومان والوندال والبيزنطيون والعرب والإسبان والترک ثم الإفرنج. وكل هذا الأمم جلبت معها عاداتها وتقاليدها وأصول نظامها وطرائق معشيتها وأنواع فنونها وصنوف لغاتها فهذا الإمتزاج خلق نسيجاً إجتماعياً جديداً ساهم بصورة أوبأخرى في تطور وإزدهار البلاد التونسية.¹

لكن الإمتزاج الحقيقي الذي عرفه المجتمع التونسي في نظرنا والذي أدخل عليه بعض الملامح الأوربية كان عن طريق الأندلسيين والأترک العثمانيين والإعلاج فكيف إستطاعت هذه العناصر الوافدة الإنصهار أو الإندماج في المجتمع المحلي؟ كيف كان تأثيرها على النسيج الإجتماعي والثقافي التونسي؟

يمكن تقسيم المجتمع التونسي خلال العهد الحسيني إلى مجموعتين أو صنفين المجموعة المدنية (سكان المدن) والمجموعة القبلية والريفية وإختيارنا لهذا التصنيف لم يكن صدفة بل صاغه الفاعلون خلال الفترة الحديثة فهذا المؤرخ أحمد بن أبي الضياف في تاريخه يفرق بين "البلدان" أو "الحواضر" من ناحية والعربان أو النواجع من ناحية ثانية. كما نجد هذا التقسيم أيضاً في وثائق البايلك التي منها الدفاتر الجبائية.²

¹-حسن حسني عبد الوهاب: كتاب العمر، المجلد الأول، مراجعة وإكمال محمد العروسي المطوي، دار الغرب

الإسلامي، لبنان، 1990، ص 32

²-هنية عبد الحميد: المرجع السابق، ص 15

المجموعة المدنية: (سكان المدن): وتشمل جميع السكان الذين يقطنون المدن التونسية وتقع أغلب هذه المدن على السواحل الشمالية والشرقية للبحر المتوسط وفي حوض مجردة والواحات الداخلية وتتميز بظروف مناخية ملائمة.

تتميز المدن بتنظيم اجتماعي أكثر تطورا نسبيا من المجموعات القبلية الريفية كما تتميز بانفتاحها على الخارج حيث يؤمن لها موقعها الإستراتيجي علاقات مع العالم الخارجي ولعب دور الوساطة بين الأرياف والعالم المتوسطي وبالتالي صنعت هذه المجموعات تفوقا على الأرياف في جميع المجالات.

يقوم إقتصاد المدن على المنتوجات الخارجية وعلى تداولها في داخل المدن وخارجها، ويتم جلب هذه المنتوجات عن طريق التجارة الكبرى في بعدها الصحراوي والمتوسطي وبعد تغير مسالك الدورة التجارية العالمية وتوقف التجارة الصحراوية، أصبحت المدن تبحث عن البديل فالتجأت إلى تنمية قطاع القرصنة ثم محاولة جلب فائض الإنتاج من الأرياف عن طريق الريع العقاري والجباي¹، وساكني المدن يعرفون بالحضر وهم السكان الأصليون للإيالة ويعرفون بالبلدية وهم ذو أصول بربرية وأخرى عربية.

إن تطور وإزدهار المدن التونسية جعلها مركزا لإستقطاب السكان مما ساهم في إنتشار ظاهرة النزوح الريفي نحوها بحثا عن العمل وبذلك ظهرت فئة البرانية².

فبالإضافة إلى السكان الأصليين في المدن (الحضر) نجد فئات أخرى منها:

فئة الأندلسيين: وقد قدموا بأعداد كبيرة سنة 1609م إلى تونس زمن عثمان داي وفي هذا الصدد يقول صاحب المؤنس « وفي هذه السنة {1016هـ/1609م} جاءت جماعة الأندلس من بلاد النصارى، نفاهم صاحب إسبانيا وكانوا خلقا كثيرا فأوسع لهم عثمان داي في البلاد... فاشترروا الهناشير وبنوا فيها واتسعوا في البلاد فعمرت

¹ - هنية عبد الحميد: المرجع السابق، ص ص 19-23

² - التميمي عبد الجليل: الحياة الاجتماعية في الولايات العربية أثناء العهد العثماني، ج1، منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية الموركية، زغوان، 1988، ص 370

بهمواستوطنو في عدة أماكن ومن بلدانهم المشهورة سليمان¹ وبلّي وقرنبالية وتركي والجديدة وزغوان وطبرية² وقريش الواد ومجاز الباب والسلوقية وتستور وهي أعظم بلدانهم وأحضرها والعالية والقلعة (قلعة الأندلس) وغير ذلك بحيث يكون عدتها أزيد من عشرين بلدا فصار لهم دن عظيمة³.

أما بخصوص عدد المهاجرين الموركسيون إلى تونس فقد قدرهم الباحث أنطونيو دو منقات أورتيث بحوالي ثمانين ألفا في حين يراى جون ديريك لاتام أنه رقم بالغ فيه ويقدرهم بحوالي أربعين ألفا.⁴

ومهما يكن من أمر فقد وزع الموركسيون الأندلسيون في عهد عثمان داي على عدة مناطق إذا كانوا من الكثرة بحيث لم يكن من الممكن أن تستوعبهم دينة تونس،⁵ ويمكن أن نميز منهم ثلاث مجموعات.

الأولى: وهي الطبقة الخاصة أو الصفوة من الأثرياء والعلماء وذوي الكفاءات المختلفة وقد سمح لهم بالإقامة في أحياء معينة بالعاصمة تونس مثل حومة الأندلس.

الثانية: طائفة الصناع وأورباب الحرف وقد استقروا في مراكز عمرانية حول الحاضرة تونس مثل أريانة طبرية.⁶

الثالثة: وتتكون من الفلاحين. تركزوا في المناطق الزراعية والريفية حول تونس كما تجمع قسم نهم في سهول وادي مجردة والمنطقة الساحلية شرقي بنزرت¹، ونزلت

¹-سليمان: أهم بلدة أسستها الجالية الأندلسية في بداية القرن السابع عشر في جزيرة الوطن القبلي، وهي تبعد عن العاصمة نحو 30 كلم، ويعتبر جامعها الأندلسي من أجمل الجوامع التاريخية بالجزيرة القبلية. ينظر: السعداوي أحمد، المرجع السابق، ص 211.

²-طبرية: بلدة تقع على وادي مجردة استوطنتها الجالية الأندلسية في بداية القرن السابع عشر، وهي توجد غربي تونس وتبعد عنها نحو 30 كلم. ينظر: السعداوي أحمد، المرجع السابق، ص 448.

³-ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص 228.

⁴- الحمروني أحمد: المورسكيون الأندلسيون في تونس دراسة بيبلوغرافيا، ميديا كوم، تونس، 1998، ص 34.

⁵- كمال السيد أبو مصطفى: محاضرات في تاريخ المغرب والأندلس، مركز الإسكندرية للكتاب، مصر، 2003، ص 226.

⁶- الحمروني أحمد: المرجع السابق، ص 34.

جماعة أخرى في الوطن القبلي، حيث سكنوا قرى سليمان، قرنبالية، زغوان، نيانو، بلي، وبعضهم أسس مدن جديدة على أنقاض المدن الرومانية القديمة مثل تستور، مجاز الباب، السلوقية، قلعة الأندلس.²

لقد طبع الأندلسيون المجتمع المحلي بطابع التمدن بإشعاعهم على من جاورهم وبتميزهم في المدن التي تسمت بهم فبالغوا في التأنيق في المأكل والملبس وتفنونوا في الفلاحة والصناعة.³ وقد أعجب الرحالة ديفونتان الذي زار المنطقة سنة 1783م بجمال بيئتهم ورفاهية عيشتهم وذوقهم.

وفي المقابل ظلوا محافظين على أملاكهم حتى لا تنتقل إلى غيرهم ولو بالمصاهرة والإرث فبقوا منغلقيين على أنفسهم حريصين على تمييزهم،⁴ وخلال الدراسة التي قام الباحث رشاد الإمام من خلال حصره لأسماء وعائلات الأندلسيين في تونس في منتصف القرن التاسع عشر خلص إلى أن أمتزاج أفراد الجالية الأندلسية وتداخلهم في بقية الأهالي لم يتم بصفة متكاملة على الرغم من إنقضاء قرنين ونصف على تاريخ لجئهم إلى البلاد التونسية.⁵

فئة الأتراك العثمانيين: ويشكلون إحدى الفئات الإجتماعية للمجتمع التونسي منذ أن إرتبطت الإيالة بالدولة العثمانية 1574م، وتتشكل هذه الفئة من الجند الإنكشاري ومن المتطوعين الذين شاركوا في الفتح العثماني وبقوا بعد رحيل سنان باشا⁶.

¹- بنزرت: مدينة عتيقة تقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط، تبعد عن تونس بخمسة وثلاثين ميلا. ينظر الوازن حسن بن محمد: وصف إفريقيا، تح: محمد حجي وآخرون، ج2، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983، ص68.

²- كمال السيد أبو مصطفى: المرجع السابق، ص 227

³- الحمروني أحمد: المرجع السابق، ص 85.

⁴- الحمروني أحمد: المرجع السابق، ص 83.

⁵- رشاد الإمام: الأندلسيون في البلاد التونسية في منتصف القرن التاسع عشر من خلال خزينة الوثائق التونسية، م.ت.م، العدد 24/23، نوفمبر 1981، الإتحاد العام التونسي للشغل، ص 295.

⁶Cherif Mohamed Hadè: Opcit, T1, p 36

وهؤلاء الأتراكينقسمون إلى مجموعتين فالأولى تتكون من الأتراك،¹العثمانيين القادمين من الأناطول والروملي ويشكل أغلبهم الجيش الإنكشاري أما الثانية فتتشكل من الأوربيين الذين يلتحقون بالأتراك بعد أن إعتنوا الإسلام وكانوا يسمون بالأعلاج (أسرى القرصنة) وقد إستعملوا كماليك ويتميزون بإتقانهم اللغات والتقنيات الأوربية،²وعلى الرغم من قلة عددهم في المدن التونسية إلا أنهم كانت لهم كانه سياسية وعسكرية وإدارية مرموقة ففي مدينة المهدية مثلا ومن خلال الدفتر الجبائي رقم 971 العائد لسنة 1868م اتضح أن هذه الفئة التي يسميها الباحثون التونسيون بالفئة الحنفية تمتعت بموقع متميز على جميع الأصعدة متفوقة على مثيلاتها المتواجدة في كل من الوطن القبلي والمنستير وسوسة وجمال،³ وقد أرجعت الباحثة دلاندة الأرقش هذا التفوق في هذه المدينة بالذات إلى وليد الأوضاع التاريخية التي كانت عليها المدينة قبل وبعد الفتح العثماني حيث ورثها العثمانيون في حالة خراب وإحتضار بعد الصراع العثماني الإسباني (1505م – 1574م)⁴ وفي مدينة المنستير الساحلية رغم إندماج فئة الأتراك (الحنفية) في المجتمع المحلي إلا أنها حافظت على مميزات خاصة.⁵

أما بخصوص عددهم فقد إرتفع في بداية العهد العثماني بسبب إستمرار عملية التجنيد لكن بعد دخول الإيالة في صراعات داخلية، وبعد إنتهاج البايات الحسينيون سياسة تشريك العنصر المحلي في تسير شؤون البلاد، تناقص عددهم بصورة واضحة وخاصة زمن حمودة باشا.⁶

¹ Ibid: T1, p42.

² - هنية عبد الحميد: المرجع السابق، ص 23.

³ - رقية مراد: الجالية التركية بمدينة المهدية وموقعها من البيئة الإقتصادية والإجتماعية من خلال دفتر الأملاك، رقم 971 لسنة 1867 / 1868، م.ت.م، العدد 6/5، فيفري، 1992، ص 228.

⁴ - الأرقش دلنדה: التطور اللامتكافي والهيمنة الخارجية للفئة الحنفية ومكانتها في المهدية والمنستير في القرن 19، م.ت.م، العدد 46/45، جوان 1987، ص 13.

⁵ - الأرقش دلنדה: الجباية الدولة والمجتمع في تونس الحديثة ساحل المنستير (1676 – 1856)، الجامعة التونسية 1983 1984، ص 76.

⁶ - Andreas Tunger _ Zanetti: la Cmmunication Entre Tunis et Istanbul 1860_ 1913 Imprimer Sur Les Presses de Lavauzelle Graphic L'harmattan 1996_ pp 34_35

فئة الكراغلة: وهم السكان المولودين من أب تركي وأم تونسية وقد تمتع أفرادها بإمتيازات مادية كالتعيين في مناصب الدولة والإعفاء من بعض الضرائب،¹ وقد إستقر هؤلاء في المدن الساحلية من الإيالة كالمهدية والمنستير وسوسة وغار الملح.²

فئة العبيد السود: ويجلب أغلبية هؤلاء إلى البلاد التونسية من بلاد برنو وكانو تمبكتو وقد قدرت الباحثة فالنسي عددهم سنة 1860م ما بين 6000 و7000 نسمة وتتصوي هذه الإقلية تحت سلطة مايعرف في وثائق الأرشيف بباش العبيد أو بحاكم القشرة السوداء وكان يقطن في بلاط الباي. وكان له نواب في كل الجهات يطلق عليهم بقيادالعبيد أو قياد المعاتيق وتميزت هذه الفئة بالوضع الإجتماعي المتدني والمكانة السفلى خلاف المماليك، الذين وصلوا إلى مناصب هامة في البلاط الحسيني وإستطاعت هذه الفئة الإندماج في المجتمع وذلك بعد القرار الذي أصدره المشير أحمد باي (1837م-1855م) الخاص بإلغاء الرق في 26 جانفي 1846م،⁴ لكن ذلك لم يكن كافيا حيث بقيت ظاهرة تجارة الرقيق تمارس ولو بشكل جزئي حتى بعد الإحتلال 1881م ما جعل الباي يصدر قرارا جديدا في جانفي 1887م يقضي بمعاقبة الممارسين لهذه الظاهرة عندئذ عرفت هذه الفئة تحول جذري حيث إندمجت بصورة كلية في المجتمع التونسي.⁵

فئة اليهود: وتتواجد هذه الفئة منذ العصور القديمة في البلاد ووصل عددهم خلال منتصف القرن التاسع عشر حوالي عشرون ألف يهودي،⁶ أبرزهم يهود القرنة الذين طردوا من الأندلس مثل المسلمين فأتجهوا أول الأمر نحو إيطاليا ثم إنتقل أعداد منهم إلى

¹-Valenci Lucette: le Maghrel Avant la Prise D'alger Flammarin Paris 1969 p36

²-غار الملح: وهي مدينة صغيرة توجد شمال تونس على ضفاف البحيرة التي تحمل نفس التسمية، بها ميناء عسكري أنشأه الداوي أسطى مراد (1637 - 1640). ينظر: السعداوي أحمد، المرجع السابق، ص 301.

³- حسن حسني عبد الوهاب: ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية، مج3، تونس، 1972، ص 271.

⁴- بن الطاهر جمال: وثيقة حول الأقلية السوداء بجزيرة جربة في أواسط القرن التاسع عشر، م.ت.م، العدد 100/99، ماي 2000، ص ص 671 - 679.

⁵- التميمي عبد الجليل: من أجل كتابة تاريخ الحياة الإجتماعية «لأقلية الإفريقية السوداء» بالبلاد التونسية، مصادر وأفاق، م.ت.م، العدد 45 /46، جوان 1987، ص ص 40 - 43.

⁶-JHenry Dunant: Notice Sur la Régence de Tunis Imprimerie de Jules Gfick Genève 1858, p229_231

تونس وإستقروا في الحارة،¹ حيث يقطن اليهود التوانسة، وقد لعبوا دور الوساطة في عملية الفدية بين ظفتي المتوسط²، وهذا الدور إستغلته فرنسا للتدخل في شؤون الإيالة الداخلية حيث مكنها من إنشاء مدارس لنشر اللغة والثقافة الفرنسية كمقدمة لفرض الحماية عليها سنة 1881م وقد إحتل يهود القرنة مركزا هاما في السلم الإجتماعي في البلاد التونسية بسبب علاقاتهم التجارية مع يهود إيطاليا وفرنسا وسيطرتهم على التجارة الخارجية للإيالة مع يهود التوانسة مكونين بذلك دولة داخل دولة³.

لقد ساهمت الفئات الإجتماعية القادمة إلى الإيالة في التأثير في جميع المجالات الاجتماعية، ويظهر ذلك في تلك الرموز المختلفة التي تعبر عن حضارة كل فئة والتي نجدها في المواضيع والحمامات والمدارس والقصور بالإضافة إلى اللهجات المختلفة لكل فئة وكذا إدخالهم إلى المجتمع التونسي نوع جديد ومختلف من الملابس والعادات الخاصة بهم.⁴

المجموعة القبلية والريفية: تحتل هذه المجموعة عموما المناطق الداخلية ذات الظروف المناخية القاسية وتشمل الشمال الغربي والسباسب العليا والنواحي الصحراوية وشبه الصحراوية بإستثناء الواحات وبدورها تنقسم إلى مجموعات جزئية.

الجبالية: يسكنون المرتفعات الجبلية في الشمال والوسط والجنوب من البلاد ويطلق عليهم أهل السهل بالجبالية.

أ – جبالية الشمال الغربي: وتشمل مناطق بجاوة وهذيل وعمدون ومقعد ونفزة ووشتاتة والشحيحة وتمارس هذه الفئة الأنشطة الفلاحية وتربية المواشي.

¹ - حارة اليهود: وهو حي كبير من أحياء مدينة تونس كانت تسكنه الجالية اليهودية منذ العصر الوسيط وازداد اتساعا في العصر العثماني، وكان يمتد داخل باب السوقة وباب قرطاجنة بين الشوارع التالية: حوانيت عاشور، والتومي، وسيدي سريديك، والمسليخ والحمام. ينظر: السعداوي أحمد: المرجع السابق، ص 156.

² - هنية عبد الحميد: المرجع السابق، ص 21.

³ - السنوسي محمد العربي: يهودتونسفي بدايات نظام الحماية (1881-1911) مجلة الحياة الثقافية، وزارة الثقافة والإعلام، تونس، العدد 57، 1990، ص 57

⁴ - بينوس جميلة: تونس، دار الغرب الإسلامي، دار الجنوب للنشر والتوزيع، 1985، ص 37.

ب – جبالية السلسلة الظهرية: وهم وزعون في شكل مداشر وقرى معلقة بسفوح الجبال أو معلقة في أعلى قممها ويمارسون الزراعة وتشمل هضبة مكثرة والزوارين وقعفرور وهضبة كسرة وقلعة سنان وباز وجبال برقو وجبل السرج.

ج – جبالية جنوب ووسط السلسلة الظهرية: نجد " جبل وسلات " شمال غربي القيرواني حيث تستقر تجمعات سكانية أبرزها مانس والجبيل وتيقاف وبورحال¹ وإسماعيل وقد تم إجلائهم سنة 1762م من طرف علي باي إثر إنتفاضة إسماعيل بن يونس كما نجد أيضا سكان " جبل دمر " و " السند " وثلاث مجموعات أخرى قرب الحدود الجزائرية وهي تمغزة وميداس والشبيكة.

د – جنوب البلاد: توجد مجموعات جبلية تقطن "الظهر " أي جبال مطماطة وجنوبها غمراسن وشنيّ والدويرات وودان بني بركة وبليدة وسدرة وتزغدانة وقلعة وتشوف وقطوفة وبني يخزر...إلخ، وتظمها قبيلة كبيرة تدعى ورغمة وهذه المناطق عبارة عن واحات في قلب الصحراء.²

المجموعات الساكنة سهول شمال السلسلة الظهرية: وتساكن في السهول القريبة والمتاخمة لوادي مجردة الوسطى مثل أولاد بوسالم وأولاد سديرة وتمارس نشاط فلاحيا مستقرا.

المجموعات القبيلية الساكن وسط البلاد: وهي مجموعات شبه رحل وتقتن منطقة السباسب العليا والسفلى وتمارس نشاط تربية المواشي وأهم القبائل بها جلاص، الفراشيش، ماجر.

المجموعات الصحراوية: وهي القبائل التي تقتن المناطق الصحراوية أي جنوب شط الفجاج ونمط عيشها يقوم على الترحال وتربية الإبل والمواشي وأبرز قبائلها غريب أولاد يعقوب.

وتقوم إيدولوجية هذه القبائل على الإيمان بعلاقات القرابة الدموية بالعروبة والإسلام وهي تنقسم إلى مجموعتين في الشمال والوسط مجموعة الصف الحسيني ومجموعة

¹ - بورحال: وهي العاصمة السياسية لجبل وسلات، المكنى، عبد الواحد: المرجع السابق ص 08.

² - هنية عبد الحميد: المرجع السابق، ص ص 33 - 40

الصف الباشي،¹ وقد شملت قبائل السواسي وأولاد سعيد وأولاد عيار الفراشيش ماجر المثاليث وغيرها².

وكانت الدولة تعتمد على قبائل الصف الحسيني أو القبائل المخزنية فيما يتعلق بإستخلاص الضرائب وكان رؤسائها يتمتعون بإمتميازات متنوعة كما كان لهم دورا مهما في الحياة السياسية للدولة الحسينية³.

وفي جنوب البلاد وصل هذا الانقسام إلى قبائلها أيضا وقد إنقسموا إلى صفتين: **صف شداد:** يتكون من قبائل بنو يزيد، الحمارنة، الحزم، وهم حليف الصف الحسيني.

صف يوسف: ويشمل قبائل ورغمة، المرزايق، وهم حليف الصف الباشي، وإن كان أغلب القبائل معترفة بسلطة الباي فإنه توجد قبائل تسمى "أهل المنعة" لا يدفعون الضرائب أو يدفعونها بصعوبة ومن هذه القبائل نجد مقعد، خمير، قبائل جبل وسلات، وفي المقابل توجد قبائل مرابطية مسالمة (أولاد زوايا) مثل قبائل المعاوين بالوطن القبلي، المهاذبة بالوسط الشرقي.

أما القبائل القوية فكانت تحصل على أتوات من القبائل الضعيفة مثل التي كان يحصل عليها أعيان قبيلة دريد من واحات الجريد⁴.

وفي الأخير نستخلص أن بنية المجتمع التونسي سواء كانوا حضرا أو بدوا قائمة في أغلب الأحيان على مبدأ القرابة الدموية وليس على مبدأ الإنتساب الجغرافي فضلا أن المجتمع لا يسوده الوعي الطبقي بل كان يسوده الوعي الفئوي.

التمدن والتحضر في المجتمع التونسي:

لقد كشفت لنا التقديرات التي قام بها بعض المؤرخيين في منتصف القرن التاسع عشر أن نسبة التحضر في البلاد التونسية وصلت تقريبا إلى 20% من مجموع سكان

¹ - التيمومي الهادي: تونس والتحديث (1831-1877) دار محمد علي للنشر، تونس، ط1، 2010، ص 34.

² - ينظر الملحق رقم 08، ص 290

³-Cherif Mohamed Hadè, Opcit, p51

⁴ - التيمومي الهادي: المرجع السابق، ص ص 35-36.

الإيالة في ذلك الوقت وهي نسبة مرتفعة إذا ما قورنت بالبلدان المغاربية الأخرى ففي المغرب الأقصى كانت النسبة ما بين 8 و10% وفي الجزائر 5%¹ في حين يذكر مؤرخ آخر أن نسبة تحضر المجتمع التونسي قبيل 1830م ما بين 12 و13% من مجموع السكان وأن عدد سكان أي مدينة كبيرة لا تتجاوز بضعة آلاف، والمدينة يسكنها صنفان من الناس الأعيان والعامّة حسب التقسيم الشائع آنذاك والأعيان هم الأتراك وعلماء الدين من أئمة وقضاة ومدرسين وعدول كما توجد بها العائلات المرابطية الشريفة والمخزنية والأندلسيون وأصحاب الصناعات الحرفية النبيلة ويسمون أنفسهم بالبلديّة كما نجد في المدن شريحة متوسطة محدودة العدد وهي فئة الحرفيون والتجار وهاؤلاء كانوا مؤطرين ضمن جمعيات،² وكل جمعية يرأسها أمين تعينه الدولة للإشراف ومراقبة عمل هذه الجمعيات.

ديمغرافية السكان بين الثابت والمتحول:

لا نملك العدد الحقيقي لسكان الإيالة خلال الفترة الحديثة وما الأرقام المعطاة من قبل الرحالة الوافدون إلا مجرد تقديرات لا يمكن إعتمادها، وقد حاول عدد من المؤرخين دراسة النمو الديمغرافي في الإيالة، وهذا من خلال التوغل في الأرياف لكنهم لم يصلوا إلى مبتغاهم³ أما البعض الآخر فقد إعتد على الدفاتر الجبائية العائدة إلى منتصف القرن التاسع عشر⁴.

يتفق المؤرخون على أن القرن الثامن عشر كان قرن إنتعاش ديمغرافي وهذا بفضل الإستقرار السياسي والإزدهار الإقتصادي اللذان عرفتهما الإيالة حيث وصل عدد سكان الإيالة 800000 نسمة حسب التعداد الجبائي لسنتي 1726م-1727م،⁵ ثم بدأ عدد السكان

¹ - هنية عبد الحميد: المرجع السابق، ص 25.

² - التيمومي الهادي: تونس والتحديث، المرجع السابق، ص ص 37-38.

³ -Baachrouch Toufik: Formation Social Barbares Que et Pouvoir A Tounis Ou XVII^{ème} Siècle Publication de L'universite de Tunis 1977 p31

⁴ - هنية عبد الحميد: المرجع السابق، ص 25.

⁵ -Cherif Mohamed Hadè: Apcit T1p26n

الباب الثاني: الاقتصاد والمجتمع في تونس الحسينية الفصل الأول: السكان والقضايا الإجتماعية في تونس

في التناقص الواضح منذ وباء 1784م¹ وقد أثر هذا الوباء في عمران البلاد نقصا فادحا حسب تعبير ابن أبي الضياف،² وحسب المؤرخ سباغ (Sebag) فقد قضى على نسبة من السكان تتراوح بين الخمس والثالث،³ وفي هذا الصدد نجد المؤرخ بيلسي (Pellissier) قد قام بتعداد كل مدن وقرى الإيالة ثم فصل في تعداد كل القبائل خلال فترة حمودة باشا،⁴ كما قام المؤرخ شارل قوبيسول (Sharls Cubisal) بتقدير إحصائيات خاصة بالسكان المسلمون واليهود في بعض المدن التونسية سنة 1815م وهي على النحو التالي:

اليهود	المسلمون	المدن التونسية
10000	70000	تونس
700	6000	سوسة
220	7500	المنستير
100	7800	المهدية
700	7500	صفاقس
300	24700	جربة
20	8700	نابة
03	4972	الكاف
50	3000	تستور
10 مالطي	1940	ماطر
109	5340	بنررت
⁵ 100	650	غار الملح

¹-التيمومي الهادي: تونس والتحديث، المرجع السابق، ص 28.

²-ابن أبي الضياف أحمد: المصدر السابق، ج3، ص 14.

³- Paul Sebag: La Peste Dans la Régence de Tunis Aux 17^{ème} et 18^{ème} Siècles. IBLA N° 10 Tunis 1965, p125.

⁴-Pellissier de Reynaud (E): Description de la Régence de Tunis, Imprimerie, Tunis, 1980. p29

⁵-Charles Cubisal: Notices Abrégées Sur la Régence de Tunis Libraire – Commissinaire Ala Librairie L'elmilik Tunis 1867 p 14

كما قدر عدد سكان القبائل البدوية الكبرى بـ 1211500 نسمة أما السكان الأوربيين فقد وصلوا 26000 واليهود 45000 نسمة أما سكان المدن فقد وصل عنده إلى 717500 نسمة والمجموع 2000000 نسمة¹، كما أكد هذا الرقم أيضا السيد ماجيل توماس²، أما جون قانياج فيذكر أن عدد سكان الإيالة سنة 1830م هو 1200000 نسمة³، في حين نجد المؤرخ التونسي بيرم الخامس يقدر عددهم بحوالي مليون ونصف سنة 1880م⁴.

بعد ذكر هذه الإحصائيات نرجح أن يكون عدد سكان الإيالة يقارب المليون نسمة أو أكثر بقليل، فخلال القرن الثامن عشر (1705م-1784م) ربما يكون العدد أكثر من المليون لأن الإيالة شهدت سيلما ديمغرافيا لإنعدام الأوبئة، أما ابتداء من سنة 1784م إلى نهاية القرن 19م فقد يكون العدد أقل من المليون نسمة نتيجة عودة الأمراض والأوبئة والمجاعات.

ثانيا: الوضع الصحي

إن الباحث في أحوال تونس الصحية خلال العهد الحسيني يدرك أنه ابتداء من عهد حسين بن علي بدأ يقل إنتشار الأمراض والأوبئة وهذا بفضل تصدي البايات لها عن طريق الوقاية بالرغم من وجود الطب التقليدي الذي يعتمد على طرق متعددة في العلاج، وللوقاية من الأمراض قام حسين بن علي بوضع قاعدة قوية وذلك بإقامة العديد من المستشفيات⁵، وكانت تسمى في تلك الفترة المارستان وأول مارستان بالإيالة أسسه حمودة باشا المرادي مكان فندق قرب القباقبيين ومكتب العزافين وقد خصصه للمرضى والجرحي من سفر البحر أو المحال، وللفقراء الذين لا مأوى لهم لكنه خرب في أواخر

¹-Charles Cubisol: Opcit p17

²-Thomas Maggil: Nouveauvoyage a Tunis publié en 1811 editeur de dictionnaire des sciences médicales, Paris, 1981.p54.

³-J;Ganiage: Histoire Contemporaire Du Maghreb de 1830 A Nas Jours Paris Fayard 1994 p53

⁴-بيرم الخامس: المصدر السابق، ص186.

⁵-بن ميلاد أحمد: المستشفيات في تونس، مجلة الفكر، العدد 8/ 1977، تونس، ص 50.

دولة بني مراد¹. ولما جاء حسين بن علي قام بترميمه سنة 1724م، وبالمقابل قامت العديد من الدول الأوروبية ببناء مارستانات للأسرى الأوربيين. من أهمها المارستان الإسباني الذي أداره الأب فرانسوا خيميناز (François Ximenez)،² وبفضل الإجراء الذي قام به حسين بن علي تحسنت البلاد من الناحية الصحية وبقيت على هذه الحال إلى غاية وصول مرحلة الباي حمودة باشا الذي إنتهج سياسة أكثر تطورا من سابقه متمثلة في جلب أطباء من أوروبا مع ضرورة الإعتناء بهم وأول هؤلاء الأطباء نذكر الطبيب ديفونتان (Des Fontaine) وقازو (Gazzo) بالإضافة إلى طبيب الباي وهو موندريسي (Mendrici) وفي سنة 1806م قدم الطبيب لويس فرانك (Louis Frank) صاحب كتاب وصف البلاد التونسية، الذي عينه حمودة باشا رئيسا للأطباء³. لقد كان هؤلاء يمارسون الطرق الطبية الحديثة أثناء عملهم ما جعل الأطباء التونسيون يتعلمون منهم تلك الطرق واكتساب الخبرة.

الأوبئة والأمراض في تونس خلال الفترة الحسينية:

تعد الأمراض والأوبئة من العوامل المسببة في تأخر المجتمعات نظرا لما تلحقه من أضرار بالقطاعات الاقتصادية والاجتماعية لذا حاولنا قدر الامكان أن نعرض ولو بصورة موجزة عن أبرز هذه الأمراض والأوبئة خلال الفترة المدروسة. الأمراض: لقد انتشرت العديد من الأمراض في الايالة منها الحمى والجرب والتيفويد ومرض الشلل ومرض الصقيع وهو انتفاخ الأصابع وغيرها⁴.

لكنها قلت نوعا ما خلال الفترة الحسينية بسبب الاجراءات التي اتخذها البايات الأوائل للتصدي لها عن طريق الوقاية، رغم انتشار الطب التقليدي الذي يعتمد على

¹ - قاسم أحمد: التطيب بالبلاد التونسية في العهد العثماني، م.ت.م، العدد 22، سبتمبر 2002، تونس، ص ص 165 - 166.

² - المختار باي: المرجع السابق، ص 540.

³ - Frank Louis et Marcel Jean Joseph : Histoire de Tunis. Précédé D'une de scription de Cette Régence Par le Dr. Louis Frank, Tounis Édition, Bouslama (2éme Edition) 1979. p 75

⁴ - محمد بن عثمان الحشاشني: الهدية في العادات التونسية، تقديم وتح: احمد الطويلي، محمد العنابي، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، تونس، 2002، ص ص 201-202

وسائل تقليدية في العلاج،¹ فنجد من يستخدم ثلا المواد المطهرة كالقطران والثمار كالتين والزيتون والتمور والفطر الأحمر وأوراق الصفصاف والثوم والبصل والرند الوردية والحلبة وغيرها.²

ومن الممارسين للطب التقليدي في بداية العهد الحسيني نجد عبد العزيز الجزيري وهو جزائري الجنسية، ألف كتابا في العقاقير النباتية سماه " كشف الرموز في شرح العقاقير والأعشاب" والطبيب أبو عبد الله محمد الحجيج وله كتابا أيضا عنوانه " تذكرة أولى الألباب والجامع للعجب العجاب".³

الأوبئة: عرفت الايالة التونسية كغيرها من الأقطار المغاربية والمشرقية والأوربية ظهور العديد من الأوبئة في فترات مختلفة وبصورة خاصة خلال العهد المرادي جراء الحروب والفتن، لكن منذ مجيء حسين بن علي إلى السلطة تحسن الوضع الصحي للإيالة إذ قام بإجراءات لضمان عدم دخول الأوبئة إلى الحاضرة فممنع إرساء السفن في المواني التونسية للبلدان المتفشية بها الوباء مثل البروفانس عام 1724م، وبفضل هذه الاجراءات جنب البلاد من هذه الآفات من 1705م إلى 1784م،⁴ وفي عهد حمودة باشا وابتداء من 1783م عرفت الايالة انتشار العديد من الأوبئة ففي سنة 1783م وقع بالمملكة طاعون جارف عرف عند أهل الحاضرة بالوباء الكبير مات بسببه كثيرون أثار في عمران البلاد نقصا فادحا وفيه أمر الباي بحرق ثياب الموتى وكسوة بيوتهم وغلقها وغسل الغرباء بالمقابر، وسجن مرضاهم بمخازن القلايين⁵، ثم عدل عن قراره بعد مناشدته من

¹- المختار باي: حسين بن علي مؤسس الدولة الحسينية، تر: البشير بن سلامة، الأطلسية للنشر، تونس، 2009، ص 533.

²-Valensi Lucette: Fellah Tunisiéens,L' Économie Rural et la Vie de s Campagnes Aux XVIIIe et XIXe Siècles Mouton Paris, Lahaye, 1977 ,p 211

³-المختار باي:المرجع السابق، ص 538

⁴-نفسه، ص 542

⁵- القلايين: وهو حي من أحياء ريبض باب السويقة كانت توجد فيه مصانع الفخار والبلاطات الخزفية التي عرفت ازدهارا كبيرا خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر بفضل إسهامات الجالية الأندلسية.ينظر: السعداوي أحمد، المرجع السابق، ص 421.

طرف العلماء وأعيان المدينة،¹ وقد قدر المؤرخ بول صباغ (Paul Sebag) عدد المتوفين من جراء هذا الوباء أنه يتراوح بين خمس وثلاث السكان،² أما مقديش فيذكر أن الوباء ظهر بجمال من بلاد الساحل ثم انتقل إلى تونس وكان عدد ضحاياه مائة وخمسة وثمانون ألف،³ أما مختار باي فيذكر أن سبب الوباء نزول 150 حاجا من السفينة الآتية من الاسكندرية بدون أي إنذار،⁴ كما ظهر الوباء أيضا خلال السنوات 1790م، 1792م، 1794م، 1795م، 1797م، وخلف العديد من الموتى.⁵

وما إن حل القرن التاسع عشر حتى عصفت بالبلاد موجة أخرى من الكوارث كانت أولها مجاعة سنة 1803م و1805م ثم ظهر الوباء من جديد سنة 1818م ليتواصل حتى سنة 1820م مخلفا ضحايا عديدة قدرت بما لا يقل عن 9000 ضحية لمدينة تونس وحدها.⁶ وفي هذا الوباء أباح الشيخ محمد بيرم الثاني الحجر الصحي أو ما يسمى " الكارنتينة" وفي المقابل حرّمها الشيخ محمد المناعي واعتبرها تحديا لله، وقد نقص هذا الوباء من الأيالة قدر النصف وبقيت غالب المزارع معطلة لا أنيس بها حسب تعبير ابن أبي الضياف.⁷

لقد ظهر وباء الكوليرا في الأيالة أول مرة سنة 1836م بصفة محدودة ليعود إليها أكثر حدة أواخر عام 1849م،⁸ يقول صاحب الاتحاف " وفي السابع عشر من محرم سنة 1266هـ/ 2 ديسمبر 1849م، ظهر في المملكة التونسية مرض وبائي يعبر عنه في أرض الحجاز بالريح الأصفر وأصله من أمراض الهند وعبر عنه في بلادنا بالكوليرا وتلقي هذا

¹- ابن أبي الضياف أحمد: المصدر السابق، ج3، ص 14

²- Paul Sebag: Opcite, p 137

³- مقديش محمود: المصدر السابق، ص 187

⁴- المختار باي: المرجع السابق، ص 542

⁵- مقديش محمود: المصدر السابق، ص 188

⁶- ابن تاجر جمال: الاقتصاد والمجتمع، المرجع السابق، ص 266

⁷- ابن أبي الضياف أحمد: المصدر السابق، ج3، ص 127

⁸- ابن تاجر جمال: الاقتصاد والمجتمع، المرجع السابق، ص 267

الاسم من أطباء الافرنج¹ وقد ذهب ضحية هذا الوباء بعض العلماء منهم العلامة الشيخ ابراهيم الرياحي، ثم (الخيالة).

كما ذهب ضحية هذا الوباء بعض العلماء منهم العلامة الشيخ ابراهيم الرياحي، ثم رجع الوباء من جديد سنة 1856م، لكن أقل حدة بالمقارنة بوباء 1867م الذي أدى حسب بعض التقديرات إلى هلاك ربع سكان البلاد.²

لقد انهالت الأوبئة على الناس لمدة ثلاث سنوات من 1865م إلى 1867م وعقبت هذه الأوبئة مجاعة عامة رهيبة سنة 1867م وقد حلت هذه السنة الشهباء أو عام الشر بعد ثلاث سنوات متتابة من الجفاف المريع (1864م-1865م-1866م)³. وحسب بعض المصادر أصبح الناس يقتاتون الجراد والأعشاب وفر الكثير منهم إلى مدينة تونس طمعا في الحصول على إعانة الباي والأعيان، ولم تفلح سياسة البايات في الحد من مظاهر الأزمة الديمغرافية بسبب استفحال الازمة المالية، ولم تفرج الأوضاع إلا في عهد الوزير خير الدين (1873م-1877م) بما اتخذته من اصلاحات لا سيما في المجالين الفلاحي والصناعي.⁴

ثالثا: دور المرأة في المجتمع الحسيني

جاءت الشريعة الإسلامية بالحث على تربية وتعليم الإناث مثل الذكور، كما ورد عن سيد البشر "طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة"، فقد وهب الرجل العزم والقوة وأعطى المرأة رقة العواطف وجمال الإحساسات، كما أن دور المرأة لا يقتصر فقط عند هذا الحد بل نجدها معروفة بالصيانة والعفاف والتقوى والخبرة بالصناعات اليدوية مثل الخياطة والتفصيل والتطريز والغزل والنسيج وغيرها.

¹- ابن أبي الضياف أحمد: المصدر السابق، ج4، ص 128

²- ابن طاهر جمال: الاقتصاد والمجتمع، المرجع السابق، ص 267

³- الهادي التيمومي: تونس والتحديث، المرجع السابق، ص 174

⁴- ابن طاهر جمال: الاقتصاد والمجتمع، المرجع السابق، ص 267

لقد ساهمت بعض النسوة في عملية نشر التعليم فقد ذكر الشيخ محمد الربيعي المفرغي وهو من أحد أعيان تونس أن والدته كانت امرأة صالحة تعلم البنات القرآن الكريم والغزل والطرز في منزلها، كما ساهمت المرأة التونسية في تنشيط وتطوير الاقتصاد التونسي عبر مصنوعاتها الرائجة في أسواق البلاد مثل الزربية والبرنوس وبقية المنسوجات بمختلف أنواعها وأشكالها من الأصواف والأوبار والشعر والحديد.

ولم يكن تعليم البنات معدوم في الحاضرة فهناك العديد من الآباء لهم عناية خاصة ببناتهم فلا يكتفون بحفظهن المتون البسيطة الخاصة بالعقيدة مثلا¹ وقد ذكر لنا صاحب الإتحاف أن الشيخ أحمد بن عبد السوسي كان له بنات علمهن القرآن والفقهاء والأدب وطريق التصوف ثم قال "وسمعت والدي أنه أراد خطبة إحداهن فاستشار في ذلك الشيخ المفتي مصطفى البارودي فقال له "لا تفعل فإنها لا ترضى بأمثالنا ولا ترى كفوًا لها إلا من كان على قدم والدها من العلم والصلاح"².

وقد سجل لنا التاريخ الحسيني بعض مواقف وأعمال جلييلة لنساء شهيرات لعبن دورا سياسيا واجتماعيا هاما ومن هؤلاء نذكر أم الأمراء آمنة وتدعى منانة بنت الأمير علي باي بن حسين بن علي باني البيت الحسيني وأمها جارية من أعلاج القرج اسمها محبوبة تزوجها علي باي مدة إقامته في الجزائر.

ولدت آمنة سنة 1172هـ وتربت مع أخيها حمودة وزاولت معه القراءة وحفظ القرآن الكريم على يد العالم حمودة بكير فأخذت عنه الفقه ومبادئ الحساب، تزوجت بابن عمها محمود بن محمد الرشيد باي، ولما تولى حمودة باشا الحكم وسافر بالمحلة اصطحبها مع أمه محبوبة وصهره محمود، وكانت أينما تحل تتصدق وتحسن للفقراء، وبعد وفات أخيها ساهمت في صعود زوجها إلى الحكم.

لقد ساهمت في العلاقات السياسية وذلك بجمع إبنيتها حسين ومصطفى وأقسما على المصحف على معرفة الصغير لحق الكبير، ومن أعمالها الجلييلة أيضا اهتمامها بمستقبل البيت الحسيني وحفظ نسله فقبل وفاتها جمعت أفراد العائلة وقدمت النصائح المفيدة منها

¹-الركباني عمر:المرجع السابق، ص ص63-67.

²-ابن أبي الضياف أحمد:المصدر السابق، ج4، ص223.

مضرة تزويج شباب الأسرة الحاكمة بنات العائلة نفسها لما ينشأ عن ذلك من ضعف النسل، وذلك وفقا لقوله (ص) "لا تتكحوا القرابة القريبة فإن الولد يخلق ضاويًا أي ضعيفا مهزولا وهذه النصيحة هي عين الحكمة المرتكزة على قاعدة المحافظة على الجنس وهي قاعدة أيدها العلم والطب العصري¹توفيت سنة 1238هـ/1822م، وحزن الباي لفقدانها حزنا لم يعهد مثله وعتق عليها ما يقارب المائتين رقبة وحزنت المملكة لموتها سنة كاملة لسيرتها في نفوس أهل الحاضرة².

وقد رثاها إبراهيم الرياحي بقوله:

سَكَنْتُ فَسِيحًا فِي الْجَنَانِ ظَلِيلًا * وَقَطُوفُهَا قَدْ ذَلَّتْ تَذَلِيلًا
لَا تَحْسَبُوهَا فِي الثَّرَاءِ وَمَقِيلَهَا * يَهْوَى الثَّرِيًّا أَنْ يَكُونَ مَقِيلًا
أَمِ الْمُلُوكِ وَأَخْتَهُمْ وَكَفَى بِمَحْمُودٍ * أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ حَلِيلًا³

ومن النساء اللواتي تركنا أثرا طيبا في نفوس التونسيين أيضا فاطمة عثمانة وهي فاطمة بنت محمد بن عثمان أحد أعيان البلاد، زوجها أبوها بأحد أصحاب الرتب العالية وهو محمد قائجي فولدت له علي ثم توفي زوجها وكانت صغيرة السن فخطبها ولي عهد المملكة الأمير حسين بن محمود باي، وتزوجها في حدود 1222هـ/1806م، وتبنى ولدها علالة قائجي وأنزله منزلة ابن الصلب⁴، وفي سنة 1231هـ/أفريل 1816م، قدمت إلى الحاضرة زوجة ملك الإنجليز جورج الثالث فاحتفل الباي محمود بمقدمها وكلف ولي عهده بالقيام بحق الضيافة⁵ وكانت فاطمة خير معين له على هذه المهمة، ويذكر البعض أن فاطمة عثمانة قامت بتسريح كافة أسرى المملكة إكراما لها وحسن الضيافة.

لقد رزقها الله بأبناء توارثوا الملك بعد موت أبيهم وهم حمد والصادق وعلي وبقيت محافظة على المكانة الرفيعة إلى غاية وفاتها مأسوفا عليها من سائر أغلب الناس⁶.

¹-حسن حسني عبد الوهاب: شهيرات التونسيات، المطبعة التونسية، 1353، ص ص 97-100.

²-ابن ابي الضياف أحمد: المصدر السابق، المجلد 2، ج3، صص 141-142.

³-حسن حسني عبد الوهاب: شهيرات التونسيات، المرجع السابق، ص100.

⁴- نفسه، ص102.

⁵- أحمد بن أبي الضياف: المصدر السابق، مجلد 2، ج3، ص ص 113-114.

⁶- حسن حسني عبد الوهاب: شهيرات التونسيات، المرجع السابق، ص 102.

أما بخصوص حقوق المرأة ومنزلتها ضمن المجتمع الحسيني فهو وضع مشابه لما عليه المجتمعات العربية والإسلامية الأخرى فإلى حد عهد حمودة باشا الحسيني (1782م-1814م) كان حد الزنا بالنسبة إلى المرأة القتل أو بالإغراق في البحيرة، لكن منذ عهدي المشيرين أحمد باي ومحمد باي تدرج القضاء نحو التخفيف وأصبحت المرأة تنفى إلى جزر قرقنة،¹ أما عتق الإماء فقد بقي في أغلب الأحيان حبراً على ورق وبالغ محمد باي (1855م-1859م) في غصب بنات الأحرار المستولدات من الإماء السود، «بل أخذ المحصنات من تحت أزواجهن للخدمة بداره على حال فضيع»².

وفي ظل هذا المحيط نجد أحد علماء تونس وهو أحمد بن أبي الضياف يكتب رسالة حول المرأة وهي في الحقيقة عبارة عن الإجابة عن 23 سؤالاً وجهها له أحد الأعيان الفرنسيين لم يذكر اسمه، لكن الباحث المنصف الشنوفي يؤكد في دراسته حول هذه الرسالة أن صاحب الأسئلة هو ليون روش قنصل فرنسا في تونس³.

فالرسالة تحتوي على 23 سؤالاً مع الإجابة عنها وهي بخط المؤرخ توجد في المكتبة العاشورية مؤرخة في سنة 1856م وإبراهيم شيوخ هو الذي عثر عليها، وقد إكتشف الأستاذ الباحث المنصف الشنوفي نسخة أخرى من هذه الرسالة بخط أحد أحفاده المؤرخ وهو المرحوم عبد الكريم بالضياف وقد نشرها في حوليات الجامعة التونسية عام 1968م. من ضمن أسئلة هذه الرسالة، سرور المسلمين بالمولود الذكر دون الأنثى، منعهم المرأة من تعلم العلوم، تزوجهم بصغيرات السن، أضرار حجاب المرأة، ضرب المسلمين لزوجاتهم، إحتقار المسلم للمرأة، عدم إكرام المسلمين جنازة المرأة، طلاق المسلم لزوجته عند تطيره منها وغيرها من الأسئلة الأخرى⁴.

وقد حاول ابن أبي الضياف خلال إجاباته عنها دفع الإلتباس في كل ما من شأنه الحط من قيمة المرأة وتجلي ذلك أثناء إجابته عن السؤال المتعلق بضرب المرأة.

¹ - المنصف الشنوفي: رسالة أحمد بن أبي الضياف في المرأة (مخطوط) حوليات الجامعة التونسية العدد 1968/05، ص62.

² - ابن أبي الضياف: المصدر السابق، ج6، ص266.

³ عائشة بالضياف فرحات: المرأة عند ابن أبي الضياف، ملتقى ابن أبي الضياف للفكر السياسي والاجتماعي الحديث، تونس 1989، ص ص 77-78.

⁴ المنصف الشنوفي: المرجع السابق، ص ص 53-54.

وقد تبدو إجابات إبن أبي الضياف للبعض رجعية في معظمها إلا أننا نستشف غير ذلك فالرجل ذو ثقافة إسلامية تقليدية طالما لمسناها في كتابه الأتحاف، والفترة التي كتبت فيها هذه الرسالة حرجة بالنسبة للمؤلف فما هو إلا ترجمان للعصر الذي فيه وقد كتب هذه الرسالة قبل ظهور عهد الأمان الذي كان أبرز الفاعلين فيه، وفي خضم ظهور الإصلاحات السياسية المتعاقبة في تونسوفي المقابل يعلم عدم تقبل محمد باي للإصلاحات إلا ظاهراً، لذا تعتبر هذه الرسالة معلماً هاماً في تاريخ حركة الإصلاح بتونس وتصور واضح لإبن أبي الضياف في التنظيمات المزمع إعلانها في عهد الأمان إذ خاطب صاحب الأسئلة «إن هذا الترتيب المطلوب منا (يقصد عهد الأمان) ربما يمس ديننا».¹

¹ ابن أبي الضياف: المصدر السابق، ج6، ص236.

الفصل الثاني

علاقة المجتمع بالسلطة الحاكمة

أولاً: طبيعة العلاقة ومحدداتها

ثانياً: تطورات العلاقة ومراحلها

ثالثاً: نماذج من العائلات المخزنية

أولاً: طبيعة العلاقة ومحدداتها

تعددت الدراسات حول مسألة العلاقة بين السلطة والمجتمع سواء فيما يتعلق بالجانب السياسي والإداري أو الجانب الإقتصادي لكن أغلب هذه الدراسات تشمل منطقة معينة أو قبيلة معينة من البلاد التونسية دون غيرها لذا أردنا أن نسلط الضوء بصورة شمولية عن علاقة السلطة الحاكمة بالمجتمع التونسي. ولقد كان هذا الموضوع أبحاث العديد من الدراسين الأنثربولوجيين والسوسولوجيين أمثال أرسنت قلنار وربير مونتاني وغيرهم،¹ إلا أن أفكارهم تبدو متضاربة ومختلفة فمنهم القائل بأن المجتمعات القبلية بطبيعتها معارضة مع أي سلطة سياسية مركزي ومنهم من يقول أن هذه المجتمعات لا يتضارب وجودها مع نفوذ السلطة السياسية القائمة في البلاد وذهب بعضهم قول ابن خلدون أن قوة القبيلة أساس قيام الدولة² ومهما يكن من أمر فإن المجتمع التونسي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كان خاضعا لحكم مركزي حيث نجح الحسينيون في إيجاد سياسة ملائمة لطبيعة المجتمع.

السياسة العامة للبايات الحسينيين إتجاه المجتمع

لقد أدخل حسين بن علي الباي المؤسس تغيرات جوهرية على نظام الحكم وخاصة علاقته بالسكان حيث عمد إلى الاستعانة برجال لم يتقلدوا بعد المناصب العليا منهم المماليك والكراغلة ورجال الدين كما إستعان بالأعيان ذوي الثراء أما في البوادي فقد قرب شيوخ القبائل المخزنية وأدمجهم في دواليب الدولة ورفع من شأنهم³ ومن جهة أخرى حدّ من نفوذ المؤسسات التركية وعمل على تقوية مكانة الفرق العسكرية المحلية في جيشه كما قام بالتخفيف من وطأة الضرائب النقدية والمساواة بين الأتراك والبلدية وإبطاله ضريبة الجزاء واستبدالها بضريبة العشر.⁴

¹-وقد ذكرهم المؤرخ عبد الباقي الهرماسي في كتابه: المجتمع والدولة في المغرب العربي، دراسات الوحدة العربية، ط3، بيروت، لبنان، 1999، ص ص 15-34.

²-كريم عبد المجيد: المرجع السابق، ص 24.

³-الشريف محمد الهادي: تاريخ تونس، المرجع السابق، ص 82.

⁴-هنية عبد الحميد: المرجع السابق، ص ص 165 - 175.

إن هذه السياسة التي إنتهجها حسين ابن علي إتجاه رعيته على ما يبدو كانت سياسة متوازنة ومحكمة ولذا كانت سببا في إستقرار الأوضاع في الإيالة،¹ ثم دخلت الإيالة في حرب أهلية طاحنة بين الحسين بن علي وابن أخيه علي باشا عن السلطة ابتداء من 1728م وإنتهت سنة 1740م بموت البايعين بن علي، وأثناء هذه الحرب ساءت العلاقة بين السلطة والمجتمع بطبيعة الحال وإنقسمت البلاد إلى مجموعتين إحداهما تناصر حسين بن علي والأخرى تعاديه وتناصر علي باشا² ومن خلال المصادر المحلية فقد إنتهج علي باشا سياسة صارمة إتجاه الرعية حيث تميزت بالعنف والقتل وسلباً أموال الأعيان والعلماء وخاصة الذين ساندوا البايعين بن علي أثناء صراعه معه، وقد أدت هذه السياسة إلى بعض الردود العنيفة من طرف بعض القبائل مثل إنتفاضة الهمامة سنة 1750م³.

لكن سرعان ما إستطاع أبناء حسين بن علي العودة من جديد إلى الحكم حمد

الرشيد

(1756م-1759م) الذي إستطاع أن يكسب ود رعيته ومحبتهم له حتى أطلقوا عليه لقب الرشيد،⁴ ثم تولى بعد أخوه علي باي.

سلك البايع علي سياسة تراوحت بين اللين والحزم، وإستعان بالأهالي وقرب أعيانهم إليه كما عفا عن أنصار علي باشا (الباشية) وأدخل عدة إصلاحات إقتصادية أدت إلى رخاء إقتصادي لم تعرف له البلاد مثيلاً⁵.

أم إبنه حمودة باشا (1782م-1814م) فقد سلك سياسة حكيمة إستطاع بفضلها تكوين طبقة حاكمة عتيدة جعلت الأجيال اللاحقة تنظر إلى عهده على أنه عهد أوج الدولة الحسينية فقد إستطاع تعزيز أركان السلطة المركزية وجعل البلاد تواكب تطور الإقتصاد المتوسطي والانعقاد نهائياً من تبعيته أترك الجزائر.

¹- السنوسي محمد بن عثمان: المصدر السابق، ج 1، ص 91

²- هنية عبد الحميد: المرجع السابق، ص 183-185

³- الشريف محمد الهادي: تاريخ تونس، المرجع السابق، ص 84.

⁴- ألفونس روسو: المرجع السابق، ص 217.

⁵- هنية عبد الحميد: المرجع السابق، ص 187-193.

إن الطبقة الحاكمة التي كونها حمودة باشا كانت مشكلة من عناصر أهليها بالدرجة الأولى وممثلة أساسا من مجموع عائلات القياد واللزامة والتجار الكبار، وقد أدمجت هذه العناصر في صلب الجهاز الإداري للسلطة، وكانت هي أساس ذلك الشعور شبه الوطني الذي تبلور عندما وقع مساعدة الدولة بالمال والعتاد والرجال لمقاومة الجيش التركي الجزائري¹.

لقد حارب حمودة باشا بعض العادات السيئة المنتشرة في المجتمع مثل ظاهرة اللعب برؤوس قتلى الحرب الأجانب فقد منع هذا الفعل منعا باتا كما سمح لليهود ركوب البغال والحمير بعد أن كان ذلك ممنوعا عليهم².

بعد إنقلاب الوضع بداية من سنة 1815م وبداية التوسع الإستعماري الغربي وفرض منع القرصنة على البايات (بين 1816م و 1819م) اضطر الباي إلى الضغط على المجموعات القبلية الريفية التي أصبحت المصدر الرئيسي لفائض الإنتاج³.

ففي عهد محمود باي (1815م - 1824م) عرف الوضع الإجتماعي ترديا كبيرا حيث إزداد استياء ونقمت قبائل الدواخل من جراء إستنزاف الابن الأكبر للباي أرزاقهم منذ أن فوضه أباه بالسفر للمحال لاستيفاء الجباية من الدواخل فعندما خرج إلى بلاد الجريد أنقل كاهلهم بالجباية وببالغ بالإفراط في ذلك حتى إظطر الكثير منهم الهجرة والنزوح إلى طرابلس الغرب أو إلى الجزائر للخلاص من نير مظلمه، وفي عهده وصلت الإيالة إلى حالة الإفلاس نتيجة الإسراف والتبذير الذي عرف به الباي محمود⁴، كما ظهر الوباء عام 1818م ليتواصل إلى سنة 1820م خلفا ضحايا عديدة قدرت بما لا يقل عن 9000 ضحية بالنسبة لمدينة تونس⁵.

¹- هنية عبد الحميد: المرجع السابق، ص ص 203 - 204.

²- رشاد الإمام: سياسة حمودة باشا في تونس، المرجع السابق، ص 309.

³- كريم عبد الحميد: المرجع السابق، ص 40.

⁴- ألفونس روسو: المرجع السابق، ص 323.

⁵- بن الطاهر جمال: الاقتصاد والمجتمع في القرن التاسع عشر، ج2، المرجع السابق، ص 266.

لقد تواصلت الأزمة المالية في عهد إبنه حسين باي (1824م-1835م) مما جعل وزيره الأول مصطفى باش مملوك يلجأ إلى الاقتراض لكن دون جدوى، وفشل في مساعاه فاستنجد الباي بشخصية شاكير صاحب الطابع الذي تقلد المنصب بكل حزم وراح ينتهج سياسة إقتصادية صارمة فنجح في وقت قصير في إخراج البلاد منأزمته المالية¹.

أما أحمد باي (1837م-1855م) فقد قام بعدة إصلاحات إجتماعية منها قانون جانفي 1846م القاضي بإلغاء العبودية وتحرير العبيد وقد جاء هذا القانون بعد عدة مراحل تدريجية،² بالإضافة إلى الإصلاحات الأخرى في مختلف المجالات التي تمس المجتمع بصورة مباشرة إلا أن تقربه من فرنسا وإعتماده عليها ووضعها على رأس السلطة مجموعة من الفاسدين والانتهازيين أوقعوا البلاد في الإفلاس وخلقوا هوة كبيرة بين المجتمع والسلطة حيث بقي الشعب يتخبط في الفقر والأمراض والكوارث الطبيعية من حين إلى آخر³. ولما تولى محمد باشا (1855م-1859م) جعل أكبر همهم رفع المظالم عن الرعية لما كان يتيقنه من المضرات التي كانت حاصلة لهم، لكنه لم يستطع بسبب نفوذ وتغلغل مصطفى خزندار والوزير المستنصح لديه إسماعيل السني صاحب الطابع فكان كالباحث عن حنقه بظلفه⁴، وفي 09 سبتمبر 1857م أصدر قانون عهد الأمان الذي جاء بالمساواة بين سكان الإيالة وضمن حقوقهم وحررياتهم⁵.

ثم جاء عهد محمد الصادق باي (1859م-1882م) الذي صدر فيه أول دستور في الوطن العربي والإسلامي كان ذلك في 29 جانفي 1861م ففقد سلطة الباي وأفقده كل

¹-ألفونص روسو: المرجع السابق، ص ص 354-355

²-ابن أبي الضياف أحمد: المصدر السابق، ج 4، ص 86

³- حسين جبار إبراهيم، إيالة تونس في عهد أحمد باشا باي (دراسة تاريخية) ينظر الموقع: <https://Platform.Almanhal.Com/Files/2/109815>، 20:35 شوهد بتاريخ: 02-08-2021، بتوقيت: 20:38.

⁴-محمد بيرم الخامس: المصدر السابق، ج 1، ص 219

⁵-ابن أبي الضياف أحمد: المصدر السابق، ج 4، ص 210-221

وسائل الحكم الحقيقية لكن هذه التجربة لم تعمر طويلا إذ سيتخذ الباي إنتقاضة 1864م ذريعة لايقاف العمل بالدستور والرجوع إلى طرق ووسائل حكم أسلافه¹.

إن عودة الباي إلى النظام التقليدي وإعتماده على المماليك الذين سيطروا على أهم المناصب أمثال مصطفى خزندار في حين استبعد الأهالي بما في ذلك الأعيان كل ذلك أوجد القطيعة بين السلطة والأهالي وبسبب سياستها الجبائية المجحفة إندلعت ثورة 1864م شاركت فيها جميع مناطق البلاد وتزعم الإنتقاضه علي بن غذاهم وأصله من أولاد مساهل من قبيلة ماجر المحاربة لكن رد الباي كان عنيفا حيث قام بقمع وتكيل الأهالي، هذا القمع ترسخ في أذهان الذاكرة الجماعية لسكان الساحل الذين تعرضوا لبطش محلة أحمد زروق وخطاياهم المالية الثقيلة² وفي هذا الصدد يذكر محمد مخلوف في تنمة شجرة النور الزكية «وحكم يد النهب في الأموال وتفنن في سلبها حتى بلغ السكين العضم، والسيل الزبي، فكانه مأمور باعقاد فتنة من جمر رمادها»³ كما تعرض سكان الشمال الغربي لاجراءات مماثلة على يد رستم وأعوان محلته.

بعد القضاء على الثورة واصل الباي وأعوانه في تماديه على نفس السياسة التي أدارا بها البلاد منذ 1859م من سوء تصرف وتبذير وسعي دائم للإثراء واللجوء إلى حلول عقيمة والمتمثلة في لإتقال كاهل الأهالي عن طريق الجباية من جهة والاقتراض من الخارج من جهة أخرى⁴.

لقد بلغت الأزمة ذروتها بالبلاد التونسية ما بين (1867م-1869م) عندما تظافرت الكوراث الطبيعية من مجاعات وأوبئة وأثار التداين الخارجي تجسم في إنتصاب الكمسيون المالي لتصفية ديون الدولة،⁵ وفي هذه الأثناء تولى المصلح خير الدين الوزارة الكبرى في أكتوبر 1873م فحاول تطبيق بعض الإصلاحات الإقتصادية والإجتماعية

¹-كريم عبد المجيد: المرجع السابق، ص 17

²-جمال بن طاهر: الاقتصاد والمجتمع في القرن 19م، المرجع السابق، ج 2، ص 284.

³- السنوسي محمد بن عثمان: المصدر السابق، ج 1، ص 164

⁴-جمال بن طاهر: الاقتصاد والمجتمع في القرن 19م، المرجع السابق، ج 2، ص 284.

⁵-هنية عبد الحميد: المرجع السابق، ص 227 - 228.

للخروج من الأزمة فأصلح ما أمكن إصلاحه لكن إصلاحاته جاءت متأخرة بالإضافة إلى قيام الباي محمد الصادق وأعوانه بإفشال برنامجه فاستقال من الوزارة الأولى في جويلية 1877م واتجهت البلاد بعد ذلك بخطى سريعة نحو الإستعمار.¹

محددات العلاقة بين السلطة والمجتمع:

بعد عرضنا للسياسة الإجتماعية العامة التي إعتمدها البايات الحسينيون خلال الفترة المدروسة والنتائج المتمخضة عنها على المجتمع التونسي، يجدر بنا التساؤل من جديد عن طبيعة العلاقة بين السلطة المركزية ومختلف الفئات الإجتماعية وعن محددات هذه العلاقة.

إن العلاقة بين السلطة الحاكمة المركزية والنفوذ المحلي أو ما يسمى عند البعض بالعلاقة الجديدة،² تراوحت بين التوافق والتحالف أحيانا والتنافر والتصادم أحيانا أخرى. فالدارس للتاريخ السياسي والإجتماعي للبلاد التونسية خلال القرنين 18م و19م يرى بأنه توجد فترات زمنية كانت العلاقات بين السلطة ومختلف المجموعات المدنية والقبلية يسودها التوافق والإنسجام في حين توجد فترات أخرى كانت تميزها العداء والصدام. كما يدرك أن هذه العلاقة تشمل المجالات السياسية والإدارية والإقتصادية ومن هذا المنطلق أردنا دراسة مختلف أدوار هذه العلاقة وخصائصها عبر إستقراء المصادر المتوفرة في هذه المجال ومستشهادين بين بوقائع كانت شاهدة على هذه العلاقة.

ثانيا: تطورات العلاقة ومراحلها

من خلال دراستنا للعلاقة بين السلطة المركزية ومختلف الفئات الإجتماعية تبين لنا أنه توجد مرحلتين متباينتين في الأهداف والغايات وهما مرحلة التحالف والتوافق ومرحلة التنافر والتصادم.

أ. مرحلة التوافق والتحالف:

¹-جمال بن طاهر: الاقتصاد والمجتمع في القرن 19م، المرجع السابق، ج 2، ص 284.

²-بن سليمان فاطمة: الأرض والهوية، المرجع السابق، ص 185.

إعتمدت السلطة المركزية على سياسة الإحتواء للقبائل الريفية والجماعات المدنية الحضرية وذلك عبر إقامة التحالفات مع الأعيان وتنظيم المجال بواسطة آليات ووسائل مختلف من أجل بسط نفوذها وتأكيد سلطتها فما هي هذه الوسائل والآليات؟ وكيف إستخدمت حتى خلقت الهيمنة على مختلف المجموعات القبلية الريفية منها والحضرية؟ لقد فرضت عملية بناء مجال البلاد التونسية وتوحيده ضرورة تقسيمه وتنظيمه ليسهل السيطرة عليه وقد إعتمد البايات الحسينيون في ذلك على التنظيمات والتسميات الموروثة عن العهد الحفصي والعثماني القائم على تقسيم البلاد إلى وحدات إدارية إذا قام علي باشا بتحويرات جديدة على التقسيم الإداري القديم فصارت البلاد مقسمة إلى 12 وحدة ترابية.¹

ثم شهدت هذه الفترة أيضا تعميم نصب القيادة وتوسيعه إلى المجموعات القبلية ذات الوزن الديمغرافي والتي أصبحت تسمى في المصادر الجبائية "العروش الكبار الذين على يد القايد" وبذلك إنقسم المجال إلى صنفين من القيادات، القيادات الحضرية أو الترابية والقيادات القبلية.²

الإدارة الجهوية (تعيين القيادة-العمال):

يعتبر منصب "القايد" أو "العامل" أهم نصب على هذا المستوى كان الباي في عهد المراديين يختار القيادة من بين أفراد عائلته المقربين ثم يفرضهم على المدن والقبائل لكن بداية من عهد حمودة الباشا الحسيني (1782م-1814م) أصبح منصب القايد يباع ويشترى بمقتضى "إنفاق" بين المشتري والحكم المركزي ينص على أن المشتري يدفع مبلغا معينا من المال للباي.

مقابل حصوله على حق رفع الأدعاءات على سكان الجهة التي يتولاها،³ كان للقايد مهام تنوعت ضبطها قانون خدمتهم الصادر في 20 جويلية 1860م الموافق أول محرم 1277هـ فالقايد هو نائب الباي بجهته وله سلطة واسعة وهو المسؤول عن الأمن

¹- هويدي سلوى: المرجع السابق، ص 133

²- بن سليمان فاطمة: الأرض والهوية، المرجع السابق، ص 183

³- كريم عبد المجيد: المرجع السابق، ص 17-18

وإستخلاص الضرائب كما يمتلك سلطة قضائية تمكنه من الفصل في بعض القضايا ووضعت تحت تصرفه قوة من الضبطية تمكنه من تنفيذ الأحكام وهو مسؤول عن إبلاغ السلطة بكل ما يحدث في جهته ومن بينها الإبلاغ عن كل تحسن أو تراجع في الإنتاج الفلاحي.¹ فالقايد أذن يعتبر العمود الفقري للإدارة الجهوية وهو مفوض من قبل الباي وهذا من خلال الصلاحيات التي منحت له كما يمثل حلقة الوصل بين السلطة المركزية والمنظمة التي يقودها أو القبيلة التابعة له.

السلطة المحلية (الخفاوة - المشايخ):

بحكم أن أغلب القياد كانوا يقيمون بالمدن المحيطة بالقبائل فمثلا محمد بن مصطفى قائد قبيلة السواسيل سنة 1881م كان مقيما في القيروان،² أما قياد المناطق الغنية لا يسكنون مقاطعاتهم الإدارية وإنما كانوا يسكنون الحاضرة ويتحلقون حول بلاط الباي،³ لذا لم يكن حضور هؤلاء القياد إلى مناطقهم لإظرفيا، لهذا كان القياد يتلقون الأوامر من السلطة المركزية ويحيلونها إلى نوابهم من الخفاوة (جمع خليفة) وهو ما يعني أن الخليفة يتولى مختلف المهام الجبائية أو القضائية للقايد ومثل الخفاوة بذلك أدوات أكثر فاعلية لأنهم كانوا يقيمون مع الأفراد ويتقلون معهم، أما طريقة تعيينهم فتخضع إلى عاملين أحدهما عامل القرابة الدموية وثانيها العامل الإقتصادي فأغلب هؤلاء الخفاوة ينتمون إلى عائلات ثرية نسبيا ويعمل هؤلاء الخفاوة بمعية الشيوخ.⁴

لقد لعبت مؤسسة الشيخ خلال الفترة الحسينية دور همزة وصل بين السلطتين المحلية والمركزية،⁵ وكان هؤلاء الشيوخ بمثابة العيون التي ترى بها السلطة حسب تعبير

¹-بلهادي عبد المجيد: علاقة السلطة بالمجتمع الريفي في البلاد التونسية خلال القرن التاسع عشر، مثال قبيلة السواسي،

(1836-1882)، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، 2013، ص 65

²-بلهادي عبد المجيد: المرجع السابق، ص ص 78-79

³-التييمومي الهادي: تونس والتحديث، المرجع السابق، ص ص 25-26

⁴-بلهادي عبد المجيد: المرجع السابق، ص 80.

⁵-هويدي سلوى: المرجع السابق، ص 128

بن أبي الضياف مايجري داخل البلاد بالإضافة إلى دور الرقابة يضطلعها الشيخ بمهمة الأخبار بكل ما يتعلق بالوضع الداخلي لمناطقهم كالاغارة أو القتل أو التمرد أو العصيان¹. كما يباشر المشايخ مهمة جمع الضرائب من الأفراد ثم يقومون بتحويلها إلى القياد الذين بدورهم يحولونها إلى الباي وبهذه الأعمال المنوطة بهم فقد كانوا الأداة الأقرب إلى الأفراد والوسيلة التي تمكنت بواسطتها السلطة المركزية من إختراق المجتمع الريفي والنفوذ إلى أعماقه،² وبعد الإصلاحات التي شملت المؤسسات خلال النصف الثاني من القرن 19م أصبح المشايخ جزء من المؤسسات المستحدثة أبرزها المجلس البلدي 1858م ومجلس الضبطية 1860م والمجلس الوقتي 1861م والمجلس التجاري 1878م، فكل هذه المجالس نجد المشايخ أعضاء بارزين فيها.³

بالإضافة إلى تنظيم المجال وإحتواء مؤسسات الإدارة الجهوية والمحلية سعى البايات إلى الإنفراد بالسلطة القضائية فعلى المستوى المحلي عينوا قضاة تابعين لهم في مختلف المناطق للإشراف على القضاء إذ يعتبرون نوابا عن المجلس الشرعي بالحاضرة، ومن أجل التحالف مع الأعيان المحليين كان هؤلاء القضاة ينتمون إلى عائلات متحالفة مع السلطة المركزية فمثلا في مدينة صفاقس كانت عائلة الشرفي تشرف على القضاء أما المناطق القبلية فكان بها القضاء الشرعي مثل قبيلة دريد والهمامة،⁴ وقد دام هذا الوضع إلى سنة 1861م حيث صدر دستور للبلاد وتم إستحداث محاكم للفصل في النوازل لكن أحداث إنتفاضة 1864م أدت إلى تعطيل العمل بالدستور فتعطل العمل بالمجالس القضائية والعودة إلى النظام القضائي السابق.⁵

¹ - بن سليمان فاطمة: الأرض والهوية، نفس المرجع، ص 194

² - بلهادي عبد المجيد: المرجع السابق، ص 87

³ - الزايري كريمة: مؤسسة الشيخ بمدينة تونس في القرنين 18 و19، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تونس، 2000-2001، ص 19

⁴ - هويدي سلوى: المرجع السابق، ص 128-129

⁵ - كريم عبد المجيد: المرجع السابق، ص 15-17.

وضمن آليات السيطرة على النفوذ داخل الإيالة عمل البايات الحسينيون على تعزيز قواتهم العسكرية بعناصر محلية غير قارة، فأنشأوا بما يسمى المرازقية المصاحبة للقبائل المخزنية وتتكون المرازقية من فرسان تلك القبائل،¹ فمثلا كان عدد مرازقية عرش الفراشيش 250 مرازقي سنة 1753م وقبيلة ماجر (3 عروش) 750 مرازقي سنة 1738م²، أما مهامها فتتمثل في مؤازرة المحلة عند خروجها لجمع الجباية كمتساعد الدولة عند حروبها الخارجية وكذلك عند القضاء على تمردات بعض القبائل المناوئة للسلطة كما تقوم السلطة المركزية بالتحالف مع القبائل المخزنية لتقديم الدعم العسكري لها عند الحاجة مقابل الحصول على عدة إمتيازات.³

وفي الأخير ندرك بأنه بواسطة هذه الوسائل والآليات إستطاع النظام الحسيني إيجاد إطار إداري ملائم للطبيعة القبلية والحضرية للمجتمع حيث أصبح هذا الأخير خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر خاضعا لحكم مركزي.

وفيما يلي نذكر بعض الأمثلة لنوضح للباحثين مرحلة التوافق والتحالف.

في إطار مخزنة القبائل وعقد التحالفات معها قام حسين بن علي (1705م-1735م) بإحقاق قبيلة أولاد سعيد المشهورة بخدمة المخزن ومنح لهم قايد خاص بهم كان ذلك سنة 1710م⁴، وفي إطار إشراك الأهالي في المؤسسة العسكرية وصل في عهده عدد فرسان المزارقية ما بين 3000 و4000 فارس⁵ كما قام بإسناد الإشراف على مؤسسة ديوان الانشاء إلى عناصر محلية مثل الحاج بلحسن الوسلاتي الذي كان ينتمي إلى بيت زاوية بجبل وسلات الذي أشتهر بمعاداته للسلطة ثم شغل بعده قاسم بن سلطانة الباجي المنصب

¹- هويدي سلوى: المرجع السابق، ص 131

²- الماجري الأزهر: قبائل ماجر والفراشيش خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، منشورات كلية الآداب والفنون والانسانيات منوبة، تونس، 2007، ص ص 264-266

³- هويدي سلوى: المرجع السابق، ص 132

⁴- التايب محمود: أولاد سعيد بين (1864-1881) الولاء والمقاومة عائلة بن الواعر، أنودجا مذكرة دكتوراه في التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، 2000، ص 69

⁵-Cherif Mohamed Hadè: Opcit p224

وقرب إليه أيضا الصغير دواد النابلي الذي جمع بين علم الظاهر والتصوف وغيره كثيرين.¹

أما علي باشا (1735م-1756م) فقد قرب إليه عناصر محلية أمثال القاضي محمد سعادة أصيل المنستر وأصبح حسب تعبير الصغير بن يوسف "في عنق الباشا كالقلادة" وعين في إمامة جامع الزيتونية فقيها من الكاف وأصبح في عهده الوكيل الفقيه محمد الخياطي من كبار الأثرياء حيث شمل نشاطه جهات عديدة ثم شغل وظائف متعددة وفي باجة برزت عائلة بن ساسي حيث أصبح البعض من أفرادها كبار القياد واللزامة.²

أما حمودة باشا (1782م-1814م) فقد عمل خلال سياسة العسكرية على توطيد التشكيلات الوطنية التي كانت موجودة وتقويتها ولإعتماد عليها بدل جند الترك فوجها عنايته بكل من الحوانب والصبايحية والمزارقية فربهم وأصبحوا قوة جديرة بالتقدير كما أهتم الباي بعسكر زواوة وكذلك برجال المخزن حيث كون منهم عسكر الخيالة وهم يتألفون من فرسان ينتمون إلى مختلف القبائل التونسية.³

ب- مرحلة التنافر والتصادم:

وهي مرحلة تعبر عن عدم التوافق بين السلطة المركزية والمجموعات القبلية خاصة لأن المناطق الحضرية كانت سهلة المراس فمنذ أواسط الأربعينات من القرن 18م عرفت القيادات الحضرية بإستقرار عددها وهي تقريبا 12 قيادة منها 04 داخلية باجة، الكاف، القيروان، قفصة، فيما توجد البقية على طول الشريط الساحلي ويعود هذا الإستقرار العددي إلى أوضاعها البشرية وأنشطتها الإقتصادية لذا عمل الحسينيون على تعيين موظفين من العائلات المحلية أو من المماليك لتسيير شؤون هذه المناطق.

أما القيادات القبلية ففي البداية قاومت الوجود العثماني ثم سرعان ما إستسلمت مرغمة للسلطة الحاكمة في البلاد لكنها ظلت تغتتم الفرصة أوفترات ضعف السلطة لكي

¹-بن سليمان فاطمة: الأرض والهوية: المرجع السابق، ص ص 200-201

²-نفسه، ص ص 202-203

³-الإمام رشاد: سياسة حمودة باشا في تونس، المرجع السابق، ص ص 202-204

تتمرد وتتصل من العباء الجبائي،¹ إذن ماموقف السلطة المركزية من تمردات بعض القبائل من حين لآخر.

وماالإجراءات التي إتخذتها للحدمن هذه الظاهرة؟ إنتهجت السلطة المركزية سياسة ردع المخالفين وهذا عبر وسيلتين إما التدخل العسكري المباشر أو إستخدام الجهاز القضائي الذي بفضله تمكنت من القضاء على المفسدين في الأرياف من خلال تسلط أقصى العقوبات عليهم.

بالنسبة للتدخل العسكري المباشر فقد شن البايات الحسينيون عدة حملات تأديبية من أجل إخضاع القبائل أو الجماعات المتمرد عن السلطة ففي عهد علي باشا (1735م-1756م) قرر الباي التدخل عسكري لردع قبيلة الهمامة لأن طاعتهم له كانت مُمرضة حسب تعبير ابن أبي الضياف كما عرفت بالإعتداء على القبائل المجاورة لها وإستطاع علي باشا الإيقاع بهم فاستاق سائر ما يملكون من الإبل وكانت ثلاثة عشر ألف بعير وسمها كلها بوسم الدولة وخضد شوكتهم وداس منعتهم.

وفي نفس الفترة إمتنعت قبيلة النمامشة عن دفع إتاوة من غنمهم يؤدونها لباي تونس مقابل تسويقهم من بلاد الجريد وفي سنة 1750م تعرضوا لركب الحجيج عندئذ قرر علي باشا الخروج إليهم لتأديبهم فنازلهم فهزموا وخرجوا من تونس إلى زريبة حامد بلاد الزاب بالجزائر.²

وفي إطار سياسة تطويق النفوذ المحلي قام علي باشا سنة 1746م بالقضاء على حكم عائلة بلجلود بجزيرة جربة فأمر بقتل الشيخ سعيد بلجلود رغم أنه كان من حلفائه وعين مكانه جعفر بن خضر أصيل مدينة جمال والمنتمي إلى عائلة كورغلية،³ وفي هذا الصدد يشر الباحث محمود المريمي أن عهد علي باشا كان منعرجا سياسي حاسما في التاريخ المحلي للجزيرة حيث وضعت السلطة حدا للمؤسسات الدينية العليا في الجزيرة

¹-بن سليمان فاطمة: الأرض والهوية، المرجع السابق، ص ص 188-189

²-ابن أبي الضياف أحمد:المصدر السابق، ج2، ص ص 160-162

³-بن سليمان فاطمة: الأرض والهوية، المرجع السابق، ص 193

على مستوى مجلس العزابة الأعلى وعلى مستوى الأقاليم والحسوم¹. أما في عهد علي باشا (1759م-1782م) فقد شهد ثورة إسماعيل بن يونس عام 1759م يذكر حمودة بن عبد العزيز أن يونس لما إعتصم بجبل وسلات إنضم إليه كل من بني زيد المثاليث، السواسي، أولاد سعيد، القواسم، وماجرو أولاد عيار فخرج إليه الباي بنفسه وإستطاع أن يخمد ثورته وبذلك أخضع جميع القبائل الموالية له كان ذلك 1762م،² وفي هذا الإطار قرر علي باي إخلاء جبل وسلات من سكانه وهي منطقة تقدر مساحتها 135 كلم،² أهلة بالسكان وثرية بإنتاجها الفلاحي المتنوع.³ يخبرنا الوزير السراج في حلله عن محاولة بعض القبائل أو من سماهم أرباب البيوت الشعرية التمرد أثناء تمرد محمد بن مصطفى،⁴ وإغتنت القبائل تمرد علي باشا سنة 1728م ملكي تتملص من دفع الجباية أو القيام بالغارات.

وفي سنة 1795م قاد حامد بن شريفة الفرجاني وهو شيخ فريق أولاد مساهل من ماجر حركة تمرد ضد السلطة المركزية،⁵ بسبب تسلط الباي حمودة باشا عليهم خطية مالية ثقيلة قدرها 7000 ريال وخطية عينية تمثلت في 80 فرسا وهي خطايا مرتبطة بصرعات قبائل ماجر والفراشيش مع الهمامة وبعد فشل سياسة المرونة التي إتبعها الباي في بداية الإنتفاضة أرسل لهم حملة عسكرية بقيادة كاهيته سليمان حيث هجم عليهم فجأة،⁶ ويذكر ابن الضياف أنه «أخذهم في مضاجع خيامهم»⁷ ولم يكتف الباي بتتكيلهم ومخزنتهم بلقام بسياسة التهجير وإخلاء الأرض بحيث رحلهم إلى عدة جهات منها

¹-المريمي محمد: الفئات الإجتماعية بجزية وعلاقتها بالسلطة المركزية خلال العهد الحديث، شهادة الكفائة في البحث

كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية، تونس، 1990، ص 42

²-حمودة بن عبد العزيز: المصدر السابق، ص ص 54-67

³-هنية عبد المجيد: المصدر السابق، ص 184

⁴-الوزير محمد السراج: المصدر السابق، ج3، ص 272

⁵-ابن أبي الضياف أحمد: المصدر السابق، ج 3، ص 21

⁶-الماجري الأزهر: المصدر السابق، ص ص 384-403

⁷-ابن أبي الضياف أحمد: المصدر السابق، ج 3، ص 32

القيروان والكاف،¹ وهذه الإستراتيجية التي إنتهجها ربما إقتسبها من التجربة التي خاضها أبوه مع ثورة إسماعيل بن يونس سنة 1762م.

وفي سنة 1840م قامت مجموعة من أهل مطماطة بقتل لزام المحصولات وهي الضرائب الجديدة التي أقرها أحمد باي (1837م-1855م) فخرج لهم الباي بنفسه في حملة عسكرية إستعراضية وفي هذا الصدد يقول ابن أبي الضياف «وفي هذه السنة وقع في وطن الأعراضبوارق عصيان خاف الباي سريانه في المملكة رتب الباي ضرائب جديدة وهي ضريبة المحصولات ... نهض بنفسه إلى الأعراض يجر ورائه عرمرما من العسكر النظامي والطبجية بمدافعهم وعسكر الخيالة، والحوانبوالصبايحية من تونس ومن غيرها من الأوجاق...»².

أما قاضي المحلة صاحب المنضد ابن سلامة فقد ذكر أن أسباب الحملة أنه إمتنع أهل قابس على الإمتثال للتحجير وليس ضريبة المحصولات مثل ما ذكر صاحب الاتحاف ثم يحدد ابن سلامة هذا التحجير في المواد التالية الصابون، الملح، الدخان، وتعصبوا بمن قاربهم من أهل جبل مطماطة.³

ومهما يكن من أمر فقد إستطاع أحمد باي إلقاء القبض على جماعة مطماطة وكانوا خمسة وأمر بقتلهم لأنهم حسب زعمه قاموا بفعل «يؤدي إلى عصيان يؤدي إلى حرب وسفك دماء»⁴.

ومن صور التصادم والعداء بين السلطة الحاكمة والقبائل التونسية نذكر واقعة قبلي 1857م الواقعة في الجنوب الشرقي لشط الجريد، حيث قام حمد باي (1855م-1859م) بمصادرة نخيل الواحة وبيعه وإلحاق ثمنه بخزينة الدولة، وهذا بسبب مناصرة البلدة

¹-الماجري الأزهر: المصدر السابق، ص 405

²-ابن أبي الضياف أحمد: المصدر السابق، ج 4، ص ص 38-39

³-ابن سلامة محمد الطيب: المصدر السابق، ص ص 195-210

⁴-ابن أبي الضياف أحمد: المصدر السابق، ج 4، ص 41

لغومة المحمودي،¹ ومساهمتها في ثورته وهو ما أعتبر جرما في العرف السياسي آنذاك بل وفسادا ومشاركة في الحرابة حسب المصطلحات الرائجة في ذلك الوقت.² لقد آزت بلدة قبلي الثائر غومة المحمودي بحكم أنها كانت تنتمي إلى الصف الباشي (شداد) وعلى الرغم من أن ثورته لم تكن موجهة للسلطة الحسينية إلا أن هذه الأخيرة تعتبرهم الذين يفسدون في الأرض كما تعتبر أهل البادية جُبلوا على «إتباع كل ناعق والإصغاء إلى كل مفسد».³

لهذه الأسباب وغيرها أرسل محمد باي محلة عسكرية بقيادة محمد خزندار خريف 1857م إلى واحة قبلي لتأديبها وإخراج غومة المحمودي منها لكنها إصطدمت بمقاومة عنيفة أجبرتها على التراجع وطلبت مساعدات عسكرية من العاصمة بعد وصول الإمدادات العسكرية شنت المحلة هجوما ثانيا إستطاعت من خلاله إخراج غومة من البلدة وتسليط أشد العقوبات على أهلها حيث سجن جميع رجالها والمقدر عددهم 150 رجل ثم أطلق سراحهم بعد فترة وجيزة ولم يبق منهم إلا 15 رجل وهم أعيان البلدة ثم قامت المحلة بهدم البلدة وتحجير سكنها إلى الأبد كما قام الباي ببيع جميع ثرواتهم وعرضها للمزاد العلني حيث بيعت حوالي 15670 نخلة مثمرة.

والملاحظ على هذه العقوبات أنها إتخذت طابعا إنتقاميا بحثا إذ شملت الشرف أيضا حيث سبت المحلة عشر نساء ثم نقلهن إلى قابس وهذه الممارسات لايمكن تبريرها خاصة أن الإعلان عن عهد الأمان وواقعة قبلي تزامنت في وقت واحد فقد جاء في عهد الأمان «الأمان لسائر رعييتنا وسكان إيالتنا على إختلاف الأديان والألسن والألوان في أبدانهم

¹-للمزيد حول غومة المحمودي وثورته يراجع: المصراي علي مصطفى: غومة فارس الصحراء، منشورات مكتبة الفرجاني، طرابلس ليبيا، 1960، وكذلك الطوير محمد: ثورة الشيخ غومة المحمودي على العثمانيين، ليبيا (1835 - 1858) منشورات مكتبة الفرجاني، طرابلس، ليبيا، ط 2، 1995.

²-ضيف الله محمد: إزدواجية الخطاب والممارسة في تونس غداة الإعلان عن عهد الأمان على ضوء توجيه المحلة إلى قبلي سنة 1857، المحلة التاريخية المغربية، العدد 89/90، ماي 1998، ص 115

³-بنبلغيث شيباني: كفاح الشيخ غومه بن خليفة المحمودي في جنوب تونس، م.ت.م، العدد 68/67، أوت 1992، ص

المكرمة وأموالهم المحرمة وأعراضهم المحترمة»، لذا تعتبر هذه التصرفات التي أقدم عليها الباي ومحلته إختراقاً لنص عهد الأمان وروحه وتناقضاً صارخاً بين التنظير والممارسة للسياسة الحسينية في تلك الفترة.

وفي فترة محمد الصادق باي (1859م-1882م) توترت العلاقة بين مجتمع عكاره بجرجيس التابعة لمنطقة الأعراض وبين السلطة المركزية وبسبب التوتر يرجع إلى أن قبيلة عكاره بعد تأثرها بالأزمة الإقتصادية التي شهدتها البلاد مابين 1867م و1869م أصبحت غير قادرة على دفع الضرائب فقام قائد الأعراض بحملة ضدها من أجل إفتكاك الضرائب منها بالقوة حيث قام سنة 1868م بأخذ عدد كبير من الماشية² والجمال والقمح وأمر بسجن أربعين من فرسانها بدون وجه حق وظلت العلاقة متوترة بينهما إلى قدوم الإستعمار الفرنسي الذي حولها إلى قبيلة مخزنية بإمتياز.³

وصفوة القول أنه خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر شهدت الإيالة التونسية علاقات تصادم وعداء بين السلطة المركزية والمجموعات القبلية المتعددة عبر فترات زمنية مختلفة نتيجة عدة تراكمات إجتماعية وسياسية وإقتصادية.

ثالثاً: نماذج من العائلات المخزنية

قبل التطرق إلى ذكر نماذج من العائلات المخزنية نروم إلى الحديث عن مكونات هذه العائلات ومواصفاتها وعن أصولها العرقية والجغرافية. إننا الثراء الذي عرفته العائلات المخزنية من جراء ممارسة التجارة بنوعها يعد من عوامل إمتداد نفوذها طيلة أجيال فالرخاء الإقتصادي والإستقرار السياسي الذي عرفته البلاد منذ منتصف القرن 18م ساهم في بلورة وظهور هذه العائلات سواء بالمدن أو

¹-ضيف الله محمد: المرجع السابق، ص ص 118-124.

²- الماشية: هي عبارة عن مساحة من الأرض الزراعية تبلغ حوالي 900 أو 950 هكتار. ينظر السنوسي: الرحلة الحجازية، ج2، ص 488.

³-ليبض سالم: قراءة في علاقة مجتمع عكاره بالسلطة المركزية في تونس بين (1850-1907)، مجلة إيبلا العدد 177 لسنة 1996، ص ص 7-8

بالأرياف والقبائل، فبالنسبة لهذه الأخيرة وعلى سبيل المثال: ظهرت عائلة مخزنية منتصف القرن 18م من قبيلة الفراشيش هي عائلة قضم التي إحتكرت المشيخة إلى حدود زمن حكم أحمد باي كما ظهرت عائلة السبوعي بقبيلة جلاص في القرنين 18 و19.¹

إن الدارس للأصول الجغرافية والاجتماعية للعائلات المخزنية يلاحظ تنوع أصول نخبها كما يدرك تميز المنظومة المخزنية بالطابع الأجنبي للسلطة المركزية خلال الفترة الحديثة. وهذه الملاحظات تؤدي بنا حتما إلى طرح التساؤل الآتي: لماذا ظل الإعتماد على الأتراك والأندلسيين والمماليك وغيرهم لتدعيم أركان الحكم؟ وما الذي يجمع بين هذه الفئات الاجتماعية؟

تتكون العائلات المخزنية أساسا من العائلات والأسر الأندلسية ومجموعة الممالك والعائلات الأوربية واليهودية إلى جانب العائلات المغاربية والمحلية فبالنسبة للأندلسيين فقد ساهموا بشكل واضح في نضج مؤسسة المخزن وهذا بحكم الكفاءة التي يتميزون بها فتعاطى بعضهم التجارة، واختص البعض الآخر في المجال العلمي (ماصور- مشاط- بن عاشور) وفي بداية القرن 19م تولى حمودة العصفوري مشيخة مدينة تونس 1843م وبعد وفاته تولى ابنه نفس الخطة، وعلى الرغم من كل هذا فقد ظلت مشاركتهم في المناصب المخزنية ضئيلة جدا ويرجع ذلك إلى مركب الإستعلاء الذي كانوا يتصفون به إتجاه السكان المحليين،² أما المماليك فإبتداءا من عهد حمودة باشا الحسيني بدأت سياسة شراء المماليك صغارا وتربيتهم تربية خاصة تؤهلهم لتولي تسير الأجهزة الحساسة في نظام الحكم، وسعيا من الحسينيين لتثبيت أسرتهم الحاكمة إنتهجوا سياسة تبنيهم (المماليك) ومصاهرتهم.³

¹-المهدي جراد: عائلات المخزن بالإيالة التونسية خلال العهد الحسيني (1705-1881)، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية تونس، وحدة البحث التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، أ، و، ت، 2011، ص ص 52-53

²-جراد المهدي: المرجع السابق، ص ص 62-66

³-خوالدية الضاوي: الذوات والأسر التونسية في القرن التاسع عشر من خلال إتحاق أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، بحث معمق في البنيات الاجتماعية والثقافة والإقتصادية والسياسة، تونس، بلا تاريخ، ص 96

بفضل هذه السياسة إرتقى المماليك إلى مناصب سيادية رفيعة وأصبح القرن 19م قرن المماليك بدون منازع بحيث أضحى منصب الوزير الأكبر أو من يقوم قامه حكرا من قبل المماليك يوسف صاحب الطابع (1795م-1815م) وحسن خوجة باش مملوك (1823م-1829م) وشاكير صاحب الطابع (1829م-1837م) ومصطفى خزندار (1837م-1873م) وأخيرا خير الدين (1873م-1877م) لكن الملفت للانتباه أنه منذ إصدار أحمد باي قرار منع العبودية بدأ انحسار عملية إنتداب المماليك وإضمحلهم تدريجيا من الجهاز المخزني.¹

ونظرا للتنوع الفئوي للنخب والعائلات المخزنية فإننا سنحاول دراسة ثلاثة نماذج لعائلات مخزنية قمنا بفرزها حسب الدور الذي أدته ضمن الجهاز المخزني.

أ. عائلة آل النيفر (الدور العلمي):

تعتبر عائلة النيفر من أشهر العائلات العلمية التونسية خلال الفترة المدروسة وهي عائلة شريفة النسب تنسب إلى الشيخ العارف بالله القطب أبي العباس أحمد الرفاعي يؤكد هذا السبب كل النيفريين الذين تناولوا سيرة أجدادهم مثل محمد النيفر (1860م-1912م) صاحب عنوان الأريب²، الشادلي النيفر محقق مسامرات الظريف بحسن التعريف لصاحبه محمد السنوسي.³

أما منشأ هذه العائلة فيقول محمد النيفر «ترامت بسلفنا الأوطان إلى أن قطن جدنا صفاقس ثم إنتقل جدنا أبو النور وسكن تونس حدود 1110هـ»،⁴ أما الشادلي النيفر فيذكر أن المنشأ هو أم عبيدة بالعراق ثم إنتقلت الأسرة إلى الأندلس ثم رجعت إلى الشرق (مصر) فتونس (صفاقس) فتونس الحاضرة.

¹-جراد المهدي: المرجع السابق، ص 68

²-النيفر محمد: عنوان الأريب عما نشأ بالمملكة التونسية من عالم وأديب، تذييل واستدراك علي النيفر، ج2، دار الغرب

الإسلامي، بيروت، لبنان، 1996، ص 838

³-السنوسي محمد بن عثمان: المصدر السابق، ج1، ص 354

⁴-النيفر محمد: المصدر السابق، ج2، ص 110

لكن عندما نطلع على المترجمين الآخرين غير النيفريين ندرك أن هناك تشكيكا في نسبهم الشريف وكذا موطن نشأتهم فهذا محمد السنوسي يقول «وهم يلبسون العمامة الخضراء علامة على شرفهم وأخبرني بعض الشيوخ منهم أنهم من ذرية الشيخ الرفاعي»¹.

ومهما يكن من أمر فإن أسرة النيفر إستقرت بمدينة صفاقس مدة ثم إنتقلت إلى الحاضرة والراجح أنها قدمت من الأندلس. إشتهرت الأسرة بممارسة التجارة إذ كانت مختصة بتجارة القرمسود الهندي والعمامة المطروزة وأنواع الطيب وبعض الصناعات التقليدية الرفيعة،² لكن نتيجة لعوامل مختلفة أبرزها الإنهيار الإقتصادي الذي شهدته البلاد خلال القرن 19م تحولت العائلة من التجارة إلى العلم وهذا بفضل إنكباب بعض أفرادها على طلب العلم بموازاة استمرار النشاط الإقتصادي ومصاهرة العلماء والأعيان،³ ظهر محمد النيفر (1807م-1860م) كباني ومؤسس البيت العلمي للعائلة التي إنخرطت في سلك الأسر العلمية المتوارثة لأهم الخطط المعروفة في القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين إبتداء من محمد النيفر إلى حمادي النيفر (1926م-1986م) تقلد محمد النيفر (1807م-1860م)،⁴ خطتي القضاء والإفتاء وكذا عضوية مجلس التحقيق المنبثق من دستور 1961م ثم أصبحت هذه الخطط متوارثة لدى الأسرة. أماخطي الإمامة والخطابة بجامع الزيتونة لم تصبحا تقليدا لدى الأسرة إذ لم يتقلدهما إلا عالمان فقط هما صالح النيفر ومحمد البشير النيفر.

عندما أعلن محمد باي عن عهد الأمان سنة 1857م قام بتكليف مجموعة من العلماء لتفسير قواعده لكنه وجد معارضة من طرف هؤلاء بحجة أن مناصبهم الشرعية لاتناسبها مباشرة الأعمال السياسية،⁵ ثم جاء بعده أخوه الباي محمد الصادق (1859م-1882م) الذي

¹- السنوسي محمد بن عثمان: المصدر السابق، ج1، ص ص 354-355

²- نفسه، ص 155.

³- خوالدية الضاوي: المصدر السابق، ص ص 158-159

⁴- خوالدية الضاوي: المصدر السابق، ص 161

⁵- ابن أبي الضياف أحمد: المرجع السابق، ج 4، ص ص 266-276

أعلن عن الدستور وتشكيل المجالس المختلفة التي كناقد أشرنا إليها سابقا في هذا البحث، قد واجه نفس الموقف من العلماء بإستثناء النياطرة الذين عوض أحدهم (محمد الطيب النيفر) مكان أحد المنسحبين من المجلس الأكبر وأختير محمد النيفر عضوا لمجلس التحقيق وصالح النيفر ومحمد الطاهر النيفر عضويين بمجلس الجنائيات.¹

إن مشاركة أسرة آل النيفر في مجالس السلطة الحاكمة يدل على حداثة وتفتح هؤلاء ويمكن أن نكون مخطئين في حكمنا هذا إذا مارأينا سلبية بعض مواقفهم خاصة إتجاه تدهور وضع البلاد وتعويض كل من صالح النيفر للجنرال حسين بعد إنسحابه من منصبه وكذا تعويض خير الدين من طرف محمد النيفر،² وقد نظم هذه الأسرة إذا قلنا أنها ذات طابع تجاري تستغل الفرص فقد كان محمد الطاهر النيفر أحد مساعدي خير الدين ومحمد الصادق النيفر كان من رواد النضال السياسي في بداية القرن العشرين.³

ب. عائلة ابن عياد: (الدور الإقتصادي)

يؤكد كل من عبد الرحمن الجبرتي (ت 1825م)،⁴ وابن أبي الضياف،⁵ أن أسرة ابن عياد أصلية مدينة جربة ويعتبر قاسم بن عياد مؤسس هذه السلالة المخزنية العريقة فقد برز هذا الرجل في ميدان الأعمال منذ أربعينات القرن 18م حيث إنخرط في عهد علي باي ضمن العمل المخزني فتولى قيادة جربة سنة 1758م⁶، بعد ذلك تولت هذه العائلة عدة خطط مهمة إلى سنة 1852م حيث تولى أحمد بن عياد (ت 1786م) خزندار علي باشا،⁷ ورجب بن عياد قيادة الوطن القبلي وأنشطتها منذ (1780م-1799م) وحميدة بن

¹- ابن أبي الضياف أحمد: المرجع السابق، ج 5، ص ص 43-45

²- نفسه، ص ص 110-113

³- خوالدية الضاوي: المرجع السابق، ص 163

⁴- الجبرتي عبد الرحمان: عجائب الآثار في تراجم الأخبار، ج 4، تح: حسن محمد جوهر، مطبعة لجنة البيان العربي،

القاهرة، مصر، ص ص 1-12

⁵- ابن أبي الضياف أحمد: المصدر السابق، ج 7، ص 103

⁶- هويدي سلوى، المرجع السابق، ص 163

⁷- خوالدية الضاوي: المرجع السابق، ص 167

عياد تقلد قيادة جربة ثم جهة الأعراض منذ 1790م،¹ أما محمد بن عياد فقد كان من أكبر اللزامة في عهد أحمد باي فهو أول من إنترزم الدخان وربح فيه ربعا ذريعا، مهديا الباي مركبا تجاريا، ثم عينه وكيلا على الرابطة،² أما محمود ابنه فقد إستبد بجميع وظائف أبيه وأصبح الملتزم الوحيد سرا وعلنا بجميع مداخيل الدولة والقابض لجميع أموالها.

وعلى الرغم من الأعمال المخزنية التي قامت بها هذه العائلة خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر إلا أنها حملت معها صورة سيئة لدى المجتمع التونسي وهذا بسبب الممارسات السيئة التي قام بها بعض أفرادها، ففي سنة 1778م هرب أحمد بن عياد خزندار علي باي إلى الإسكندرية بمصر بجميع الأموال التي كان مؤتمنا عليها وقد أكد هذه الحادثة كل من الجبرتي ومقديش ونتج عن هذه الحادثة إبعاد العنصر التونسي عن تولي المناصب المهمة في الدولة.³

أما محمد وإبنه محمود بن عياد فقد قتلوا الإيالة المسكينة وسلبوا حلالها الثمينة حسب تعبير الجنرال حسين في كتابهحسم الأنداد.

ج. عائلة التليلي (الدور الطريقي):

تتنسب هذه العائلة إلى تليلين نصر الجد الأول ومؤسس السلالة وإلى الحفيد أحمد تليلي مؤسس الزاوية.

أما تليل بن نصر فإن أسلافه يعودون إلى عائلة دمشقية غادرت بلاد الشام بعد سقوط الدولة الأموية إلى الأندلس وبعد حركة الإسترداد المسيحية توجهت إلى بلاد المغرب الأقصى وإستقرت في مدينة طنجة أينولد تليل هناك بعدها سافر في سياحة علمية إلى منطقة الشرقالجزائري 1433م أين لازم الشيخ عبيد بن خضير بزوايته الواقعة بنقرين ثم إتجه إلى فريانةأوسط القرن الخامس عشر ثم إنتقل إلى تونس الحاضرة لكنه لم يطل بها حيث رجع إلى منطقة الأوراس وتوفيا هناك في خنقة سيدي ناجي.

أما أحمد التليلي فهو حفيد قاسم بن تليل أحد الأبناء الأربعة للشيخ تليل المؤسس.

¹-هويدي سلوى: المرجع السابق، ص 164

²-ابن أبي الضياف أحمد: المرجع السابق، ج 4، ص 31

³-خوالدية الضاوية: المرجع السابق، ص ص 169-171

ولد أحمد بفريانة سنة 1709م ثم إنتقل إلى نفطة بزاوية سيدي سالم لحفظ القرآن والمتون الشرعية واللغوية، بعدها غادرها إلى زاوية (سيدي عبد الحفيظ)،¹ بخنقة سيدي ناجي بالأوراس التي قال عنها الشيخ أبو القاسم سعد الله أنها قطبا علميا بارزا في تلك الربوع وتعتبر من أشهر المدارس في غير العواصم،² بعد إتمامه المرحلة التكوينية وحصوله على مرتبة علماء الظاهر والباطن شغل منصب القضاء في إحدى قرى واد سوف ثم رجع إلى بلدته الأصلية فريانة أين بدأ في التحضير لتأسيس زاوية هناك.³

بدأت الأشغال في بناء الزاوية في 7 محرم 1146هـ / 20 جوان 1733م وستعرف فريانة والمناطق المحيطة بها بعد تأسيس الزاوية ثم المدرسة إشعاعا دينيا وعمرانيا هاما سيخرجها تدريجيا من وضعها الهامشي السابق إلى نقطة إشعاع متميزة بجهة سباسب الفراشيش.⁴

وقد ساعدته في بناء الزاوية العروش المجاورة لفريانة منها ماجر والفراشيش والهمامة وكذلك قبائل الجزائر الحدودية الحنانشة والنمامشة وغيرها إذ دعمت هذه القبائل ماديا وبشريا مشروع بناء الزاوية.⁵

كما تلقى الشيخ أحمد التليلي الدعم من السلطة الحسينية متمثلة في الباي حسين بن علي إذ قدم له هبات كبيرة وهدايا وفي هذا الصدد يقول صاحب الإتحاف «فوفوا له ولبنيه من بعده وكان الباي يكرم وفادهم وينزلهم دار الضيوف ويраهمبعين الإجلال».⁶

لعبت زاوية أولاد تليل أدوارا سياسة مهمة فقد كان علي باشا (1740م-1756م) يعتمد عليها في فض النزاعات المحلية مع القبائل الجزائرية وفي تأمين طرق

1-الماجري الأزهر: المرجع السابق، ص 128-137

2-سعد الله أبو القاسم: تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص 285

3-الماجري الأزهر: المرجع السابق، ص 146

4-الميساوي عبد الجليل: زوايا الوسط الغربي ودورها الاجتماعي، مجلة الحياة الثقافية، تونس، العدد 21، (ماي -

جوان) ص ص 55-68

5-الماجري الأزهر: المرجع السابق، ص 147

6-ابن أبي الضياف أحمد: المصدر السابق، ج 7، ص 154

الحجيج،¹ وبعد عودة أبناء حسين بن علي للسلطة إزدادت متانة العلاقة بين الزاوية والسلطة الحسينية بحكم ساعدتهم عندما كانوا في الغربية (الجزائر) وفي أواسط القرن 19م في عهد أحمد باي أصبحت زاوية أولاد تليل مؤسسة مخزنية بامتياز حيث صار البايعين مقدم زاويتها.

إن تحول الزاوية إلى مؤسسة مخزنية بداية من القرن 19م جعل العلاقات بينها وبين القبائل المجاورة لها كماجر والفراشيش يسودها التوتر ثم القطيعة أواسط القرن 19م وبذلك تعددت الإغارات وعمليات نهب أملاك الزاوية مما نتج عنها مغادرة عدة فروع أولاد تليل لفريانة وإستقرارهم خارج مجال الفراشيش كالقيروان والكاف وسوق أهراس الواقعة شرق الجزائر.²

¹-نفسه، ج 2، ص 162

²-الماجري الأزهر: المرجع السابق، ص ص 167-174

الفصل الثالث

الاقتصاد وأثره على المجتمع

أولاً: الأنشطة الاقتصادية الممارسة والتأثير

ثانياً: العملة والنظام النقدي

ثالثاً: التغيرات الاجتماعية للمجتمع التونسي

أولاً: الأنشطة الاقتصادية الممارسة والتأثير

مارس المجتمع التونسي عدة أنشطة اقتصادية عبر العصور مستغلا الموقع الإستراتيجي الممتاز للبلاد فهي تقع على الساحل الجنوبي للمتوسط المتميز بشواطئه الرملية ولا توجد بالبلاد جبال كثيرة إذ لا يتجاوز معدل الإرتفاع بها 700م، لذا أغرت سهولها منذ القدم الشعوب المجاورة، وتزدهر بها الفلاحة حتى سميت من طرف الرومان مطمورة روما.¹

أ- الفلاحة:

ظلت الفلاحة خلال العصور الحديثة العمود الفقري لإقتصاد التونسي والنشاط الرئيسي لسكان، لذا كان البايات الحسينيين حرصين على الاهتمام بها وتشجيع السكان على ممارستها، فعندما تولى حسين بن علي الحكم قام بتشجيع الفلاحة وساعد على الزراعة وذلك بالتخفيف من الضرائب وهذا من أجل تحسين وضع البلاد وتسهيل الوسائل التي إعتدها عرب الأرياف لفلاحة أراضيهم²، لذا كثرت في أيامه الخيرات وعمرت الرباع والرياض³، وفي هذا الصدد يقول صاحب الإتحاف «سعدت المملكة وأهلها بيمينه وإمتلأت أيديهم بالمكاسب وأثاروا الأرض وعمروها بالحبوب والأشجار وخفف على الفلاحين من أقتال المغارم ما قوى به الأمل وأغرى على العمل...»⁴.

وبما أنا الملكية تعتبر من العوامل المساهمة في إنتاج الفلاحي والمنضوية تحت نظامي الملك والوقف فقد أبقى الباي حسين بن علي على نفس النظام وإعتمد على ثروات زوجته فاطمة عثمانة ورثية عزيزة عثمانة المرأة الثرية التي كانت تملك حوالي 65300 هكتار من الأراضي في الساحل وحده بالإضافة إلى ما يمتلكه من أراضي فلاحية في

¹ - بن جمعة بلقاسم إبراهيم: الإقتصاد والمجتمع في الإيالة التونسية من 1861 إلى 1864، كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية، تونس، 2002، الشركة العامة للطباعة، ص 45.

² - المختار باي: المرجع السابق، ص 407

³ - حسين خوجة: المصدر السابق، ص 115

⁴ - بن أبي الضياف أحمد: المصدر السابق، ج2، ص 95.

مناطق متفرقة من البلاد¹، وكل هذه العقارات كان يتم إستغلالها بطريقة المغارسة أي غرس الأشجار وتسليم نصف الأرض للغارس الذي أحيائها أو الأيجار بالنسبة إلى أراضي الحرث مدة عامين أو ثلاثة أو ستة أعوام تتالية مقابل دفع المبلغ في أول الأيجار أو تقسيطه حسب الفترات المتفق عليها.²

أما في المناطق الريفية فقد إمتلك عدة قبائل أراضي جماعية مثل قبيلة فطناسة ونفزة ومقعد وشاتة وأولاد يحي، فالباي إذن إتبع سياسة الإغراء مع القبائل الريفية من أجل كسب ودها وصادقتها³، وعلى الرغم من هذه الأعمال الحسنة التي كانت في صالح الرعية إلا أنه قام بالسيطرة على فائض الإنتاج بطرق إحتكارية منها ممارسة طريقة المشتري التي تحرم المنتجين من جزء من إنتاجهم يشتريها البايك بأثمان منخفضة ثم يعيد بيعها للتجار الأجانب بأثمان مرتفعة مما يحقق له أرباحا طائلة⁴.

أما علي باشا (1740م-1756م) فقد منع ممارسة الفلاحة على بنيهووزرائه قائلا لهم «إن ذلك معاش الضعفاء والعامّة»⁵، وفي نفس الوقت بالغ في إستعماله لطريقة المشتري التي أصبحت في عهده آفة إجتماعية حسب ما ذكره حمودة بن عبد العزيز في كتابه الباشي⁶.

إستمرت البلاد على حالها إلى أن آلت الإيالة إلى أبناء حسين بن علي من جديد ففي زمن علي باي (1759م-1782م) عرفت الفترة من 1765م إلى 1776م رخاء إقتصادي ليس له مثل وهذا بفضل سياسة الباي الحكيمة حيث قام بإلغاء المشتري في الحبوب، كما أدخل عدة تحويلات على نظام إلترام الهناشير إذ لم يعد يجبر إللزام على كراء هنشير⁷

¹-El Mekhar Bey: Les Beys de Tunis 1705 -1957 , 2 Éme Édition, 2003,p170

²-Valensi Lucette: Fellah Tunisiéens, Opcit, pp139 138

³- Cherif Mohamed Hadè: Opcit,pp 344 _347

⁴-هنية عبد المجيد، المرجع السابق، ص ص 169-170

⁵-إين أبي الضياف أحمد: المصدر السابق، ج 2، ص 122

⁶-حمودة بن عبد العزيز: المصدر السابق، المخطوط، رقم الورقة: 351

⁷-الهنشير: مصطلح محلي يطلق على الأرض الفلاحية الشاسعة والتي تزرع فيها الحبوب، قد تتجاوز مساحة الهنشير

200 أو 330 هكتارا. ينظر: السعداوي أحمد: المرجع السابق، ص 211.

دون رضاه بالإضافة إلى قيامه بإستصلاح وإحياء مساحات كبيرة من الأراضي لم تكن مستغلة من قبل وبذلك توسعت الأراضي الزراعية وخاصة في مناطق زراعة الحبوب في الشمال¹.

وفي المقابل تخلى عن سياسة تدخل الدولة في الحياة الاقتصادية فترك الباب مفتوحا أمام الأعيان الذين إستغلوا البلاد لصالحهم وتعاملوا مع البايك من جهة ومع التجار الأجانب من جهة أخرى².

ولما تولى حمودة باشا العرش أولى إهتمامه لإقتصاد البلاد ووضع قاعدة زراعية تستفيد منها البلاد والعباد فاتبع مجموعة من الطرق لتحقيق زيادة الإنتاج منها حثه على العمل ونبذ البطالة³، يقول صاحب الإتحاف «... ومن أخباره أنه يقول في مجلسه علنا لا أبغض أحد من أهل بلادنا إلا البطل لا نفع فيه للوطن ولو يرعى البقر»⁴، كما سعى لتحسين الإنتاج بإستعمال بعض الطرق العلمية الحديثة حيث جلب فرنسيون يقومون بتجارب لتحسين الإنتاج الزراعي التونسي⁵، ثم إستطاع تأمين أسعار رائجة وأسواق خارجية للإنتاج الزراعي وذلك لتشجيع الفلاحين لمضاعفة إنتاجهم.

إن هذه السياسة أدخلت روحا جديدة لنشاط الزراعة في تونس وبهذا شهدت البلاد إزدهار ووفرة في الإنتاج رغم الأمراض والمجاعات التي ظهرت في أواخر القرن الثامن عشر لكن هل إستطاع البايك الذين خلفوا حمودة باشا مواصلة سياسته في تطوير البلاد؟ أم حدث تغير في أوضاع الإيالة بداية القرن 19م؟

لقد شكل القرن 19م بالنسبة للبلاد التونسية قرن التراجع والأزمات حيث بدأت أوضاع الإيالة في تراجع منذ وفاة حمودة باشا 1815م وإنقلبت موازين القوى لصالح الدول الأوروبية.

¹ - هنية عبد المجيد، المرجع السابق، ص ص 187-189

² - الهادي محمد الشريف: تاريخ تونس...، المرجع السابق، ص 87.

³ - العامري محمد الهادي: المرجع السابق، ص 295.

⁴ - إبن أبي الضياف أحمد: المصدر السابق، ج3، ص 93.

⁵ - رشاد الإمام: سياسة حمودة باشا في تونس، المرجع السابق، ص 262.

لم تكن هذه الأزمة وليدة العوامل الخارجية وإنما تضافرت جملة من العوامل الداخلية وخاصة سياسة البايات والعوامل الطبيعية وغيرها لتدخل الإيالة في أزمة شاملة إنتهت بالإحتلال الفرنسي 1881م.

تأكد الدراسات التاريخية أن البلاد التونسية عرفت تراجعاً في زراعة الحبوب في بداية القرن 19م لصالح زراعة الزيتون وإنتاج الزيت وهذا بسبب الطلب الأوروبي المتزايد على الزيوت لكن الأوضاع السياسية وسياسة البايلك أثرت سلباً في الإنتاج الفلاحي،¹ حيث تقلصت المساحات المزروعة بصورة جلية وخاصة سنة 1867م حيث وصلت 25930 هكتار وهي ثلث المساحة المزروعة في النصف الأول من القرن 19م وقد شمل هذا التقلص المساحات المزروعة بالحبوب مما أدى بالبايات إلى إستيراد القمح من الخارج (زمن حسين باي) وعمد أحمد باي إلى نفس السياسة سنة 1843م بالإضافة إلى إرتفاع أسعار الحبوب وتكررت نفس السياسة مع محمد الصادق باي.²

كما عرفت الإيالة بداية ستينات القرن التاسع عشر صعوبات إقتصادية تجلت في عجز الدولة عن توفير الغذاء لكامل الإيالة وخاصة قاطني التجمعات الحضرية مما حدى بهم إلى التظاهر في العاصمة مع الشيخ الطاهر الرياحي في سبتمبر 1861م، مطالبين الباي بوقف تصدير الحبوب إلى أوروبا لما إنجر عنه من نقص في تموين الأهالي وغلاء الأسعار.³

أما بالنسبة لغراسة الزيتون فهي غراسة ضاربة في القدم فقد إنتشرت منذ العهد الروماني في أماكن مختلفة من البلاد وزاد الإهتمام بها بعد 1815م نتيجة زيادة الطلب الخارجي على الزيت حيث بلغت عدد أشجار الزيتون ما يقارب ثمانية ملايين شجرة.⁴

¹- بن الطاهر جمال: الاقتصاد والمجتمع في القرن التاسع عشر، تونس عبر التاريخ، المرجع السابق، ج 2، ص ص 265-267

²- نفسه، ص 68

³- بن جمعة بلقاسم إبراهيم: المرجع السابق، ص 57

⁴- بن الطاهر جمال: الاقتصاد والمجتمع في القرن التاسع عشر، تونس عبر التاريخ، المرجع السابق، ج 2، ص 269

ومنذ منتصف أربعينات القرن التاسع عشر أصبحت غراسة الزيتون أهم نشاط زراعي بالبلاد ومحل إهتمام خاص من الفلاحين¹، وتواصل توسيع غراسة الزيتون في عهد محمد باي والصادق باي عبر عقود المغارسة لتتحول إلى نشاط إحتكاري ومضاربة وهو موجهان إلى التصدير إلى الخارج².

وإلى جانب الزيتون تحضى غراسة النخيل مكانة مهمة إذ تعد إحدى ثروات الإيالة في القرن التاسع عشر وخاصة في واحة الجريد التي تنتج حوالي 102 نوعا إختصت منها بأجودها، وكان الإنتاج يتراوح ما بين 200000 و300000 قنطار سنويا³. وتحتوي البساتين أشجار مثمرة متنوعة كالفوارص والتفاح والمشمش والأجاص واللوز والتين والخوخ والجوز والسفرجل والعنب والرمان والكمثرى والموز بالجنوب التونسي⁴، كما يغرس الكروم في كل جهات البلاد⁵، وتحاط هذه الأشجار بأسيجة من شجر الهندي (الصبار) لتأقلمه مع الجفاف وسرعة نموه مما جعله الغذاء الأساسي لفقراء الريف فصل الخريف⁶.

ب- الصناعة:

عرف المجتمع التونسي خلال العهد الحسيني صناعات تقليدية متعددة وقد حاول البايات الحسنيون تطويرها بشتى الطرق إبتداء من حسين بن علي وأبناؤه من بعده فكانوا يشجعون الصناعات المحلية يقول صاحب صفوة الإعتبار «وكانت ولاية القطر من بني حسين بن علي يعتنون بالإقتصاد وحمل الأهالي عليه بأوجه سياسية لطيفة منها أن حمودة باشا رأى كثرة لبس الشال الكشمير أي الطيلسان في الأهالي فأحضر من الشال المصنوع من جربة عددا ولبس منه وألبس رئيس الكتبة أيضا وخرج بذلك اللباس يوم العيد لتلقي

¹-Pellissier de Reynaud: Opcit, p351.

²-المحجوبي علي: إنتصاب الحماية على تونس، منشورات الجامعة التونسية، تونس، 1977، ص18

³- بن الطاهر جمال: الاقتصاد والمجتمع في القرن التاسع عشر، تونس عبر التاريخ، المرجع السابق، ج 2، ص 268

⁴-محمد بيرم الخامس: المصدر السابق، ج1، ص ص 171-174

⁵-Frank Louis:Opcit p 55

⁶-محمد بيرم الخامس: المصدر السابق، ج 1، ص 174.

وفود الهناء وللصلاة... ويقول جهرة...نعمة الشال هذا صنع بلادنا فمالنا وإضاءة أموالنا خارجها...»¹.

لقد كان حمودة باشا الحسيني لا يتباهى إلا بعمل البلاد ومن لبس نسيجها كنسيج سوسة والحمامات والجريد وجربة وما يصنع بالحاضرة من نسيج الحرير والصوف وبهذا نجح في جعل الناس يلبسون أصنوعات تونس كما عمل على توفير المواد الأولية التي تحتاجها الصناعة التونسية².

أما أحمد باي (1837م-1855م) فقد حاول بعث صناعة تونسية متطورة على غرار أوربا لهذا أسس جملة من المصانع المزودة بالآلات العصرية المستوردة من أوربا وبالخبراء الأوربيين وبالعمال الأجراء³، وأبرز هذه المصانع أعجوبة دار الملف كما يسميها ابن أبي الضياف وقد تأسست عام 1844م وهي مصنع كبير لنسيج بطبرية على وادي مجردة أهم جرى مائي بالبلاد⁴، وذلك من أجل توفير لباس الجند الذي كانت الإيالة تستورده وقد تم إستيراد الآلات والأنوال العصرية من إنجلترا وإنتدب الباي من فرنسا بعض الفنيين للقيام بمهمة تدريب العمال⁵، وقد شغل هذا المصنع عام 1844م أكثر من 438 أجير منهم 10 فنيين أوربيين و 28 عاملا فرنسيا متخصصا و 400 عامل تونسي⁶.

¹-نفسه، ج 1، ص 215

²-Valenci Lucette: le Maghreb ...Opcit pp 70_ 71

³- خليفة الشاطر: المشروع الإصلاحى بين الطموح والواقع، تونس عبر التاريخ، المرجع السابق، ص 297

⁴- ابن أبي الضياف أحمد: المصدر السابق، ج4، ص 76

⁵- خليفة الشاطر: المشروع الإصلاحى بين الطموح والواقع، تونس عبر التاريخ، المرجع السابق، ص 297

⁶-الحماص محمد: الحركة التصنيعية في تونس في النصف الثاني من القرن 19، مذكرة ماجستير كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، 1998، ص 84.

كما أنشأ أحمد باي مصنعا للصابون ومدبغة ومصنعا للجبس بجبل الجلود¹ وقد سعى إلى تطوير معاصر الزيتبه كذلك، وكذا المصانع الحربية التي أسسها حمودة باشا بالحفصية لصناعة المدافع والقذائف وأسس مصانع للبارود بالقصبة والجم.²

وعلى الرغم من المجهودات المبذولة من طرف بعض البايات الحسينيين إلا أن الصناعة ظلت خلال القرن 19م صناعة حرفية يدوية تقليدية وظل أسلوب العمل وأدواته تقليديا وهذا ما يؤكد الدارسون لأوضاع المهن والحرف التونسية حيث يتفقون على ركود قوى الإنتاج وتخلف التقنيات³، يقول صاحب صفوة الاعتبار «ومنذ صنعت الشاشية بالمعامل في أوربا رخصت ولا زال صناعتها في تونس متمسكين بالآلات القديمة»⁴.

إن إنغلاق الحرف وضعف تقسيم العمل التقني وطبيعة تقسيم الحرف الإجتماعي بين حرف سامية وأخرى وضيفة قد ساهم في إنحصار المهارات بعد أن أصبحت تقليدا يتوارثه الأبناء عن آبائهم دون خوف من أي تحديد يهدد هذا النظام الطبيعي⁵، تعددت الحرف والصنائع في الإيالة التونسية خلال القرنين 18 و19 م وقد ذكر الشيخ محمد بنعثمان الحشائشي التونسي مائة وإثنين صنعة في كتابه «العادات والتقاليد التونسية» الصادر في بداية القرت العشرين مقسما هذه الصنائع إلى ثلاث مجموعات:

صناعة في الأعيان: الشاشية النقش حديدية، تفسير الكتب، تذهيب الأوراق، الخراطة، السروج، الحرير، العطار، النسخ والكتابة، تقطير المياه، النقش على الركام.

صناعة وضيفة: الدباغة، نقش الحجارة، حد السيوف، الشعارة، الحدادة، مواد غير معنية من الحرف... إلخ.

¹- جبل الجلود: يرتفع هذا الجبل الصغير الذي لا يتجاوز ارتفاعه 49 متر على ضفاف البحيرة جنوب مدينة تونس، على الطريق الرابط بينها وبين حمام الأنف. ويوجد ضريح سيدي فتح الله على سفح الجبل من الجهة القبلية ينظر: السعداوي أحمد، المرجع السابق، ص 423.

²- خليفة الشاطر: المشروع الإصلاحية بين الطموح والواقع، تونس عبر التاريخ، المرجع السابق، ص 297

³- بن جمعة بلقاسم إبراهيم: المرجع السابق، ص 112-114

⁴- محمد بيرم الخامس: المصدر السابق، ص 326

⁵- بن جمعه بلقاسم إبراهيم: المرجع السابق، ص 115

مواد غير معنية من الحرف والتصرفات: حرفة الدخاخي، الحمار، الكواش، السقاء وغيرها.¹

ونظرا لتعدد الصنائع والحرف التقليدية في الإيالة التونسية خلال العهد الحسيني فإننا سوف نذكر أهم الصناعات وأشهرها.

صناعة الشاشية:

كانت هذه الصناعة موجودة في تونس منذ العهد الحفصي لكنها عرفت تطورا أكثر خلال الفترة الحسينية نظرا لما لفته من تشجيع من طرف البايات،² ففي سنة 1724م ذكر الرحالة بيسونال أن عدد الأهالي الذين يعملون في هذه الصناعة أكثر من خمسة عشر ألف نسمة.³

ولما تولى حمودة باشا الحكم إهتم بهذه الصناعة وأولاهها عناية خاصة وقد بلغ به إهتمامه بها جعله يعقد معاهدة صلح مع إسبانيا لتأمين الصوف الممتاز لتلك الصناعة،⁴ وحول الموضوع يقول المؤرخ مقديش «... ومما إمتازت به تونس على سائر بلاد الله شرقا وغربا عمل القلانيس الذي هو أكثر صنع أهلها المسماة بالطاكية يعني الشاشية فهو شيء تفوقوا به على أهل الأرض قاطبة حسنا وإتقانا...»⁵.

وفي أواخر حكم حمودة باشا بدأت صناعة الشاشية في التدهور وقد أرجعه بعض الدارسين والرحالة إلى تلك الأوبئة التي ظهرت في البلاد حيث قتلت الكثير من أعيانها وصناعاتها بالإضافة إلى تأسيس فرنسا لمصنعين حديثين فأصبحت تزامم الصناعة التونسية بغزو معظم أسواقها.⁶

1- الحشائشي محمد بن عثمان: المرجع السابق، ص 101

2- الإمام رشاد: سياسة حمودة باشا، المرجع السابق، ص 271

3- Peyssonnet Desfontaines: Opcite, pp76-77

4- الإمام رشاد: سياسة حمودة باشا، المرجع السابق، ص 272

5- مقديش محمود: المصدر السابق، ج 1، ص 172

6- الإمام رشاد: سياسة حمودة باشا، المرجع السابق، ص 272-273

إحتلت صناعة الشاشية مكانة مرموقة بين الطوائف الحرفية وفي صلب إقتصاد الإيالة التونسية لما تميزت به هذه الصناعة من تقسيم للعمل وحجم كبير للإنتاج وقدرة على الرواج في الأسواق المتوسطية الإفريقية،¹ هناك العديد من أنواع الشاشية منها الصاريك وهو نوع رفيع والساقس، الثثي والكلبوسي وتسير هذه الصناعة عائلات من أصول أندلسية مثل القسطلي، شلبي، الوزير.²

صناعة النسيج:

ازدهرت هذه الصناعة وتطورت بإختلاف أنواعها وكانت معامل النسيج منتشرة في أغلب أحياء تونس الحاضرة، تنتج منسوجات صوفية متقنه وكذلك المنسوجات الحريرية،³ وقد ظهرت هذه الصناعة في مدن تونسية أخرى أهمها مدن الساحل التونسي حيث وجد على سبيل المثال سنة 1836م، 272 نولا، بمساكن، 111 نولا بجمال، أما بسوسة فوجد بها 500 نول، وإلى جانب الساحل إشتهرت مراكز أخرى بنسيجها واختصت كل جهة بنوع خاص كبرنس الجريد وطيلسان جربة.⁴

لكن السؤال الذي يطرح نفسه هل إستمرت الصناعة التونسية في التطور والنمو خلال القرن 19م؟ وهل إستطاعت مواكبة الصناعة الأوروبية؟

إننا الباحث في الصناعة التونسية خلال القرن 19 م يدرك دون شك أنه بداية من الثلث الأول من القرن 19 م دخلت الصناعة في أزمة ولم تعد قادرة على الصمود في وجه الصناعات الأوروبية فعجزت على رفع تحدي الإنتاج بأثمان منخفضة حتى أصبح الأهالي وخاصة في المدن يقبلون على البضائع الأجنبية لرخص أسعارها وبذلك أصبحت الحرف مثلها مثل بقية الهياكل في حالة دفاع أمام هجوم الرأسمالي العالمي الذي نجح في نقل الصراع إلى الأسواق المحلية وإغراء الطبقات الحاكمة والميسورة،⁵ حتى قال عنها

¹- بن الطاهر جمال: الاقتصاد والمجتمع في القرن التاسع عشر، تونس عبر التاريخ، المرجع السابق، ص 271

²- التيمومي الهادي: تونس والتحديث، المرجع السابق، ص 39

³-Frank Louis: Opcit p100

⁴- بن الطاهر جمال: الاقتصاد والمجتمع في القرن التاسع عشر، تونس عبر التاريخ، المرجع السابق، ص 270

⁵-بن جمعة بلقاسم إبراهيم: المرجع السابق، ص 119

محمد بيرم الخامس «... ويمكن القول أن أغلب الصنائع الحاجية معروفة لكنها غير موفية بالإستغناء عن جلب المصنوعات من خارج القطر بحيث من نظر إلى لباس أهل المدن ومسكنهم وفرشهم يجد أغلبها من مصنوعات الأجانب وذلك موجب لفقر المملكة»¹.
فصناعة الشاشية مثلا إبتداء من أواسط القرن 19م أصبحت تعاني من صعوبات جمة في الحفاظ على أسواقها التقليدية بالمشرق العربي بعد أن نافستها الشاشية المصنعة بالنمسا وكذلك بعد أن أحدث بعض الصناعيين من فرنسا وإيطاليا مصانع للشاشية في بلدانهم وقاموا بترويج إنتاجهم في الأسواق التونسية بالإضافة إلى الدخلاء الذين إحترفوا هذه الصناعة على غير قواعد الحرفة ونافسوا أصحابها.
لهذه الأسباب وغيرها أقل نجم هذه الصناعة فأغلقت عديد الورشات وغيرت بعض العائلات مهنتها وإتجه أبناؤها للعمل في قطاعات أخرى².

ج- التجارة:

يعتبر النشاط التجاري من أهم الدعائم الرئيسية للاقتصاد التونسي لذا نرى البايات الحسينيين يشجعونه من خلال إدراكهم بأنه العامل الأساسي لترويج المنتوجات والصناعات المحلية في الخارج³ وقبل الحديث عن التجارة وأنواعها يجدر بنا التطرق إلى وسائل النقل المعتمدة وإلى الساهرين على ترويج البضائع وعلى حركة الاسعار، فقد كانت تفتقر إلى طرق مائية من أنهار وقنوات صالحة للملاحة⁴ وتفتقر أيضا إلى وسائل نقل برية متطورة، إذ كانت البضائع وإلى حد ستينات القرن 19م تنتقل على الدواب كالحمير والبغال وكان استعمال العربات محدود جدا وظل استعمالها محرما في بعض المدن مثل بنزرت التي بنت عتبات كافة أبوابها من قواعد صخرية علوها ثلاثة أقدام.

¹-محمد بيرم الخامس: المصدر السابق، ج1، ص 326

²- بن الطاهر جمال: الاقتصاد والمجتمع في القرن التاسع عشر، تونس عبر التاريخ، المرجع السابق، ص 271-272

³-أحمد قاسم: أوضاع إيالة تونس العثمانية على ضوء فتاوي ابن عضوم، م.ت.م، العدد 33-34 جويلية 1979، ص

⁴-بن جمعة بلقاسم إبراهيم: المرجع السابق، ص 80

وتتولى نقل البضائع بين المدن والقرى فرق من الحمارة على صهوة دوابهم لإرسالها إلى أصحابها من تجار وغيرهم.¹ ومما يعرقل النشاط التجاري أيضا عدم وجود مكاييل وموازين موحدة في البلاد ولم تعرف البلاد القياس المتري وإنما وحدات مثل الذراع، والأنملة واحتفظت بوحدات وزن قديمة مثل الرطل والكيل مثل القفيز والروبية والصاع والمطر² والقنطار، ولم تكن لهذه الوحدات نفس القيمة في كل الجهات فمحتوى مطر الزيت يتراوح بين 20.2 لتر في العاصمة و37.07 بالجم بينما يساوي قفيز القمح 16 وبية بتونس و14 وبية في باجة،³ وتنقسم التجارة في المجتمع التونسي إلى نوعين:

1-تجارة داخلية:

إن تنوع الإنتاج الزراعي والحيواني والصناعي أدى بدوره إلى ازدهار النشاط التجاري فأصبحت المدن التونسية مراكز تجارية هامة يأتي إليها الأهالي من مختلف الجهات وبهذا انتشرت الأسواق في العديد من المدن ومن أهم هذه الأسواق: سوق العطارين والبركة والقرانة والترك والقماش.

سوق السكاكين: ظهرت هذه السوق منذ القرن 15 م/ 9هـ وتم تجديدها زمن حسين بن علي⁴، والصحيح الشكاكين من مادة شكر بمعنى ألبس مادة الخشب غلافا من الجلد. والشكازة فرع من صناعة السروج، ويتم في هذا السوق صنع وبيع منتوجات الجلد بأنواعه، وهو مختص في مدينة تونس في صناعة السروج وغيرها مما تجهز به الخيول وتصنع فيه أغمدة السيوف⁵.

سوق البلاغجية: أسسها علي باي الثاني عام 1768م وتخصصت في صنع البلاغية والكندرة وهي أحذية تقليدية.

¹-موسكوا بوكليير:سميلا سوفي، افريقيا،تعريب: منير الفندريوالصحبي الثابتي، بيت الحكمة، تونس، 1987، ص 51

²- المطر: وهو مكيال للزيت يتراوح بين 18 و28 كيلو، ويختلف باختلاف الجهات. إبن أبي الضياف: المصدر السابق، ج 4، ص31.

³-بن جمعة بلقاسمإبراهيم:المرجع السابق، ص ص 80-81

⁴-الحشائشي محمد بن عثمان:المصدر السابق، ص ص 380-383

⁵-السعداوي أحمد: المرجع السابق، ص 183.

سوق الباي: أسسها حمودة باشا وكانت مختصة في تجارة السجاد والأقمشة الحريرية وتباع فيها أيضا الأقمشة الصوفية.

سوق الشواشين: وتحتوي على سوقين السوق الصغير والكبير،¹ تم بناؤهما من قبل حمود باشا وقد اختص في صناعة الشاشية وبيعها.

السوق الجديد: أسسه يوسف صاحب الطابع وأشرف على تدشينه حمودة باشا سنة 1813م وفيه أنشطة متعددة.²

ومن صور تشجيع البايات على ممارسة التجارة ما قام به حمودة باشا(1782م-1814م) إذ منع التجار الأجانب من شراء المنتوجات الزراعية من المزارعين مباشرة إلا إذا تمت بواسطة تجار تونسيين وهذا كله من أجل ضمان ربح التجار المحليين وحماية الفلاح والتخفيف من الغبن الذي كان يحصل له عند بيع كل محصول له قبل وقت الحصاد بأثمان بخسه.³

لقد كانت التجارة التفصيلية(التجزئة) الداخلية بأيدي الجرابية(أصلي جزيرة جربة الجنوبية) والصفاقسية واليهود والمزابيين (أصلي منطقة مزاب الجزائرية) وكان الجرابية مسيطرين على الشمال التونسي والصفاقسية على الوسط والجنوب أما اليهود فنجدهم في أغلب المدن وخاصة في تونس الحاضرة.⁴

2-التجارة الخارجية:

إن موقع تونس الاستراتيجي جعلها تمارس شتى أنواع التجارة مع البلدان الاسلامية والمسيحية على حد سواء ومنذ دخولها تحت لواء الراية العثمانية تعززت تجارتها أكثر مع الشرق.⁵

¹-الحشائشي محمد بن عثمان:المصدر السابق، ص ص 380-385

²-أبو بكر عبد الكافي:تاريخ تونس، منشورات التعاضدية العمالية للطباعة والنشر، صفاقس، 1966، ص 95

³-رشاد الامام:سياسة حمودة باشا، المرجع السابق، ص 277

⁴-التييمومي الهادي:تونس والتحديث، المرجع السابق، ص 40

⁵-Khalifa Chater: Opcite, pp 150-151

لقد شجع البايات الحسينيون التجارة الخارجية وهذا من خلال محاولتهم إشراك العناصر المحلية في التجارة الخارجية فقد كان علي باي الثاني (1759م-1782م) يحث التجار التونسيون على العمل بالقول والدعم المادي فيذكر ابن أبي الضياف في الاتحاف «...أنه كان يعطي ما يفضل عنده من الأموال للتجار يتجرون بها برا وبحرا ولا يسترجع منهم إلا رأس المال ولهم الربع بتمامه لدورة ثانية...»¹ وبذلك نشطت التجارة في عهده برا وبحرا وشرقا أكثر منها غربا.²

أما حمودة باشا فقد اتخذ عدة تدابير منها:

- إعطاء رخص تصدير الحبوب أو الزيت لبعض التونسيين وهم بدورهم يبيعونها لغير أهل المملكة من التجارة.

- إعفاء أهل البلاد من دفع القيمة المقررة على تصدير الحبوب أو الزيت (السراج) من تونس ويدفعها غير أهل البلاد من التجار.

- تخفيف حقوق الجمركة على التجار التونسيين وخاصة البضائع المستوردة من فرنسا من 11 إلى 5.5 فقط.³

لقد أعطت هذه الاجراءات دفعا قويا للعديد من التونسيين لممارسة التجارة الخارجية وقد وصل عددهم كما يقول فرانك أكثر من مائة وخمسين تاجرا كبيرا.⁴

وهكذا أصبح التاجر التونسي حاضرا في أغلب المحطات التجارية المتوسطة الهامة، الجزائر، طرابلس الغرب، الاسكندرية، اسطنبول، سالونيك، أزمير، مرسلية، المواني الإيطالية... الخ.⁵

نخلص في الأخير أن حمودة باشا استطاع تطوير التجارة الخارجية للبلاد فهل استطاع البايات الذين خلفوه المحافظة على هذا التطور؟

¹- ابن أبي الضياف أحمد: المصدر السابق، ج 2، ص 161.

²- محمد الشريف: تاريخ تونس، المرجع السابق، ص 87

³- الامام رشاد: سياسة حمودة باشا، المرجع السابق، ص 279-280

⁴- Frank Louis: Opcit, p 80

⁵- حسن العنابي: حمودة باشا أوج السلطة الحسينية، المرجع السابق، ص 230.

- أورد محمد العامري أن مداخل الدولة بلغت في عهد حمودة باشا أربعة وعشرين مليون فرنك، أما مداخل الإيالة التونسية للفترة الممتدة من 1824م إلى غاية 1829م فقد وصلت إلى حوالي ثمانية ملايين فرنك،¹ والسبب في ذلك يعود إلى هيمنة الدول الأوروبية على التجارة الخارجية للإيالة حيث أنهم في سنة 1820م كانوا يتحكمون في 92 من صادرات البلاد من زيت الزيتون.²

لقد شهدت الفترة من 1816م إلى غاية 1829م ارتفاع قيمة الواردات التونسية من أوروبا بنسبة 100% بينما لم ترتفع الصادرات التونسية إلا بنسبة 45% وقد أدى هذا التدخل الاقتصادي الأوربي إلى إفلاس العديد من كبار التجار التونسيين المسلمين مثل الجلولي والرصاع والغمد والعصفوري.³

وقد تمكنت فرنسا من خلال معاهدتي 15 نوفمبر 1824م و 8 أوت 1830م من الحصول على امتيازات تجارية عديدة منها، حماية التجار الفرنسيين من قضاء الباي وجوره وفتح الأسواق التونسية أمام التجار الأوربيين والحد من احتكار الباي للتجارة الخارجية ثم سارت الدول الأخرى على نفس المنوال ليشهد التنافس بينها للسيطرة على ثروات البلاد.

لقد حققت التجارة الخارجية التونسية تطورا ملحوظا بين سنتي 1847م و 1857م إذ تضاعفت قيمة كل من الصادرات والواردات حوالي ثلاث مرات لكن ذلك أدى إلى عجز تدريجي في الميزان التجاري التونسي وقد بدأ هذا العجز في نهاية عهد أحمد باي ثم زاد في عهدي محمد باي ومحمد الصادق باي باستفحل الأزمة المالية وشمولها.⁴ وقبل أن نختم حديثنا عن التجارة يجب ذكر أهم الصادرات والواردات التونسية.

¹- العامري محمد الهادي: المرجع السابق، ص 294

²- كريم عبد المجيد: وثائق معرض الحركة الاصلاحية بالبلاد التونسية بين 1815-1920، منشورات المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية، تونس، 1994، ص 10

³- التيمومي، الهادي: تونس والتحديث، المرجع السابق، ص 41

⁴- بن الطاهر جمال: الاقتصاد والمجتمع في القرن التاسع عشر، تونس عبر التاريخ، المرجع السابق، ص 273-274

يقول محمد برم الخامس «...فأما البضائع الخارجية فهي الحبوب من قمح وشعير وفول وغيرها وكذلك الزيت والصوف والقطن والاسفنج وبيض السمك ومنتجات الحرير والشاشية وأما البضائع الداخلية فهي كثيرة منها المنتوجات القطنية والحريرية والصوفية وأنواع الأخشاب والسكر والقهوة وأواني النحاس».¹

ثانيا: العملة والنظام النقدي

لم تعرف الايالة حتى دخول الاستعمار الفرنسي نظاما نقديا محددًا فلا وجود لقانون عام ثابت شبيه بالنظام النقدي الأوربي وإنما تتداول فيها نقودا مختلفة من ذهب وفضة ونحاس محلية وأجنبية يحدد مقدار سعرها عن طريق العملات الأجنبية التي تتخذ كمادة أولية.²

وكانت العملة الإسبانية هي العملة الرسمية للبلاد،³ خاصة الريال الإسباني وهو مصنوع من الفضة ويساوي 52 ناصريا كان ذلك في عهد حسين بن علي وواصلت بنفس القيمة طيلة الفترة الحسينية.⁴

وبالإضافة إلى العملة الرئيسية الريال الإسباني توجد عدة عملات محلية وأخرى أجنبية وهي كالتالي:

العملات المحلية:

كانت العملات المحلية المتداولة في تونس خلال القرن الثامن عشر ثلاثة أنواع ذهبية، فضية، نحاسية،⁵ وكانت تضرب في دار السكة باسم السلطان العثماني،⁶ ومن أهم أنواعها:

¹-محمد بيرم الخامس: المصدر السابق، ص 319.

²-بن جمعة بلقاسم إبراهيم: المرجع السابق، ص 94

³-المختار باي: المرجع السابق، ص 458

⁴- ينظر الملحق رقم 09، ص 291

⁵-Mongi Smida: Aux Arigines Du Commerce Francais En Tunisie Les Traités Capitulaires Sud Édition, Tunis, 2001, p116.

⁶-Cherif Mohamed Hadé: Pouvoir et Société..., Op.cite, p 48.

- " السلطاني " أو " سوكانالبربري " أو " سوكان المحبوب " وهي نقود ذهبية قليلة التداول بسبب ندرة الذهب¹.

- الريال التونسي: بقي استعمال الريال الاسباني طيلة القرن السابع عشر وحتى العقود الأولى من القرن الثامن عشر عندما بدأ حسين بن علي بضرب وتقليد القطع الاسبانية وكان ظهوره سنة 1766 في عهد علي باي، وأهم تقسيماته الخروبة².

- الناصري: يعرف أيضا بالريال الناصري أو الريال التونسي³، وهي عملة مربعة كان وزنها في عهد حسين بن علي 0.450 غ وظلت قيمته ثابتة أمام الريال الاسباني طيلة القرن الثامن عشر يساوي 52 ناصري⁴ ويشير إلى أن كل من الريال والناصري والخروبة تصنع من الفضة.

أما النقود النحاسية فتتمثل في الفلوس والفلوس الرقيق وقد سماها التجار الأوروبيون بوروب (Bourbe) بالنسبة للفلوس، وبوربين (Bourbine) بالنسبة للفلوس الرقيق⁵.

ورغم انخفاض قيمتها كان استعمالها واسعا من المبادلات الداخلية⁶.

العملات الأجنبية: وأهمها الريال الاسباني والسوكاني البندقي التي كانت متداولة طيلة القرن 18 خاصة لدى الحجاج⁷، أما النقد الفرنسي فكان نادرا بالإيالة، وقد كان المركز التجاري الفرنسي في الرأس الأسود أهم نقطة لتوريد العملات الأجنبية⁸.

وإزاء هذا التدفق للعملات الأجنبية قام حسين بن علي بمنع استخدام الريال الاسباني في العملات الداخلية وأجبر الأهالي باستعمال الناصري المحلي⁹، ورغم ذلك فقد عرفت النقود التونسية حركة عكسية أي الخروج من البلاد وهذا نتيجة تلاعبات التي تقوم بها

¹-Valensi Lucette: Fellah Tunisiéens ..., Opcit, p 321

²-Cherif Mohamed Hadè: Intraduction de la Piastre Ispagnol Rial Dan la Régence de Tunis Au Début Du 17 Éme Siécle In C.T N° 61 Tunis 1968,p 48

³-Mongi Smida: Opcit, pp 117

⁴- Cherif Mohamed Hadè: Introduction..., Opcit, P 45

⁵- ينظر الملحق رقم 10، ص 292

⁶-Paul Sebag:Les Monnaies Tunisienne Au XVII Siécle, Revue Du Monde Musulman et de la Méditerranée, N 55-56, 1990.p 261

⁷-Valensi Lucette: Fellah Tunisiéens, Opcit, P 320

⁸-Mongi Smida: Opcit, p 119

⁹-Cherif Mohamed Hadè: Pouvoir et Société, Opcit, p 84

بعض الشركات التجارية وخاصة الفرنسية منها وكان الهدف من هذه الحركة استنزاف المعادن الثمينة للبلاد ثم انتشرت فيما بعد ظاهرة تزييف الريال والتي قام بها البروفنسيون حيث يخرجون النقود الجيدة من البلاد فيغيرونها ثم يعيدونها إلى تونس من جديد،¹ وهذا مما ألحق أضرارا باقتصاد الإيالة مما جعل التونسيون يرفضون التعامل بها ويفضلون التعامل بالنقود الاسبانية.

ومن بين مظاهر أزمة الاقتصاد التونسي خلال القرن التاسع عشر أزمة النظام النقدي فابتداء من عهد محمود باي بدأ تدهور وانخفاض سعر العملة التونسية واستفحلت الأزمة أكثر في عهد المشير أحمد باي (1837م-1855م) فحاول عبثا إيجاد حل مناسب لها فأسس ما يسمى بدار المال،² وهي بنك حكومي من أجل إصدار العملة المعدنية والورقية، إلا أنها رفضت من طرف التجار الأجانب ومن القبائل،³ وفي عهد محمد باي تم سك ريالا ذهبيا حددت قيمته ل 69 سنتيما من أجل إيجاد نظام نقدي شبيه بالنظام الأوربي، كما تم زيادة وزن العملات التونسية بنسبة 10% إلا أن الباي اضطر إلى سحبها وتعويضها بنقود جديدة في 26 جوان 1856م وفي سنة 1858م قام بضرب النقود النحاسية عوض النقود الذهبية والفضية إلا أنها هذه السياسة المالية باءت بالفشل حيث كانت انعكاساتها وخيمة على اقتصاد الإيالة.⁴

وفي فترة محمد الصادق باي (1859م-1882م) استفحلت ظاهرة سك القطع النحاسية ولا سيما الخروبة وقد سببت هذه الظاهرة حسب ابن أبي الضياف في خراب اقتصاد البلاد.

¹-Mongi Smida: Opcit,pp 119-121

²-بن الطاهر جمال: الاقتصاد والمجتمع في القرن التاسع عشر، المرجع السابق، ص 276

³-Kraiem(M): la Tunisie Precoloniale, Tunis S.T.D, 1973, p290

⁴-بن جمعة بلقاسم إبراهيم:المرجع السابق، ص 95-96

وعلى هذا النحو ازداد الوضع الاقتصادي للإيالة تدهورا حيث زادت تبعيتها للرأسمالية الأوروبية وهذا من خلال تداين كل من الدولة وأعيان البلاد وصغار الملاك والتجار بفوائد ربوية من الماركنتية الأوروبية ومن أصحاب البنوك واليهود وغيرهم.¹

ثالثا: التغيرات الاجتماعية للمجتمع التونسي

لقد تناولنا أثناء دراستنا للواقع السكاني للإيالة مختلف مكونات المجتمع التونسي ومميزات ونمط عيش كل منها وفي هذا الإطار سنحاول دراسة التغيرات أو التحولات التي طرأت على هذه المكونات خلال القرن التاسع عشر وهذا بعد ظهور الأزمة في الإيالة على جميع المستويات.

إن ما نلاحظه خلال دراستنا للواقع الاجتماعي للمجتمع التونسي بداية من القرن 19م التحسن الواضح لبعض الاقليات الدينية والاثنية المتواجدة في الإيالة وفي المقابل تدهور الحالة الاجتماعية لأغلبية المجتمع أي السكان الأهالي وهذا من خلال سياسة التقفير التي انتهجتها السلطة من خلال فرض المزيد من الضرائب على السكان.

فمن بين الاقليات التي تحسن وضعها الاجتماعي نذكر طائفة اليهود الذين يقدر عددهم حوالي 30000 أواسط القرن 19م، نجد نصفهم تقريبا بمدينة تونس،² والنصف الثاني في المدن مثل المنستير وتستور وبنزرت وسوسة ونابل وغيرها، وكانوا يعيشون في أحياء خاصة تسمى " الحارة" في ظروف سيئة معرضين لكل الأمراض الأوبئة نتيجة الاكتظاظ والأوساخ،³ لكن مع صدور عهد الأمان سنة 1857م ودستور سنة 1861م تغيرت أوضاعهم إذ سوت التشريعات الجديدة بينهم وبين بقية رعايا الإيالة ووضعت حدا لمشكل السكن بالحارة وألغت علامات اللباس العنصرية المميزة لهم.⁴

¹-بن الطاهر جمال:المرجع السابق، ص 276

²-التيموميالهادي:تونس والتحديث، المرجع السابق، ص 31

³-Pellissier de Reynaud: Opcit p 187.

⁴-بن جمعة بلقاسم إبراهيم: المرجع السابق، ص 111

لقد شكل يهود القرانة فئة متميزة عن اليهود المحليين إذ أصبح لهم نفوذ واسع داخل دواليب السلطة ابتداء من عهد محمد الصادق نذكر على سبيل المثال لمبروزو الطبيب الباي الذي حافظ على نفوذه مدة طويلة ونسج على منواله الطبيب جياكو موكستلنوفو ولم يقتصر هذان الطبيبان على مهمهما بل شاركوا في كل المضاربات المالية وفي التلاعب بأموال الدولة من أجل جمع ثروة طائلة.

وبالإضافة إلى هذا النفوذ والتغلغل داخل دواليب السلطة قام أغلب هؤلاء اليهود بالتجنس سنة 1868م إذ كان عددهم حوالي 1000 يهودي قرني وقد وفر لهم هذا التجنس الحماية من الحكم الاستبدادي للبايات وغطاء لجلب الثروة على حساب الأهالي الضعفاء.¹ هناك أقلية أخرى شهدت تحولا خلال هذا القرن وهي الأقلية الأوربية كان عدد 3000 نسمة سنة 1830م²، استقر أغلبهم في مدينة تونس في البداية سكنوا في فنادق قرب باب البحر (حي الافرنج)³، وعندما ازداد عددهم حوالي 15 ألف توسعوا إلى مفترق أنهج القصبة و" فبريكات الثلج" ونهج القنصلية، ونهج الكنيسة والنهج الموازي للسور وعلى حافتي شارع الحرية⁴، وبعد حصولهم على حق التملك العقاري في عهد محمد الصادق باي تحسنت أوضاعهم المعيشية والصحية والدينية أيضا فبعد أن كانت لهم كنيسة واحدة منذ سنة 1662م صارت لهم عدة كنائس في مختلف المدن التونسية يمارسون فيها شعائرهم الدينية بكل حرية.⁵

ومن بين الاقليات العرقية التي تحسنت أوضاعها نذكر الأقلية السوداء، كان عددهم حوالي 7000 ألف نسمة سنة 1860م⁶، وتذكر أغلب الدراسات التاريخية أن وضعهم الاجتماعي كان متدنيا، ويتبوؤون المكانة السفلى في السلم الاجتماعي، لكن هذا الوضع

¹ -بن الطاهر جمال: المرجع السابق، ص ص 278-280

² -التيومميالهادي: تونس والتحديث، المرجع السابق، ص 33

³ -بن الطاهر جمال: المرجع السابق، ص 280

⁴ -الأفرشعبد الحميد: المرجع السابق، ص ص 12-14

⁵ -بن الطاهر جمال: المرجع السابق، ص 280

⁶ -التيومميالهادي: تونس والتحديث، المرجع السابق، ص 31

تغير خلال الاربعينات من القرن 19م، حيث قام المشير أحمد باي بإلغاء العبودية في جانفي 1846م وذلك عبر مراحل¹، وبذلك تحول العبيد إلى أحرار عليهم ما على الأغلبية من واجبات ولهم ما لها من حقوق واستطاعت هذه الفئة الاندماج تدريجيا في المجتمع التونسي.

وفي مقابل هذه الفئات نلاحظ تدهور الأوضاع الاجتماعية لأغلب الفئات الأخرى، فقد شهدت مكانة الاتراك والکراغلة تدهورا واضحا وخاصة الفئة المنتمية إلى الجهاز العسكري.

فمنذ عهد حمودة باشا فقدت هذه العناصر العسكرية مكانتها وبعد إنشاء الجيش النظامي أصبح هؤلاء وجميع العناصر المنحدرة من الأصول العثمانية أقرب إلى وقت مضى من العامة.²

أما بالنسبة لبقية سكان الايالة وهم يشكلون الأغلبية الساحقة للمجتمع فقد تدهورت حالتهم المعيشية من مسيء إلى أسوء وهذا بعد انتهاج السلطة سياسة التقفير عن طريق فرض المزيد من الضرائب عليهم.

لم يجد البايات الذين خلفوا حمودة باشا موردا غير الاجحاف في الجباية التي أنقلت الظهر وأوجبت الفقر على حد تعبير محمد بيرم الخامس³، وكان لها تأثيرا واضحا على جميع الفئات الاجتماعية الحضرية والريفية على حد سواء. وقد فتح المجال في عهد أحمد باي(1837م-1855م) أمام القيادة واللزامة لابتزاز ثروات الأهالي من خلال التجاوزات التي يمارسونها ضدهم.⁴

ولقد لجأت السلطة في عهده إلى العديد من الاجراءات التعسفية كانت وبالا على المجتمع منها سياسة التتريك وهي أخذ أموال الأعيان بأسباب واهية كالفساد السياسي

¹-بن الطاهر جمال: وثيقة حول الأقلية السوداء بجزيرة جربة في أواسط القرن التاسع عشر، المرجع السابق، ص ص 669-671.

²-بن الطاهر جمال:الاقتصاد والمجتمع في القرن التاسع عشر، المرجع السابق، ص 282

³-محمد بيرم الخامس:المصدر السابق، ص 215.

⁴-بن الطاهر جمال:الاقتصاد والمجتمع في القرن التاسع عشر، المرجع السابق، ص 282

وغيرها مما جعلهم يفرون خارج البلاد أو يلتجأون إلى القنصليات الأوروبية من أجل حمايتهم من جور الباي كما قامت الدولة باسترجاع الاقطاعات التي منحت سابقا للمتنفذين أو القبائل القوية هشير النفيضة على سبيل المثال الذي منح لأولاد سعيد كما مارس أعوان السلطة التطفيف في الكيل عند قبول الأعشار بدار الرابطة.¹

وفي عهد محمد باي أقدمت الدولة على فرض ضريبة جديدة عرفت بالإعانة وسماها الناس بالمجبي وحددت ب 36 ريالا سنة 1856م وأخضعت لها جميع الذكور البالغين باستثناء سكان مدن تونس وسوسة وصفاقس والمنستير والقيروان وأعوان الدولة وطلبة العلم ورجال الشرع،² ثم عممت سنة 1863م على جميع سكان الايالة لكن الوضع الاجتماعي ازداد سوءا واشتدت الأزمة في البلاد ووصلت إلى الانهيار الشامل،³ وفي هذا يقول الجنرال حسين " إن حال المملكة كحال البقرة إذ حلب ضرعها حتى خرج الدم فهي الآن ينزو ضرعها بالدم وولدها بمضيعة والعطب أقرب إليها من السلامة"،⁴ وهذا القول كأنه يشعر باندلاع ثورة 1864م التي شملت مختلف أنحاء البلاد.

وقد بلغت الازمة ذروتها عام 1869م حين انتصب الكومسيون المالي لتصفية ديون الدولة، وفقدت بالتالي حرية التصرف في شؤونها المالية ثم فقدت استقلالها السياسي سنة 1881م.⁵

¹-التيموميالهادي:تونس والتحديث، المرجع السابق، ص ص 102-103

²-ابن أبي الضياف أحمد:المصدر السابق، ج4، ص207.

³-خوالدية الضاوي:المرجع السابق، ص 170

⁴-ابن أبي الضيافأحمد: المصدر السابق، ج5، ص 129

⁵-هنية عبد الحميد:المرجع السابق، ص 228

الفصل الرابع

عادات وتقاليد المجتمع التونسي

أولاً: المواسم والأعياد

ثانياً: الأكل واللباس

ثالثاً: عادات وتقاليد أخرى

أولاً: المواسم والأعياد

يحتفل المجتمع التونسي كغيره من المجتمعات العربية الاسلامية بالعديد من الأعياد والمواسم، لذا أردنا أن نعرض عن طريقة احتفاله بهذه المناسبات.

رأس السنة الهجرية: يقول الحشائشي في كتابه " الهدية في العادات التونسية" «ومن العوائد الجارية أن ليلة رأس العام العربي يجعلون فيه طعام الكسكسي بالقديد ورأس الخروف المملح والفول، وتسمى هذه الليلة العجوزة والعجوز، وينفق فيها على العيال، ويضرب الأمير السكة باسمه مؤرخة بالعام الجديد ويوزع جانب منها على الأعيان ورجال الدولة، ويهنئ أمير البلد بالقصائد لدخول العام الجديد المبارك، وفي ليلة رأس العام العجمي تجعل الأهالي طعام الملوخية والبازين باللحم ولا تجد دارا لم تضع ذلك تقاؤلا بأن العام أخضر».¹

أما أحمد بن الخوجة فيذكر أن المشير الأول أحمد باي هو الذي سن موسما لرأس العام الهجري بالتوسيع فيه على حاشيته وأهل قرابته،² أما محمد باي فقد قرر سنة توزيع المسكوك ذهبيا وفضيا من ضرب العام الجديد ورتب لذلك موسما ينصب فيه لقبول التهاني من آل بيته ورجال دولته وزاد محمد الصادق باي بعده عناية بهذا الموسم فضخم من مظاهر الاحتفال به.³

يوم عاشوراء: فالصدقة فيه على الأقارب والأهل واليتامى والمساكين ومن عوائد هذا اليوم ذبح الدجاج وشراء لحم الغنمي وتقريح الصبيان بالدرهم وإشعال الشموع بالليل وإيقاد النيران في ليلة عاشوراء، وإطلاق البارود وأن النساء لا يقمن بالغزل في هذه الليلة ولا يحنين بالحنة، وعدم إقامة الأعراس في هذا الشهر،⁴ والبعض من الأهالي يصومون ويقومون بكل فضائله.⁵

¹-الحشائشي محمد بن عثمان:المصدر السابق، ص 98

²-محمد بن الخوجة:المصدر السابق، ص 33

³-الطويلي أحمد:المواسم والأعياد بتونس، دار الطباعة والنشر، مطبعة أسود على أبيض، تونس، 1997، ص 13

⁴-الحشائشي محمد بن عثمان:المصدر السابق، ص 97

⁵-الوزير محمد السراج:المصدر السابق، ج3، ص 174

ليلة المولد النبوي الشريف: حيث ينور فيها الجامع الأعظم ويتلى فيه القرآن المجيد، وتنور الحاضرة بالمصابيح، وتطلق المدافع كل صباح لمدة أربعة أيام.¹ وكان الاحتفال في بداية العهد الحسيني يقام ببيت الباشا بباردو حيث يدخل المغنون من الترك بآلات طربهم ويجلسون أمام الأمير ويغنون بالتركية برهة من الزمن ثم يدخل بعدهم المغنون بالعربية بآلاتهم ويغنون أيضاً، إلا أن أحمد باي أبطل هذا العمل سنة 1254م وأبدله بترتيب آخر أنه لما يجتمع الديوان يأتي الامام بجامع السراية والخطيب بجامع باردو والخواجات فيجلسون ويقرأ باش خوجة ربع حزب من القرآن ثم يقرأ الامام أحاديث من صحيح البخاري ثم يختم المجلس بدعاء من إنشاء أحمد بن أبي الضياف، ثم تقرأ فاتحة الكتاب وينفض الموكب.²

أما بالجامع فتتلو حلق القراءة الصلوات على النبي(ص) ويستفتحون بتأليف الشيخ إبراهيم الرياحي المختصر من تأليف الشيخ مصطفى البكري، وفي عهد علي باشا زاد الاحتفال بالمولد النبوي في اليوم الثاني بالجامع الأعظم بقراءة المولد البرزنجي. وفي عهد محمد الصادق باي عمم عمل الاحتفال بالمولد النبوي الشريف بجميع المدن التونسية، حيث أصدر الأمر بذلك في جريدة الرائد التونسي العدد 6 لسنة 1876م،³ وفي هذا اليوم تحضر العصيدة بكل دار في الحاضرة وهي طعام من السميد يضاف فوقه السمن والعسل والسكر.⁴

عيد الأضحى المبارك: وعادة التونسيون في هذا العيد بعد عودتهم من الصلاة يقومون بذبح الأضحية ثم يذهبون إلى زيارة المقابر أما النساء فيقمن بتحضير الحلويات والكعك بأصنافه ويحضرونه للأقارب في وقت المعايدة.⁵

¹- الطويلي أحمد: الاحتفال بالمولد النبوي الشريف بتونس في العهدين الحفصي والحسيني، مجلة الهداية، العدد 174،

السنة 2007، ص 61

²- ابن أبي الضياف أحمد: المصدر السابق، ج4، ص 27.

³- الطويلي أحمد: الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، المرجع السابق، ص 61

⁴- نفسه، ص ص 20-24

⁵- الحشائشي محمد بن عثمان: المصدر السابق، ص 96

ويذكر محمد بيرم الخامس «أن الأهالي يتزاورون لمدة أربعة أيام، وتعطى للزائر قهوة والأقارب تعطى لهم أنواع من الحلويات وفي جميع المواقب التحية بالتقبيل». ويذكر أيضا أن العظماء يحيون بتقبيل الأكف من دونهم بتقبيل المرافق ثم المتساويان في الاكتاف وقليلًا في الأفواء وبعض الأعراب يقبل كل يد بصاحبه وتارة رأسه ويبدو أن هذه العادات انقرضت اليوم.¹

عيد الفطر المبارك: يتزين الناس بالملابس الجديدة ويفرح الصبيان في العيد ويعطى لهم شيئًا من الدراهم يقال له " المهبة" ويخرج الناس للتنزه بعد المعايدة ويقمن النساء في الغذاء بإعداد المروزية وهي شيء من اللحم المطبوخ بالزبيب والقسطل وأكلة أخرى تعرف بالطبخ وهو لحم يطبخ في الزيت والأبرزة كما يعد الخبز الجيد المخلط بالسمن.²

شهر رمضان المعظم: يقول صاحب صفوة الاعتبار " عادة الناس في رمضان السهر أغلب الليل، ومنهم من يستغرق جميع الليل بحيث لا يشتغلون إلا قرب نصف النهار وكانت هذه العادة مبنية على العبادة إذ قيام ليالي رمضان بالعبادة مندوب إليه، بيد أن الكثير يشتغل بالملاهي كسماع آلات الطرب في القهاوي أو لعب الورق المسمى بالكارطة وهي الكثير أو لعب النرد، أو الدامة أو الشطرنج وهي الألعاب الموجودة في القطر... أما الأعيان فيسهرون في ديارهم... يسردون كتابا في السّير أو الحديث ثم يتسامرون بالكلام، وبعضهم يتعاطى أحد الألعاب المذكورة".³

¹ -محمد بيرم الخامس:المصدر السابق، ج1، ص 337

² -الحشاشي محمد بن عثمان:المصدر السابق، ص 97

³ -محمد بيرم الخامس: المصدر السابق، ج2، ص 317.

ثانيا: الأكل واللباس

أ- الأكل:

بالنسبة لأهل الحاضرة فإن أكلهم جامع بين أنواع أكل أهل المشرق والمغرب والأوربيين، والغالب في البلد طعام الكسكوس أو العصيدة وتزيد البلدان (المدن غير الحاضرة تونس) بالشكشوكة، طعام من زيت وقديد وبصل وطماطم وفلفل، وأغلب السكان يأكلون الطعام الحريف المسمى عندهم بالحار ويكثرون من الإبراز.¹ أما البوادي فطعامهم بسيط من دقيق أو قمح أو شعير أو الذرة واللبن واللحم المشوي، والخبز عندهم أنواع ففي البادية إما أن يكون منضجا في فرن يسمى "الطابونة" وإما أن يكون العجين غير مخمر ويشوي في إناء من الطين وهو نوع رديء، والخبز الغالب في المدن خبز مرتفع صغير قليل النضج. وأما بخصوص الحاضرة فيها اثنا عشر نوعا من الخبز كلها جيد سليمة ناضجة على النحو الذي يعرف في المشرق بالإفرنجي، ومن الأطعمة التي تحضر في الأسواق ويشتريها حتى الأعيان نجد بريك البيض وهو طعام جيد قليل نظيره.²

ب- اللباس:

نجد لباس أعضاء الحكومة والعساكر النظامية هو اللباس الافرنجي غير أن للعساكر علامات على الرتب كل حسب رتبته، وهذه الرتب تعطى أيضا لغير العسكر من ذوي الوظائف السامية، أما في المواكب فيلبسون اللباس الرسمي. أما الوالي يلبس شاشية بها ثلاث نياشين كبار من ذهب على صورة أوراق من النبات وكذلك جميع الموظفين كل يلبس ما عنده من النياشين كل حسب رتبته، وبخصوص المجلس الشرعي فإنهم يلبسون قلائس بيضاء مكورة، غير أن المالكية قلائسهم مفلحة والحنفية مرتفعة، ويلبسون عليها طيلسانا من الكشمير، وجبائب أكمامها

¹-الحشائشي محمد بن عثمان:المصدر السابق، ص 159

²-بيرم محمد الخامس:المصدر السابق، ج1، ص ص 336-337

واسعة طويلة إلى الكعب، ويزيد المالكية برنسا واسعا من الجوخ الصوفي له حواشي وشرابات من الحرير وفي أرجل الجميع حذاء يسمى البشمق،¹ وريحية لونها أصفر.² أما عموم الرجال من أهل الحاضرة فيلبسون قميصا وصدريّة وفوقها أخرى تسمى فرملة غير أنها بلا صدر ومنتان لها أيدي ضيقة تسمى الكنبرة وسراويل أسفل الركبة كما يلبسون أحذية متعددة منها: الكنبرة وهي لباس الأفرنج، البلغة، السباط³، والأعيان يلبسون البشمق والريحية ويضعون على رؤوسهم شواشي حمر لها شرابات من الحرير الأسود وعليها عمامة لوية والجميع يلبس برنسا شتاء وصيفا يلقونه على أكتافهم والأعيان يزدون تحته جبة مشقوقة إلى السرة وليس لها أكمام كما يلبسون ساعات سلاسلها من الذهب أو الفضة أو النحاس، أما التختم فقليل جدا.

والبعض الآخر من أهل الحاضرة يلبس جبة من الصوف مع السروال وعون البرنس يلبس كبوطا وهو شبيه البرنس غير أنه قصير إلى الحزام فقط.⁴ أما أهل البادية فلباسهم قميص ورداء من الصوف يسمى بالحرام وبرنس من الصوف وعلى رؤوسهم شواشي وعمائم من خيوط وبر الإبل أو صوف الغنم الأسود وفي أرجلهم البلغة ويلبس الأعيان منهم فوق القميص مثل لباس أهل الحواضر وحرامهم يكون من الصوف الجيد الرفيع والحرير وعمائمهم مثل أهل الحواضر.⁵

¹ - البشمق لفظ تركية تطلق في تونس على حذاء خفيف من له ألوان عدة، تلبسه النساء ولا ينتعل الرجال سوى البشمق الأصفر ويسمى القيسري. ينظر: السعداوي أحمد، المرجع السابق، ص 351.

² - الحشائشي محمد بن عثمان: المصدر السابق، ص ص 156-157

³ - السباط: ويكتب بالصاد أيضا، ج. سباط وسبابيط، وهو حذاء الرجل، ويكون من الجلد خاصة. أرجعه دوزي إلى الإسبانية «Zapato» وذكر أنه يعني الخف الدية لا قدم له ووصفه بأنه حذاء أحمر يترك وجه الرجل عاريا. تذكر مصادر هذا العصر سوق السابطين في تونس. ينظر: السعداوي أحمد، المرجع السابق، ص 344.

⁴ - بيرم الخامس محمد: المصدر السابق، ج 1، ص ص 333-334

⁵ - الحشائشي محمد بن عثمان: المصدر السابق، ص 158

أما نساء الحواضر فيلبسن القميص القصير إلى أعلى الفخذ وفوقه مثل الصدرية¹ بلا صدر، ويتأنقن في إنقائها وتحليتها بالفضة أو الحرير وتسمى فرملة وفوقها جبة ضيقة بلا أكمام وسراويل ضيقة جدا مثل سراويل رجال الأفرنج، ويضعن على رؤوسهن منديل حرير أسود يسمى تقريضة وفوقه قوفيه محلاة ثم تلف رأسها ورقبتها بلثام من نوع الحرير والقطن، ويلبسن في أرجلهن أحذية أفرنجية،² ونجد نساء البلدان يلبسن على النحو الذي ذكرنا غير أنه ساترا أكثر لأنه متدلي إلى قرب الكعب والجبة، أوسع وأما نسوة البوادي فهن مثل ذلك سوى الجبة فعوضها رداء واسع تمسكه المرأة بمساسيك كبار من فضة أو ذهب حذو كتفها مما يلي الصدر وتتنطق عليه بحزام يكون ساترا حتى القدمين وهن لا يلبسن السراويل.

وجميع نسوة تونس يلبسن من الحلي أنواعا شتى من القرط في الأذنين والأساور والخواتم والتيجان وغير ذلك من المجوهرات الثمينة، وبعض النسوة يتخلخلن في أرجلهن وهو من العيب عند نساء الحاضرة.³

ثالثا: عادات وتقاليد أخرى

بعد تطرقنا لعادات التونسيين في المواسم والأعياد وكذا اللباس والمأكولات أردنا أن نعرض ولو بصورة مختصرة عن بعض العادات والتقاليد الأخرى للمجتمع التونسي التي تبدو لنا ذات أهمية وهي:

أ- الزواج:

بداية من الخطبة التي تقع تحت يد أعيان البلد يتقدمهم شريفهم فيقول "جتناك خاطبين راغبين في بنت الحسب والنسب" ويتولى أحد الحاضرين في مدح عائلة الخطيب وآخر

¹-الصدرية: هي صدار أو قميص قصير للرجال والأطفال مغلق بدون أكمام وطرق. تلبس الصدرية فوق

السورية. ينظر: السعداوي أحمد، المرجع السابق، ص 428.

²-بيرم الخامس محمد: المصدر السابق، ج1، ص ص 334-335

³-الحشاشي محمد بن عثمان: المصدر السابق، ص 159

يمدح عائلة الخطيبة،¹ وبعدها يقع الايجاب والقبول تقرأ الفاتحة من الحاضرين، وتكون الخطبة في دار الزوجة، وإذ لم يتسع تقام في المسجد أو الزاوية ثم يسقى الحاضرون بماء محلى بالسكر فيه أنواع من الطيب ثم يرشون بمياه الطيب ثم ينصرفون، أما خواص الزوج فيرفعون جهاز الزوجة على الخيول والبغال ويطوفون به داخل البلاد لإعلام الجميع بالعرس.²

بعد الخطبة يرسل الزوج المهر إلى الزوجة مع هدية تسمى الملاك وهو صندوق صغير مجلد بصفائح الفضة يوضع به المهر مصرور في مناديل من حرير بالإضافة إلى صندوق آخر يوضع به قنينات من العطور مع أنواع من الطيب المختلفة، ويرسل الزوج كذلك مجموعة من الهدايا الثمينة مع الحناء.³

أما العروسة فتتزين بأجمل اللباس بعدما يحنى يداها من الحنة المهداة لها، كما تحضر الأفرشة والأغطية والتمكات لتأثيث بيت زوجها،⁴ أما بخصوص وليمة العرس فتختلف من شخص لآخر والغالب تقام وليمة ليلة العرس يستدعي فيها أحباب الزوج وأقربائه.

أما عوائد العرس عند أهل البادية فبعد الخطبة والعقد يرسل الزوج المهر ومعه شيء من الملبوس أو المصوغ إلى زوجته ويؤتى بالعروس لبيت زوجها في محل هودج على ظهر جمل مزين بالثياب الرفيعة والحلي.

مع عزف الطبل وطلقات البارود والفرسان يلعبون حوله إلى أن تصل إلى بيت زوجها، أما وليمة العرس عندهم فيعطى لكل واحد من الحضور لحمة في يده، ثم يقدم له طعام الكسكس، ثم يدخل الزوج على عروسه في تلك الليلة خلاف أهل الحاضرة الذين يدخلون في الليلة الثانية.⁵

¹-الكعك عثمان:المصدر السابق، ص 85

²-بيرمحمد الخامس:المصدر السابق، ج1، ص ص 339-340

³-الحشائشي محمد بن عثمان، المصدر السابق، ص 163

⁴-بيرمحمد الخامس:المصدر السابق، ج1، ص 338

⁵-الحشائشي محمد بن عثمان:المصدر السابق، ص 164

وقبل أن نختم كلامنا عن عادات أهل حاضرة تونس في الأعراس تشير إلى أن الاستدعاء لوليمة العرس كان يتم بطريقة شفوية لكن عندما ظهرت الطباعة في عهد الصادق باي (1859م-1882م) أصبح الناس يستعملون طريقة الاستدعاء بالمراسلة الكتابية كما ابتكروا أيضا ترتيب موائد السماط المعروف بالطعمان مع إقامة وجق تلحين وآلات كمنجة وعود وغير ذلك، من بداية النهار إلى ساعة بعد الزوال.¹

ب- الختان:

ويكون في الغالب في سن الرابعة أو الخامسة ومن عوائد أهل تونس إشهار الختان ويقام الطعام الذي يسمى الطعمان ويستدعى له عامة الناس، ويكون الطعام من مختلف أنواع الحلويات السكرية مع كؤوس من الأشرية السكرية كمشروب البنفسج، والتفاح، والبرتقال، وتزيين المائدة بمختلف النوار والرياحيين، وغالبا ما يجعل هذا الطعام يومي الاثنين والخميس ويتناول الطعام ساء وتقام أثنائه الموسيقى العربية أو تكون بدلها جماعة البردة والقادرية وهذه الجماعة تأخذ أجرا على عملها.²

يلبس المطهر أفر ثيابه ثم يذهب به إلى المكتب ثم يرجع معه تلاميذ المكتب ويرفع رجل على رأسه لوحا مزوقا ويطوفون خلفهم فرقة من الرجال يذكرون قصائد في مدح النبي(ص) إلى أن يصلوا إلى بيت المختون فيقدم لهم وائد من الحلويات أما المختون فيتلقاه الطهار ثم يشرع في عملية الطهارة على ما هو معتاد فعله.

وعادة الحاضرة يكون القص بمقص من حديد ثم يوضع في فراشه ثم يهدى إليه من أقاربه مال أو مصوغ،³ ويبقى الطهار ملازما للطفل حتى يبرأ الجرح والمدة لا تقل عن سبعة أيام.

أما البوادي فالقص عندهم بالموس الماضي، ويجعلون في وليمة الختان طعام الكسكس واللحم والطبال والزكار وألعاب البارود والخيل.¹

¹ - محمد بن خوجة:المصدر السابق، ص 249

² - الحشاشي محمد بن عثمان:المصدر السابق،ص ص 45-46

³ -بيرمحمد الخامس:المصدر السابق، ج1، ص 337

ج- الجنائز:

فإذا مات إنسان بكى عليه النسوة بصوت مرتفع وتارة ينحن عليه، وكذلك يفعلن عند خروج الجنازة ثم عند الاتيان بما يغطي به نعش بعد الدفن، وعند موت الرجل يفرغ بيته مما به من أثاث، أما المرأة فلا، ثم يحضر القراء لقراءة القران حوله، ثم يؤتى قبل الغسل بخواجات² يكبرن ويهللن بصوت عال ويؤتى كذلك بالقراء والمنتسبين إلى زوايا الصالحين بعد الكفن لقراءة القران،³ ويوضع الميت على النعش، وقد يوضع على تابوت من خشب ويحمل على النعش وأثناء مرور الجنازة يقرأ الجميع القران ويكبرون بصوت عال ثم يصلي عليه في صحن المسجد أو عند القبر ثم يدفن ويقف أهله وأقربائه للتعزية وفي اليوم الثالث والسادس والخامس عشر والأربعين والعام. يجعل في دار الميت موكب تجمع فيه النساء للبكاء، ويجتمع الرجال بالاستدعاء في اليومين الأولين لقراءة القران والبردة.⁴

¹-الحشائشي محمد بن عثمان:المصدر السابق، ص 46

²-خوجات: وهي جمع لخوجة. وخوجة منحوتة من اللفظ الفارسي خواجا، ومعناها سيد، واستعملها العثمانيون بلفظ خوجة، وجعلوها لقباً من ألقاب التشريف، اختص بها الشيوخ ورؤساء العلماء. وتطلق في تونس خاصة على كتبة الديوان من أصل تركي وعلى المؤذنين الحنفيين. ينظر: السعداوي أحمد، المرجع السابق، ص 215.

³-بيبرمحمد الخامس:المصدر السابق، ج1، ص 340

⁴-الحشائشي محمد بن عثمان:المصدر السابق، ص 164

الباب الثالث: العلم والعلماء

والثقافة في تونس الحسينية

الفصل الأول: المؤسسات العلمية والثقافية في تونس

الفصل الثاني: العلماء والتعليم خلال العهد الحسيني

الفصل الثالث: العلوم والثقافة بتونس الحسينية

الفصل الأول

المؤسسات العلمية والثقافية في تونس

أولاً: المدارس العلمية

ثانياً: الجماعات والكتاتيب

ثالثاً: النزوايا والأوقاف

رابعاً: المكتبات العامة والخاصة

أولاً: المدارس العلمية

عرفت البلاد التونسية نظام المدرسة الاسلامية منذ العهد الحفصي، يذكر صاحب المؤنس أن أول مدرسة بالبلاد أسسها أبو زكريا أول أمراء بني حفص أثناء حكمه (1228م-1249م)¹ وهي تقع بسوق الشماعين قرب جامع الزيتونة، وقد أعاد بنائها الداوي أحمد خوجة سنة 1647م/ 1057هـ،² ومن أبرز الشيوخ الذين درسوا بها أثناء العهد الحسيني نذكر محمد بن حسن الدرنائي المتوفي 1784م،³ والشيخ اسماعيل التميمي المتوفي سنة 1832م⁴ والشيخ أحمد بن الخوجة المتوفي سنة 1895م.⁵ أما المدرسة الثانية فهي المدرسة التوفيقية، أمرت ببنائها الأميرة عطف زوجة الأمير أبو زكريا الحفصي،⁶ وعرفت هذه المدرسة باسم مدرسة جامع الهواء تأسست 1261هـ.⁷

ويبدو أن تأسيس المدارس خلال هذه الفترة كان غرضه أن تكون مركزا لنشر تعاليم أهل التوحيد وكذا من شأنها تدعيم عقيدة المهدي ابن تومرت أما في عهد المرادي فقد أسس مراد باي بن حمودة باشا سنة 1673م، مدرسة على أنقاض فندق غربي جامع الزيتونة،⁸ ومن أبرز مشايخها خلال العهد الحسيني الشيخ الشاذلي بن صالح المتوفي سنة 1890م،⁹ تقع هذه المدرسة بسوق القماش بالحاضرة وقد تحولت إلى ناد ثقافي.¹⁰

¹- ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص 157

²- بن الخوجة محمد: تاريخ معالم التوحيد في القديم والجديد، ط1، تحوتق: الجيلاني بن الحاج يحي، حمادي الساحلي، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان، 1985، ص 287

³- ابن ابي الضيافأحمد: المصدر السابق، ج7، ص 19

⁴- نفسه، ج8، ص ص 11-14

⁵- نفسه، ج8، ص ص 86-87

⁶- ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص 157

⁷- بن الخوجة محمد: المصدر السابق، ص 288

⁸- ابن أبي الضيافأحمد: المصدر السابق، ج2، ص 42

⁹- بن مخلوفمحمد: المصدر السابق، ج1، ص 414

¹⁰- بينوسجميلة: المدارس بين ماضيها وحاضرها، مجلة الصدى-العدد6، 1974، ص 14

كما أسس مراد بن عبد الله بن مملوك سنة 1682م/ 1093هـ مدرسة سميت بمدرسة الصواري لوقوعها بزقاق الصواري بحومة حوانيت عاشور بالحاضرة وقد كانت تأوي الطلبة الحنفية¹ ومن أبرز شيوخها في العهد المدروس الشيخ عمر المحجوب المتوفي سنة 1807م والشيخ محمد القبائلي المتوفي 1855م.²

ويبدو أن المدارس التعليمية خلال العهد المرادي أسست لأسباب سياسية وعسكرية إذ أنها كانت تستعمل كنقاط يمكن استغلالها من طرف الحاميات العسكرية عبد قيامها بحملات جمع الضرائب وكما جئ وقت الصعاب.³

أما المدارس التعليمية التي تأسست خلال الفترة الحسينية فإننا سنذكر أهمها وبالترتيب وسنتقصر دراستنا في إطار مكاني يختص في تونس العاصمة الحاضرة دون غيرها لأنها كانت تمثل مركز السلطة المركزية.

1-مدرسة النخلة:

بنيت هذه المدرسة من طرف حسين بن علي سنة 1714م/ 1126هـ على أنقاض فندق لبيع الخمر،⁴ يقول عنها الصغير بن يوسف " يقال لها الحسينية بجوار جامع الزيتونة من أحسن المدارس وأتقنها وبها اليوم نخلة قصيرة في وسط المدرسة"،⁵ وقد سميت بمدرسة النخلة لأنها كانت بها نخلة، كما كانت تسمى بالغببية لموقعها غربي جامع الزيتونة، وقد كان أول مدرس بها العلامة أبو عبد الله محمد بن محمد الخضراوي وقد حبس الباي هذه المدرسة على الطلبة المالكية القادمين من داخل البلاد.⁶

¹-بن الخوجة محمد:المصدر السابق، ص ص 302-305

²-ابن أبي الضيافأحمد:المصدر السابق، ج7، ص ص 52-55

³-عبد السلام أحمد: المرجع السابق، ص 45

⁴-بن الخوجة محمد: المصدر السابق، ص 306

⁵- الصغير بن يوسف: المشرع الملكي في سلطنة أولاد علي التركي، تق وتح: أحمد الطويلي، ج1، المطبعة العصرية، تونس، 1998، ص 31.

⁶-بن الخوجة محمد: المصدر السابق، ص 308

2- المدرسة الحسينية الصغرى:

وقد سميت بالحسينية الصغرى دفعا للاشتباه بالمدرسة الحسينية الكبرى التي سيأتي ذكرها وهي من حسنات الباي حسين بن علي أحدثها سنة 1715م/1128هـ، حيث كانت محكمة البناء والاتقان وعمرها بالطلبة النجباء وعين عليهم الشيخ محمد جعيط، وقد جعل المدرسة ذات عشرة بيوت وحبسها على طلبة المالكية، وقد سميت هذه المدرسة أيضا مدرسة ساباط عجم¹ لموقعها به،² ومن بين مشائخها في القرن التاسع عشر الشيخ أحمد بو خريص المتوفي سنة 1898م،³ وقد بيعت هذه المدرسة فيما بعد للخواص.⁴

3- مدرسة الجامع الجديد:

أسسها الباي حسين بن علي في سنة 1726م/1139هـ بصحن الجامع الجديد من أجل نشر العلوم النافعة من تفسير وحديث وفقه وعقائد وأدب وسائر العلوم العقلية، وأقام عليها الامام حمد زيتونة وفي علوم الحديث الشيخ أحمد برناز،⁵ وتوجد هذه المدرسة بنهج الصباغين بالعاصمة وقد تحولت إلى ناد،⁶ ومن بين مشايخها خلال الفترة المدروسة الشيخ أحمد عاشور المتوفي سنة 1856م والشيخ محمد بن صالح النيفر المتوفي عام 1314هـ/1896م.⁷

4- مدرسة حوانيت عاشور:

أسسها علي باشا الأول سنة 1159هـ/1746م وقد بناها لطلبة العلم وجعلها وقفا على طلبة المذهب المالكي ورتب بها رواية الحديث وجهزها بخزانة للكتب، وقد كان بها الامام

¹-ساباط عجم: حي صغير من أحياء المدينة يوجد داخل الباب الجديد. ينظر السعداوي أحمد: المرجع السابق، ص

²-ابن الخوجة محمد:المصدر السابق، ص ص 311-314

³-ابن مخلوف محمد:المصدر السابق، ج1، ص 416

⁴-بينوس جميلة:المدارس بين ماضيها وحاضرها، المرجع السابق، ص 14.

⁵-ابن الخوجة محمد: المصدر السابق، ص 311

⁶-بينوس جميلة: المدارس بين ماضيها وحاضرها، المرجع السابق، ص 14

⁷-ابن الخوجة محمد:المصدر السابق، ص 311

عبد الله السنوسي،¹ وقد درس بها أيضا خلال الفترة المدروسة الشيخ الطاهر بن عاشور المتوفي 1284هـ/ 1868م² والشيخ حسن الشريف ت 1234هـ/ 1819م.³

5- المدرسة الباشية:

وقد أسسها الباي علي باشا سنة 1166هـ/ 1752م واسمها مقتبس من صاحبها الذي بناها، وقد ملأها بنفائس الكتب ليسهل على من يسكنها من الطلبة اقتناء العلوم وجعلها وقفا على طلبة العلم من الحنفية، وقد كان القاضي محمد بن مصطفى بيرم شيخا عليها، وخلال القرن التاسع عشر درس بها كل من الشيوخ محمد بيرم الثاني ت 1831م/ 1247هـ، محمد بيرم الثالث ت 1259هـ/ 1838م، محمد بيرم الرابع ت 1278هـ/ 1861م.⁴

6- المدرسة السليمانية:

وقد أسسها الباي علي باشا بين 1753م و1754م، وقد سميت بالسليمانية نسبة لإبنة سليمان الذي توفي مسموما تذكارا له إذ دام الحزن في الايالة حولا كاملا،⁵ وقد وقف هذه المدرسة على طلبة علم المالكية. وأول مدرس بها الشيخ محمد الغرياني،⁶ كما درس بها كل من الشيوخ محمد الطاهر بن مسعود ت 1234هـ/ 1818م،⁷ محمد المازري بن الطاهر بن مسعود ت 1264هـ/ 1867م.⁸

7- المدرسة الحسينية الكبرى (الجديدة):

أسسها علي باي الثاني وهي أفخم وأوسع مدارس العهد الحسيني ونعتوها بالكبرى تميزا لها عن بقية المدارس الأخرى، أما نسبتها الحسينية لصرف الأنظار عن السمعة التي حققها الباي علي باشا في بنائه للعديد من المدارس، وقد كان بناؤها في سن 1758م

¹- ابن الخوجة محمد: المصدر السابق، ص 313

²- ابن أبي الضياف أحمد: المصدر السابق، ج7، ص 29

³- نفسه، ج8، ص 169

⁴- ابن الخوجة محمد: المصدر السابق، ص ص 317-319

⁵- ابن أبي الضياف أحمد: المصدر السابق، ج2، ص 144

⁶- ابن الخوجة محمد: المصدر السابق، ص 320

⁷- ابن أبي الضياف أحمد: المصدر السابق، ج7، ص 109

⁸- نفسه، ج8، ص 170

و1776م¹، وأول مدرس بها كان الشيخ محمد بن حمودة ت 1201هـ/ 1786م²، كما درس بها العديد من الشيوخ أبرزهم أحمد البارودي ت 1229هـ/ 1814م³ محمد البارودي ت 1266هـ/ 1849م⁴، محمد قبادو ت 1288هـ/ 1871م⁵.

8- مدرسة يوسف صاحب الطابع:

وقد بناها الوزير يوسف صاحب الطابع سنة 1229هـ/ 1814م بجوار جامع الكائن بالحلفاوين⁶، وهما مدرستين واحدة لقراءة العلوم والأخرى للتجويد، وقد خصص لها خزانتين مملوءتين بالكتب العلمية ومن أشهر من تولى مشيختها الشيخ ابراهيم الرياحي ت 1266هـ/ 1850م⁷.

9- المدارس الأوروبية:

لقد سمحت تونس للأوروبيين بإنشاء مدارس خاصة بهم، وحتى وإن كانت خدماتها موجهة بشكل أساسي للجاليات الأوروبية، إلا أن ساسة البلاد الاصلاحيين آنذاك كانوا يرون فيها مصدرا لتخريج دفعات من الرجال المتقنين الذين كانت البلاد في أشد الحاجة إليهم. ونذكر منها على سبيل المثال المدرسة المالطية والانجليزية خلال 1831م والمدرسة الايطالية 1835م، بالإضافة إلى مدارس الارساليات التبشيرية مثل مدرسة الأمومة التي أسسها الأب "فرانسوا بورغاد" 1841م، ثم تحولت إلى معهد القديس "لويس" عام 1845م ومدرسة راهبات القديس يوسف 1842م، وهؤلاء سعين إلى تأسيس حوالي

¹- ابن أبي الضياف أحمد: المصدر السابق، ج2، ص 143

²- ابن الخوجة محمد: المصدر السابق، ص 325.

³- ابن أبي الضياف أحمد: المصدر السابق، ج7، ص 87

⁴- نفسه، ج8، ص 75

⁵- النيفر محمد: عنوان الأريب، ج2، ص 130

⁶- الحلفاوين: وهي سوق قديمة بربض باب السويقة (قرب جامع أبي محمد)، ظهرت منذ العهد الحفصي، كانت في الأصل مختصة في بيع الحلفاء. ينظر: السعداوي أحمد، المرجع السابق، ص 260.

⁷- ابن الخوجة محمد: المصدر السابق، ص 325

10 مدارس منتشرة في عدة مدن تونسية، وذلك بفضل الدعم الذي قدمته لهن الراهبة" إيميل دي فيالار".¹

وقد وصل عدد المدارس الفرنسية 20 مدرسة نذكر منها مدرسة القس بورغاد ومدرسة إخوان المذهب المسيحي التي أنشأت مدرستين الأولى بالحاضرة سنة 1859م، والثانية بحلق الوادي عام 1871.²

ومع ظهور النهضة الثقافية الإصلاحية في تونس دعت النخبة إلى إنشاء مؤسسات علمية عصرية تدرس فيها العلوم الحديثة واللغات الأجنبية إلى جانب العلوم الشرعية،³ ومن هذه المؤسسات التي وقع إحداثها:

أ-المدرسة الحربية بباردو:

وهي أول مدرسة عصرية إصلاحية أسسها المشير أحمد باي في 5 مارس 1840م⁴ بضاحية باردو، فتعد مكتبا حربيا لتعليم ما يلزم من فنون القتال وتخرج منها المهندسين والموظفين، وقد جلب اليها ضابط إيطالي يسمى كاليغارس ليشراف على تعليم هؤلاء الطلبة، وكان يدرس فيها بعض اللغات الأوروبية وبعض العلوم الأخرى مثل الرياضيات والكيمياء والهندسة إلى جانب تعليم اللغة العربية وتحفيظ القرآن⁵، ومن أشهر مدرسيها الضابط الانكليزي دلكاس (Dalcasse)، والضابط الفرنسي فري (Verrier)، والأستاذ الإيطالي ترواني (Troani)، ومن أساتذتها التونسيون نذكر حسونة بن مصطفى الذي أصبح بعد ذلك نائب رئيس المجلس البلدي.

¹-Arnoulet,(F): la Pénétration Intellectuelle En Tunisie Avant le Protectorat In Revie Africaine. Vol 98, 1954, pp 141-146

²-مشرفية مديحة:المدارس الحرة الفرنسية في البلاد التونسية، شهادة التعمق في البحث، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة تونس الأولى، 1990، ص 49.

³-ريم غانمي:الحضور المسيحي بتونس من 1881 إلى 1930، رسالة ماجستير، المعهد الأعلى لأصول الدين، جامعة تونس(2004-2005)، ص ص 46-50

⁴-لقد اعتمدنا ابن ابي الضياف في تاريخ تأسيس المدرسة، أما جون قانياج فانه يذكر أنا تاريخ تأسيسها كان سنة 1838م، ينظر: GANIAGE (J): Opcite, P116

⁵-محمد الفاضل بن عاشور:الحركة الأدبية والفكرية في تونس(في القرنين 13-14هـ/19-20م)، الرشيد للنشر والطباعة تونس، 2009، ص 33

وقد درس بها أيضا الشاعر التونسي محمد قبادو واللغة العربية والتربية الدينية فكانت هذه المدرسة نافذة اطلعت من خلالها النخبة التونسية على الحداثة الغربية، لكن للأسف أغلقت هذه المدرسة أبوابها أواخر سنة 1868م.¹

ب-المدرسة الصادقية:

وقد قام بإنشائها المصلح خير الدين باشا عام 1875م، وسمي بالمعهد الصادقي نسبة إلى محمد الصادق باي وهو المعهد الذي أدخلت في برامجه لأول مرة بعد المدرسة الحربية اللغات الأجنبية والعلوم العصرية، كما فتح أبوابه لجميع سكان البلاد دون تمييز،² أما عن مكان المدرسة فأختير " قشلة الزنايديه" وهي ثكنة قديمة بناها حمودة باشا أوائل القرن 19م وباشرت المدرسة عملها يوم 27 فيفري 1875م، وعين العربي زروق رئيسا لها وبلغ عدد التلاميذ أثناء افتتاحها 167 تلميذ، أما برنامج التعليم بها فأسند إلى علماء جامع الزيتونة لتدريس اللغة العربية والحديث وعلوم الدين والنحو والصرف وغيرها، أما اللغات الأجنبية فأسندت إلى أساتذة فرنسيين يترأسهم " نوسن روكا".³

لقد استطاعت المدرسة الصادقية أن تجلب اهتمام التونسيين وتمنحهم ثقافة عربية إسلامية وتعلّما عصرية فأرسلت أولبعثة من تلاميذها الممتازين إلى فرنسا، تتكون من 10 تلاميذ سنة 1897م، والتحقّت بمعهد سان لوي، لكنها لم تستطع بعد الحماية من مواصلة تعليمها فرجعت الى تونس سنة 1882م، وعمل أفرادها ك مترجمين في الوزارات الكبرى.⁴

¹- الحبيب الجنحاني: الحركة الاصلاحية في تونس خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، حوليات الجامعة التونسية، العدد 06، السنة 1969، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، ص ص 119-120

²- جلاب الهادي:المجتمع التونسي بين التأصيل والتحديث 1881-1956، تونس، 1998، ص 55

³-بن الخوجة محمد:المصدر السابق، ص 312

⁴-الحبيب الجنحاني: المرجع السابق، ص 130

ثانيا: الجوامع والكتاتيب

أ- الجوامع:

تزرخ البلاد التونسية بالعديد من المساجد والجامع والتي تصل إلى 500 مسجدا والتي تغطي كل المحطات التاريخية من أشهرها جامع القيروان، جامع الزيتونة،¹ وهو أعظم جامع بالحاضرة ونتاجت فيه فحول عظام قديما وحديثا وان كان أقدم نه في البناء جامع القصر² لأنه كان كنيسة قبل الفتح³.

وقد ذكر لنا محمد بن الخوجة أنه يوجد حوالي 200 مسجد في الحاضرة خلال القرن 19م، بالإضافة إلى 19 جامعا منها 11 جامعا مالكيا و 8 جوامع حنفيا⁴.

ومن الجوامع التي لعبت دورا هاما في الحركة التعليمية نذكر من الجوامع المالكية جامع التوفيق، جامع باب البحر، جامع باب الجزيرة، جامع السبخاء، أما الجوامع الحنفية فنذكر جامع القصبية، جامع محمد باي، جامع القصر، هذا بالإضافة الى الجوامع الأخرى المشهورة في كل من صفاقس وجربة وقفصة وتوزر.

أما بخصوص الجوامع التي بنيت في العهد الحسيني نذكر الجامع الجديد الذي بناه حسن بن علي وكان تمام بنائه سنة 1139هـ/1726م،⁵ قال عنه ابن أبي الضياف "ومن مآثره هذا الباي جامع المعروف بالجامع الجديد ومدرسته وأول صلاة أقيمت به ظهر يوم الأحد 14 شعبان 1139هـ/06 أفريل 1727م..."⁶ وجامع يوسف صاحب الطابع الذي

¹-ريم غانمي: المرجع السابق، ص47.

²-جامع القصر: يقع داخل باب المنارة من تونس، وهو يعتبر من أقدم جوامع المدينة، ينسب إلى قصر العائلة الخراسانية التي حكمت البلاد بعد الزحف الهلالي، وإثر سيطرة لمتين الأتراك على البلاد تم تحويله إلى المذهب الحنفي، وفي سنة 1057 / 1647 قام انان محمد لاز ببناء صومعته الحالية. أنظر مقالنا حول الجوامع بالبلاد التونسية في العصر اللساني ينظر: السعداوي أحمد، المرجع السابق، ص 439.

³-محمد بيرم الخامس: المصدر السابق، ج1، ص 178.

⁴-بن الخوجة محمد: تاريخ معالم التوحيد، المرجع السابق، ص 171.

⁵-نفسه، ص210.

⁶ ابن أبي الضياف أحمد: المصدر السابق، ج2، ص 125.

أسسه في سنة 1229هـ 1813م، وكانت به أربع خزائن مشحونة بنفائس الكتب المخطوطة¹.

ب- الكاتيب:

لقد شكل تعليم الكاتيب أو التعليم التقليدي قاعدة التعليم الاسلامي والعربي والنواة الأولى لظهور المؤسسات التربوية والتعليمية، فما الدور التعليمي الذي قامت به؟ وما المناهج والاليات المستعملة في الكاتيب القرآنية؟

كان التعليم بالبلاد التونسية في العصر الحديث بالتأديب ويسمى معلمه المؤدب والمكتب وموضعه يسمى الكتاب²، ولفظ الكتاب يراد به موضع تعليم الكتاب قال المبرد: المكتب موضع التعليم والجمع الكاتيب والمكاتب³، وكان يطلق عليه في إفريقية منذ عهد بعيد على المدرسة الابتدائية بالعربية الفصحى " اسم الكتاب" وفي العهد الحفصي وجد مكتب في القصر السلطاني خاص بالأمرء الصغار وأطفال كبار رجال البلاط وكان المؤدب يعلم الأطفال القراءة والكتابة وترتيل بعض السور التي يرددونها بصوت واحد⁴. والكاتيب على نوعين نوع عام يشارك فيه العموم بمقابل زهيد يدفعه الأباء للمؤدب ونوع خاص ببعض البيوتات يخصص فيه للمؤدب جراية من صاحب المنزل، ويقوم المؤدب بتدريس أبناء صاحب المنزل أو لمن أدب له من الجيران والأقارب⁵.

لقد جرت العادة بالبلاد التونسية في الفترة المدروسة أن يذهب الصغار من الذكور إلى الكتاب، أما الفتيات فلاحق لهن في التعليم إذ يقع تعليمهن لقناً بحفظ بعض السور القرآنية اللازمة للقيام بفريضة الصلاة، ولا يتعلمن الكتابة لأنه كان سائداً في كامل الايالة

¹ الحشائشي محمد بن عثمان: المصدر السابق، ص111.

² ابن عاشور محمد الطاهر: أليس الصبح بقريب، المصرف التونسي للطباعة، تونس، 1967، ص48

³ ابن منظور: لسان العرب، ج13، مادة "كتب"، دار صادر، لبنان، 2003، ص340

⁴ برنشفيك روبر: تاريخ إفريقية في القرن 13م إلى نهاية القرن 15م، تر: حمادي الساطي، ج2، دار الغرب

الاسلامي، بيروت، لبنان، 1988، صص 374-375

⁵ ابن عاشور محمد العزيز: التعليم الزيتوني من ترتيب المشير أحمد باي إلى تأسيس مشيخة الجامع الأعظم وفروعه،

م.ت.م، العدد 41-42، تونس، 1986، ص11

أن التعليم يفسد الوعي الديني والروحي عند البنات،¹ وتعليم البنات خاصة القراءة والكتابة يفسدها ويسهل لها مراسلة عشاقها فيها ومطالعة كتب الغراميات التي تؤثر فيها.² وكان التعليم في الكتاتيب يعتمد على طريقتين: طريقة تبتدأ القرآن من سورة البقرة ثم السور التي تليها إلى ختم القرآن، حسب ترتيب المصحف والطريقة الثانية تبدأ من المعوذتين آخر سورة القرآن وكتنا الطريقتين يبتدئون بفاتحة³ الكتاب والتعليم في تلك الفترة يعتمد أساسا على حفظ القرآن، فكان لابد لطالب العلم من الصبر الطويل، وكان عليه أن يحفظ القرآن بالتردد على كتاب من الكتاتيب،⁴ يقضي التلميذ من سبع إلى ثمان ساعات يوميا مدة خمسة أيام في الأسبوع.⁵

وابتداء من النصف الثاني من القرن التاسع عشر عرفت الايالة اندثار التعليم داخل الكتاتيب وعلى الرغم من ذلك فقد حافظت بعض المناطق على هذا التعليم كما هو الشأن في منطقة الجريد التونسي.

ففي تونس العاصمة والساحل و صفاقس وجربة احتلت بلاد الجريد المرتبة الثالثة من حيث عدد التلاميذ والكتاتيب والمدرسين.⁶

وما يميز التعليم داخل الكتاتيب اعتماده على حفظ القرآن الكريم دون دراسة العلوم الأخرى من أدب ونحو وفقه، كما كان هذا التعليم يعتمد على الذاكرة دون الذكاء، فالمؤدب لا يقوم بطرح الأسئلة وتقريب الأفكار والعلاقة بين الأشياء وتسلسل الأحداث

¹-عصامي سكيبة: آليات ومناهج تعليم الكتاتيب بالجريد التونسي من بداية القرن التاسع عشر إلى 1889، ص 117

²-المناعي عبد الكريم:التونسيون وتعليم المرأة(1881-1956) دراسة في الثابت والمتحول في الذهنية التونسية تجاه تعليم

المرأة المسلمة، م.ت.م، العدد 90/89، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات زغوان، ماي 1998، ص 235

³-ابن عاشور محمد الطاهر: أليس الصبح بقريب، المرجع السابق، ص 48

⁴-عبد السلام أحمد: المرجع السابق، ص 83

⁵-الزبيدي علي:التعليم بصفاقس قبل انتصاب الحماية الفرنسية على البلاد التونسية في عهد محمد الصادق باي(1859-

1881) شهادة الكفاءة في البحث، الموسم الجامعي 1979/1980، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة تونس

الأولى، ص 14

⁶-عصامي سكيبة: المرجع السابق، ص 119

والعلاقة بين السبب والنتيجة، لذلك لم يتعود التلميذ على التفكير والنقد والقيام بأي جهد فكري.¹

إضافة إلى ذلك لا يتضمن نظام التدريس داخل الكتاب فترات الاستراحة والألعاب والأنشطة البدنية، فقد كان التلميذ مجبرا على الجمود لفترات طويلة مضرّة بنمو بدنه.² وقد كانت الكتابيب منتشرة في كامل أنحاء الايالة، فمثلا بلغ عددها في القيروان 65 كتابا يتردد عليها الأطفال الصغار لحفظ القرآن وإليك الجدول الإحصائي يوضح ذلك:

المنطقة	عدد الكتابيب	عدد التلاميذ
تونس	22	639
القيروان	65	1635
سوسة	45	893
المنستير	19	427
صفاقس	23	650
جربة	39	1059
قفصة	23	270
توزر	26	564
نفطة	37	366
نفزاوة	11	171
الوطن القبلي	42	1268

ولم تكن الكتابيب أغلبها في حالة جيدة فقد كانت أبنية عدد منها هشة، قليلة التهوية، رثة المرافق والمفروشات، وهذا بسبب سوء تصرف وكيل الأوقاف، ولهذا السبب

¹-Kraiem Mustapha: la Tunisie Précoloniale, T2, Tunis, 1973 , p163

²-Machuel Louis: L'enseignement Public Dans la Régence de Tunis Imprimerie Nationale, Paris, p64

بأدر خير الدين لما تولى الوزارة الكبرى سنة 1873م بإنشاء جمعية الأوقاف سنة 1875م لتجنب الاختلاس والوضع الفوضوي لموارد الأوقاف العمومية¹.

أما بخصوص تنظيم التعليم في الكتاتيب فقد صدر قرار في فيفري عام 1876م يتعلق بضبط مقاييس دقيقة في اختيار مؤدبي الكتاتيب إذ أصبحوا خاضعين لتزكية الحكومة، ولتنفيذ هذا القانون تتشكل في كل بلدة لجنة تتألف من عضوين أحدهما من المجلس الشرعي والأخر من أمين المؤدبين بالمنطقة وأوكلت لهما مهمتان هما ضبط قائمة بالمؤدبين، والقيام بزيارة تفقد منتظمة للكتاتيب².

ثالثا: الزوايا والأوقاف

أ- الزوايا:

ظهرت الزاوية بتونس كمركز تعليمي في القرن الرابع الهجري وبالتحديد أواخر العهد الحفصي، وكانت الأموال التي تصرف للقيام بمصالح الزاوية متأية من الزكاة والصدقات والهبات وبفضل هذه الأملاك تمكنت الزاوية من تأدية رسالة تربوية ودينية واجتماعية وثقافية ذات قيمة في تلك العهود حيث ساهمت في نشر الثقافة خاصة بين أبناء أهل الريف، فقد كان يؤمها الطلبة الفقراء من مختلف الجهات البعيدة، حيث يجدون بها المأوى والطعام بالإضافة إلى تلقي الدروس المنتظمة، فيتعلم فيها الطفل حفظ القرآن ودراسة قواعد اللغة العربية والفقهاء والأحاديث والحساب³.

كما اضطلعت في مرحلة ثانية بتعليم الطريقة الصوفية للمريدين من أذكار وقصائد وأناشيد وموشحات ألفاظها صوفية، وأدت هذه التربية إلى تهذيب الأخلاق وتنظيم السلوك الاجتماعي⁴.

¹ -ريم غانمي: المرجع السابق، ص ص 46-50

² -الموسوعة التونسية المفتوحة الكتاتيب قبل وبعد الحماية الفرنسية، Www/Mawsouaa.Tn، شوهد بتاريخ: 05-06-2021، بتوقيت: 22:02.

³ بن حمدة وسيلة: الزاوية ودورها التربوي والاجتماعي، مجلة الهداية، العدد 4، جانفي 1995، تونس، ص 31.

⁴ خير الدين شطرة: الطلبة الجزائريون بجامع الزيتونة (1900-1956)، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2008، ج1، ص 675.

ومن أشهر هذه الزوايا زاوية الشيخ إبراهيم الرياحي الذي كان في البداية منتما للطريقة الشاذلية ولما التقى بالشيخ علي حرازم الفاسي سنة 1796م أخذ عنه الطريقة التجانية وعمل على نشرها في البلاد التونسية، وقد أسس هذه الزاوية قرب حوانيت عاشور ولما توفي دفن بزوايته، وقد قام المشير محمد الصادق باي بترميمها سنة 1878م، كما كان لزاوية علي عزوز بزغوان دورا تربويا هاما،¹ وإلى حدود القرن العشرين ظلت مدينة نفطة أهم المراكز الدينية والصوفية والطرقية خاصة الطرق القادرية والرحمانية والتجانية إضافة الى طريقة سيدي بوعلي التي ما زالت إلى اليوم تحافظ على دخلتها السنوية.²

لاقت الطرق الصوفية الاهتمام البالغ والدعم السياسي من طرف البايات الحسينيين حيث كثرت الزوايا وحبست العقارات واعترف الحسنيون بالطرق الصوفية قانونيا وتم وضعها إداريا تحت اشراف رئيس عام يسمى بشيخ المشايخ.³

لقد كان حمودة باشا حامي الطريقة القادرية وأول المساهمين في بناء زاوية لها ومنذ عهد أحمد باي أصبحت العائلة الملكية تتوارث انتمائها للطريقة التجانية أعرق الطرق في تونس وأحداثها،⁴ ولهذا الاهتمام تكاثرت الطرق الصوفية وأصبحت لها زوايا في كامل البلاد وانتشرت بين الناس أن «من لا طريقة له فطريقته شيطانية».⁵

ب-الأوقاف:

¹ حمادي الساحلي: فصول في التاريخ والحضارة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1992، ص ص: 274-275

² عصامي سكيبة: الطريقة القادرية بالجريد التونسي من النشأة الى الاضمحلال (1843-1954)، المجلد 3، العدد 5، جوان 2017، المجلة الجزائرية للبحوث والدراسات التاريخية، ص 129.

³ الأزهر الكسراوي: الطرق الصوفية بالبلاد التونسية "مدينة صفاقص أنموذجا" القلم: العدد 7، صفاقص، 2001، ص 19.

⁴ محمد البهلي النبال: الحقيقة التاريخية للتصوف الاسلامية، مطبعة النجاح: تونس، ص 321.

⁵ الرزقي الصادق: الأغاني التونسية، تونس، 1967، ص 101.

الوقف لغة بفتح الواو وسكون القاف، مصدر وقف الشيء وأوقفه بمعنى حبسه وأحبسه، وتجمع على أوقاف ووقوف،¹ وسمي وقفا لما فيه من حبس المال على الجهة المعنية، أما اصطلاحا فاشمل تعريف له هو "تحييس الأصل وتسبيل المنفعة"².

وقد سار الوقف في تونس على المنوال الذي ضبطه جمهور الفقهاء لكن بداية من منتصف القرن 19م بدأ تدخل البايات في الأوقاف ففي عهد أحمد باي ونظرا إلى توسعه في الانفاق العسكري اضطر الى تعيين بعض أفراد العسكر على الأحباس وتفاقم الأمر في عهد الصادق باي حيث خرجت مسؤولية الوكالة على الأحباس من رجال الشرع إلى قيادات العسكر وأصبحت الأوقاف مصدرا للزرق والكسب لا للأجر والثواب³.

وفي الحاضرة تونس أصبحت الأحباس تحت اشراف المجلس البلدي من سنة 1858م إلى غاية 1861م. وبذلك فقدت استقلاليتها وأصبحت تحت الإدارة المباشرة للدولة⁴.

وعندما أسس خير الدين جمعية الأوقاف أصبحت الأحباس تحت إشرافها، وكان مقرها في ثكنة عسكرية تركية بنهج جامع الزيتونة وأول عمل قامت به تحديد الأملاك المحبسة وخاصة تلك التي بدأت تخرج من حرمة الأوقاف بطرق متعددة، وقد نجحت نسبيا في الحد من طرق التحايل عليها واسترجاع ما تم الاستيلاء عليه من أملاكها، لكن بعد سقوط وزارة خير الدين عام 1878م، بدأ الفساد يعود الى المؤسسة من جديد، وأصبح تسيير الأوقاف حسب الأهواء والمنافع وبدون رقابة، ولم يعد للمشرف في ذلك انتظار

¹ ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، ج9، ص ص 359-360.

² محمد بن عبد الله الزركشي: شرح الزركشي على مختصر الحزقي تح: وتخريج عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين، ط1 1410هـ، ج4، ص268.

³ جمعة شيخة: الوقف بين التنظير والتطبيق والالغاء التجربة التونسية أنموذجا، جامعة تونس، ص09(Iefpedia.Com)

⁴ الأزهر الصخراوي: مخطوطو السياسة الاستعمارية بتونس من برنار رو إلى شال سوماتيه (1881-1956)، ط1، دار المسير، 2018، ص92.

آخر الشهر لتسليم رتبه، وكانت الولاية تمر بفترة سيئة سياسيا واقتصاديا زمن الوزير مصطفى بن اسماعيل مما جعلها تكون لقمة سائغة للاستعمار الفرنسي¹.
وتعتبر الأوقاف القاعدة الاقتصادية للمؤسسات الدينية من مدارس وجوامع ومساجد وزوايا فهي تأمن مصادر دخل قارة لها، وللأوقاف وظائف اقتصادية اجتماعية وتعليمية وثقافية، إذ يستفيد منها جميع الأصناف الاجتماعية، السلطة، الطبقة العامة.
فالتبقة الحاكمة وعلى رأسها الباي يستفيدون بطريقة غير مباشرة من خلال اكتراء العقارات بمختلف أنواعها الريفية والحضرية، أما العامة فكانت استفادتها من الأوقاف بطريقة مباشرة ومن أبرز المستفيدين مدرسي جامع الزيتونة وشيوخ المدارس الأخرى المتواجدة داخل الحاضرة أو خارجها والطلبة المقيمين بها والمؤذنين وغيرهم².

رابعاً: المكتبات العامة والخاصة

تلعب المكتبات دورا هاما في نشر الثقافة داخل أوساط الفئات الاجتماعية لذا كان إهتمام البايات الحسونيون بها كبيرا منذ تأسيس دولتهم إلا أن ظهورها في تلك الفترة لم يكن بالشكل الذي نعرفه الآن، فنجدها مقتصرة على الزوايا أو المدارس القرآنية أو جامع الزيتونة والقيروان.

يذكر محمد بن الخوجة أن أول مكتبة عمومية بتونس ظهرت بالقيروان وكانت أغلب كتبها منسوخة على رق الغزال، لكنها اندثرت بسبب الفتن التي عرفتها المدينة طيلة القرنين الرابع والخامس الهجريين.

أما بالحاضرة فإن خزانة للكتب أحدثها الأمير أبو فارس عبد العزيز الحفصي سنة 797م/1395م بجامع الزيتونة ثم أضاف حفيده السلطان أبي عمرو عثمان سنة 839م/1435م خزانة أخرى ثم جاء بعده حفيده أبو عبد الله محمد بن الحسن بن محمد

¹ جمعة شيخة: المرجع السابق، ص10.

² فتحي المرزوقي: المؤسسات الدينية والمؤسسات الخيرية بمدينة تونس في القرن 18م، مقوماتها الاقتصادية ووظائفها الاجتماعية، م.ت.م، العدد 83/84، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات زغوان، تونس، 1996، ص 198-199.

المسعود فأسس في أوائل المائة العاشرة المكتبة المعروفة بالعبدية وجعلها بالرواق الشرقي بالجامع،¹ إلا أن هذه الخزائن الثلاثة عثت بها أيادي الجنود الأسبان أثناء احتلالهم لتونس سنة 1572م/980هـ وبهذا أصبح العلم بتونس² كشمس علي مغيب على حد تعبير محمد الصغير بن يوسف.

وعند تأسيسه للدولة الحسينية اجتهد الباي حسين بن علي في تأسيس نواة المكتبة ويخبرنا الصغير بن يوسف أنه كان ولو عا بجمع الكتب من كل فن وأنه كون مكتبة كبيرة وكان له نساخون ينسخون له الكتب، وعندما تولى ابن أخيه علي باشا الحكم سنة 1735م استولى على مكتبة عمه وزاد في توسعتها فجلب لها الكتب من مختلف البلدان الإسلامية وجعلها في مسجد دار الباشا بباردو³، ثم أثارها بالمجلدات النفيسة من ولي بعده من البايات خاصة محمد الرشيد باي وعلي باي بن الحسين بن علي حتى أصبح عدد المجلدات فيها أثناء اعتلاء محمود باي العرش سنة 1815م، 2726 مجلدا واقتداء بالبايات أنشأ يوسف صاحب الطابع خزانة عامرة بالكتب في شتى العلوم في جامعها بالحلفاوين⁴.

أما أحمد باي فقد كلف كاتبه أحمد بن أبي الضياف بنقل المكتبة من دار الباشا من باردو إلى جامع الزيتونة وكان ذلك في رمضان 1256هـ/1840م⁵ ثم أضاف إليها كتب الوزير حسين خوجة باش مملوك التي باعها عليه دائنوه واشتراها الباي بـ 28917 ريالاً، ثم أضاف إليها كتب الشيخ إبراهيم الرياحي بعد وفاته سنة 1266هـ/1850م وهي أنفس قسم اشتملت عليه المكتبة الأحمدية لأنها جمعت من بين النفائس والنوادر المغربية والمشرقية، مما اختاره الشيخ في رحلته لفاس سنة 1218هـ وللاستانة 1254 وجعل نظرها لشيخه الإسلام بإعانة القاضيين الحنفي والمالكي وسوغ إعارتها لأهل العلم على شروط⁶.

¹ بن الخوجة محمد: صفحات من تاريخ تونس، المرجع السابق، ص298.

² بن الخوجة محمد: كيف نشأت خزائن الكتب لدراسة العلوم بجامع الزيتونة المعمور، المجلة الزيتونية، مج1، العدد1/1936، ص74.

³ الصغير بن يوسف: المصدر السابق، ج1، ص ص 49-50

⁴ بن الخوجة محمد: صفحات من تاريخ تونس، المرجع السابق، ص300.

⁵ ابن أبي الضياف أحمد: المصدر السابق، ج4، ص 50

⁶ بن الخوجة محمد: كيف نشأت خزائن الكتب لدراسة العلوم، المرجع السابق، ص136.

وعندما أزيح مصطفى خزندار من الوزارة سنة 1873م أخذت منه في إطار التسوية القضائية خزانة مكتبته النفيسة وكان من ضمنها كتب المرحوم أحمد بن أبي الضياف التي باعها خلال حياته وجملتها 1798 مجلدا ألحقها المشير محمد الصادق إلى المكتبة الأحمديّة كما خصص هو من خزانة العامرة ثلاثمائة مجلد بنية التحسيس للجامع، كما أضاف إليها محمد خزندار المتوفي سنة 1888م/1306هـ خزانتين عامرتين بكتب معتبرة إذ أوقفهما على الجامع الأعظم¹.

- المكتبة العبدلية: وتسمى في الاصطلاح الرسمي بالمكتبة الصادقية نسبة للمشير محمد الصادق باي وقد أنشأها سنة 1292هـ بإيعاز من الوزير المصلح خير الدين التونسي، وجعل مركزها بالمحل الذي كانت به المكتبة العبدلية التي تحدثنا عنها سابقا، وقد جمع لها أكثر ما تيسر له جمعه من التحابيس المتواجدة في المساجد والأضرحة والمدارس ثم أضاف إليها خير الدين ألف مجلد من خزانة كتبه الخاصة ووضع لها قانون من شروطه الانتفاع بتلك الكتب مطالعة واستنساخا دون إخراجها من الجامع ولما تولى الباي محمد الهادي السلطة أضاف إليها 300 مجلد كحسب للمكتبة².

¹ بن الخوجة محمد: صفحات من تاريخ تونس، المرجع السابق، ص303.

² بن الخوجة محمد: كيف نشأت خزائن الكتب لدراسة العلوم، المرجع السابق، ص138.

الفصل الثاني

العلماء والتعليم خلال العهد الحسيني

أولاً: العلماء والمدرسون

ثانياً: السياسة التعليمية

ثالثاً: جهود البايات الحسينيين في الاهتمام بالعلم والعلماء

أولاً: العلماء والمدرسون

قبل الحديث عن المدرسين والعلماء خلال العهد الحسيني، كان لزاماً أن نحدد مفهوم كلمة العلماء في تلك الفترة، أو بعبارة أخرى تحديد المواصفات الملائمة للتعريف بمن كان يعد من العلماء في تونس خلال العهد الحسيني وخاصة القرن التاسع عشرة منه. فكلما عالم تستعمل اليوم أثناء ذكر أستاذ أو باحث، أما عندما ندرس كتب السير لدى المؤرخين التونسيين،¹ ندرك أن مفهوم عالم تشمل معنى أضيق على ما يبدو، "إذ لم تكن تطلق على كل المتعلمين بل على فئة منهم تلقت تعليماً معيناً وتعاطت وظائف معينة"، فالعلم لم يكن مرادفاً للمعرفة بل كان يعني المعرفة المتصلة بالدين الإسلامي، إذن يبقى مفهوم العلماء يكتنفه بعض الغموض إذ كان لقب عالم شرفياً محضاً، لا يمنح على أساس معايير فنية، لذا نجد كتاب السير يختلفون في إطلاقها على هذا الشخص أو ذلك، فنجد مثلاً من يعتبره محمد مخلوف عالماً، يذكره محمد النيفر فقيهاً أو فاضلاً، أما ابن أبي الضياف في اتحافه يعدل عن دعوة بعضهم بالعلماء لكن عند ترجمة أبنائهم يلقبهم بالعلماء.

أما عن الشروط الواجب توفرها في العالم إضافة إلى دراسته العلوم الإسلامية، اشتغاله بوظيفة دينية تضمن تطبيق ما تحصل عليه من معارف، كالتدريس، القضاء، الافتاء... الخ.²

أما بالنسبة للمدرسين فعلى الطالب الزيتوني الذي يريد الانخراط بسلك التعليم فعليه أن يطلب اجازات من أساتذته تخول له ذلك، ويسمى هؤلاء المدرسون بهذا الشكل

¹ -نقصد بكتب السير المؤلفات التالية: محمد السنوسي: مسامرات الظريف بحسن التعريف، النيفر محمد، عنوان الأريب، علي بن النيفر محمد: ذيل عنوان الأريب، مخلوف محمد: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، ابن أبي الضياف: اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، ج: 7 و8 محمد الفاضل بن عاشور: تراجم الاعلام، حسين خوجة: ذيل بشائر أهل الايمان الوزير السراج: الحلل السندسية وغيرها من التراجم غير المذكورة.

² -أرنولد هقرين: العلماء التونسيون: تر: حفناوي عمايريه وأسماء معلى، نشر دار سحنون للنشر والتوزيع والمجمع التونسي للعلوم والادارة والفنون، تونس، 1995، ص ص 39-46

متطوعين ويكلفون بإلقاء الدروس في إحدى المدارس أو في جامع الزيتونة وقد كان عددهم سنة 1873م خمسة وستون متطوعاً.

أما في سنة 1849 فقد أضيف 12 مدرساً من المرتبة الثانية إلى مجلس الثلاثين الذين يسمون أساتذة من المرتبة الأولى.¹

وبخصوص أجور المدرسين والمشايخ في المدارس، فبالنسبة لشيوخ المدارس والمشرفين على تسييرها فهؤلاء لم يكونوا يشتغلون بإدارة هذه المدارس فقط فكانوا يدرسون بجامع الزيتونة، أو بغيره من الجوامع كما كانوا يشتغلون بخطة القضاء أو الشهادة أو التوثيق.

أما بالنسبة للمدرسين الذين كانوا يتمتعون بمرتبات من الأوقاف التابعة لمدارسهم فإنها تختلف من مدرسة إلى أخرى حسب مدخول الأوقاف الخاصة بكل مدرسة فمثلاً سنة 1871م/1286هـ كان مرتب شيخ مدرسة الشماعية 60 ريالاً والمدرسة الجديدة مرتب شيخها 45 ريالاً فالحسينية الصغرى 34 ريالاً وبينما مرتب شيخ المدرسة الأندلسية 10 ريالاً فقط في الشهر.²

أما المدرسون بجامع الزيتونة فمدرسو المرتبة الأولى يتقاضون قرشين في اليوم أما أصحاب المرتبة الثانية فينقاضون قرشاً واحداً بينما المدرسون المتطوعون فلم يكونوا يتقاضون أي أجر إلى غاية سنة 1892م.

كان للطالب خريج الزيتونة الحق في الترشح بتولي وظائف القضاء كالعديل أو شهود يصادقون على ختم المحررات الرسمية،³ كما يمكن له أن يختار مجالاً ثالثاً للعمل وهو مجال إقامة الشعائر الإسلامية في المساجد والجوامع، وقد ذكر محمد بن خوجة أنه كان بتونس خلال القرن 19م، 200 مسجد لإقامة صلاة الخمس و19 جامعاً منها 11

¹ -محمد بن الخوجة: معالم التوحيد، المصدر السابق، ص 40

² -عبد الحميد بن زيد: مدارس التعليم الإسلامي في القرن التاسع عشر بتونس، شهادة التعمق في البحث، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، 1978-1979، ص 92.

³ -أرنولد ه قرين: المرجع السابق، ص 48

جامعا مالكيًا و08 جوامع حنفية وقد كان أئمة الجوامع يختارون من ضمن مدرسي المرتبة الأولى من جامع الزيتونة.¹

يحظى العلماء والمدرسون باحترام من طرف المجتمع نظرا لوظائفهم في التدريس والقضاء والامامة ولتقواهم ولشرف مجدهم، وقد كان مقام الواحد منهم في الهرم الاجتماعي مرتبطا بمقامه ضمن المؤسسة الدينية، وكان العلماء يحتلون مكانة وسطى بين الحكام والرعية ولهم علاقات مميزة مع كلا الطرفين فمن جهة كان دورهم كمصلحين للأمة، ومن جهة أخرى كانوا يرفضون الاندماج في إدارة السلطة رغم اعترافهم بالسلطة المطلقة للباي.²

ترجمة موجزة لأبرز العلماء والمدرسون

لقد شهد العهد الحسيني العديد من المشايخ المدرسين سواء في جامع الزيتونة أو المدارس الإسلامية الأخرى المجاورة له أو في المدارس المتواجدة عبر البلاد التونسية، وقد ارتقى العديد منهم إلى درجة الافتاء والآخرين ارتقوا بدورهم إلى القضاء، لذا سنقوم بترجمة لبعض هؤلاء الاعلام راعين الترتيب الزمني قدر الامكان ونظرا لكثرة عدد هؤلاء فإننا اخترنا المشهورين منهم كل في مجال تخصصه، الفقه، القضاء، الافتاء، التدريس، الخطابة... الخ.

أبو عبد الله محمد زيتونة:

ولد بالمنستير عام 1081هـ/1671م، أوتي على بصره وهو صغير، حفظ القرآن ومكث بالقيروان مدة ثلاث سنوات تفقه بها على يد مشايخها الأجلاء منهم الشيخ محمد عضوم والشيخ علي الغرياني وغيرهم، ثم قدم إلى تونس وقرأ على يد علمائها الأفاضل ثم تصدر للتدريس بالجامع الأعظم، توجه إلى الحج سنة 1703م³، وأثناء طريقه أخذ العلم عن مشايخ مصر، وبعد عودته من الحج تصدر بالتدريس في المدرسة المرادية، له من

¹ - بن الخوجة محمد: معالم التوحيد، المصدر السابق، ص 171

² - أرنولد ه قرين: المرجع السابق، ص 70-76

³ - محفوظ محمد: تراجم المؤلفين التونسيين، ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1994، ص 437.

التأليف حاشية على الوسطى مجلدين وشرح منظومة البيقوني في مصطلح الحديث، يعتبر محمد زيتونة علم من أعلام الديار التونسية، توفي سنة 1138هـ/1726م.

أحمد بن مصطفى برناز:

ولد الشيخ أحمد بن مصطفى بن الشيخ الامام حمد مصطفى الشهير بقارة خوجة المعروف ببرناز في تونس سنة 1074هـ/1663م.

ونشأ بها وقرأ القرآن وقرأ على جده الحديث وعلى الشيخ ابراهيم الاندلسي وآخرون، توجه إلى الحج وفي طريقه أخذ العلم عن علماء مصر وبعد رجوعه من الحج توجه إلى الجزائر فأخذ عن الشيخ أحمد بن الساسي والشيخ علي الكماد وغيره ثم عاد إلى تونس واستكمل العلم على يد علماء تونس منهم عبد القادر الجبالي وأحمد عزوز، أتولى التدريس في المدرسة الشماعية ثم انتقل إلى المدرسة العنقية، ودرس أيضا بجامع الزيتونة وبأماكن أخرى واسند إليه تدريس الحديث في إحدى المدرستين اللتين أسسهما حسين بن علي وهي مدرسة الجامع الجديد في سوق البلاط.

لقد حضى الشيخ أحمد برناز بتقدير معاصريه، فمحمد سعادة يعتبره عين أعيان الحنفية، أما الوزير السراج فيسميه دوما شيخنا ويورد أقواله كثيرة في حله السندسية، له العديد من التأليف منها كتابه في التاريخ "الشهب المحرقة لمن ادعى الاجتهاد لولا انقطاعه من أهل المخرقة" توفي رحمه الله 17 ذي القعدة 1138هـ/1726م.²

محمد الخضراوي:

ولد بتونس سنة 1087هـ/1677م، حفظ القرآن، درس على يد العديد من المشايخ منهم حمد الغماد، قاسم الغماري، تصدر للتدريس في عدة أماكن، عينه حسين بن علي مدرسا في المدرسة الحسينية الكبرى وهو أول مدرس بها.³

علي الستاري:

¹-حسين خوجة:المصدر السابق، ص ص224-232.

²-عبد السلام أحمد: المؤرخون التونسيون في القرون 17 و18 و19، المرجع السابق، ص ص 194-197

³-حسين خوجة: المصدر السابق، ص ص 234-235

ولد أبو الحسن علي الستاري بمدينة تونس سنة 1075هـ/1665م حفظ القرآن في صغره وتلمذ على مشايخ عصره، سعيد الشريف، محمد الغماد، محمد فتاة، تصدر للتدريس بجامع الزيتونة، كما تعاطى التدريس في أماكن أخرى، تولى الافتاء على المذهب المالكي.

محمد جعيط:

توجه إلى طلب العلم منذ صغره وتلمذ على عدة مشايخ منهم الغماد وعبد القادر الجبالي وغيرهم، برع في علم التجويد والقراءات والفقہ والنحو، صدره الأمير حسين باي مدرسا في مدرسته قرب تربته.¹

حسين خوجة:

في ظل غياب ترجمة مستوفاة عنه قام الدكتور أحمد عبد السلام بجمع بعض المعلومات حوله من خلال عدة مصادر نوجزها فيما يلي:

نستخلص من خلال لقبه الوظائف التي تقلدها ومن خلال انتسابه للمذهب الحنفي فهو تركي الأصل، ويبدو أنه تلقى تعليمه في جامع الزيتونة أو في مدارس مدينة تونس، والظاهر أن معاشرته للمراديين كانت مبكرة فتقرب من محمد باي واتخذة كاتباً له في تلك الفترة وكلفه بالخصوص بمراسلاته باللغة التركية، ذهب إلى الحج سنة 1700م، ثم سافر مرة أخرى إلى الحج سنة 1712م حيث اجتمع بشيخه محمد زيتونة. واستبعد الاستاذ أحمد عبد السلام ما كتبه ناشرو الذيل حول تاريخ وفاته سنة 1754م، بسبب عداوة علي باشا له، كما لم يذكره المؤرخ الصغير بن يوسف، مما يجعلنا الاعتقاد أن حسين خوجة مات قبل اعتلاء علي باشا السلطة.²

محمد سعادة:

¹-الوزير محمد السراج: المصدر السابق، ج3، ص ص 136-138

²-عبد السلام أحمد: المؤرخون التونسيون في القرون 17 و 18 و 19، المرجع السابق، ص ص 219-221

ولد الشيخ محمد بن عمر سعادة المنستيري سنة 1088هـ/1677م، قدم إلى تونس في طلب العلم وتتلّمذا على مشايخ عصره أمثال محمد فتاة ومحمد الغماري، ثم ارتحل إلى مصر لطلب العلم ثم ذهب إلى استانبول والنقى بعلمائها ثم رجع إلى الحاضرة، أقرأ بجامع الزيتونة عدة علوم زمن حسين بن علي، قلده علي باشا خطة القضاء سنة 1157هـ ثم قدمه للفتوى، له كتاب لطيف سماه قرة العين في نشر فضائل الأمير حسين توفي سنة 1171هـ/1757م.¹

محمد البارودي:

هو محمد بن حسين البارودي كان فقيها حنفيا، أخذ العلم عن جماعة من المشايخ منهم والده وأبو عبد الله محمد الدرنابي، أتقن التجويد عن مؤدبه، درس بالشماعية نيابة عن والده في حياته واستقل بها بعد وفاته، أقرأ بها صدر الشريعة، ثم أقرأ الدرر، ألف رسالة في مسائل الحيطان، تولى الافتاء، توفي في 08 جويلية 1801م.²

صالح الكواش:

أصله من الكاف، وسبب هذا اللقب أن والده كان يحترف بكوشة قرب سيدي المشرف بتونس، ولد الشيخ صالح في ربيع الأول 1197هـ، ديسمبر 1724م وحفظ القرآن وأخذ العلم عن أعلام ذلك العصر، هرب إلى طرابلس ثم إلى استانبول خوفا من علي باشا ثم رجع إلى تونس بعد دعوته من طرف محمد باي وكلفه الباي بالمدرسة المنتصرية كما نال الحضوة والتقدير زمن حمودة باشا حيث بني له الوزير صاحب الطابع دارا بعد أن تهدمت داره وبقي مدرسا إلى أن توفي رحمه الله يوم الاربعاء 19 شوال 1218هـ/ 1 فيفري 1804م.³

محمد الطاهر بن مسعود:

توجه إلى طلب العلم منذ صغره فأخذ عن صالح الكواش وغيره من أعلام ذلك العصر ثم تصدر للتدريس بالمدرسة السليمانية وجامع الزيتونة ودرس فيها التفسير

¹- السنوسيمحمد بن عثمان:المصدر السابق، ج1، ص ص 171-175.

²- أحمد بن أبي الضياف: المصدر السابق، ج7، ص ص 19-40

³- أحمد بن أبي الضياف: المصدر السابق، ج7، ص ص 44-47

والحديث والفقہ والنحو والبيان والمنطق والأصول. توفي بمرض الطاعون في 26 صفر 1234هـ / 25 ديسمبر 1818م.¹

ابراهيم الرياحي:

قدم جده إبراهيم من ليبيا ونزل بالعروسة منزل رياح بتونس، واشتغل مؤدب للصبيان،² ولد صاحب الترجمة بتستور وحفظ القرآن بها ثم هاجر إلى الحاضرة في طلب العلم فسكن بمدرسة حانوت عاشور ثم في مدرسة بئر الأحجار وتفرغ للعلم وأخذ عن علماء عصره، تصدر للتدريس فزدهم الطلاب على دروسه وبعد نيف وعشرون سنة من قدومه سئم ضيق العيش والوحدة في المدرسة فعزم على مغادرة الوطن، ولما سمع ذلك الوزير يوسف صاحب الطابع اشترى له دارا، والتزم له نفقة زواجه، فتزوج وبقي هناك³، تعرف على الشيخ علي حرازم بورادة الفاسي سنة 1801م، وأخذ عنه الطريقة التجانية بتونس ونشرها في البلاد وأسس زاويته المشهورة قرب حوانيت عاشور⁴. اختاره حمودة باشا سفيراً للمغرب في غرض جلب الاعانة الغذائية للملكة التونسية وكانت السنة سنة مجاعة سنة 1218هـ / 1802م. فحقق ما طلب منه وأكرمه سلطان المغرب.

قدمه الباي حسين لرئاسة مجلس الشورى من المفتين وأنابه الباي مصطفى للحج عنه، قدمه أحمد باي للخطابة بجامع الزيتونة كما بعثه للسلطنة العثمانية لبعض الأغراض السياسية فنجحت سفارته وأكرمه السلطان العثماني وأعطاه بعض الهدايا توفي في 28 رمضان 1266هـ / 7 أوت 1850م، ألف حاشية على كتاب الفاكي لم يكملها وحاشية على شرح الخزرجية في العروض وديوان خطب وديوان شعر.⁵

محمد بن ملوكة:

¹-نفسه، ج7، ص ص 87-109

²-محفوظ محمد، المرجع السابق، ج2، ص 387.

³-أحمد بن أبي الضياف: المصدر السابق، ج7، ص ص 73-74

⁴-محفوظ محمد، المرجع السابق، ج2، ص 388

⁵-أحمد بن أبي الضياف: المصدر السابق، ج7، ص ص 74-75

نشأ بزاوية أبيه المعروفة خارج باب القرجاني، حفظ القرآن ثم اشتغل بتحصيل العلم على يد علماء عصره، ثم تصدر للتدريس بجامع الزيتونة تارة وبالمساجد القريبة من زاوية تارة أخرى، وقد كان يرعى المدرسة الحسينية الكبرى¹ وانتفع بدروسه الكثير منهم حمد النيفر وصالح النيفر وأحمد بن أبي الضياف وغيرهم امتنع عن القضاء وعن امامة الجامع الأعظم² وكان له ميل للتصوف فلبس الخشن من الثياب وكان يحقر الدنيا، أراد مصطفى خزندار تأسيس مدرسة له قرب القرجاني على أنقاض زاويته لكنه توفي قبل نهاية الأشغال، فتطير الوزير ولم يكمل البناء تشاؤما كغيره من المعاصرين³ ألف بن ملوكة شرحا على الدرّة في الفرائض، توفي في 28 شوال 1276هـ / 18 ماي 1860م.

محمد قبادو:

أصل عائلته من الأندلس، ولد بتونس سنة 1228هـ/1812م درس العلوم بجامع الزيتونة ثم تصدر للتدريس، وقد كان مولعا باللغة والبلاغة والشعر والانشاء، اعتنق فكر التصوف في بداية حياته حسب صاحب عنوان الأريب فذهب إلى طرابلس وأخذ الطريقة المدنية عن الشيخ محمد مدني ثم رجع إلى تونس ودرس بالزيتونة ثم ارتحل إلى الاستانة وبقي بها ثلاث سنوات، فخالط علمائها ثم رجع إلى الوطن من جديد بمساعدة ابن أبي الضياف، وولاه أحمد باي مدرسا للعربية بالمدرسة الحربية ببارود ثم عينه محمد باي مدرسا بجامع الزيتونة فتخرجت على يديه نخبة من العلماء والأدباء منهم الشيخ سالم بوحاجب ومحمد السنوسي مؤرخه وجامع ديوانه، ولما صدرت جريدة الرائد التونسي سنة 1860م عهد إليه بمهمة التحرير فكتب المقالات العديدة، كما تولى قضاء باردو والافتاء على المذهب المالكي كما تولى مشيخة المدرسة الحسينية الكبرى توفي سنة 1288هـ/1871م⁴.

¹-نفسه، ج7، ص ص 79-82

²-محمد بن مخلوف: المصدر السابق، ج1، ص 390

³-عبد السلام أحمد، المؤرخون التونسيون في القرون 17 و 18 و 19، المرجع السابق، ص 78.

⁴-النيفر محمد:المصدر السابق، ص ص 127-130.

ثانيا: السياسة التعليمية

لقد بلغت الايالة التونسية أواخر القرن 16م وبداية القرن 17م درجة من الجهل نادرا أن بلغت منذ أن دخلت في التاريخ والحضارة وفي هذا الصدد يشير ابن أبي الضياف إلى ذلك بقوله "كاد أن يرتفع العلم من الحاضرة، فبث العالم التركي أحمد أفندي العلم في صدور الناس".¹

وفي نظرنا يرجع ذلك إلى الحملة الاسبانية سنة 1535م وكذلك اهتمام الحكام العثمانيين بالمناصب العليا والحروب من أجل السيطرة والتوسع والنفوذ داخل البلاد، ويذكر بعض الباحثين " أن تونس كانت قبل كارثة الاحتلال الاسباني دار علم وفقه ورثت عن فقهاء القيروان طرق استنباط الاحكام وموازنة الأدلة وضبط النصوص وتطبيقها، واختصت بطريقة في التعليم تجمع بين الفقه والتفقه... وانعدم نها العلم تماما عند الاحتلال الاسباني، الذي استباح معاهدها وأتلف كتبها، ثم جاء الحكم التركي ممثلا في طبقات من الجند لا صلة بينها وبين العلم".²

إذن فمنذ بداية الحكم العثماني لتونس وبعد أن استصفيت بقايا الجيش الاسباني المحتل، أصيبت الحركة العلمية بنكسة خطيرة، تفرق على أثرها العلماء، وهاجر الناس، وخربت مراكز العلم وديست الكتب والمقدسات مما اضطر الولاة لاستجلاب علماء لنشر الثقافة وإحياء العلوم، حتى وصفت البلاد في ذلك العصر بأنها خاوية من العلم. لكن بمجرد استتباب الأمن واستقرار الأوضاع حتى رجع العلماء واستقروا في مراكزهم العلمية، وذلك بفضل المساعدة والتشجيع من قبل بعض الدايات والبايات المراديين.³

¹-التيومومي الهادي:تونس والتحديث، المرجع السابق، ص 48

²-محمد ماضور: تقديمه للكتاب الباشي: المرجع السابق، ص 13

³-حسين خوجة:ذيل بشائر أهل الايمان، المصدر السابق، ص 38-39

وعندما ظهرت الدولة الحسينية قام باياتها بنشر التعليم وبناء مؤسساته وشجعوا الأدباء والشعراء، إلا أن دورهم كان مختلفا من باي لأخر، إذ كانت تتحكم فيهم الظروف العامة للبلاد.

إن الباحث في وضعية التعليم بالإيالة التونسية خلال العهد الحسيني يدرك أنه يمكن تقسيم المراحل التعليمية إلى مرحلتين هامتين الأولى تمتد من تأسيس الحكم الحسيني سنة 1705م إلى غاية 1842م التي تمثل الاصلاحات والترتيبات التي أحدثها المشير أحمد باي في ميدان التعليم، أما المرحلة الثانية فتمتد من سنة 1842م إلى غاية 1881م تاريخ انتصاب الحماية الفرنسية على تونس.

المرحلة الأولى: (1705م-1842م)

رغم المجهودات التي بذلها البايات الأوائل في ميدان نشر التعليم من خلال بناء المدارس والمساجد والزوايا إلا أنه ظل محدودا ومقتصرا على المدن المتاخمة للبحر وبعض المدن الداخلية الكبيرة مثل: القيروان، الكاف، قفصة، توزر، نفطة.¹

ويمكن أن نطلق على التعليم خلال هذه الفترة تعليم تقليدي وهو بالأساس تعليم ديني يقوم على تدريس القرآن والحديث والفقهاء يجمع إلى جانب هذه المواد الشرعية مواد أخرى مثل التاريخ والجغرافيا والأدب والفلسفة التي كانت تصقل ذهنية الطالب وتؤهله للتعامل مع الحياة.²

أما المؤسسات التي يلقى فيها هذا النوع من التعليم تتمثل في كل من الكتاتيب والمساجد والجوامع المتواجدة في كامل أنحاء البلاد التونسية ومن أبرز المساجد والجوامع نذكر جامع القيروان وجامع الزيتونة.

وقد كان التعليم الابتدائي يقدم في الكتاتيب أما التعليم الثانوي والعالي فقد كان من مشمولات جامع الزيتونة بالعاصمة وبعض فروعها في المدن الداخلية مثل القيروان، صفاقس، توزر، وكانت الأغلبية الساحقة من التلاميذ تتوقف عند التعليم الابتدائي، وتوجد

¹-التيومومي الهادي:تونس والتحديث، المرجع السابق، ص 49

²-ريمغانمي:المرجع السابق، ص 46

أقلية فقط تواصل تعلمها في الجامعة الزيتونية وتتخرج عدولا أو قضاة أو مدرسين، وتتاح لبعضهم فرص الاتصال بالخارج وذلك عن طريق انخراطهم في هياكل الدولة أو عن طريق الأسفار أو الحج أو التجارة.¹

وكان لطرق التعليم أيضا ضلع في قلة الحاصلين على الدرجات العليا من الثقافة، إذ لم يكن قادرا على بلوغها إلا من لم يكن في حاجة إلى طلب الرزق أو ذو موهبة كبيرة وميل كبير إلى التعليم،² وفي هذا الصدد يخبرنا صاحب الاتحاف أن تعليمه والتفكير في مستقبله كان شغل لوالده الحاج بالضياف، فقد كان يزور الصالحين ويسألهم الدعاء لابنه بالقدرة على الحفظ، فيعرضون عليه أن يدعوا له بأن يكون محبا للعلم فيجيبهم " إن هذا الولد على غاية من ضعف البدن فإذا لم يعنه الله بالحفظ فلا قدرة له عليه".³

وكان الناس في هذا العصر يعتبرون النجاح في العلم ضربا من خوارق العادات فتحصيل العلم يتم أحيانا بتدخل ولي أو عالم صالح يمنح الطالب المعارف بسقيه بعض المشروبات أو إطعامه بعض المأكولات،⁴ وقد ذكر صاحب مسامرات الضريف أثناء ترجمته للشيخ إبراهيم الرياحي أن هذا الأخير أكل طعام الولي الصالح الشيخ "صالح بن طراد" المعروف بالجدب، ولما علم به قال له "إنها لك عطية من الله".⁵

أما عن مواد التعليم، فلا بد للطالب أن يحفظ القرآن الكريم بالتردد على الكتاب وهو في نفس الوقت يتعلم القراءة والكتابة وقليلًا من النحو والحساب، ويزيد النجباء منهم حفظ بعض المتون دون فهمها في غالب الأوقات، ومن يريد شرح المتون أو الارتقاء إلى منصب العدل القضاء والافتاء فعليه (أن يرتقي للمرحلة الثانية) التي تقام دروسها في جوامع المدن الكبرى أو جامع الزيتونة أو إحدى المدارس المتواجدة في الحاضرة.

¹-التيمومي الهادي:تونس والتحديث، المرجع السابق، ص 49

²-عبد السلام أحمد: المؤرخون التونسيون في القرون 17 و 18 و19، المرجع السابق، ص 83

³-أحمد بن أبي الضياف:المصدر السابق، ج8، ص 38

⁴-عبد السلام أحمد: المؤرخون التونسيون في القرون 17 و 18 و19، المرجع السابق، ص 83

⁵-السنوسي محمد:مسامرات الظريف، ج1،المصدر السابق، ص 252

وخلال هذه المرحلة يدرس الطالب كتب النحو والصرف والبلاغة والفقہ والكلام وأصول الدين وأصول الفقہ والمنطق والتفسير والحديث، لكن بحكم أن الأساتذة لا يكملون دروس هذه الكتب إما لضيق الوقت أو لقصور منهم كان لزاما على الطلبة أن يكملوها بمطالعتهم الخاصة.

وبما أن الفقہ يحتاجه الطالب في حياته العملية فقد كان مقدما على جميع العلوم الأخرى، أما علم الكلام والأصول فكان محدودا لخوف الأساتذة من تشويش أفكار الطلاب،¹ أما الأدب فلا يدرس منه إلا القصائد في مدح النبي(ص) مثل نهج البردة أو تنبيه الأنام لعظوم القيرواني.²

أما بخصوص التعليم وسائل وطرق التدريس في هذه المرحلة، ففي مرحلة الابتدائي يكون التدريس في الكتاتيب، ففي أول أيامه في الكتاب يحمل التلميذ الصغير بعض النقود إلى المؤدب ويعرف بنفسه فيعطى له لوح صغير في حجم الكف يطلّى "بالطفل"،³ وعندما يجف يسطر بقلم القصب الجاف دون غمسه في الصمق،⁴ أو الحبر.⁵

يكتب المؤدب على اللوح حروف الهجاء مقطعة بغير حبر فيلقنها للطفل ثم يكتب الطفل بيده فوق تلك الأوشام تبعا لها ثم يلقنه التهجي على حسب حركات الاعراب، ولما يتمرن على ذلك ويحفظ الحروف، أ، ب، ت، ث... الخ يبدأ له كتابة أم القران في ذلك اللوح، فيستمر على حفظها ثم يمحي له من اللوح ما حفظه وهكذا إلى أن يصير التلميذ يكتب ثمن ويحفظه، وإذا حفظ ربع القران يعطي له المؤدب لوحا مذهبيا، وإذا حفظ

¹- عبد السلام أحمد: المؤرخون التونسيون في القرون 17 و18 و19، المرجع السابق، ص 83-85

²- التيمومي الهادي: تونس والتحديث، المرجع السابق، ص 49

³- الطفل: هو طين أبيض اللون.

⁴- الصمق: يأخذ الصوف من إبطي الخروف أو من الفخذين (كعال)، ويكون جافا، بعد وضعه في الشمس يدق بحجر ثم يوضع في إناء من طين فوق النار ويغلى بحجر، بين الحين والآخر يحرك إلى أن يسود لونه يصب عليه الماء والملح، بعد ذلك يوضع في قوارير صغيرة مع إضافة القليل من الماء ويغلى بالصوف، عصامي سكينية، المرجع

السابق، ص 117

⁵- نفسه، ص ص 117-118

النصف يعطي له لوحا أكبر منه، وإذا ختم القران كله يذهب الطفل به إلى أبيه فينظرانه ثم يعلقه في أعز مكان عنده في داره مدة أيام ثم يرجعه إلى الكتاب.¹

أما المؤدب فيجلس وسط تلاميذه، وقد كانوا يميلون رؤوسهم وهم يرددون الآيات القرآنية، ويجعل المؤدب التلميذ الأكبر سنا يجلس متقدما على زملائه وفي نفس الوقت مؤتمنا على مجموعة الألواح والمحابر وأقلام القصب والعصي.²

أما المرحلة الثانية من التعليم وهو التعليم الثانوي أو العالي ويكون التدريس في جوامع ومدارس المدن الكبرى وجامع الزيتونة خاصة فجرت العادة بأن يجلس المدرس بعد أن يصلي ركعتين تحية المسجد، موسدا ظهره على إحدى إسطوانات الجامع داخل البيت ولا يتجاوز غيرها في الغالب حتى تشتهر تلك الاسطوانة به ويدور به التلامذة كالحلقة ويكون أمامه تلميذ موجه له يسمى مدونا، ثم يشرع الشيخ في قراءة الكتاب بعد قراءة البسملة والصلاة على النبي(ص)، فيبتدؤون أولا بذكر المتن ثم ينتقل إلى بيان عباراته وشرح معانيه، ولا يرفع الكراسية بيده لينظرها إلا عند إتمام الدرس فيسرد جميع ما قرره المدرس هو أو أحد تلاميذه وتكون حصة الدرس الواحد ساعة ونصف، ومدة القراءة اليوم كله إلا أوقات الصلاة.

أما بخصوص تعيين المؤدب فقد كانت تتم خلال هذه المرحلة بطريقة تقليدية لا تخضع لأي مقاييس أو شروط.

فيختار المؤدب من أفراد المسلمين الثقة الحافظين لكتاب الله، عالمين بحسن تأديب الأطفال، مؤتمنين وليس لهم رتب خاص من الدولة، بل أولياء الأطفال يدفع كل واحد عن ابنه مرتبا شهريا يتراوح بين 3 و10 فرنكات وفي مناسبة المولد النبوي الشريف يأخذ المؤدب ثلاثة فرنكات من حبس خاص بهم.³

أما مرحلة التعليم الثانوي والعالي فيبدو حسب الظاهر، لا يمنع الراغب في التدريس من أن يلقي دروس في جامع الزيتونة أو غيرها من المساجد في تونس، وبهذه الطريقة

1- الحشائشي محمد بن عثمان، المصدر السابق، ص 54

2- قاسم أحمد: المرجع السابق، ص 145

3- الحشائشي محمد بن عثمان: المصدر السابق، ص ص 54-56

يمكن للقادرين على التدريس أن يشتهروا بالعلم بين الناس وأن يلفتوا نظر الباي، فيقره مدرسا في ذلك الجامع أو تلك المدرسة ويسند إليه درسا ويعين له مرتبا أو نصيبا من ربع وقف من الأوقاف.

ومن بين هؤلاء المدرسين يعين الباي شيوخا للمدارس القرآنية فيتكلفون بإدارتها وبالتعليم فيها وبالمقابل يتمتعون بجريات معتبرة، لهذا اختصت بعض الأسر ببعض المدارس وتوارثت المشيخة عليها.

إن ما يميز التعليم في هذه المرحلة أيضا المحافظة والتقليد اللذان كانا يخيما على التعليم وعلى العقول التي يكونها ذلك التعليم، ويضيف الأستاذ أحمد عبد السلام وصفين آخرين يميزان التعليم في هذه المرحلة وهما خلوه من العمق والشمول.¹

المرحلة الثانية (1842م-1881م):

لقد عرفت هذه المرحلة تغيرات جذرية شملت التعليم والمؤسسات التعليمية من كتاتيب وجوامع ومساجد ومدارس.

فبخصوص الكتاتيب فبالرغم من اندثار التعليم داخل الكتاتيب في عدد من مناطق البلاد خاصة منذ منتصف القرن 19م، إلا بعض المناطق كمنطقة الجريد بقيت محافظة على هذا التعليم،² وعلى الرغم من تقلص عدد المدرسين وطلبة العلم به نتيجة تأزم الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، أصبح بالمقابل يأخذ التعليم التقليدي شكلا جديا ورسميا، عما كان عليه من قبل إذ يجب على المدرس أن يكون حاصلا على درجة التطويغ من الجامع الأعظم، وهذا مما أدى تحسين المستوى التعليمي والمعرفي للمدرسين والمؤدبين، فلم يعد المؤدب مجرد حافظ للقران الكريم يقوم بتعليمه وتحفيظه للتلاميذ معتمدا على طريقة أسلافه فبحصوله على شهادات وإجازات من الجامع الأعظم أصبح المؤدب قادرا على تدريس جميع العلوم، وبذلك تنوعت العلوم، ولم تعد مقتصرة على حفظ وتلقين القران.³

¹- عبد السلام أحمد: المؤرخون التونسيون في القرون 17 و18 و19، المرجع السابق، ص 85-92

²- Ben Achour Mohamed El Aziz: Notes et Chiffres, p80

³- عصامي سكيبة: المرجع السابق، ص 127-128

ان اهتمام الوزير خير الدين بالكتاتيب ومحاولة النهضة بها وإصلاح الفاسد منها جعل التعليم ينتقل من الكتاتيب إلى المدارس القرآنية العصرية.

وفي هذا الصدد يذكر فرانسوا لوفرو أن عدد الكتاب في أواخر القرن التاسع عشر بلغ حوالي 108 كتاتيب (مدارس قرآنية) في العاصمة وحدها يدرس بها حوالي 2400 تلميذ، أما باقي المناطق فيوجد بها 850 من الكتاتيب يدرس بها حوالي 15000 تلميذا وكانت أحسن المؤسسات التعليمية توجد بالحاضرة وعلى رأسها جامع الزيتونة، حيث بلغ عدد طلبته سنة 1897م، حوالي 930 طالبا.¹ فما الدور التعليمي الذي لعبه جامع الزيتونة خلال هذه الفترة؟ وما هي أبرز الاصلاحات والترتيبات التي أدخلت عليه؟

جامع الزيتونة ودوره التعليمي:

يعتبر جامع الزيتونة بتونس من أقدم المعاهد العربية، فهو يضاهاي الأزهر وجامع القرويين بشمال إفريقيا، وقد اختلفت الروايات حول تأسيسه فابن خلدون يعتقد أن عبد الله بن الحبحاب هو الذي اختطه لما كان واليا على إفريقيا،² كما يؤيد هذه الفكرة ابن الأثير حيث يقول "ابن عبد الله بن الحبحاب دخل افريقية في سنة 735م".³

وقد سمي بجامع الزيتونة لاشتهار البلاد التونسية بزياتينها فتبرك الناس بتسمية مسجدهم بمسجد الزيتونة، ويبدو أن هذا الرأي هو الأقرب للصواب.⁴

لقد أسس جامع الزيتونة في البداية على أن يكون محل عبادة ومكان لتعارف المسلمين والتفافهم حول بعضهم، ليصبح مع مرور الزمن مورد العلوم ومحط رجال العلم، إذ أخذ اسمه يتردد أكثر مما كان على الألسنة والأذان، فأصبح محلا تلقى فيه الدروس العلمية على اختلاف أنواعها، ولا يعلم بالضبط تاريخ جعله محلا للتعليم ولا

¹ -محمد بوطيبي: التعليم في جامع الزيتونة خلال النصف الأول من القرن العشرين (دراسة في المنهج والبرامج)،

المجلة المغاربية للمخطوطات، العدد 5، جوان 2017، ص 195

² -عبد الرحمان بن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان

الأكبر، مج 03، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1968، ص 404

³ -ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مج 5، دار الكتاب العربي، بيروت، 1965، ص 185

⁴ -السنوسي محمد بن عثمان: مسامرات الظريف، المصدر السابق، ج3، ص 478

التاريخ لتنظيم التعليم فيه، لأن تلك الدروس لم تكن في أولها نظامية،¹ لذا اخذت تنتظم شيئاً فشيئاً إلى بداية الدولة الحفصية (1206م/1573م)، (603ه/931ه) حيث ازدهر العلم بجامع الزيتونة وكان من أبرز أعلامه الشيخ ابن عبد السلام وابن عرفة وابن خلدون والابن البرزلي، ومن جهة أخرى أخذ التعليم بجامع الزيتونة يأخذ الصفة النظامية.² ونظرا لمكانة جامع الزيتونة العلمية والدينية، فقد كان هدفا لهجومات الاسبان، فأحرقوه، ورموا بكتبه في الأسواق تدوسها خيولهم بسنابكها.

أما بداية العهد التركي فلم تسجل المصادر عناية أولاها الدايات أو البايات نحو الجامع ولا سعوا في إحياء معالمه، ولا ترتيب دروسه، ولعل سبب ذلك ارتباطه بالمذهب المالكي، وعلى الرغم من الانحلال الذي أصابه أيام الفتن فإنه بدأ يسترجع قواه، فرتب به العلماء دروسهم، وانتخب الامراء من علمائه شيوخا للمدارس التي أحدثوها.³ من خلال قول حسين خوجة نستنتج أن جامع الزيتونة عرف شيء من الفطور خلال الفترة الأولى من العهد التركي أي من سنة (1574م-1631م) وفي عهد المراديين استرجع عافيته من جديد.

أما خلال العهد الحسيني فقد عرف جامع الزيتونة اهتماما كبيرا من قبل البايات الخمسة الأوائل وذلك عبر عدة ترتيبات اتخذوها من أجل تنظيم التعليم في الجامع المعمور.

لكن التنظيم الفعلي للتعليم بجامع الزيتونة جاء في فترة المشير أحمد باي (1837م-1855م) وكان ذلك سنة 1842م عندما أصدر ذلك القانون الذي سمي بالترتيب الأحمدية الذي علق على باب الشفاء بجامع الزيتونة وهو الذي أقر تنظيما محكما مع مراقبة مستمرة للتعليم الزيتوني كان ذلك في 27 رمضان 1258ه الموافق ل02 ديسمبر 1842م، فما هو فحوى هذا القانون؟

¹-بن الخوجة محمد:المصدر السابق، ص 288

²-محمد المختار بن محمود:جامع الزيتونة، المجلة التونسية،مج2، ج2، 1356ه/1977م، ص 52

³-حسين خوجة:المصدر السابق، ص 46

سؤال تجيب عنه المراجع التي تورء لنا هذا القانون، وسنعمء على رواية ابن أبي الضياف أقرب الناس إلى صاحب هذا القانون يقول صاحب الاتحاف " وفي رمضان من السنة 1258هـ، (27 رمضان-1 ديسمبر 1842م)¹.

رتب الباي ثلاثين مدرساً بجامع الزيتونة، نصفهم من المالكية ونصفهم من الحنفية، وحبس عليهم ءءل بيت المال، وهو إرث من لا عاصب له، وكتب ذلك في منشور بالذهب وءتمه بطابعه، وعلقه عند باب الشفاء من جامع الزيتونة، وأمرني بالإطئاب فيه" ثم يورء النص ومضمونه أن ينتخب خمسة عشر مدرساً مالكية وخمسة عشر حنفياً، ومرتب كل واحد منهما ريالين لكل يوم وتكمن مهمتهما في إقراء درسين في الجامع، وقلء النظر لشيخي الاسلام الحنفي والمالكي، ولكل منهما مرتب يقءر بمائة ريال في كل شهر مع مساعءين لكل منهما، ويقءر مرتب كل منهما بثلاث ريالاء في اليوم، وقلء وكل لهؤلاء الأربعة حفظ بيت المال ويقومون كل ستة أشهر بتسطير المحاسبة التي ترفع إلى الباي ليقوم بإمضائها،² والسؤال المطروح لماذا أصدر الباي هذا القانون؟

في نظرنا أن الءءل المءءوء الذي يتحصل عليه بعض مشايخ المدارس الاسلامية وجامع الزيتونة جعل بعضهم يمارس مهنة أخرى موازية في ميدان التجارة أو القضاء أو الاشتغال ببعض الصناعات كصناعة الشاشية مثلاً، فهذه الحالة الاجتماعية السيئة التي كان يتخبط فيها هؤلاء المشايخ جعلت الباي يفكر في طريقة لحل هذا المشكل.

فهذا القانون الذي أصدره الباي يعتبر فريد من نوعه إذ يهءف إلى تنظيم عملية التعليم في جامع الزيتونة وكذا إلى تثبيت الشيوخ وتحسين حالتهم الاجتماعية.

وفي عهد محمد الصاءق باي (1859م-1882م) أقر الاءراءات المءتممة للأءء بعين الاءءبار ما جاء في المعلقة الأءمءية بإشارة من بعض رجال دولته،³ وفي عهءه تم انءخاب خير الءين للوزارة الكبرى حيث قام بتنظيم التعليم الزيتوني عندما أصدر الأمر

¹-بينما يؤكد الأستاذ الحبيب الجءحاني أن المنشور في ءرة نوفمبر 1842م، وليس في ءرة ديسمبر كما ذكرته لجنة

ءءقيق كتاب الاتحاف عندما قابلت التاريخ القمري بالشمسي، ينظر: الحبيب الجءحاني، المصدر السابق، ص 126

²-ابن ابي الضيافأءمء:المصدر السابق، ج4، ص ص 65-67

³-محمد الخضر حسين:تونس وجامع الزيتونة، جمع وءء: على الرضا، الءار التونسية، تونس، 1971، ص ص 28-29

المؤرخ في 27 جانفي 1876م الذي أعطى دفعا جديدا للتعليم الديني والقانوني والأدبي الملقن بالجامعة الزيتونية، لكن الأمر بقي حبرا على ورق بخصوص تدريس العلوم العصرية التي أراد خير الدين إقحامها في برنامج التعليم الزيتوني وذلك بسبب معارضة بعض كبار الشيوخ الذين كانوا يرون فيها ضربا من ضروب الرجس أو البدعة.¹

أما بخصوص البرامج والمناهج الدراسية فقد صدر قرار 25 ديسمبر 1875م/ 27 ذو القعدة 1292هـ، الذي ضبط برامج الدروس بجامع الزيتونة ونظامها²، ثم نشرته جريدة الرائد التونسي في العدد الصادر يوم 23 فيفري 1876م،³ حيث ينقسم التعليم، بجامعة الزيتونة لفرعين كبيرين، علوم الشريعة، العلوم الوضعية، أما العلوم الشرعية فهي تفسير القرآن، القراءات، الحديث، التوحيد، الفقه، الفرائض. وغير ذلك، أما العلوم الوضعية فهي كالتالي: اللغة، المعاني، البيان، الأدب، الشعر، المنطق، التاريخ، الجغرافيا، الحساب، المساحة، وكل واحد من هذين التعليمين يجري في ثلاثة درجات الابتدائية وتزاول بفرعي الجامع، وتمكن مزاوتها الحصول على شهادة تسمى التحصيل،⁴ والتعليم العالي ينتهي مزاوته بالحصول على شهادة تسمى العالمية، وكل هذه الشهادات تمنح لأصحابها بالامتحان العمومي الكتابي والشفاهي.

والطلبة الحاصلون على شهادة العالمية لهم الحق في تقلد الوظائف العامة.⁵

ويقول الدكتور أحمد عبد السلام علقا على هذا القرار

" إن هذا القرار جدد في الطريقة أكثر من تجديده في الجوهر فقد أعطيت الأولوية لأربع مواد لم يكن لها نصيب في البرامج القديمة كعلم اللغة والأدب علم السير والتاريخ وعلم الحساب والهندسة..."

¹-خير الدين شطرة:المرجع السابق، ج1، ص 707

²-عبد السلامأحمد: المؤرخون التونسيون، المرجع السابق، ص 133

³-محمد بوطيبي:المرجع السابق، ص 197

⁴-شهادة التحصيل: وهي شهادة زيتونية بدأ العمل بها سنة 1874، وكان يطلق عليها اسم " التطويغ"، يتحصل عليها الطالب بعد قضاء مدة 07 سنوات المعدة في الدراسة يختمها باجتياز امتحان. ينظر: محمد الطاهر بن عاشور،

المرجع السابق، ص 87

⁵-بن الخوجة محمد:المصدر السابق، ص ص 292-293.

ولم تأت هذه الاصلاحات بطرق جديدة وإنما التزمت بتسطير نظريات عامة كانت معروفة ومطبقة من طرف الاساتذة الذين كانوا معتادين بالدروس.¹ لعل أهم ما في هذا القرار هو مراقبة أكثر جدية للتعليم بدون أن يحدد جوهر هذا التعليم، وأدخل تجديدًا في الشكل دون المضمون، فهو يستمد روحه من المعلقة التي أصدرها أحمد باي.

وعلى الرغم من كل هذه الاصلاحات التي قام بها العديد من المفكرين المصلحين أمثال خير الدين التونسي فقد ظل هذا النوع من التعليم تعليمًا تقليديًا في مناهجه وموارده مما أدى إلى ظهور نوع جديد من التعليم وهو التعليم العصري.

التعليم العصري:

تفطنت النخبة الاصلاحية إلى أن ما حققه الغرب من تقدم وتطور في جميع المجالات كان يفضل ما اكتسبه من العلوم العصرية والمستحدثات والتي تفتقر لها البلدان العربية الاسلامية، فدعوا إلى إنشاء مؤسسات علمية عصرية تدرس فيها العلوم الحديثة واللغات الأجنبية إلى جانب العلوم الشرعية،² ومن ضمن المؤسسات التي وقع إحداثها نذكر المدرسة الحربية بباردو التي أنشأها المشير أحمد باي سنة 1840م، وكذا المدرسة الصادقية التي أنشأها خير الدين سنة 1857م.

تعليم المرأة من خلال رسالة في المرأة لابن أبي الضياف:

تذكر أغلب المراجع التي إطلعنا عليها عدم تعليم المرأة خلال العهد الحسيني (الفترة المدروسة) ومن ذلك ما جاء في مقال الاستاذة عصامي سكينه أن العادة في منطقة الجديد أن يذهب الصغار من الذكور إلى الكتاب، أما الفتيات فلاحق لهن في التعليم إذ تقع تعليمهن لقنا بحفظ بعض السور القرآنية اللازمة للقيام بفريضة الصلاة، ولا تتعلمن الكتابة لأن أهالي الجريد كانوا يعتقدون كما كان سائدًا في كامل الايالة بأن التعليم يفسد الوعي الديني والروحي عند البنات.³

¹- عبد السلام أحمد: المرجع السابق، ص 133.

²- ريم غانمي: المرجع السابق، ص ص 48-49.

³- عصامي سكينه: المرجع السابق، ص 117

كما يذكر الاستاذ مناعي عبد الكريم في مقاله التونسيون وتعليم المرأة (1881م-1956م) أن تعليم البنت خاصة القراءة والكتابة يفسدها ويسهل لها مراسلة عشاقها ومطالعة كتب الغراميات التي تؤثر فيها.¹

وفي هذا الصدد أيضا يقف المؤرخ ابن أبي الضياف موقفا واضحا وصريحا عندما أجاب عن الرسالة التي وجهها له أحد الاعيان الفرنسيين وتتضمن 23 سؤالاً تحوم كلها حول وضع المرأة المسلمة في القرن 19م،² من ضمنها السؤال رقم 02 منعهم المرأة من تعلم العلوم فقد أجاب مما ملخصه " تتعلم ما يلزمها من ضرورة دينها من توحيد وقيام وصلاة وحقوق زوجها واجتناب الفواحش، ولا فائدة لها في تعلم ما زاد عن ذلك" ويضيف أيضا " ...أن المسلمين يعلمون بناتهم ما يلزم علمه من ضروريات الدين والخياطة والطرز والنسيج ومصالح البيت وتدبير شؤونه...".
ويبدو أن هناك من يعلم بناته الكتابة وهذا من خلال رد ابن أبي الضياف إذ يقول "... ويوجد من يعلم بناته الكتابة لكنه قليل والحكم للغالب...".³

ثالثا: جهود البايات الحسينيين في الاهتمام بالعلم والعلماء

لما انتقلت السلطة إلى البايات الحسينيين سنة 1705م استمروا على نهج المراديين في الاهتمام بالعلم وبرجاله ومؤسساته رغم الاضطرابات السياسية التي عرفتها الفترة الأولى من دولتهم فإلى ما يعود اهتمامهم بالحركة العلمية؟
يعود الفضل في نظرنا إلى البايع المؤسس حسين بن علي الذي كانت ثقافته دينية وهذا ما يؤكد المؤرخ حسين خوجة حيث يقول " بنى في بيت مسكنه مسجدا مختصا

¹-مناعي عبد الكريم:المرجع السابق، ص 235

²-المنصف الشنوفي:رسالة أحمد بن أبي الضياف في المرأة (مخطوط)، حوليات الجامعة التونسية، العدد 05، السنة 1968، ص ص 52-54

³- المنصف الشنوفي: المرجع السابق، ص ص 70-71

للصلوات الخمس بالجماعة... وما من منزل من منازل استراحتته حيث سفره وديار إقامته إلا بنى به مسجدا في بيت سكناه".¹

لقد أنشأ حسين بن علي العديد من المساجد والمدارس، وقد تحدثنا عن هذه المدارس في الفصل السابق، وقد ذكر صاحب "ذيل بشائر أهل الايمان" كل ما أنشأه أو جدهه أو رممه من مساجد ومدارس وزوايا بالقيروان و صفاقس و نطفة و سوسة و قفصة و توزر و باجة و قابس بالإضافة إلى اهتمامه بمدرسيها وأوقافها،² وعلى سبيل المثال أنشأ مدرسة بصفاقس عام 1714م يقول عنها محمود مقديش "مدرسته المشهورة بالنسبة إليه في صفاقس"،³ ورتب بها شيخا للتدريس وإماما ومعلما يعلم أولاد المسلمين القرآن العظيم ورتب لهم رتبات حسب أقدارهم، كما أنشأ مدرسة بنطفة سماها باسم القطب عبد القادر الجيلاني.⁴

كما يشهد له باعتنائه بالمدارس والمساجد التي أنشأها قبله المراديون ومنها المدرسة التي أنشأها مراد باي بجزيرة جربة للعلامة إبراهيم الجمني سنة 1675م/1085ه⁵ وهذا العمل يدل على بعد نظره وحسن تدبيره.

نجمع المصادر المحلية أن الباي حسين بن علي كان محبا للأولياء والعلماء،⁶ ومولعا بزيارة الصالحين وأهل الريحان والتردد على زيارتهم، لذا كان يساعدهم عنويا وماديا خاصة أثناء المناسبات الدينية،⁷ كما أحيأ سنة قديمة اتبعها من قبله الحفصيون ومن بعدهم حمودة باشا المرادي وهي اجتماعه في سمره بالعلماء الذين كانوا يقرؤون الكتب الدينية و يبحثون بحضرته مسائل فقهية وقد حافظ على هذه السنة من جاء بعده.⁸

¹-حسين خوجة:المصدر السابق، ص 155

²-نفسه، ص ص 214-216.

³-مقديش محمود:المصدر السابق، ج2، ص 157

⁴-حسين خوجة:المصدر السابق، ص124

⁵-مقديش محمود:المصدر السابق، ج2، ص 440

⁶-نفسه، ج2، ص 156

⁷-حسين خوجة:المصدر السابق، ص ص 155-156

⁸-الصغير بن يوسف:المصدر السابق، ج1، ص 37

وقد كان يحسن إلى كبار العلماء والمدرسين ومنهم المتصرف الشيخ أحمد الريغي الذي يدرس بمدينة سوسة وقد كانت جميع حوائجه مقضية عند حضرة الأمير حسين باي، وكذلك فعل مع حفيده الفقيه محمد الريغي والشيخ علي بن موسى الأزهري الاندلسي.¹ وقد كانت عنايته الكبرى بجامع الزيتونة حيث رتب به عددا من المشايخ المدرسين وخصص لهم جرايات منتظمة، وعندما أصبحت الأوقاف الموقفة على الجامع لا تكفي النفقات أضاف إليها ما يجمع من جزية أهل الذمة وقسما من غنائم سفنه من البحر.² أما علي باشا فقد قال عنه محمود مقديش بأنه " كان فاضلا عالما مطلعاً على الاحكام الشرعية والعادية... وله توغل في العلوم العربية فشرح تسهيل ابن مالك بشرح عظيم الشأن، فقبله علماء المشرق والمغرب وأقروا له بالفضل"،³ وقد أولى عناية كبيرة ببناء المدارس حيث أنشأ أربعة مدارس في مدينة تونس لوحدها وقد تحدثنا عنها سابقاً، وقد أوقف عليها أوقافاً من الريع والعقار وجعلها جرايات للشيوخ والتلامذة. لقد كان علي باشا مغرماً يجمع المخطوطات حيث أرسل يطلبها من فاس وإسطنبول، فجلب نسخة من تاريخ ابن خلدون من فاس، وقد كان ولوعاً بالنحو واللغة وبهذا كان أكثر البايات اطلاعاً على العلوم وشؤون الثقافة وكان يميل إلى العلماء الأوسع اطلاعاً والأكثر دراية مثل الفقيه محمد سعادة.⁴

أما محمد باي (1756م-1759م) فقد كان معدوداً في علماء وأدباء عصره، معروفاً بالإجادة في نثره وشعره يقول عنه صاحب الخلاصة النقية " وكان هذا الأمير من صدور الأدباء وفحول الشعراء وسمحاء الملوك، ونظمه مدون مشهور"،⁵ كان محباً للعلم والعلماء ويميل إلى مجالستهم حيث كان يستدعي أهل المجلس الشرعي وغيرهم من العلماء

¹-حسين خوجة: المصدر السابق، ص ص 135-144

²-نفسه، ص 109

³-مقديش محمود: المصدر السابق، ج2، ص 162

⁴-الصغير بن يوسف: المشرع الملكي في سلطنة أولاد علي التركي، تق وتحت: أحمد الطويلي، ج3، المطبعة العصرية،

تونس، 2009، ص ص 49-50

⁵-محمد الباجي المسعودي: المصدر السابق، ص 254

للضيافة في بساتينه بمنوبة،¹ ونظرا لقصر مدة حكمه فلم تذكر المصادر أي أثر في انشاء المدارس أو المساجد.

وفي عهد علي باي (1759م-1782م) عرفت الحياة العلمية بتونس ازدهارا كبيرا فجدد العديد من الزوايا والمساجد والمدارس،² وأبرز انجازاته العلمية بنائه المدرسة الحسينية الكبرى التي ذكرناها سابقا وقد أشاد بها كاتبه حمودة بن عبد العزيز بقوله " من أحسن المدارس وأبدعها" كما عرف باهتمامه بتدريس القرآن الكريم لهذا اهتم بالكتاتيب فجدد الكتاب الملاصق لتربته، وعين به مؤدبا وعشرين صبيا يعلمهم كتاب الله،³ وأنشأ أيضا كتاب بجانب جامع والده خصصه لحفظ وتجويد القرآن الكريم،⁴ وكمثل أسلافه كان يقرب العلماء إليه ويجتمع بهم وفي هذا الصدد يقول كاتبه " واعتنى بالمذاكرة والتدريس بمجلسه العالي، فلم يغفل أوقاته من ذلك مع تحمله بأعباء السلطنة".⁵

كان محبا للعلم والعلماء وللصالح وأهله حسب تعبير مقديش،⁶ وكان يعظم أهل العلم ويجلهم ويظهر لهم أكبر الاحترام.

ويقضي حوائجهم،⁷ وكان يهتم بالأدب والأدباء مما أدى إلى انتعاش الحركة الأدبية في عهده وقد عبر محمد السنوسي عن ذلك بقوله " أقام في دولته سوق العلوم والأدب"⁸ وفي الكتاب الباشي نجد الاجراءات العديدة التي اتخذها علي باي لفائدة التعليم في جامع الزيتونة وقد انتفع بهذه الاجراءات كل من المشايخ والطلبة في جميع مناطق الايالة.⁹

¹-محمد بن عثمان السنوسي:المصدر السابق، ج1، ص 109

²-نفسه، ص 116

³-حمودة بن عبد العزيز:المصدر السابق، ج1، ص ص 299-302

⁴-محمد بن عثمان السنوسي:المصدر السابق، ج1، ص 115

⁵-حمودة بن عبد العزيز:المصدر السابق، ج1، ص 190

⁶-مقديش محمود:المصدر السابق، ج1، ص 167

⁷-حمودة بن عبد العزيز:المصدر السابق، ج1، ص 190

⁸-السنوسي محمد بن عثمان:المصدر السابق، ج1، ص 116

⁹-حمودة بن عبد العزيز:المصدر السابق، ج المخطوط، ص 536-538

يؤكد الباحث أحمد عبد السلام أن ما بذله البايات الذين حكموا تونس أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع لفائدة التعليم وأهله كان دون ما بذله أسلافهم الأقربون،¹ فحمودة باشا رغم طول مدة حكمه وشهرته إلا أن المصادر لم تتطرق لانجازاته في المجال العلمي، فلم تذكر أيا منها تأسيسه لمدارس أو ولاية تدابير مهمة لصالح التعليم،² وفي هذا الصدد يذكر رشاد الامام أنه ليس هناك ما يدل على أن حمودة باشا قد بنى مدارس جديدة أو استحدثت أي اصلاح جديد في هذا المجال،³ لكنه يبدو أنه اعتمد في هذا المجال على وزيره الشهير يوسف صاحب الطابع وهذا ما تدل عليه وثائق محفوظة في خزانة الدولة التونسية العامة.

أما محمود باي (1815م-1824م) وأبناءه اللذان خلفاه حسين باي (1824م-1835م) ومصطفى باي (1835م-1837م) فلم يذكر لهما في ميدان انشاء المباني لفائدة التعليم والدين إلا الزاوية التي بناها حسين باي في ريبض باب الجزيرة وجعلها مقاما للولي سيدي البشير الزواوي الذي كان يعتقده عساكر زواوة.⁴

وفي عهد أحمد باي عرف التعليم تطورات كبيرة وظهر ما عرف بالتعليم العصري، حيث تولى أحمد باي سنة 1838م إعادة تأهيل المكتب الحربي الذي أسسه حسين باي ووسعه وطوره وحوله إلى مدرسة عسكرية تعمل على تخريج كبار إطارات الجيش والادارة تدرس علم الحرب والهندسة والحساب والدين واللغات الأجنبية،⁵ وأعطى الباي عناية كبيرة لهذا المعهد العسكري يقول عنه ابن ابي الضياف "كان يزوره ومعه خواصه ويسأل التلاميذ بحضرتة، ويثني على النجيب منهم، ويمنيه بما يؤول إليه حاله ويرغبهم في اكتساب المعارف... وينفرهم من معرفة الجهل..."⁶

¹- عبد السلام أحمد: المؤرخون التونسيون في القرون 17 و18 و19، المرجع السابق، ص 75

²- فوزية لدغم: بيات الأسرة الحسينية بتونس، تكوينهم العلمي وأثرهم في الحركة العلمية (1705-1814م) (1117-1229ه) مج3، العدد 2، سبتمبر 2020، مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية، ص 231.

³- رشاد الامام: سياسة حمودة باشا في تونس، المرجع السابق، ص 353.

⁴- عبد السلام أحمد: المؤرخون التونسيون في القرون 17 و18 و19، المرجع السابق، ص 76-77.

⁵- التيمومي الهادي: تونس والتحديث، ص 82

⁶- ابن ابي الضياف أحمد: المصدر السابق، ج4، ص 37.

كما اعتنى أحمد باي كذلك بالتعليم الزيتوني ففرض عليه مراقبة الدولة وسوى يوم 21 فيفري 1840م في الأجور بين المدرسين الحنفيين والمدرسين المالكيين،¹ وفي سنة 1842م أصدر المرسوم الذي سمي بالمعلقة نظم به التعليم بالجامع المعمور.² لم يخل عصر محمد باي (1855م-1859م) من بعض الاهتمامات العلمية حيث أدخل الطباعة بالحروف³ وشرع في سن قوانين تخص الجانب التعليمي لكن أجله كان أسرع حيث وافته المنية،⁴ وخلفه المشير محمد الصادق باي الذي أصدر عدة قرارات تخص التعليم بإيحاء من خير الدين أو عن طريق خير الدين مباشرة كقرار 06 ذي القعدة 1287هـ/1871م الموافق ل 27 جانفي الذي كون بموجبه لجنة عهد إليها بتفقد جامع الزيتونة تضم حمد العزيز بوعتور والجنرال حسين وابن ابي الضياف ومحمد البكوش مدير الشؤون الخارجية وفي نوفمبر 1874م عين الجنرال حسين مستشارا للتعليم واتخذ هذا الأخير قرارات هامة لفائدة التعليم نحت الحكومة على اثرها إعانة للكتاتيب، فازداد عددها بالعاصمة وفي المدن الساحلية. ثم جاء قرار 27 ذي القعدة 1292هـ الموافق ل 25 ديسمبر 1875م الذي نظم بالتفصيل سير الدروس بجامع الزيتونة. وفي عهد الباي محمد الصادق أيضا أنشأ خير الدين مدرسة الصادقية سنة 1874م لتكون منارة للتعليم العصري في تلك الفترة.⁵

¹-التيومومي الهادي: تونس والتحديث، ص 84

²-محمد المختار بن محمود: جامع الزيتونة من أقدم الكليات العلمية في العالم، المجلة الزيتونية، العدد 57، مج2، ج2، 1386/1937م، ص 04

³-زاهية قدورة: تاريخ العرب الحديث، دار النهضة العربية بيروت، لبنان، 1985، ص 459

⁴-محمد فاضل بن عاشور: المرجع السابق، ص 43

⁵-عبد السلام أحمد: المؤرخون التونسيون في القرون 17 و18 و19، المرجع السابق، ص 130-134

الفصل الثالث

العلوم والثقافة بتونس اڪسينية

أولا: نظرة عامة حول الإنتاج الفكري بتونس اڪسينية

ثانيا: واقع الثقافة بتونس اڪسينية

ثالثا: النهضة الإصلاحية بتونس وتداعياتها على السلطة والمجتمع

رابعا: أصناف العلوم المتداولة وأبرز أعلامها

أولاً: نظرة عامة حول الإنتاج الفكري بتونس الحسينية

يسود عند أغلب الباحثين المختصين في التاريخ العربي أو الاسلامي أن الفترة الحديثة أو زمن الدولة العثمانية هي عهد الانحطاط الفكري والجمود المعرفي، وقد سار مؤرخو تاريخ المغرب في نفس الاتجاه فتحدث بروفنسال عن التحجر الفكري وغياب الابداع المعرفي في المغرب الأقصى وغلب الدكتور أبو القاسم سعد الله صفة التكرار والتقليد على الانتاج الفكري الجزائري، وانخرط أحمد عبد السلام في هذا التوجه عندما حكم على الوسط الثقافي بإيالة تونس بالعمق الفكري وبرر ذلك بالتقاعس في انتاج المعرفة وأن ما ترك من إنتاج لا يعبر إلا عن الاجترار والركود الحضاري.¹

وقد ظهرت في المدة الاخيرة باحثة تونسية حاولت تنفيذ هذه الاحكام ضمن أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث مقدمة للجامعة التونسية سنة 2017 وقد كشفت الباحثة خلال هذه الدراسة أن هناك صراعات غير التي عرفتها الايالة في تونس خلال الفترة الحديثة وتمثل هذه الصراعات في السجلات والمحاورات بين علماء الإيالة وخاصة خلال القرن 17م فتحدثت الباحثة عن العالم أحمد بن عبد العزيز الاندلسي الحنفي الذي عاش ودرس وألف في تونس في القرن 17م.

وقد أكدت الباحثة في أطروحتها أن البلاد التونسية شهدت سجلات فقهية وعقائدية عنيفة مرتبطة أحيانا بحياة فكرية وتفاعل متواصل بين علمائها. كما دعت المؤرخين والباحثين إلى ضرورة تجديد الكتابة التاريخية والتي بدورها تستدعي إلى استعمال المادة الفكرية غير الاخبارية كمادة مصدرية ورفض الغبار عن القضايا التي أهملتها كتب التاريخ الموهلة في دروب السياسة والحروب، كما دعت إلى رفض الصورة القائمة والمتجمدة للمجتمعات المغاربية.

¹ -سماح بوزراعة: الانتاج الفكري بتونس العثمانية، دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة تونسالأولى،

ثانيا: واقع الثقافة بتونس الحسينية

تصور لنا المصادر التاريخية المحلية التونسية الحياة الثقافية في الفترة المعاصرة لها، وهي مؤلفات متنوعة المشارب والأهداف فالأحداث التي وقعت بداية القرن 18م لم تغير الوسط الثقافي فجأة لكن يبدو أن بداية القرن 19م واحتلال الجزائر سنة 1830م كانا لهما الأثر الكبير على المجتمع التونسي وخاصة المثقفين والمتعلمين منهم، وحتى هؤلاء لم يتأثروا بهما إلا بعد مدة زمنية طويلة، ومن هذا المنطلق يمكن القول أن الثلث الأول من القرن 19م هو صلة طبيعة للقرن 18م من الناحية الثقافية خاصة.¹

يؤكد المؤرخون التونسيون المعاصرون أن تونس شهدت حركة علمية وأدبية نشطة منذ قدوم الأسرة الحسينية للسلطة.² في حين نجد البعض الآخر يؤكد على محدودية الثقافة في تلك الفترة ويذكر أن انتعاش الثقافة والعلوم بدأ مع ظهور النهضة الإصلاحية التي عرفتها البلاد في منتصف القرن 19م.³

ومهما يكن من أمر فإن القرن الثامن عشر شهد ظهور العديد من المؤلفات العلمية والأدبية والتاريخية كما تميز بكثرة العلماء الذين تولوا التدريس في المدارس العلمية التي بناها البايات الحسينيون وخاصة الأربعة الأوائل منهم هذا بالإضافة إلى اعتنائهم المتزايد بجامع الزيتونة والمراكز العلمية المتواجدة عبر القطر التونسي.

واقع الثقافة بتونس الحسينية (1705م-1831م):

ففي عهد حسين بن علي مؤسس الدولة الحسينية تمتع التونسيون بعشرين سنة من السلم داخل الأيالة وخارجها ورغم الاضطرابات السياسية التي تلتها فقد حافظ الحسينيون على سياستهم الثقافية وهذا من خلال انشاءهم للعديد من المدارس التعليمية وترميم البعض الآخر.⁴

¹-عبد السلامأحمد: المؤرخون التونسيون في القرون 17 و18 و19، المرجع السابق، ص 65.

²-من بين هؤلاء المؤرخين نذكر أحمد الطويلي، حسن حسني عبد الوهاب، محمد الهادي العامري، المختار باي وغيرهم.

³-نذكر منهم الهادي التيمومي:توفيق البشروش، خوالدية الضاوي، عبد السلام أحمد وغيرهم.

⁴-عبد السلامأحمد: المؤرخون التونسيون، المرجع السابق، ص 66

وفي هذا الصدد يعلمنا الصغير بن يوسف في مؤلفه المشرع الملكي أن حسين بن علي كان ولوعا بجمع الكتب من كل فن وأنه كوّن مكتبة كبيرة، وكان له نساخونا ينسخون له الكتب،¹ هذا بالإضافة إلى ما ذكره صاحب ذيل البشائر بخصوص انشائه للعديد من المدارس والمساجد والجوامع ليس في الحاضرة فقط بل في كامل الايالة.² أما ابن أخيه علي باشا فعلى الرغم من أنها شخصية مثيرة للجدل إلا أنه شجع الحركة العلمية. فقد نسب إليه شرحه لكتاب "تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد" لابن مالك الأندلسي صاحب الألفية في النحو وسمي هذا الشرح "دفع الملم عن قراء التسهيل بجلب المهم ما يقع به التحصيل" ألفه سنة 1138هـ حسب قول محمد العياضي في كتابه "مفاتيح النصر في التعريف بعلماء العصر" وقد كان علي باشا مولعا بجمع الكتب ونسخها فاستولى على مكتبة عمه ووسعها وزاد فيها، وجلب من اسطنبول مسافرين للكتب ماهرين في التفسير والتفنن فيه.³ يقول عنه محمد الصغير بن يوسف " ثم التفت إلى علم التاريخ وبحث عليه وبعث رجلا إلى فاس المغرب فجاءه بتاريخ ابن خلدون في ثلاثة عشر سفرا وصرف على جلبه مالا كثيرا"⁴ وكان علي باشا كثير المطالعة في كل الأوقات حضرا وسفرا ليلا ونهارا وله ولوع خاصة بكتاب القاموس. بالإضافة إلى ثقافته واهتمامه بالعلماء ومجالستهم قام ببناء مدارس عديدة ذات فن معماري رفيع.

أما محمد الرشيد الباي الثالث فقد كان أدبيا شاعرا خلف ديوان شعر ما يزال مخطوط إلى الأنوقد كان يعقد المجالس الأدبية والفنية في بساتين منوبة وكان مولعا بالموسيقى وفن والغناء، وهو الذي رتب الأغاني الشعبية الأندلسية منها والتونسية المعروف جميعها باسم " المالوف" وله قصيدة شعرية دينية عنوانها "حركات السواكن إلى أشرف الأماكن" في الحنين إلى البقاع المقدسة.⁵

¹-الصغير بن يوسف: المصدر السابق، ج1، ص 27

²-حسين خوجة: المصدر السابق، ص ص 214-216

³-الطويلي أحمد: تاريخ مدينة تونس، المرجع السابق، ص ص 105-106.

⁴- الصغير بن يوسف: المصدر السابق، ج3، ص ص 49-50.

⁵-الطويلي أحمد: تاريخ مدينة تونس، المرجع السابق، ص ص 107-108

بعد وفاته سنة 1759م تولى بعده أخوه علي باي الذي عرف برصانته وعفوه عن الأدباء الذين خدموا ابن عمه، فأعان بذلك على نمو النشاط الثقافي، وقد أمر ببناء مدرسة واسعة وجميلة سميت المدرسة الحسينية الكبرى. وقد أطال كاتبه حمودة بن عبد العزيز الحديث عنها وعن الدروس المقدمة فيها وكذا مشايخها ومدرسوها وقد عبر الرحالة الجزائري الورتلاني الذي مر بتونس سنة 1180هـ / 1766م في رحلته عن إعجابه بما شاهده في تونس من ازهار العلم في جامع الزيتونة، في حين لم يعجبه المدرسين الذين التقى بهم في مدينة صفاقس. وهذا يدل على أن أحوال التعليم في المدن التونسية في النصف الثاني من القرن 18م تختلف عما كانت عليه في النصف الأول من نفس القرن.¹ وعموما نشطت الحركة العلمية في عهد علي باي بن الحسين فكثير طلاب العلم والمعرفة، وتعددت الدروس بالجامع الأعظم، كما ضبط الباي لكل مدرس مرتبا ولكل طالب منحة وصرف مرتبات لفقراء المدن.²

أما حمودة باشا (1782م-1814م) فبالرغم من عدم ذكر المصادر التاريخية أي انجاز علمي له إلا أنه واصل سيرة أبيه باحترامه للعلماء ومجالستهم ومحاولة استحداث طرق تعليمية ومواد جديدة في مجال التعليم واطلاعه على الحضارة الغربية.³ كما قام باطال بعض التقاليد والبدع ذات الطابع الديني منها أن خطة اقامة الجامع الأعظم كانت محصورة في عائلة البكري يتوارثها الأبناء عن الأباء وفي سنة 1812م، توفي الشيخ علي البكري امام الجامع الأعظم فاقترحوا ابنه القاصر، إلا أن الباي اعترض الأمر وقرر تعيين أبو محمد حسين ابن الامام الشيخ عبد الكريم الشريف وانتزعها من أسرة البكريين. كما أبطل أيضا التقاليد الخاصة بتحكيم المذهب الحنفي في ثبوت أهله الشهرور وأمر باعتماد المذهب المالكي في ثبوت تلك الأهلة.⁴

¹- عبد السلام أحمد: المؤرخون التونسيون، المرجع السابق، ص ص 70-72

²- الطويلي أحمد: تاريخ تونس، المرجع السابق، ص 111

³- رشاد الامام: سياسة حمودة باشا في تونس، المرجع السابق، ص 333

⁴- ابن أبي الضياف أحمد: المصدر السابق، ج3، ص ص 87-88

أما فترة محمود باي وأبنائه حسين باي ومصطفى باي أي من (1815م-1837م) فقد عرفت فتور وضعف كبيرين من الناحية الثقافية. وبعد احتلال فرنسا للجزائر 1830م أصبحت الايالة التونسية بين فكي كماشه الدول الأوربية تتكالب عليها من جهة بعد أن أصبحت لا تقيم وزنا لدويلة البايات في تونس الضعيفة حسا ومعنى حسب تعبير ابن أبي الضياف ومن جهة أصبحت تواجه التهديد الحقيقي من الجار الغربي (فرنسا) لذا أصبحت البلاد تحت التأثيرين الفرنسي والعثماني من الناحية الثقافية.¹

يؤكد المؤرخ الهادي التيمومي أن الأمية الدامسة كانت تغلب على البلاد قبيل 1831م وكان التعليم حدودا، قائم على الحفظ، ولا شيء غير الحفظ. وكانت الهوة بين الثقافة العالمية المكتوبة والثقافة الشعبية الشفوية سحيقة. وكان رواج الكتب محدود جدا لأن المطبعة لم تكن قد دخلت بعد.²

كما ظهر في البلاد التونسية بعد مضي عشرات السنين من الفتح العثماني تمايز وتفاضل بين الأسر داخل المجتمع فالوافدون من الأتراك كانوا مقدمين عن غيرهم بحكم وظائفهم العسكرية لكن خلال العهد الحسيني ازداد نفوذ المالكية وأصبحوا يشكلون أغلبية مثقفي البلاد وبحكم اختلاف أصولهم تنتج بعض الحزازات بينهم فمثلا شكا محمد سعادة في كتابه " قرّة العين" من تعبير بعض آل الرصاع بأنه من المنستير وقريب عهد بسكنى العاصمة لكن هذه الحزازات بدأ أثرها يضعف مع بداية القرن التاسع عشر.³

أما حالة التعليم والمناهج في تلك الفترة فقد تحدثنا عنها في الفصول السابقة. لذا سنضرب عنها صفحا.

لقد كانت ظاهرة الأولياء والطرق الصوفية مسيطرة بقوة على الأرياف والبوادي وبعض المناطق الحضرية، لذا نراهم يتهافتون على بناء المزارات والقباب، ويتقربون للأولياء الصالحين لإبعاد الضرر عن النفس أو التكفير عن الخطيئة، ويستمطرون الأولياء زمن المساغب، وكانت توجد بالبلاد التونسية قبل 1831م أربع طرق صوفية رئيسية

¹- عبد السلام أحمد: المؤرخون التونسيون، المرجع السابق، ص 77

²- التيمومي الهادي: تونس والتحديث، المرجع السابق، ص ص 48-49

³- عبد السلام أحمد: المؤرخون التونسيون، المرجع السابق، ص ص 80-81

القادرية والرحمانية والتجانية وبدرجة أقل السنوسية، وكان لشيوعها تأثير معنويا كبيرا على الناس وكان أغلبهم نتمين إلى هذه الطرق عملا بشعار " من لا شيخ له فالشيطان شيخه" ¹

ولقد ظهر استعمال الموسيقى والآلات الموسيقية في بعض الميادين ففي الميدان العسكري كانت الموسيقى تعزف أثناء الاستعراضات العسكرية وأثناء تنقلات الباي وكانت الألحان تركية الأصل أما المجالس العامة والخاصة فكانت تعزف فيها نوبات موسيقية مختلطة بين التأثيرات الأندلسية والتركية والشرقية، يتغنى الناس بها بقصائد من الشعر العزل أو من الخمريات وكانت الحفلات الغنائية تقام في المناسبات العائلية كالأعراس أو الأختان.

لقد عرف المجتمع التونسي في تلك الفترة الدخان وأصبح استعماله منتشرا خلال القرن 18م وعم الطبقات العامة والخاصة، ويرجح المؤرخون التونسيون دخول الدخان الى البلاد التونسية في ما بين (1600م-1605م) عن طريق المغرب الأقصى عبر رحلة احمد بن محلي المغربي الى بلاد المشرق العربي، فقد مرا هذا الأخير بالجنوب التونسي بتوزر وقابس²، ومن البايات المدخنين نجد محمد الرشيد الذي اعتاد التدخين وكأنه وجد فيه تخفيفا لآلامه³ وفي هذا المجال أيضا ذكر لنا صاحب الاتحاف أن الباي عثمان «تولى سنة 1814م بعد وفاة حمودة باشا» أصدر أمرا بإحراق مخازن التكروري⁴ الذي كان يدر للدولة أموالا طائلة⁵.

أما القهوة فصارت شيئا مألوفا وصار الناس يشربونها في محلات عامة وأصبح الكبراء يقدمونها لزائريهم، أما شرب الخمر فقد كانت قليلة ولم تذكره المصادر التاريخية

¹-التيومي الهادي: تونس والتحديث، المرجع السابق، ص 51

²-حسين بوجرة: في تاريخ دخول الدخان للبلاد التونسية ومصدره، الكراسات التونسية، العدد 161، نوفمبر 1992، ص 33

³-عبد السلام أحمد: المؤرخون التونسيون، المرجع السابق، ص ص 97-98

⁴-وهو المعروف في البلاد التونسية بالدخان الأخضر.

⁵-ابن أبي الضياف أحمد: المصدر السابق، ج3، ص ص 93-94

المحلية ألا نادرا في اشارات لمحاربة البايات لمواطن بيعها أو تهديم حانة لإقامة مدرسة أو مسجد. بينما نجد بعض الاشارات البسيطة في رسائل القناصل أو التجار الأجانب.¹ لقد تعددت محاولات السلطة السياسية لمواجهة تفشي ظاهرة بيع الخمر في الأماكن العمومية وللظاهرة الخمرية ككل، ولئن كانت هذه المحاولات في بعض الحالات محتشمة وفي حالات أخرى صارمة، فكلها وبدون استثناء لم تدع يوما البتة على مستوى طموحها النظري القضاء على دابر الخمر وباعت كلها بالفشل الذريع، وإلا لما نفسّر تعدد هذه المحاولات وتكررها إن يكن بارتباطها بشخصية الباي وبمزاجه أو بمحاولاته كسب ود العلماء؟

وقد كانت المحاولات الأولى في العهد الحسيني من طرف المؤسس حسين بن علي الذي قام بهدم 18 حانة بسوق السكاكين داخل باب المنارة، كما أكد ذلك محمد سعادة، كما قام بتحطيم حانة الثوالث بباب الجزيرة ويرى الباحث حسين بوجرة أن سياسة الباي هذه مقترنة بالعلاقة المتينة بالعلماء وبالتالي لها بعد سياسي واضح.²

أما علي باشا فقد قام بإبطال حانة الحفصية³، أما المحاولة الثالثة فقد قام بها علي باي الذي هدم حانة القرامد المتواجدة داخل باب البحر، وفي سنة 1770م قام بهدم ما تبقى من الحانات وإبطال بيع الخمر وعصرها وجلبها من بلاد الكفر ومعاقبة من يقبض عليه سكران⁴، فهو الباي الوحيد إنن الذي اتخذ إجراءات تقضي على دابر الخمر بالبلاد التونسية.

لكن هل كانت محاولة علي باي شاملة في مواجهتها لهذه الظاهرة؟

فعندما أقدم عثمان باي على حرق التكروري المتواجد قرب البحيرة، أحدث هذا الإجراء تمللا كبيرا في الحاضرة وفي أواسط الطبقة الحاكمة نفسها، وفي جواب الوزير

¹ عبد السلام أحمد: المؤرخون التونسيون، المرجع السابق، ص ص 98-99

² حسين بوجرة: الظاهرة الخمرية، وتطورها بالبلاد التونسية في العهد التركي، الكراسات التونسية الأعداد 151-152-153-154. 1990، ص ص 29-30.

³ محمد الباجي المسعودي: المصدر السابق، ص 127.

⁴ حمودة بن عبد العزيز: الكتاب الباشي، المخطوط، ص ص 374-375.

يوسف صاحب الطابع للباي نستنتج أن إجراءات علي باي السابقة اقتصر على هدم الحانات دون العصر والاستيراد عكس ما يؤكد سابقا كاتبه حمودة بن عبد العزيز، وان حظر الخمر لم يكن ناجحا بصفة نهائية.

واقع الثقافة بتونس الحسينية (1831م-1881م):

لقد اعتبرنا سنة 1831م كحد فاصل بين المرحلتين بخصوص الحياة الثقافية وهذا لعدة اعتبارات فسنة 1831م هي بداية لحركة تحديثية شملت جميع المجالات وخاصة العسكرية منها ففي عام 1831م شكل حسين باي أول نواة للجيش النظامي كما قام بتأسيس المكتب الحربي بين (1831م-1834م) وهي مدرسة عسكرية مهمتها تخريج ضباط للجيش النظامي واطارات عليا للإدارة،¹ كما عرفت هذه الفترة استعمال التونسيين للباس الأوربي، فأخذت عناصر البلاط الملكي وخاصة المماليك تقلد الباي وتتهافت على كل ما له علاقة بالتمدن الأوربي، فاللباس الذكوري على سبيل المثال بدأ يصبح غريبا وظهرت السترة الأوروبية السوداء والسراويل الطويلة والكبوس المجيدي أما نساء البلاط فقد ازداد حماسهن لارتداء اللباس الأوربي فكان التأثير الايطالي واضحا في الأثاث والعطور والمأكّل والعمران أقوى من غيره.² كما شهدت البلاد أواسط القرن 19م كثرة البضائع الأوروبية الواردة مما أدى إلى تغير في نمط معيشة أغلبية المجتمع.

أما بخصوص ظاهرة انتشار الخمر في البلاد التونسية في القرن 19م فقد سجلنا محاولة واحدة محتشمة ومحدودة قام بها حسين باي متمثلة في إبطاله المهرجان الذي كان يُقام أثناء الإحتفالات³ طيلة أيام العيد الذي يقع فيه غالبًا المناكر والفواحش،⁴ وعرفت تجارة الخمر في هذا العهد رواجًا كبيرًا حيث كثرت الخمرات ونقاط بيعها في الحاضرة من "طبارن" و"قهاوي" و"ديار" و"مخازن"

¹-التيمومي الهادي: تونس والتحديث، المرجع السابق، ص 78

²-بن الخوجة محمد: كيف دخل الزي الأوربي في العادات التونسية، المجلة الزيتونية، مج2، العدد 4، جانفي 1938م/

1356هـ، ص 172

³- حسين بوجرة: الظاهرة الخمرية، المرجع السابق، ص 40

⁴- ابن سلامة محمد الطيب: المصدر السابق، ص 174.

وفي أواخر القرن التاسع عشر فقد وقع ضبط قائمة المحلات التي تباع الخمر برخصة (سراح) أو بدونها فوجد ما نسبته 57.8% غير مرخص لها، مما يشهد ذلك على مدى تسبب الأوضاع في البلاد وعجزها عن وضع حد لتحديات الجاليات الأوروبية¹.
لقد شهدت تونس خلال هذه الفترة أيضا وصول العديد من المؤلفات لشخصيات عربية اسلامية عاشت مدة في البلاد الأوروبية اطلعوا من خلالها على حضارتها ومن بين هذه المؤلفات نذكر كتاب تخليص الابريز في تلخيص باريز لرفاعة رافع الطهطاوي المصري وبالموازاة قامت الخلافة العثمانية بإدخال اصلاحات سياسية عرفت بالتنظيمات وحملت الباي ونظامه تطبيق تلك الاصلاحات لكن الباي رفضها واعتمد على تنظيمات أوروبية مشابهة لها.²

بعد رحيل أحمد باي سنة 1855م تحول رجال الاصلاح الذين يحتلون بعض المواضع الحساسة في الدولة إلى مجموعة متلاحمة ومتضامنة وكان دماغها المفكر والمخطط لها خير الدين باشا فنجحت في فرض بعض الاصلاحات السياسية، فظهر عهد الأمان في 9 سبتمبر 1857م تعهد فيه محمد باي بتوفير الأمن الجسدي والمالي للناس في كامل البلاد على اختلاف أديانهم ولغاتهم وبالمساواة بين الجميع أمام القانون.³
كما شهدت هذه السنة تأسيس أول مطبعة حجرية للدولة أشرف عليها أوغست فردينان قارباريون⁴ وقد اشتراها الباي محمد من المطبعة الوطنية الفرنسية وأول نص طبعته هو نص عهد الأمان وصدر في ورقة واحدة.⁵ ولقد مكنت هذه المطبعة محبذي الاصلاح من أن تكون لهم بكتاباتهم -وخاصة في مقالاتهم في الجريدة الرسمية الرائد التي تأسست في 20 جويلية 1860م⁶ - مشاركة في الحركة الفكرية التي هزت النخب في

1- حسين بوجرة: الظاهرة الخمرية، المرجع السابق، ص ص 74-75.

2- عبد السلام أحمد: المؤرخون التونسيون، المرجع السابق، ص 104

3- التيمومي الهادي: تونس والتحديث، المرجع السابق، ص 115

4- ينظر الملحق رقم 04، ص 280

5- الطويلي أحمد: تاريخ تونس، المرجع السابق، ص 172

6- ينظر الملحق رقم 13، ص 295

العالم العربي الاسلامي نتيجة لاتصالهم بأوروبا كما ساهمت هذه المطبعة بنشر الثقافة وذلك بطبع عدة كتب قديمة وحديثة.¹

وفي 29 جانفي 1861م صدر الدستور وأصبح مطبقا بداية من 23 أفريل من نفس السنة ويضم 114 أو هو بمثابة زلزال في الحياة السياسية التونسية كما صدرت في 26 أفريل 1861م مجلة الجنايات والأحكام العرفية التي ستعتمدها المحاكم في عملها وتشتمل على 664 بندا وتضم القانون الجنائي والاجراءات الجنائية والمدنية ومسائل تهم القانون المدني.²

وبما أننا تحدثنا على ظهور أول جريدة تونسية يجدر بنا الرجوع إلى الصحافة التونسية فقد ظهرت إلى الوجود ابتداء من سنة 1860م، وتعتبر تونس هي رابع البلدان التي ظهرت بها الصحافة بعد أن سبقها كل من بلاد الشام، مصر، الجزائر. فأصدرت تونس جريدة الرائد التونسي لكن ظهورها لأول مرة كان في نطاق حكومي كجريدة أسبوعية.³

لقد شهدت البلاد التونسية في مرحلة ما قبل الاستعمار الفرنسي ظهور أحد أعلام الفكر النهضوي في العالم العربي والاسلامي وهو خير الدين التونسي فعندما دخلت البلاد في أزمة مالية خانقة ترأس الكومسيون المالي في مرحلته التأسيسية الحاسمة من 6 جويلية 1869م إلى غاية 21 أكتوبر 1873م وهي مرحلة هامة في تاريخ تونس استطاع فيها خير الدين النجاح في أول عمل مضمّن بالغ التعقيد.

وفي سنة 1873م أصبح وزيرا أكبر فقام بعدة اصلاحات سياسية واقتصادية وادارية هامة،⁴ وقد عرفت فترته من (1873م-1877م) انتعاشة في المجال الثقافي حيث عمل

¹- عبد السلام أحمد: المؤرخون التونسيون، المرجع السابق، ص 137

²- التيمومي الهادي: تونس والتحديث، المرجع السابق، ص ص 122-199

³- عمر بن قفصيه: أضواء على الصحافة التونسية (1860م-1970م)، دار بوسلامة للطباعة والنشر، تونس، 1972،

ص ص 6-7

⁴- التيمومي الهادي: تونس والتحديث، المرجع السابق، ص 198

على تحسين أداء المطبعة الرسمية وإدارة جريدتها " الرائد التونسي"¹ حيث أصدرت المطبعة في عهده 24 كتابا، كما شجع على استيراد الكتب من الخارج. وقد أرسى تقاليد المحافظة على التراث من خلال إصدار أمر للقياد بتاريخ 26 ذي الحجة 1299هـ / 29 فيفري 1876م بجمع القطع الأثرية والاحتفاظ بها بطريقة علمية وأسس خير الدين إدارة للآثار القديمة والفنون المستزفة والأبنية التاريخية. وكان يعتزم تأسيس متحف لكن الوقت لم يسعفه لأنه أقيل من الوزارة الكبرى،² عام 1877م أما إصلاحاته في مجال التعليم فقد تحدثنا عنها أثناء تناولنا للسياسة التعليمية للدولة الحسينية في الفصول السابقة.

أما بخصوص فن العمارة التونسية خلال الفترة المدروسة فإن المتأمل في المباني المختلفة وخاصة المساجد والمدارس والأضرحة ودور الأمراء والرعايا الأثرياء تبرز له أساليب البناء المحلية التقليدية وأخرى يمكن أن تكون قد أتت من المغرب الأقصى وبجانبها يتجلى التأثير الأوروبي وخاصة الإيطالي منه في توزيع أقسام البناية وفي المواد المستعملة وفي الخزف³.

ففي العهد الحسيني شيد حسين بن علي جامع الجديد أو ما يسمى بجامع الصباغين سنة 1724م حسب ما أورده حسين خوجة⁴، فيما يذكر الوزير السراج أن الأشغال بدأت به سنة 1725م⁵، وإنتهت بعد ثلاث سنوات. وقد بنى الجامع على نسق جامع يوسف داي وحمودة باشا المرادي، وهو يمثل مجمعا معماريا صغيرا يشتمل على جامع وتربتين ومدرسة وكتاب وسبيل، وتتجلى التأثيرات العثمانية فيه من خلال العمارة المثلثة والمنبر الرخامي وبلاطات الخزف الأزنيقي التي تكسو مساحات واسعة من جدران قاعة الصلاة، أما التأثيرات الأندلسية فنلمسها من خلال الرخام الملون المحفور والمطعم وكذلك من

¹ -محمد فاضل بن عاشور: المرجع السابق، ص ص 50-51

² -التيومي الهادي: تونس والتحديث، المرجع السابق، ص ص 228-229.

³ -عبد السلام أحمد: المؤرخون التونسيون، المرجع السابق، ص ص 99-100

⁴ -حسين خوجة: المصدر السابق، ص 161

⁵ -الوزير محمد السراج: المصدر السابق، ج3، ص 367

خلال نحت السواري ونقش التيجان المستخدمة من الرخام الأبيض المجلوب من مقاطع كرامة¹.

وفي عهد حمودة باشا شيد وزيره يوسف صاحب الطابع جامعه فيما بين سنتي 1808م و1814م وهو آخر معلم ديني ضخم يشيد بتونس قبل الاستعمار الفرنسي، وقد أنجز هذا المعلم أمين البناء ساسي بن فريجة.

يمثل هذا الجامع وحدة معمارية أساسية ضمن مجمع معماري متكامل يشمل بالإضافة إلى المسجد على مدرستين وتربتين ووكالة وحمام وسبيلين وعشرات الحوانيت والمخازن، ويتميز هذا الجامع بالإستخدام المفرط للرخام الإيطالي الذي يغطي الأرضيات والجران، ويزين المحراب والمنبر، بالإضافة إلى مئات السواري والتيجان المنحوتة والمنقوشة على الطريقة الإيطالية، والموزعة على مختلف أقسام المجمع أما اللوحات الرخامية فتبرز أشكال زخرفية مأخوذة عن فن الباروك الموجود بشبه الجزيرة الإيطالية.

وإلى جانب الجوامع والمساجد شيد البايات الحسينيون الأضرحة والترب التابعة للمعالم الدينية وهي ظاهرة تكاد تكون عامة خلال العهد العثماني، وهذه الأضرحة هي عبارة عن قاعات تغطيها سقوف هرمية مكسوة بالقراميد أو بالقباب مختلفة الأشكال وأشهر هذه الترب مقبرة البايات الحسينيين المسماة بتربة الباي، وقد أنشأها علي باي بن الحسين حوالي سنة 1771م/1185هـ، وألحق بها مدرسة، وهذه التربة عبارة عن مجمع جنازي يشتمل على ثماني قاعات واسعة تنتظم حول صحنين، تحيط بالصحن الرئيسي الأروقة من جميع جوانبه، وتحتوي التربة على حوالي 160 قبر منها مدافن البايات الحسينيين وقبور أزواجهم والمماليك والوزراء².

كما شيد البايات الحسينيون أيضا العديد من الفنادق والحمامات والقصور والحصون والأبراج والأسوار، وقد استخدم في جميع أبنية هذا العصر الجبس أو الجص للبناء أو للزخرفة حيث تغطي به الحيطان ثم ينقش بشكل متناسب تخريما بمناقب الحديد ومن هنا

¹ - السعداوي أحمد: المرجع السابق، ص 194

² - السعداوي أحمد: العمارة والفنون في العصر الحديث بتونس عبر التاريخ، ج2،

مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، مطبعة سنباكت، تونس، 2007، ص ص 248-250.

أخذ هذا النوع من العمل في شمال إفريقيا اسم نقش حديد ومن نماذجه ما هو موجود في قصر باردو وجامع الصباغين¹.

ثالثا: النهضة الإصلاحية بتونس وتداعياتها على السلطة والمجتمع

لقد شهدت البلاد التونسية منذ منتصف القرن التاسع عشر حركة اصلاحية شملت جميع المجالات أراد الفاعلين لها مساندة الحداثة الأوروبية فجااء تأسيس المدرسة الحربية بباردو 1840م، وتنظيم التعليم الزيتوني 1842م، ثم صدور عهد الأمان 1857م، وختمت هذه الاصلاحات بإعلان دستوري لحكم البلاد عام 1861م، فما العوامل التي ساعدت على ظهور هذه الحركة؟ وما أبرز مظاهرها؟ وما النتائج التي تمخضت عنها؟ وما مصيرها؟ لقد تضافرت عوامل داخلية وأخرى خارجية لتكوين فكر اصلاحي حدائي على غرار ما عرفته بعض البلدان العربية والاسلامية الأخرى.

أ-العوامل الداخلية:

إذا كان التحديث الأوروبي كان نتيجة سيرورة طويلة من العقلنة الاقتصادية والسياسية والثقافية والدينية حملت لوائها طبقة اجتماعية صاعدة فإن عملية الاصلاح في تونس كانت نتيجة مبادرات فردية من طرف بايات الأسرة الحسينية الحاكمة حيث قام الباي حسين (1824م-1835م) ببعث جيش وطني وعصري متأثرا بما يجري في البلدان العربية والاسلامية الأخرى وخاصة في مصر في عهد محمد علي وهذا رغم المعارضة الشديدة التي لقيها من طرف رجال الدين المحافظين الذين اعتبروا أن تعليم اللغة والخط الفرنسيين كفر وأن اللباس النظامي للجيش لم يأمر به الله ولا تتوقف عليه المدافعة،² أما أحمد باي (1837م-1855م) فقد قام بعدة اصلاحات شملت أغلب مجالات الحياة، وسنركز على الاصلاحات الثقافية وهي التي تهمننا في هذا البحث.

أسس الباي المدرسة الحربية بباردو سنة 1840م لتخريج ضباط العسكر واطارته العليا، وانتدب لها اطارات من أوروبا والبلاد العثمانية، قامت هذه المدرسة بتعريب

¹-السعداوي أحمد: المرجع السابق، ص 259

²-التيمومي الهادي: تونس والتحديث، المرجع السابق، ص ص 69-70

مؤلفات تركية وفرنسية وايطالية في الفنون الحربية حوالي أربعين مصنفا وبهذا كانت هذه المدرسة أول مركز أسس بتونس لترجمة الآثار الغربية والاطلاع على التفكير الغربي عن طريق الترجمة.¹

ولقد كان لبعض العلماء دور هام في مساعدة أحمد باي لإصلاحاته فأبرزوا شرعية هذه الاجراءات متخليين عن النظرة السائدة التي تعتبر كل بادرة تجديدية بدعة يجب تجنبها.

ويعتبر كل من محمد بن سلامة ومحمد قبادو وابراهيم الرياحي الفريق الأبرز صاحب الدعاية لإصلاحات أحمد باي.²

لكن بعد وفاة أحمد باي لم تستمر الاصلاحات بنفس الوتيرة فأصبحت في عهد محمد الصادق باي رهينة الأطراف الخارجية توجهها إلى ما يخدم صالحها، ولما ساءت أحوال البلاد كان يشار إلى المشروع الاصلاحى كمسؤول عن ذلك وبدأت الهوة تزداد بين السلطة والمشروع الإصلاحي.

ب-العوامل الخارجية:

وصلت تأثيرات الاصلاح والحدائة الأوروبية إلى تونس في القرن 19م عبر قناتين متداخلتين ومتزامنتين، الأولى متمثلة في الرأسماليون، المدرسون، الدبلوماسيون والمبشرون، والقناة الثانية هي الدولة العثمانية منذ السلطان عبد المجيد (1839م-1861م) وحركة محمد باشا (1805م-1849م) في مصر وكذلك نشاط الصحفيين والمثقفين السوريين بتونس مثل أحمد فارس الشدياق ومنصور كرليتي ورشيد الدحداح.³

ومن العوامل المساعدة والجديرة بالاهتمام تلك الزيارات التي قام بها بعض التونسيون إلى أوروبا، وتأتي في مقدمتها الزيارة التي قام بها أحمد باي إلى فرنسا سنة 1846م التي كان لها الأثر الكبير في نفوس أولئك الذين صحبوا الباى في سفره ومنهم ابن أبي الضياف. بعد ذلك قام رجال من حاشية الباى بمهمات طويلة في عواصم أوروبية

¹-الطويلي أحمد: تاريخ مدينة تونس، المرجع السابق، ص 145

²-خليفة الشاطر: المشروع الاصلاحى بين الطموح والواقع تونس عبر التاريخ، ج2، المرجع السابق، ص 298

³-رشاد الامام: التفكير الاصلاحى في تونس، المرجع السابق، ص 26

ومن هؤلاء خير الدين الذي قضى سنوات في باريس للدفاع عن مصالح الدولة التونسية ثم قام أيام الصادق باي بسفارات إلى السويد وبروسيا والدنمارك وبلجيكا كما قضى الجنرال حسين سنوات في ايطاليا بسبب قضية نسيم ببشي ثم التحق به كل من سالم بوحاجب ومحمد السنوسي وبقو معه بين عامي 1873م-1882م.

لقد نتج عن هذه الزيارات استعداد النخبة التونسية تقبل الأفكار العصرية وتغير مواقفها بعدما كانت من قبل لا مجال للمراجعة فيها.¹

لقد كان تأثير الحركة الفكرية للأوساط الأوروبية نسبيا على النهضة الفكرية التونسية، وقد نشطت هذه الحركة بين سنتي 1830م-1881م، وتجاوز نشاطها مدينة تونس العاصمة ليصل الى سوسة وصفاقس وجربة وإلى الكاف وبنزرت، وأشرف على هذه الحركة العديد من الراهبات والرهبان الذين غادرو الجزائر بعد احتلالها، وعلى الرغم من اقتصرها على الأقليات الأوروبية، وعلى الأقلية الاسرائيلية، ورغم طابعها الديني فقد قامت بعمل تربوي جبار لهذا أمّ مدارسها البعض من أبناء الأسر التونسية المسلمة واتصلوا من خلالها على العلوم العصرية وبالتفكير الأروبي قبل تأسيس المدرسة الصادقية².

رواد الفكر الاصلاحى بتونس ودورهم الثقافى:

لقد حملت النخبة التونسية المثقفة على عاتقها مواصلة الحركة الاصلاحية التي بادر بها البايات الحسينون منتصف القرن التاسع عشر، فأسهمت على غرار أحمد بن أبي الضياف والوزير المصلح خير الدين باشا التونسي، في بلورة القوانين التأسيسية التي أدخلت الحداثة للبلاد، وقد شملت هذه النخبة المتخرجين من الجامعة الزيتونية والمدرسة الحربية بباردو.

يعتبر الشيخ محمود قابادو(1815م-1871م) أول من دعا التونسيين إلى الأخذ بأسباب النهضة والتقدم واقتباس العلوم الحديثة من الأمم الغربية،³ وقد كان محمود قابادو

¹- عبد السلام أحمد: المؤرخون التونسيون، المرجع السابق، ص ص 105-106

²- الحبيب الجحاني: المرجع السابق، ص ص 124-125

³ -حمادي الساحلي: فصول في التاريخ والحضارة، المرجع السابق، ص 72.

أحد أساتذة المدرسة الحربية بباردو وقد تخرج على يديه الرعيل الأول من النخبة بقيادة الوزير خير الدين ومن أبرز تلامذته خير الدين نفسه، والجنرال حسين، والوزير رستم.¹ وقد اقتنع هؤلاء الضباط في مدرستهم بتقدم الغرب العلمي والفني من خلال الدروس التي تلقوها عن أساتذتهم الأوربيين وأحاديث محمود قبادو أستاذهم الذي كان يعلمهم اللغة العربية والعلوم الاسلامية وقد ساعد تلامذته في ترجمة كتب علمية متعلقة بالفنون الحربية فزاد اقتناعا أكثر بفائدة التقدم العلمي وقد عبر عن ذلك بقصائد نثرية.

كما تغير أيضا موقف صاحب الاتحاف بسرعة من الاحترار إلى التأييد المتحمس وظل على موقفه رغم التقلبات السياسية التي شهدتها البلاد حتى وفاته سنة 1874م.² وقد ساهم ع زميله خير الدين في بلورة القوانين التأسيسية التي أدخلت البلاد في الحداثة منها عهد الامان 1857م وقانون الدستور 1861م،³ من خلال مشاركته في تحريرهما وهي تعتبر انتصارا باهرا للدعوة الاصلاحية بعد مضي عشرين عاما على ميلادها.

لكن هذه الشعلة الاصلاحية التي كان هدفها الحد من تصرفات الحكم المطلق سرعان ما انطفأت وانعزل أصحابها فترة للتأمل والتفكير.⁴

ان الجيل الذي كان في طور النشأة بين عامي 1857م و1865م تأثر كثيرا بعهد الأمان والأحداث التي واكبته ومن هؤلاء محمد بيرم الخامس فقد كان عمره 17 سنة عام 1857م فقد كان شغوبا بالأحداث السياسية بتلك الفترة وهذا ما جعله يؤلف كتابه " صفوة الاعتبار " بالغرابة في اخر حياته.⁵

¹-الحبيب الجحاني: الحركة الاصلاحية في تونس خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، حوليات الجامعة التونسية، العدد 06، السنة 1969، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، ص 119

²-عبد السلامأحمد: المؤرخون التونسيون، المرجع السابق، ص ص 116-117

³-فتححي معيفي: النخبة التونسية وحركة الاصلاح الوطني خلال القرن التاسع عشر، المجلة المغاربية للدراسات التاريخية والاجتماعية،مج: 10 العدد02/ ديسمبر 2019، ص 167

⁴-محمد الفاضل بن عاشور: الحركة الادبية والفكرية في تونس، المرجع السابق، ص 20

⁵-عبد السلامأحمد: المؤرخون التونسيون، المرجع السابق، ص ص 117-118

ونجد أيضا محمد السنوسي متعلقا بالفكر الاصلاحى وهو خريج الجامع الأعظم، فعندما كان أستاذا للأمر محمد الناصر بن الباي محمد الصادق صدر عهد الأمان فحاول استمالته إلى هذا الاتجاه¹.

ويعتبر الوزير خير الدين باشا أحد أبرز من قادوا الحركة الاصلاحية في تونس في تلك الفترة فهو يعتبر مصلحا وسياسيا ومفكرا حيث كانت لإصلاحاته الأثر البالغ في نهضة البلاد،² ففي سنة 1857م أسندت له وزارة البحر ورئاسة المجلس الأكبر المنتخب سنة 1860م فقام بأعباء هاتين المهمتين خمس سنوات،³ إلا أنه صدم برجال المعارضين للاقتباس من الغرب في حين كان خير الدين متأثرا بمبادئ الثورة الفرنسية وقيمها الانسانية التحررية، كما اصطدم بالوزير الاكبر مصطفى خزندار الذي أراد للمجلس الشورى أن يكون غطاء لممارساته المتناقضة لمصلحة البلاد فقدم استقالته عام 1862م.⁴ وخلال السنوات السبع (1862م-1869م) التي بقي فيها بعيدا عن الحكم لم تمنعه من حضور اجتماعات المجلس الخاص الذي كان الباي يستشيريه في بعض الأمور كما أنه ظل على مقربة من القضايا الدقيقة التي لها علاقة بتونس وسياستها الخارجية، فلم يرفض القيام بمهمات رسمية في الخارج، فزار بعض الدول الأوروبية وهناك درس نظم الحكم فيها وأسباب التقدم وسجل لنا ملاحظاته وآرائه في كتابه " أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك"،⁵ وكان على اتصال مستمر بأنصاره من رجال السياسة والفكر وقد كانوا يترددون على قصره خفية.⁶

ولما ساءت أحوال البلاد تشكلت على اثر ذلك لجنة مالية مختلطة تسمى الكومسيون المالي، اختير خير الدين باشا لرئاستها سنة 1869م وتدعم صفه كثيرا عندما رجع إليه

¹-محفوظ محمد، المرجع السابق، ج3، ص 74

²-أحمد أمين: زعماء الاصلاح في العصر الحديث، ط3، مكتبة النهضة المصرية، مصر، 1971، ص 170

³-يحي جلال: العالم العربي الحديث والمعاصر: ج1، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، مصر، 1998، ص ص 244-245

⁴-سمير أبو حمدان: خير الدين التونسي أبو النهضة التونسية، دار الكتاب العالي، لبنان، 1993، ص 36

⁵-الحبيب الجنحاني: المرجع السابق، ص ص 127-128

⁶-محمد فاضل بن عاشور: المرجع السابق، ص 22

صديقيه الجنرالين رستم وحسين من منفيهما الاختياريين عام 1870م إلى تونس فنجح خير الدين في توجيه ضربة كبيرة لمصطفى خزندار حينما استطاع محاسبة الجنرال زروق أحد أعلام خزندار وجلاد الساحل المعروف سنة 1869م¹، ثم تمكن من اقناع الباي محمد الصادق بضرورة عزل مصطفى خزندار الوزير المرتشي الذي جثم على خيرات البلاد مدة 35 عاما دون انقطاع تمكن من خلالها من تغلغل النفوذ الفرنسي للبلاد ويعتبر المسؤول الرئيسي فيما آلت إليه البلاد من إفلاس وتدهور، وفي 21 أكتوبر 1873م عزل مصطفى خزندار وعين خير الدين مكانه وزيرا أكبر²، وخلال مدة ترأسه للوزارة من (1873م-1877م) قام بعدة اصلاحات شملت التعليم والثقافة وقد كنا تحدثنا عنها في الفصول الماضية.

ومن بين أعلام والحركة الاصلاحية والذين كانوا سندا لخير الدين التونسي نذكر الجنرال حسين وهو أحد تلامذة المدرسة الحربية التي أنشأها أحمد باي 1840م، تعرف خلالها وتوطدت علاقاته مع الأستاذ محمود قابادو والوزير خير الدين ومن بعد علماء الزيتونة وكانت لهذه الصيالات تأثير في حياته العلمية والثقافية، فاستفاد من علماء الزيتونة عمق التدين ومن صحبته لخير الدين الدخول إلى المناصب السياسية، حيث عين رئيسا لأول بلدية بالحاضرة تونس سنة 1858م، وأشرف على جريدة الرائد عند أنشائها سنة 1860م، وصحب الباي محمد الصادق في رحلته إلى الجزائر لمقابلة الامبراطور نابليون الثالث سنة 1861م عين عضوا في المجلس الأكبر وترأس مجلس الجنايات والأحكام العرفية بالحاضرة ومما عرف عنه أنه كان في المجالس نشيطا ومعارضاً شديدا لسياسة مصطفى خزندار وعندما تأكد عدم رغبة السلطة في تطبيق القوانين قدم استقالته سنة 1863م من وظائفه بالمجالس ثم خرج من تونس وبقي متنقلا في أوروبا. ورجع إلى البلاد سنة 1871م بعدما استدعاه زميله خير الدين للعمل معه وللاستفادة من خبرته السياسية والقانونية فأسند له مهمة مباشرة قضية هشير الجديدة ثم كلف بمتابعة قضية ميراث القائد

¹- التيمومي الهادي: تونس والتحديث، المرجع السابق، ص 199

²- التيمومي الهادي: تونس والتحديث، المرجع السابق، ص 204

نسيمشامة الذي هرب بأموال الدولة إلى ايطاليا عام 1864م وهذه القضية جعلته يقيم دة طويلة في مدينة قرنة الايطالية¹.

أما أهم أعماله في الدولة فقد عين سنة 1871م مستشارا في القسم الثاني بالوزارة الكبرى، وعين في 1874م مستشارا للمعارف،² ترك الجنرال حسين عدة اثار تمثلت في مجموعة رسائل شخصية موجهة لصديقه خير الدين، أما كتبه فقد ترك ثلاثة عناوين مطبوعة ويذكر الباحث الاستاذ الشيباني بنبلغيث في هذا الصدد أنه عثر على عنوان واحد فقط وهو حسم الالداد في نازلة محمود بن عياد أما الكتابان الآخران فقد طبعا سنة 1878م وهما:

نازلة القائد نسيم قابض الدولة التونسية، القسطاس المستقيم في نفي الحكم باختلال جنسية القائد نسيم،³ وقد أضاف الاستاذ الباحث الهادي التيمومي كتابا رابعا وعنوانه رسالة في عتق العبيد (طبعت 1862م).⁴

ومن بين المصلحين أيضا المؤرخ كاتب سر البايات أحمد بن أبي الضياف (1804م-1874م) له ثقافة تقليدية حيث درس في الكتاب ثم الجامعة الزيتونة، تتلمذ على يد الفقيه إبراهيم الرياحي المساند لأحمد باي في سياسته التحديثية، عينه حسين باي عام 1827 كاتباً له وعمره 23 سنة، وظل وزيرا وكاتبا للبايات حتى وفاته 1874م، سافر مع أحمد باي إلى فرنسا وأعجب بعظمة الحضارة المادية هناك وكان مناصرا للنظام الملكي المقيد بدستور، ألف كتابه الشهير إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان دون فيه التجربة الدستورية التونسية بين (1857م-1864م).

¹- الشيباني بنبلغيث: دور الجنرال حسين في الحركة الاصلاحية بتونس خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، العدد 12/11 أكتوبر 1995، مؤسسة التميمي للبحث العلمي

والمعلومات زغوان، تونس، ص ص 148-150

²- التيمومي الهادي: تونس والتحديث، المرجع السابق، ص 132

³- الشيباني بنبلغيث: المرجع السابق، ص ص 151-154

⁴- التيمومي الهادي: تنس والتحديث، المرجع السابق، ص 132

أما الجنرال رستم فهو مملوك شركسي خريج المدرسة الحربية بباردو، تقلد العديد من المناصب العسكرية والادارية والوزارية اتهمه الباي بإجراء إصلاحات تحد من سلطة الباي، فاضطر إلى الانسحاب من الحياة السياسية ومغادرة البلاد سنة 1867م، ثم رجع إلى تونس من جديد سنة 1870م وعينه خير الدين وزيرا للحرب عام 1873م كان مناصرا للتحديث لكنه لم يكن عنصرا نشيطا وبارزا، تزوج إحدى بنات خير الدين سنة 1883م وتوفي في عام 1866م.

وأخيرا سالم بوحاجب (1827م-1924م) وكنا قد تحدثنا عنه أثناء ذكرنا للعلماء والمدرسين بتونس خلال الفترة المدروسة وما نضيفه في هذا المقام أنه زار فرنسا وإيطاليا وكان من أنصار التحديث ومن المدافعين المتحمسين لتبني العلوم الغربية من أقواله " ... وقع التوصل بعلم الجبر إلى إحداث العربات العجلية وبالهندسة إلى تسوية الطرقات... ثم بعد أن نجح العلم الأوربي في استخدام القوة البخارية بحرا، استخدمته في السكة الحديدية برا... أفيظن بعد هذا أن غافلا أو متدينا يذم العلوم الموصلة إلى هذا النفع العام أو يوجه على من يتعاطاها الملام بمجرد كونها لم تكن في صدر الاسلام".¹

نتائج النهضة الاصلاحية:

ان المتتبع والدارس للمسيرة الاصلاحية للنخبة التونسية والتي انطلقت ابتداء من 1831م إلى غاية 1877م تاريخ استقالة خير الدين من الوزارة الكبرى يدرك ضحالة ومحدودية نتائجها سواء على نظام الحكم أو على المجتمع التونسي.

وقد أرجع بعض الدارسين لهذا الموضوع أسباب متعددة نوجزها فيما يلي:

- المستوى المتدني جدا لقوى الانتاج وهيمنة البداوة على أغلب مناطق البلاد التونسية.

- المناخ الثقافي غير الملائم حيث كانت الأمية هي الغالبة على المجتمع التونسي كما كانت الذهنيات قبل 1831م غير مؤهلة لتقبل الأفكار الاصلاحية.²

¹-التيمومي الهادي: تونس والتحديث، المرجع السابق، ص ص 131-134

²-نفسه، ص ص 138-141

- الاستبداد السياسي للبايات محمد باي ومحمد الصادق باي وعدم اقتناعهم بجدوى الاصلاحات بالإضافة إلى قصورهم الثقافي إذ كانوا أقرب إلى الأمية حسب تعبير ابن أبي الضياف.¹
- معارضة الأغلبية الساحقة من رجال الدين للتحديث وكان أشهرهم الشيخ محمد بيرم الرابع الذي حكم الاعدام على اليهودي باطو سفاز ووقف ضد تمثيل اليهود في المجلس الأكبر.
- العدد المحدود لأصحاب الفكر الاصلاحى وفكرهم النخبوي.
- مواقف رجال الاصلاح إزاء الارياف والبوادي إذ بقيت مواقفهم ضحية الفكرة المعادية دوما للأعراب والتي تتعنتهم بـ "أهل الحراية" و" ذوي الاسلام السطحي" و" أهل العيب والفساد".
- غياب الصلابة على المبدأ فقد فضل أغلب هؤلاء المصلحين الانسحاب من الحياة السياسية خوفا على أرواحهم ولم يبدو أي نوع من المعارضة.²
- الاستعمار الأوربي فقد ساعدت الدول الأوربية تونس على الاصلاح في المرحلة الأولى ثم أجهزت عليه في المرحلة الثانية من أجل بسط نفوذها واحتلالها للبلاد.³

رابعا: أصناف العلوم المتداولة وأبرز أعلامها

تصنف العلوم حسب العلامة ابن خلدون إلى قسمين علوم عقلية وعلوم نقلية، فأما العلوم النقلية تشمل العلوم الدينية والشرعية كالفقه والحديث والتفسير وعلم القراءات وعلم النصوص وغيرها⁴، والعلوم اللسانية والاجتماعية مثل الأدب، النحو، البيان، التاريخ،

¹-التيمومي الهادي: تونس والتحديث، المرجع السابق، ص ص 145-147

²-نفسه، ص ص 151-164

³-نفسه، ص 282

⁴-ابن خلدون عبد الرحمان: مقدمة ابن خلدون، دار ابن الهيثم، القاهرة، مصر، 2005، ص ص 354-356

وغيرها. أما العلوم العقلية فتشمل علم المنطق الطب، العلوم الطبيعية، الفلاحة، الصيدلة... الخ¹.

ولقد عرف العهد الحسيني بتونس انتشار العديد من هذه العلوم وبمختلف أصنافها لذا سنذكر أبرز هذه العلوم وأهم رجالها ومصنفاتهم.

1- العلوم الدينية والشرعية:

أ- الفقه: كان له اهتمام كبير من طرف طلبة العلم لأنه يحتاج إليه في مباشرة الخطط الشرعية، فاحتل المكانة العليا في العلوم، فالفقه كان مقدا على جميع العلوم الأخرى وكان الطلبة يبحثون عن التوجيهات التطبيقية في كتب "النوازل" بالنسبة إلى القضاة وفي كتاب " الفرائض " و" التوثيق " بالنسبة إلى العدول.² وقد اشتهر في هذا العلم كل من محمد زيتونة (ت 1726م) والشيخ علي الستاري الذي يقول عنه صاحب مسامرات الظريف " وقد ذكره صاحب الشهب في علماء الزيتونة فقال: "...أبو الحسن علي المشهور بالستاري، له مشاركة في الفنون واطلاع على المذهب المالكي..."³، الشيخ اسماعيل التميمي، تولى القضاء عشرين سنة ثم تقدم لمشيخة المدرسة الاندلسية، ألف رسالة في الوقف وقد قرضاها محمد بيرم الثاني ورسالة في التطوع بالنفقة، وعدة رسائل فقهية أخرى.⁴

الشيخ محمد السنوسي وهو جد مؤلف كتاب مسامرات الظريف تولى مشيخة المدرسة الحسينية بالكاف سنة 1195هـ ثم تولى خطة القضاء، وقد نظم فيما به العمل من مذهب مالك أربعة آلاف ومائتي بيت من الرجز سماه " لقط الدرر"⁵ الشيخ ابراهيم الرياحي ألف رسالة إراقة خمر المسلم وتعقب الخلاف الذي وقع في تفصيل الحكم بالنظر

¹-ابن خلدون عبد الرحمان: مقدمة ابن خلدون، المرجع السابق، ص ص 406-409

²-عبد السلام أحمد: المؤرخون التونسيون، المرجع السابق، ص ص 84-85

³-السنوسيمحمد بن عثمان، المصدر السابق، ج 2، ص 167

⁴-نفسه، ص 198

⁵-نفسه، ص 107

لتطهيرها بالتخليل، وله رسالة في اثبات حق الحضانة للحاضنة ولو التزم الولي بالنفقة من مال نفسه، وله أجوبة عن مسائل فقهية وردت إليه من غدامس ونواحي سوف.¹ وقد ذكر صاحب ذيل البشائر بعض العلماء خارج الحاضرة نذكر منهم الشيخ أحمد بن علي المعروف ببورقة القيرواني والفقير ابراهيم الجمي (ت 1722م) وهو أحد علماء جربة وكان له اعتناء كبير بمختصر الشيخ خليل، مواظب على اقرائه بالأوقاف الأزهرية وكان يختمه في السنة مرتين كما نذكر الشيخ الفقيه علي بن موسى الأزهرى الاندلسي الأصل ولد ونشأ بسوسة والشيخ يحيى بن أحمد ابن بدر الدين المولود بسوسة سنة 1647م/1056ه²

ب- علم القراءات:

وقد اشتهر به العديد من الفقهاء والمدرسين وكان أبرزهم الشيخ أحمد التونسي (ت 1718م) ابن الشيخ القارئ المقرئ محمد التونسي، فلما توفي والده عمر مكانه في علم التجويد في جامع المرحوم حمد باي بأداء حسن وإتقان.³ كما نذكر أيضا الشيخ محمد جعيط يقول عنه صاحب مسامرات الظريف "وبرع في التجويد والقراءات براءة تامة وتضلع بالفقه والنحو والبيان والحديث والمنطق..."⁴

ج- علم الحديث:

وقد برز فيه كل من الشيخ محمد زيتونة الذي كان له شرح منظومة البيقوني،⁵ (والشيخ محمد حمودة الريكلي) الذي كانت له رواية الحديث الشريف على درر السنة في مسجد الولي الصالح المزار الشيخ سيدي معاوية.⁶

¹- السنوسي محمد بن عثمان: المصدر السابق، ج1، ص ص 300-301

²- حسين خوجة، المصدر السابق، ص ص 129-135

³- نفسه، ص 217

⁴- السنوسيمحمد بن عثمان، المصدر السابق، ج2، ص 169

⁵- حسين خوجة، المصدر السابق، ص 228

⁶- نفسه، ص 261

د- علم التصوف:

وقد اشتهر في العلم الشيخ علي الصوفي (ت 1725م م) يقول عنه صاحب ذيل البشائر "كنت تتلمذت له ولازمته مدة طويلة، ولطالما أفادني في الطريقة وأرشدني في الحقيقة".¹

الشيخ ابراهيم الجميني(ت 1722م) وكان صاحب اشارات ومقام عال في التصوف تاركا للدنيا زاهدا فيها،²الشيخ علي بن علي زيد ويعرف بالزرلي السوسي الكفيف ألف كتابا في مقامات الأولياء واثبات كراماتهم والرد على من أنكرها سماه " منهاج الهدى وسراج الاقتداء"،³كما نذكر أيضا الفقيه الكبير الشيخ ابراهيم الرياحي الذي أدخل الطريقة التجانية إلى البلاد التونسية بعد رحلته إلى المغرب 1802م.

2-العلوم اللسانية والاجتماعية:

أ-الأدب: على الرغم من أن الأدب اعتبر خلال هذه الفترة نشاطا ثانويا إلا أنه لقي تشجيعا من طرف البايات الحسنيين وقد ذكرنا سابقا اهتمام علي باشا بالشعر وإلى الدور الذي كان لخلفه محمد باي في تشجيع الشعر والغناء وبفضل هذه الرعاية أصبح الانتاج الأدبي خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر أكثر غزارة وجودة من ذي قبل.⁴

ب-النثر: ظهر في الادب التونسي أدباء معاصرون بارزون تركوا أثارا قيمة وهم يختلفون حسب كل العلوم التي كانت منتشرة في هذه الفترة فمنهم النحويون والمنطقيون والواعظون واللغويون والمؤرخون وغيرهم من أهمهم:⁵

¹-حسين خوجة، المصدر السابق، ص 65

²-نفسه، ص 131

³-نفسه، ص 139

⁴-عبد السلامأحمد: المؤرخون التونسيون، المرجع السابق، ص ص 92-93

⁵-المختار باي، المرجع السابق، ص 554

أحمد برناز (ت 1726هـ): وله مؤلف سماه " الشهب المحرقة لمن ادعى الاجتهاد لولا انقطاعه من أهل المخرقة" وهو رسالة هجائية طويلة أنهى تأليفها يوم الاثنين 15 جمادى الأولى 1124هـ / 20 جوان 1712م وهي موجهة ضد فقيه حنفي يبدو أنه اغتاب المؤلف وأساء إليه، فالفقيه في رأيه صاحب المحرقة لأنه قال "لو لم ينقطع الاجتهاد لأدعيته"، كما يحتوي الكتاب الاجابة على بعض المسائل الفقهية المطروحة في زمانه وبين المؤلف أن إضاحات هذه المسائل تهدف إلى ابراز مدى جعل هذا الفقيه وادعائه الأخرق الفضيع وبلغ مجموع هذه الشهب مائة وستين وهي التي قذفها المؤلف في وجه عدوه.¹

محمد سعادة (ت 1757م): ظل محمد سعادة مشهورا بتضلعه في العلوم التقليدية، وكان معاصروه يتذوقون نثره ونظمه. وقد ألف كتاب سماه " قررة العين بنشر فضائل الملك حسين وقمع ذي المين" وقد فرغ من تأليفه أواخر محرم 1136هـ/ اكتوبر 1723م، في حين المؤرخ محمد الهادي العامري فيذكر عنوانه كما يلي " قررة العين بنشر فضائل الأمير حسين الممجد ونجله الأمير سيدي محمد"، والمطالع لهذه الكتاب يتضح له أن صاحبه صنفه ليدافع عن نفسه من جهة وليقرض ممدوحه (الباي) من جهة ثانية وليبرز علمه وقيمته وبالأخص مدى تبحره في علم الاحكام من جهة ثالثة.²

محمد المختار بن محمد العياضي: ينتمي إلى أسرة من باجة ثم استقر في مدينة تونس ولا يعرف بالتحديد تاريخ ولادته ويحتمل أن يكون 1717م من خلال مشايخه ألف كتاب تحت عنوان " مفاتيح النصر في علماء العصر" ويرجح أنه ألفه في أواسط القرن 18م، قدمه للباي علي باشا سنة 1756م، مدحه فيه مع أبنائه الثلاثة، ثم قدم تراجم لمعاصريه ممن عرفوا بغزارة علمهم، وعموما فالكتاب يتضمن مقتطفات نثرية وشعرية.³

محمد السنوسي: ولد سنة 1850م من أسرة تقلد أغلب أفرادها الخطط الشرعية، درس العلم في جامع الزيتونة على أيدي شيوخ أجلاء، وقد تكلمنا عنه أثناء حديثنا عن

¹- عبد السلام أحمد: المؤرخون التونسيون، المرجع السابق، ص ص 196-199

²- نفسه، ص ص 213-217

³- عبد السلام أحمد: المؤرخون التونسيون، المرجع السابق، ص ص 261-265

الحركة الإصلاحية، لقد ألف العديد من الكتب والذي يهمننا في هذه الفترة المدروسة كتاب مسامرات الظريف بحسن التعريف،¹ وهو يشتمل على تراجم علماء جامع الزيتونة والتعريف بالقضاة والمفتي الحنفية والمالكية وله أيضا كتاب "مجمع الدواوين التونسية" ويشمل الشعراء الذين ظهوروا خلال الفترة الحسينية متبوعة بدواوينهم وقصائدهم رتبة ترتيبا أبجديا.

الشعر: لقد عرفت الايالة التونسية في بداية الحكم العثماني مرحلة الكساد بالنسبة للحياة الشعرية نظرا لعدم اهتمام الحكام بالشعر لكن منذ تأسيس الدولة الحسينية سنة 1705مبدأت الحياة الأدبية الشعرية تأخذ منحى جديدا لعدة اعتبارات سياسية. وقد برز من الشعراء في أيام حسين بن علي المؤسس كل من محمد الوزير السراج، أحمد برناز، محمد سعادة وقد كان نظمهم ضعيفا لا أثر فيه للجودة والابتكار،² ويرى بعض الدارسين أنه خال تماما من فن الشعر فهو عبارة عن نثر ضعيف لكنه موزون القافية.³

أما المديح فقد صار الوسيلة التي يستخدمها البايات الحسينيون تجاه الشعراء والعلماء من أجل كسب ودهم وضمن بقائهم في الحكم لذا حرصوا على تشجيعهم وتحريكهم لمدحهم، لكن هناك من العلماء من رفض هباتهم ثل أبي عبد الله السنوسي وأحمد البارودي أما بقية العلماء والشعراء وجدوها فرصة للارتزاق ومن مشاهير شعراء العصر الحسيني نجد الشاعر محمد الورغي وأبو الحسن علي الغراب وحمودة بن عبد العزيز ومحمد بن سلامة وإبراهيم الرياحي ومحمد الخضار والباقي المسعودي ومحمد السنوسي وغيرهم.⁴

ب- علم التاريخ:

¹-نفسه، ص 468

²-العزي الهادي حمودة: الأدب التونسي في العهد الحسيني(1705-1881)، الدار التونسية للنشر-تونس، 1972، ص

38

³-حسن حسني عبد الوهاب: خلاصة تاريخ تونس، المرجع السابق، ص 235

⁴-العزي الهادي حمودة:المرجع السابق، ص 43

وقد ظهر العديد من المؤرخين خلال العهد الحسيني وكان أغلبهم أصحاب وظائف في الدواوين أو في التعليم لذا انصببت جهودهم في كتابة تاريخ مفصل للدولة الحسينية لم يهملوا منه إلا فترات قليلة التي منها فترة حكم علي باشا ومن حسن الحظ ظهر رجل من باجة اسمه الصغير بن يوسف لم يكن له منصب رسمي لكنه كان شغوفًا بكتابة تاريخ البايات الذين عاصروهم،¹ ومن أبرز المؤلفات التاريخية نذكر " ذيل بشائر أهل الايمان بفتوحات آل عثمان" لحسين خوجة وفيه يذكر فضائل حسين بن علي مؤسس الدولة الحسينية، كما يحتوي على تراجم العلماء التونسيون الذي عاصروهم لذا فهو مؤلف ذو قيمة وثائقية يترجم الحياة الثقافية في تونس بداية القرن الثامن عشر. ثم كتاب "الحلل السندسية في الاخبار التونسية" للوزير محمد السراج الاندلسي ويؤرخ أيضا لفترة الباي حسين بن علي في الجزء الثالث منه ونذكر أيضا كتاب "المشرع الملكي في سلطنة أولاد علي التركي" لمحمد الصغير بن يوسف الباجي ويتناول صاحبفترتي حسين بن علي المؤسس وابن أخيه علي باشا.

وهو من المصادر التي تروي الأحداث أقل تحيزًا من غيرها وخاصة أحداث الفتنة الباشية، أما "الكتاب الباشي" لمؤلفه محمود بن عبد العزيز فهو يؤرخ لعهد الباشا علي بن حسين وهو ذو طابع تمجيدي صريح لهذا الباي.

أما في القرن التاسع عشر فقد ظهر مؤلف العقد المنضد في أخبار الباشا أحمد، وقد سار فيه مؤلفه على نهج الكتاب الباشي حيث مدح فيه مخدمه أحمد باي كما يحتوي على خلاصة موجزة لتاريخ البايات الحسينيين كما ألف الأديب محمد الباجي المسعودي كتابه "الخلاصة النقية في أمراء إفريقية"، دون الذيل على ما يبدو سنة 1273م/1857م. تناول فيه المؤلف بصورة مختصرة تاريخ تونس لكنه تغلب عليه الصبغة التمجيدية وخاصة الفترة الحسينية كما غلب عليه طابع النقل، ونختم حديثنا عن الكتابات التاريخية بأهم وُلف تاريخي تناول عهد الحسينيين على الاطلاق وهو كتاب "إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان" لمؤلفه أحمد بن أبي الضياف، وهو كتاب شامل لتاريخ الحسينيين، لا

¹ -عبد السلام أحمد: المؤرخون التونسيون، المرجع السابق، ص 548

يمكن لأي باحث في التاريخ الحسيني الاستغناء عنه، وقد دون كتابه بين 1862م و1872م.

ج- علم الجغرافيا: يبدو أن مؤرخو القرنين السابع عشر والثامن عشر كانت معارفهم بالجغرافيا محدودة ويستثنى من ذلك ما ذكره مقديش في كتابه "نزهة الأنظار" حول الأهمية للإطار الجغرافي الذي تحدث عنه، أما مؤرخو القرن التاسع عشر فقد سافر أغلبهم إلى بلدان اسلامية وأخرى غربية لذا كان اهتمامهم كبير بهذه الأقطار ومن بين هذه المؤلفات نذكر كتاب "أقوم المسالك لمعرفة الممالك" لمؤلفه الوزير المصلح خير الدين التونسي "صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار" لصاحبه محمد بيرم الخامس الرحلة الحجازية لمحمد السنوسي.¹

د- علم الطب: وقد كان الاهتمام به قليلا خلال هذه الفترة الا أنه لا يخلو من وجود بعض المؤلفات من أبرزها ما كتبه حسين خوجة كتابه الأسرار الكمينية في أحوال الكينة كينة²، كما ألف عبد العزيز الجزيري وهو جزائري الجنسية، ألف كتابا في العقاقير النباتية سماه "كشف الرموز في شرح العقاقير والأعشاب" والطبيب أبو عبد الله محمد الحجيج وله كتابا أيضا عنوانه "تذكرة أولى الألباب والجامع للعجب العجائب".³

¹- عبد السلام أحمد: المؤرخون التونسيون، المرجع السابق، ص ص 559-561

²- نفسه، ص 238.

³- المختار باي: المرجع السابق، ص 538

انخاتمة

لقد استطاع الباي حسين بن علي التركي سنة 1705م، تأسيس دولة حسينية على أنقاض الدولة المرادية بعد أن تقلد عدة وظائف سامية حصل من خلالها على ثقة أهل الحل والعقد الذين عينوه بايا على تونس بعد انهزام ابراهيم الشريف وأسرته من طرف أتراك الجزائر سنة 1705م.

لقد تمكن الباي المؤسس من فرض نفسه على الجميع وحصل على إجماع الفاعلين السياسيين حول شخصه بالحصول على فرمان التزكية سنة 1708م، كما عمد على احتكار جميع الصلاحيات مباشرة أمور الدولة بيده دون المساس بظاهر تقاليد التشاور مع الأطراف المحلية والتركية غير أن اعتماده على سلطته المطلقة واعتقاده الخاطئ بأن تراب الايالة أصبح بمثابة " الحصار الذي طواه وجلس تحته".

وتنفيذه لسياسة استغلالية مجحفة عبر ما يسمى بنظام المشتري خاصة اتجاه المجموعات الريفية عجل بزوال ملكه بمجرد إقدامه سنة 1728م، إقصاء ولي عهده المفترض وابن أخيه علي باشا من الحكم، ونتج عن ذلك حرب أهلية وانقسام البلاد إلى صفين متناحرين الصف الحسيني والصف الباشي، وتمكن هذا الأخير من الانتصار بمساعدة أوجاق الجزائر سنة 1735م، وطرد حسين باي إلى القيروان وقتله سنة 1740م. انفراد علي باشا بالحكم وحكم الايالة بصرامة وحزم وانتهج سياسة قمعية تجاه معارضيه لذا نرى أغلب المصادر تتعته بأبشع الأوصاف وتعتبر فترة حكمه مرحلة انتقالية ضمن العائلة الحسينية، ابن أبي الضياف مثلا.

وعلى الرغم من ذلك فقد كان علي باشا عالما شجاعا حازما مهتم بالعلم والعلماء فنهض بالحركة العلمية بالايالة من خلال بنائه للعديد من المدارس ذات الفن المعماري الرفيع.

لقد تمكن أبناء المؤسس حسين علي اللذين فرا بدورهما إلى الجزائر من استغلال تنطع ابن علي باشا وولي عهده يونس عن سلطة أبيه سنة 1752م من استعادة حكم أبيهما بعد تلقي الدعم من طرف أتراك الجزائر وذلك سنة 1756م.

لقد تمكن ابنا المؤسس محمد الرشيد وعلي باي من طي صفحة الماضي ونشر السلم والطمأنينة في أغلب أرجاء البلاد إذ عرفت الايالة خلال تلك الفترة انتعاشة

اقتصادية امتدت حوالي نصف قرن من (1782م-1814م) وترجع تلك الانتعاشة إلى تحسن الأوضاع الطبيعية ومراجعة السياسة الاحتكارية للباييك ثم تدعت بسياسة حمودة باشا المتمثلة في جملة الاصلاحات التي أدخلها للآيالة في جميع المجالات، وقد اعتبر أغلب المؤرخين فترته العصر الذهبي للدولة الحسينية، ويمكن أن نقول أنه المجدد أو المصلح الذي أرسى القواعد الأساسية الأولى للدولة الحديثة.

بعد وفاة حمودة باشا سنة 1814م تدهورت النهضة الاقتصادية لعدة أسباب أبرزها احتكار الباي وأتباعه للتجارة واستقرار وضع أوروبا وتدخلها في أوضاع الآيالات المغربية وبذلك انقلب موازين القوى لصالحها بالإضافة إلى ذلك ضعف البايات وانهماكهم في الترف فكان التداين وكانت محاولات التحديث وبناء القصور والاكثار من العسكر واحداث اللزم والزيادة في الضرائب والعجز المالي وزيادة المجبى مما أدى إلى الحرب الأهلية 1864م فالعسف والتشريد والانهيار الاقتصادي التام فالاستعمار.

لقد عملت الآيالة التونسية على إقامة علاقات سياسية مع الدول الأوروبية المطللة على حوض البحر المتوسط بغية تعزيز استقلالها وتحقيق أهدافها. وقد اتسمت هذه العلاقات بالعداء وعدم الاستقرار تارة وبالصداقة والاستقرار تارة أخرى حسب مقتضيات المرحلة. وابتداء من بداية القرن التاسع عشر تحسنت العلاقات الفرنسية التونسية أكثر من ذي قبل وبدأ نفوذها بتزايد مع الدول الأخرى واشتد التنافس الأوربي عليها يشدد في النصف الثاني من القرن التاسع مما جعلها تقع فريسة في اخر المطاف للاحتلال الفرنسي عام 1881م.

شهدت الآيالة التونسية خلال القرن الثامن عشر انتعاشا ديمغرافيا كبيرا حيث وصل عدد السكان حسب بعض التقديرات 2000,000 نسمة ثم أخذ في التراجع نتيجة الأمراض والأوبئة التي أصابت الآيالة منذ نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر حتى وصل العدد حسب تقدير المؤرخ محمد بيرم الخامس حوالي مليون ونصف عام 1881م.

لقد عمد البايات الحسينيون الأوائل إلى إحداث تغييرات جذرية في نظام الحكم وخاصة العلاقة مع السكان فعمدوا إلى اشراك عناصر لم يتقلدو بعد المناصب العليا هذا في المدن أما في البوادي فاستعانوا بالقبائل المخزنية حيث تم دمجهم في دواليب الحكم، لكن بتغير الوضع الخارجي والداخلي للآيالة بعد 1815م، عمد البايات إلى الضغط على

المجموعات القبلية، أما بايات الاصلاح فقد شهد عهدهم تغيرات اجتماعية كتحرير العبيد سنة 1846م واصدار عهد الأمان 1857م، الذي دعى إلى المساواة بين فئات المجتمع وظلت العلاقة بين السلطة والنفوذ المحلي تتراوح بين التوافق والتحالف أحيانا والتنافر والتصادم أحيان أخرى.

في بداية الحكم العثماني للولاية أصيبت الحركة العلمية بنكسة خطيرة تفرق على إثرها العلماء وخربت مراكز العلم لكن بمجرد عودة الأمن إلى البلاد رجع العلماء واستقروا في مراكزهم وذلك بفضل مساعدة وتشجيع بعض الدايات والبايات المراديين، وبظهور الدولة الحسينية عرفت هذه الحركة نشاطا وتطورا بفضل اهتمام البايات الحسينيين بالعلم والعلماء فأسسوا المدارس التعليمية وزاد اهتمامهم بالجامع الأعظم عبر ترتيبات اتخذوها من أجل تنظيم التعليم به وكان قرار المشير أحمد باي سنة 1842م يعتبر الفريد من نوعه لأنه استطاع بفضل تنظيم عملية التعليم وكذا تثبيت شيوخه المدرسين وتحسين حالتهم الاجتماعية والمادية.

يؤكد المؤرخون التونسيون المعاصرون أن تونس شهدت حركة علمية نشطة منذ قدوم الأسرة الحسينية في حين يؤكد البعض الآخر محدودية الثقافة في تلك الفترة ويذكرون أن انتعاش الثقافة والعلوم بدأ مع ظهور الحركة الاصلاحية بداية من منتصف القرن 19م، ومهما يكن من أمر فإن القرن الثامن عشر شهدت ظهور العديد من المؤلفات العلمية والأدبية كما شهد عهد البايات الحسينيون الخمسة الأوائل الاعتناء المتزايد بجامع الزيتونة والمدارس العلمية المتواجدة في كامل القطر التونسي.

لقد شهدت تونس منذ منتصف القرن 19م حركة اصلاحية شملت جميع المجالات المختلفة وهذا لمسايرة الحدائة الأوروبية وكانت البداية من مبادرات البايات أنفسهم ثم حملت النخبة التونسية المثقفة على عاتقها مواصلة الاصلاحات، ويعتبر الوزير خير الدين أبرز من قادوا الحركة الاصلاحية حيث كان مصلحا وسياسيا ومفكرا إذ كانت لإصلاحاته التي قام بها أثناء تقلده الوزارة الأولى ابتداء من سنة 1873م إلى غاية 1877م الأثر البالغ في نهضة البلاد.

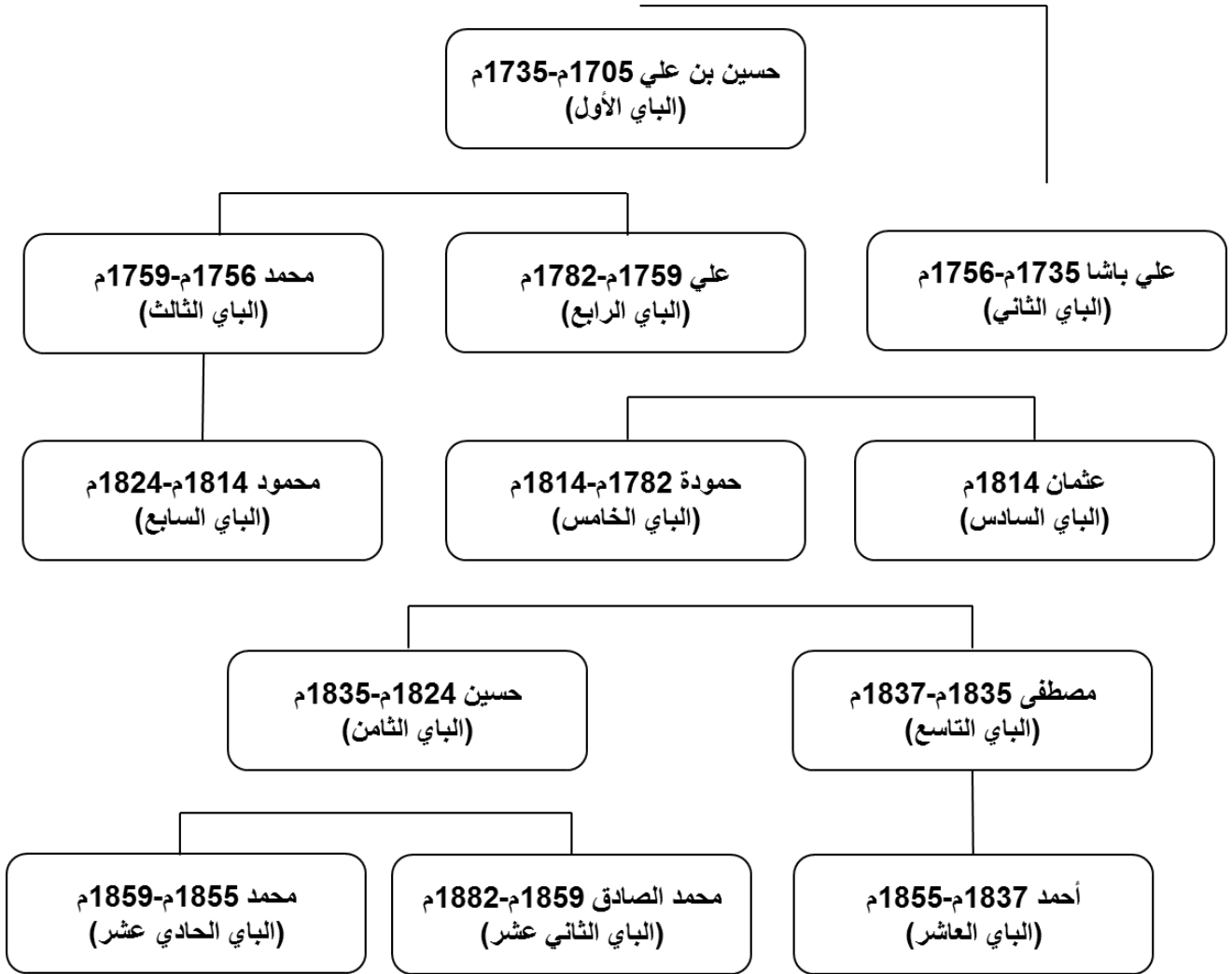
وبذلك ظهرت الحركة الاصلاحية ثم جاء عهد الأمان 1857م ودستور 1861م وانبثقت عنه مؤسسات سياسية لكن انتفاضة 1864م عجلت بإبطال العمل بالدستور، والعودة إلى الاحكام العرفية. إن حصيلة المسيرة الاصلاحية للنخبة التونسية كانت محدودة لعدة عوامل أبرزها تناقض الحدائين أنفسهم ومواطن قصورهم الكثيرة أما العامل الاخر فهو معارضة المناوئين المحليين للتحديث وعلى رأسهم رجال الدين بينما تمثل العامل الرئيسي في الاستعمار الفرنسي الذي دعم الاصلاحات في البداية لمصلحته ثم أجهز عليها في المرحلة الثانية لكي يحصل على مبتغاه وهو فرض الحماية على تونس سنة 1881م.

الملاحق

قائمة الملاحق

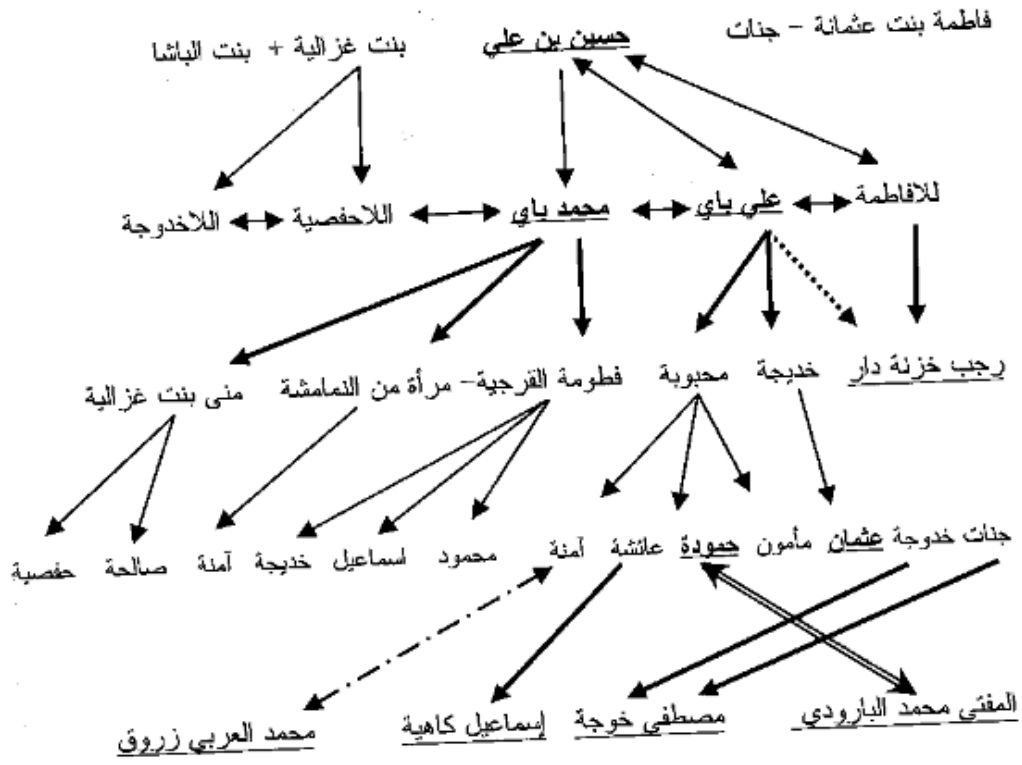
- الملحق رقم (01): قائمة البايات الحسينيين (1705م-1882م) 279
- الملحق رقم (02): شجرة نسب أبناء حسين بن علي 280
- الملحق رقم (03): رسالة الصدر الأعظم (رؤوف باشا) إلى المشير أحمد باي مؤرخة في 26 رمضان 1259هـ الموافق لـ 20 أكتوبر 1843م، حول تبعية تونس للدولة العثمانية. 281
- الملحق رقم (04): الأمر الصادر بإنشاء مطبعة عصرية في تونس بتاريخ 28 ذي الحجة 1276هـ الموافق لـ 18 جويلية 1860 283
- الملحق رقم (05): مخطط الجهاز القضائي والإداري 285
- الملحق رقم (06): مخطط الجهاز المالي للدولة 286
- الملحق رقم (07): معاهدة 24 جوان 1781م 287
- الملحق رقم (08): مواقع القبائل بالبلاد التونسية أيام الحسينيين 293
- الملحق رقم (09): العملة الحسينية في فترة الباي حسين بن علي وعلي باشا والباي علي بن حسين. 294
- الملحق رقم (10): جدول لانواع العملة التونسية 295
- الملحق رقم (11): رسم الحدود بين ايالة تونس والجزائر سنة 1845م 296
- الملحق رقم (12): خريطة الحد بين ايالة تونس والجزائر في سنة 1851م 297
- الملحق رقم (13): صورة الصفحة الأولى لأول عدد من صحيفة الرائد التونسية بتاريخ 22 جويلية 1860م 298

الملحق رقم (01): قائمة البايات الحسينيين (1705م-1882م)



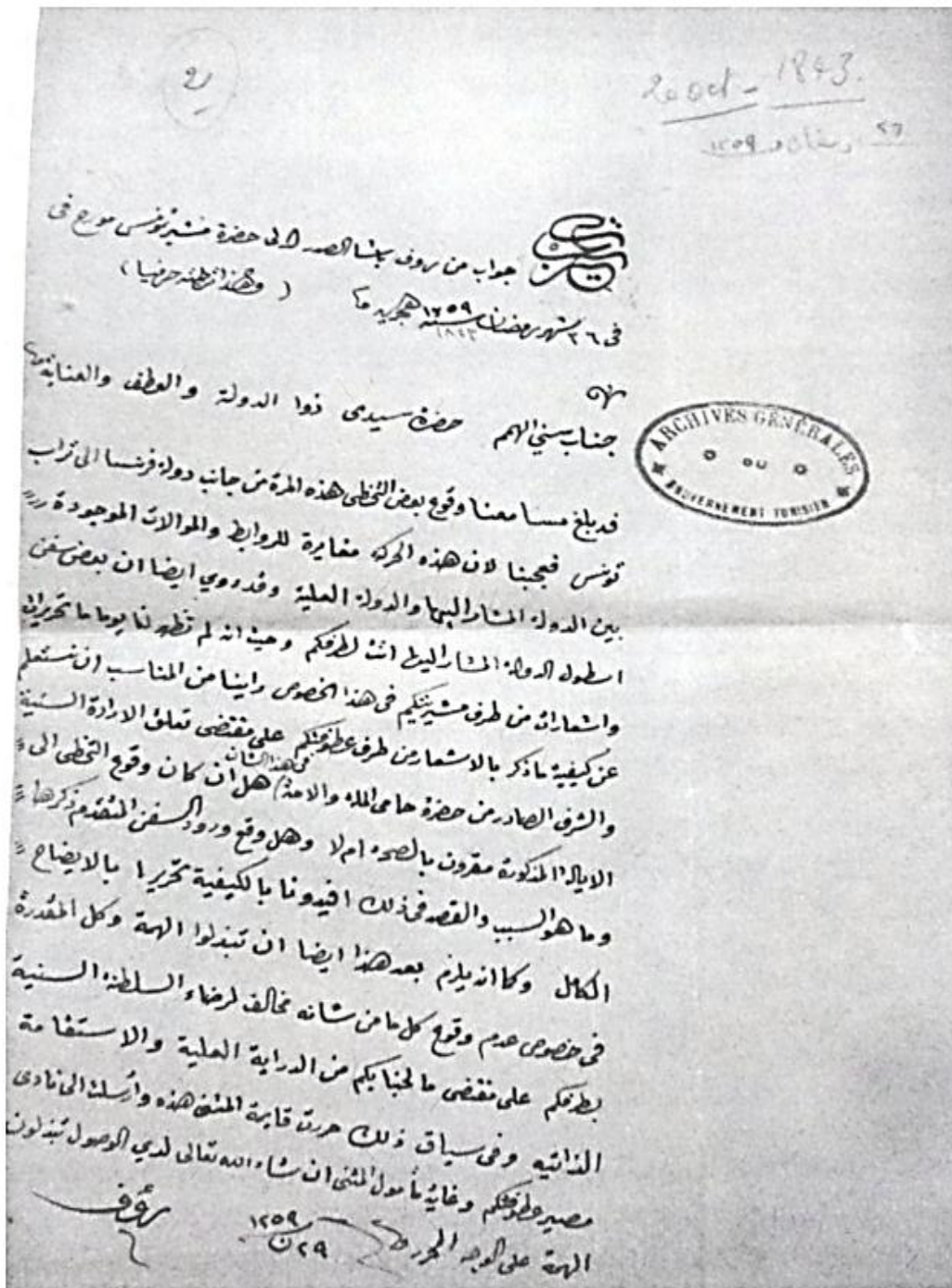
من اعداد الطالب

الملحق رقم (02): شجرة نسب أبناء حسين بن علي



سلوى هويدي: أعوان الدولة بالايالة التونسية، ص 265.

الملحق رقم (03): رسالة الصدر الأعظم (رؤوف باشا) إلى المشير أحمد باي مؤرخة في 26 رمضان 1259هـ الموافق لـ 20 أكتوبر 1843م، حول تبعية تونس للدولة العثمانية.



المرجع الأرشيفي: أ.و.ت. السلسلة التاريخية، ح. 220، م. 350، و. 02.

تعريب جواب من رؤوف باشا الصدر إلى حضرة مشير تونس مؤرخ في 26 شهر رمضان سنة 1259 هجرية 1843 (وهذا ترجمته حرفيا)

جناب سني الهمم حضرة سيدي ذوا الدولة والعطف والعناية قد بلغ مسامعنا وقوع بعض التخطي هذه المرة من جانب دولة فرنسا الى تراب تونس فعجبنا لأن هذه الحركة مغايرة للروابط والمواالات الموجودة بين الدولة المشار اليها والدولة العلية وقد روي ايضا ان بعض سفن اسطول الدولة المشار اليها اتت لطرفكم وحيث انه لم تظهر لنا يوما ما تحريرات واشعارات من طرف مشيريتكم في هذا الخصوص راينا من المناسب ان نستعلم عن كيفية ما ذكر بالاشعار من طرف عطوفتكم على مقتضى تعلق الادارة السنية والشرف الصادر من حضرة حامي الملة والامة في هذا الشأن هل ان كان وقوع التخطي الى الايالة المذكورة مقرون بالصحة ام لا وهل وقع ورود السفن المتقدم ذكرها وما هو السبب والقصة في ذلك افيدونا بالكيفية تحريرا بالايضاح الكامل وكما انه يلزم بعد هذا ايضا ان تبذلوا الهمة وكل المقدرة في خصوص عدم وقوع كل ما من شأنه مخالف لرضاء السلطنة السنية بطرفكم على مقتضى ما لجنابكم من الدراية العلية والاستقامة الذاتية وفي سياق ذلك حررت قائمة المثني هذه وأرسلت إلى نادى مصير عطوفتكم وغاية مأمول المثني ان شاء الله تعالى لدي الوصول تبذلون الهمة على الوجه المحدد. 29 ن سنة 1259 رؤوف

الملحق رقم (04): الأمر الصادر بإنشاء مطبعة عصرية في تونس بتاريخ 28 ذي
الحجة 1276هـ الموافق لـ 18 جويلية 1860

بسم الله الرحمن الرحيم
 في الجهد لله جللي انشاء مطبعة ومولانا محمد وعلي بنه وتخصيه رسم
 الاعز المنتخب امير اللوا ابرنا حسين مستشار الاسرة المخرجه ورئيس
 المجلس البلدي بمرسه الله تعالى بعين عنايته وامين السلام عليكم
 وبرحمة الله وبركاته. وبعد فاننا كنا سرحنا الوجه التاجر الانكليزي
 الشهير رشارد هولما بامرنا المورخ بثمان عشر جمادى الثانية سنة
 اثنى عشر لهد مطبعة باللغة العربية وغيرها في حاضرتنا تونس لما فيها
 من الفوائد التي لا تحصى ولا يفي بها العدد ولا تستقصي تطبع بها
 الصحيفة الدورية المعروفة بالجرنال لافادة عامة الناس الاوامر
 الحكيمه والاحبار المتجربة والاسعار الوقتية وحوادث الازمان في
 قواصي انيلدان وغيرها ذلك مما يعم نفعه علي شروط منها ان الناظر
 في احوالها وسائر امورها رئيس المجلس البلدي ومنها ان لا يتعرض
 بشيء من الامور السياسية الا اذا سوغه له الرئيس المذكور ومنها ان
 لا يطبع كلاما يتعلك باحد من الناس مما يشين العرض والمروءة ولو
 كان منقولا من جرنالات البلدان فالذي نامرك به الان ان تشرع
 في العمل بما تضمنته امرنا الذي بهد التاجر المذكور وان تسمي
 صحيفة الاخبار باسم الرايد التونسي وان تخصص منها قسما
 لذكر احكامنا الرسمية التي ترد اليكم بواسطة وزيرنا الاكبر وزير
 العمال: والله تعلي يتولي اعانتكم ويديم حفظكم ورعايتكم والسلام
 من الفقير اليه تعلي عبده المشير محمد الصادق باشا باي
 صاحب الملكة التونسية سدد الله احواله بامر
 وكتب في ٢٨ ذي الحجة المعرام سنة ١٢٧٤ هـ

جريدة الرائد التونسية، ع.1، السنة الأولى، 1277 هـ، 1860م.

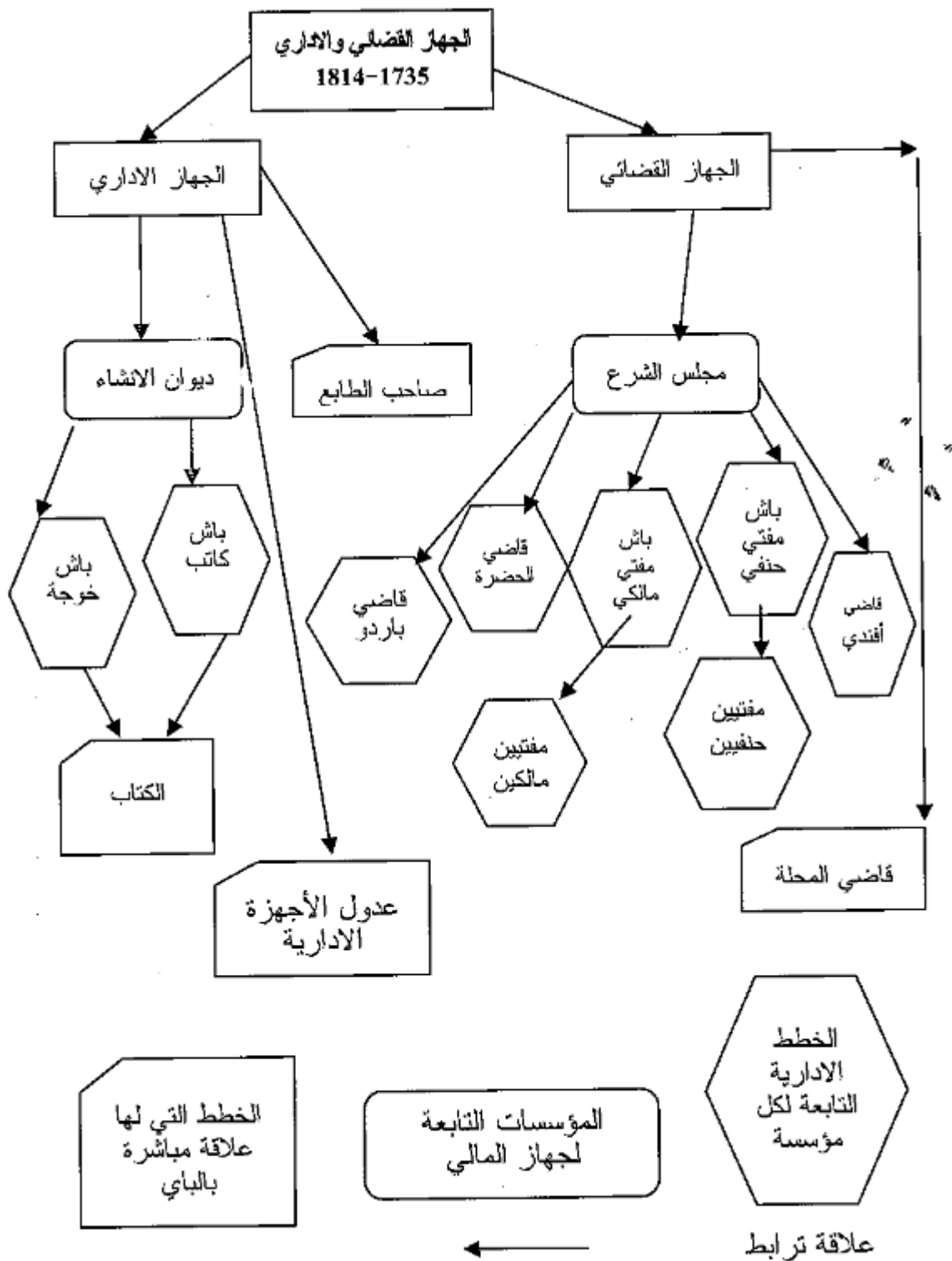
قسم رسمي

* الحمد لله صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم *

الأعز المنتخب أميرنا اللواء ابننا حسين مستشار الأمور الخارجية ورئيس المجلس البلدي حرسه الله تعالى بعين عنايته ءامين السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وبعد فإننا كنا سرحنا الوجيه التاجر الإنكليزي السينيور ريشارد هولط بأمرنا المؤرخ بثناني عشر جمادى الثانية سنة التاريخ لعمل مطبعة باللغة العربية وغيرها في حاضرتنا تونس لما فيه من الفوائد التي لا تحصى ولا يفي بها العد ولا تستقصى تطبع بها الصحيفة الدورية المعروفة بالجرنال لإفادة عامة الناس الأوامر الحكمية والأخبار المتجرية والأسعار الوقتية وحوادث الأزمان في قواصي البلدان وغير ذلك مما يعم نفعه على شروط منها أن الناظر في أحوالها وساير أمورها رئيس المجلس البلدي ومنها أن لا يتعرض لشيء من الأمور السياسية إلا إذا سوغه له الرئيس المذكور ومنها أن لا يطبع كلاما يتعلق بأحد من الناس مما يشين العرض والمروءة ولو كان منقولا من جرنالات البلدان فالذي نامرك به الآن أن تشرع في العمل بما تضمنه أمرنا الذي بيد التاجر المذكور وأن تسمي صحيفة الأخبار باسم الرايد التونسي وأن تخصص منها قسما لذكر أحكامنا الرسمية التي ترد إليكم بواسطة وزيرنا الأكبر وزير العمالة والله تعالى يتولى إعانتكم ويديم حفظكم ورعايتكم والسلام من الفقير إلى ربه تعالى عبده المشير محمد الصادق باشا باي صاحب المملكة التونسية سدد الله أعماله ءامين وكتب في 28 ذي الحجة الحرام سنة

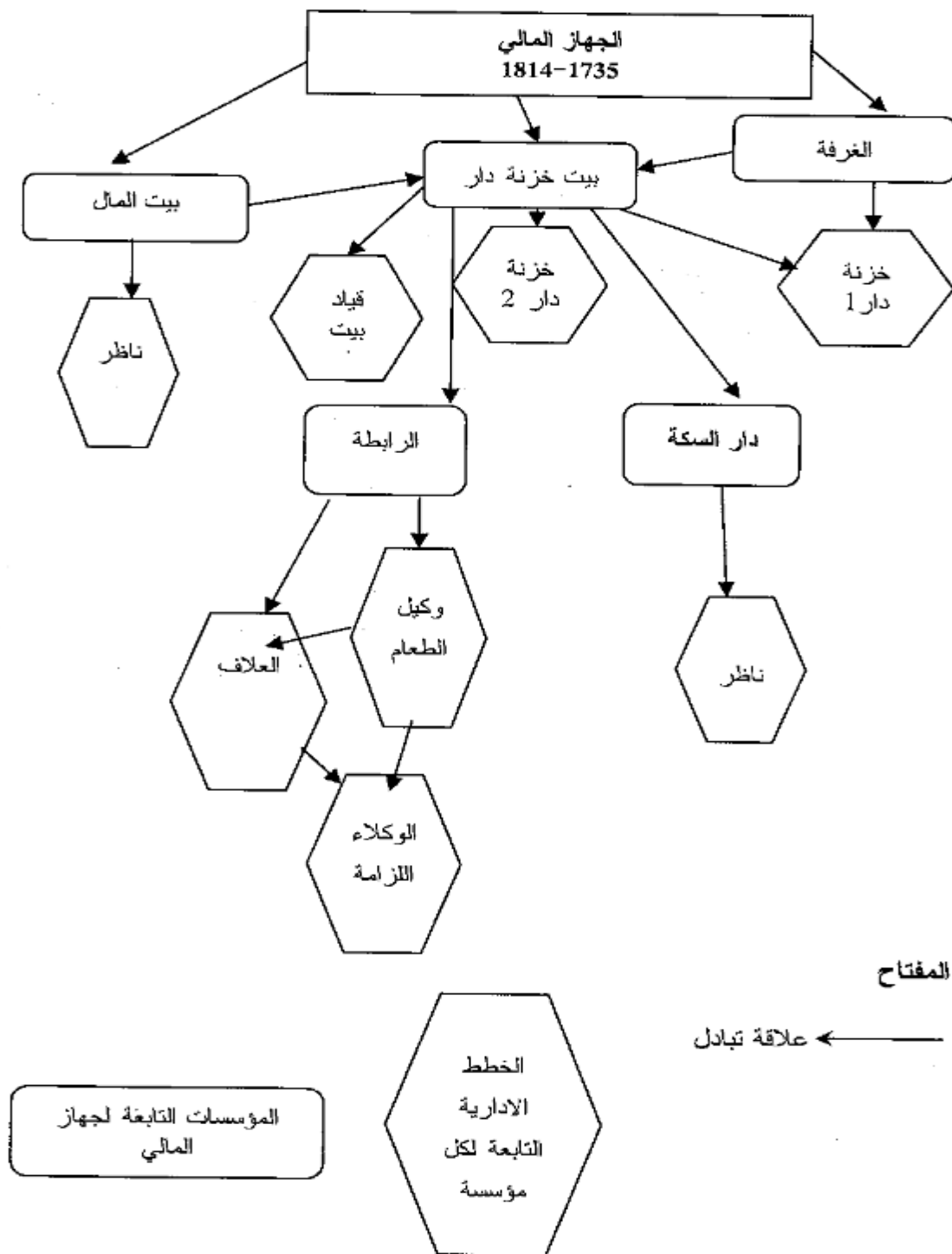
.1276

الملحق رقم (05): مخطط الجهاز القضائي والإداري



سلوى هويدي: أعوان الدولة بالايالة التونسية، ص 82.

الملحق رقم (06): مخطط الجهاز المالي للدولة



سلوى هويدي: أعوان الدولة بالايالة التونسية، ص 49.

Articles Lxxviiième.

Les Agents de la Compagnie Royale d'Affrique -
 pouront dans les lieux de leurs établissements avoir toute -
 la tranquillité et sûreté qui leur est nécessaire des mêmes -
 privilèges accordés au Consul de l'Empereur de France -
 résidant à Tunis et ils pourront faire dans tout son terri -
 toire l'exercice libre de la Religion chrétienne sans que personne -
 puisse les inquiéter à ce sujet, mais il ne leur sera pas -
 permis de braver les cloches, ni de chanter de façon à être -
 entendue des passants.

Article Cxxvème

Si il arrivait quelque procès ou discussion entre un Musulman -
 et des agents préparés par la Compagnie Royale d'Affrique -
 ou quelques autres personnes attachées à leurs services, l'affaire -
 sera par l'entremise du Consul de l'Empereur de France -
 portée au Tribunal de la Saïda de Tunis ou elle sera jugée -
 définitivement, et pour cet objet il sera expédié des Ordres -
 à tous les Gouverneurs et Princes de ce Royaume afin qu'ils -
 n'en usent point à l'usage d'ignorance.

شروط رابع

ونكونه زواجه بطلاق تجاري فرفزون نصب لفظه وكلاهما ساكنين في بلادهم
 ورفوز الالاطوب كوكورس تونس مضمون اوله زواجه باليونانية وعابى موصوفه كقولون وفي
 رعابى بالتمخلة كرو ضايرين نصاري ويخيه عبادتة كمنه من اخاه ونحوه اليه بالتمخلة
 ناقوس وضوايق على اذنا ليله وليله

شروط خامس

واكر تجارهم كذا وكلاهما باخود كذا ونبيع ادموي وكبيري برسلان ادموي ونبيع
 الكاديه فوزه كروسه كرمعيم زواجه باليونان موصوفه بالتمخلة اطلبه اتمخلة
 حضور كبرين فضل لفظه بائدين عمله حكام وقاديرين جنبه وتاكد لفظه

Lev. Archives. 1841
 38. Tullele

Partie huitieme

Les habitans et les militaires destines a la poche du Comitat
ne seront fournis de leurs denrees pour le jour de leur
armement de Corsaire en son lieu autre que dans le
quelque Corsaire sur en mer. Sur dans les ports de ce
Royaume seront a occasionner de tremble ou du Dimanche
des soldats habitans il sera severement chassé en ayant
aux preuves de fait et lorsque les soldats de leurs habitans
dans quelque ports de ce Royaume, et leur sera la loi d'habiter.

Pointe d'Amery

Partie Neuviesme

Si la Royne d'Alger vient a prendre quelque nombre
de matelots a la conclusion de traitte de ce port de ce
cette ville le Roy d'Alger s'engage a leur de faire toujours
a ce port les habitans de ce port de ce port de ce port
habitans qui neque entre de la Royne d'Alger
et la Corsaire d'Alger a d'Alger dans le cas d'Alger
s'ils elle voudrait occuper la mediterrane.

شروط نامن

صید و جان تصدین نظر فایده ای و کبیر و دلت نویسیه در حمایت و صیانت از حقوق و
دوفاهی سیه و کسایم چون کفر اسلام از منع و تعویق نمیده و اگر قورصله درون بیرون
در کوزن و غیره از لوزن نژاد فایده ضرر اوردسه بعد از آن حقدن کنده و اگر
دوفاهی سیه و کسایم و اخذ و تمهه تقاضا در نژاد فایده ضرر اوردسه و غیره مطابق بر لیسان

دصل ۱۰۰۰ در مورد سید و کبیر و دلت نویسیه در حمایت و صیانت از حقوق و
دوفاهی سیه و کسایم و اخذ و تمهه تقاضا در نژاد فایده ضرر اوردسه و غیره مطابق بر لیسان

شروط ناسع

و اگر واقع اریق الذم خطوی باشد و فکر فرایده بکاف و محرمه غیر از طرفین بود حاصل
اوردسه باشا کاش را ایدم و علم و علم و محرمه کسایم نام بیورد و باقی ذوق و غیره
خاطر برین کلمه ضمیمه ایدم و ضمیمه برین کلمه ضمیمه ایدم و ضمیمه برین کلمه ضمیمه ایدم

الملحق رقم (09): العملة الحسينية في فترة الباي حسين بن علي وعلي باشا والباي علي بن حسين.



- N° 1. Nasri carré d'argent, date illisible, sultan Ahmed ben Mohamed (2 sultans ont porté ce nom : le 1^{er} de 1603 à 1617, le 2^e de 1703 à 1730).
- N° 2. Hussein, 1^{er} bey husseinite : 1/4 piastre argent, 1140. Sultan Ahmed.
- N° 3. Ali, 2^e bey husseinite : qafci cuivre, 1157.
- N° 4. Ali, 2^e bey husseinite : 1/8 piastre argent. Sultan Mahmoud, 1153.
- N° 5. Ali, 2^e bey husseinite : 1/4 piastre argent. Sultan Mahmoud, 1150.
- N° 6. Ali, 2^e bey husseinite : caroube argent. Sultan Mahmoud, 1167.
- N° 7-8. Ali ben Hussein, 4^e bey : qfaças cuivre. Tunis, 1173, 1180.
- N° 9. Ali ben Hussein, 4^e bey : fels cuivre. Sultan Mustapha, 1186.
- N° 10. Ali ben Hussein, 4^e bey : sultani or. Sultan Mustapha, 1181.
- N° 11. Ali ben Hussein, 4^e bey : fels cuivre. Sultan Abdulhamid, 1191.

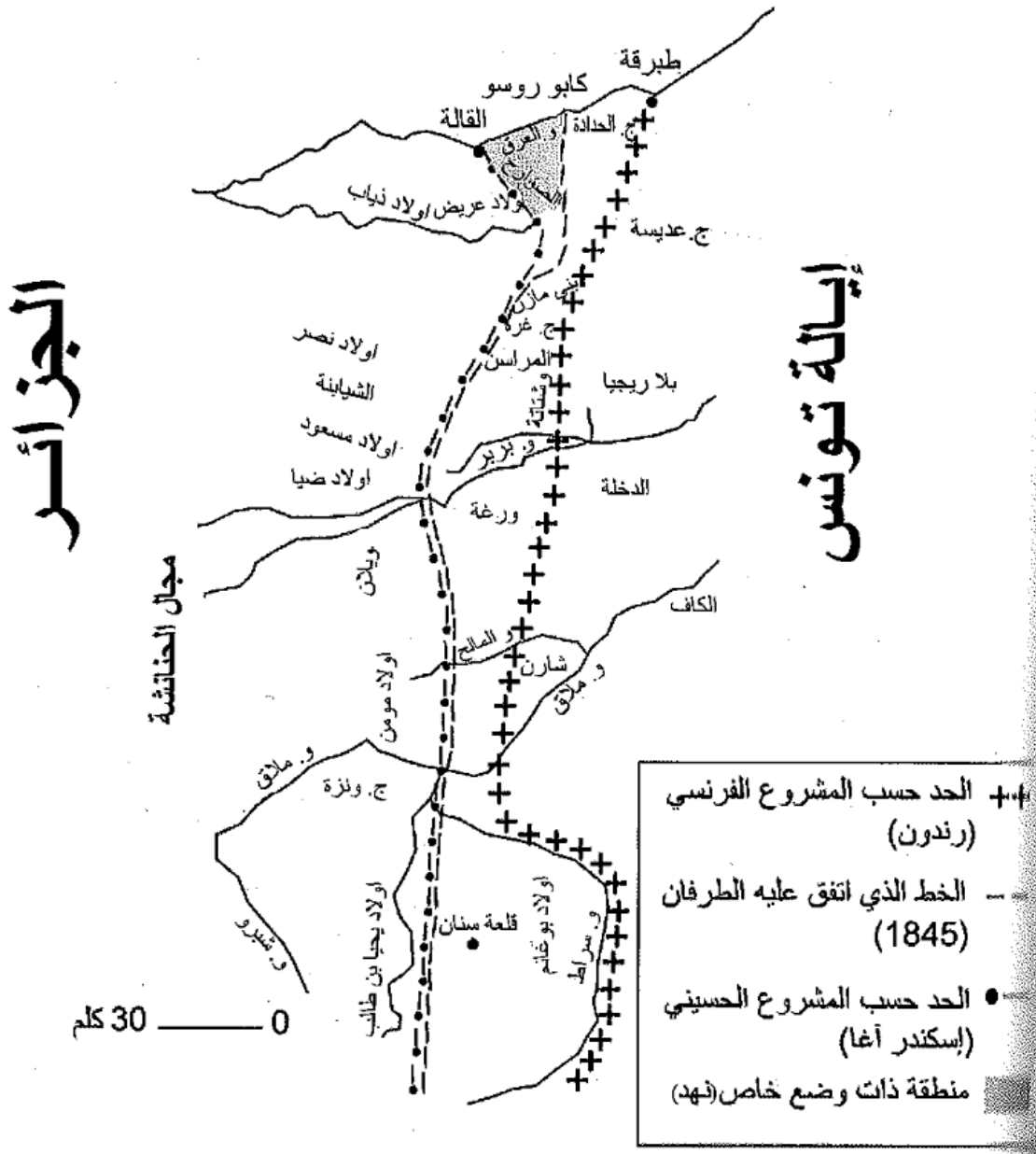
Henri Hugon, Les Emblèmes Des Beys De Tunis Ernest Leroux, P19.

الملحق رقم (10): جدول لانواع العملة التونسية

NOMS ARABES	NOMS FRANKS	VALEUR ¹
ريال rial	piastre	16 caroubes.
خروبة kharrouba	caroube	{ 3 nasri 1/4 (39 flousreqaq) ou 1/16 ^{me} du rial.
ناسري nasri	{ aspre, blanquille, { aqtcheh en turc }	2 flous ou 1/52 ^{me} du rial.
فلس fels (plur: flous)	bourbe	{ 1/2 nasri ou 6 flous reqaq ou 1/104 ^{me} du rial.
قبصي qafci (ou hidra) ou فلس رفيف fels reqiq	bourbine	{ 1/12 ^{me} du nasri ou 1/624 ^{me} du rial.

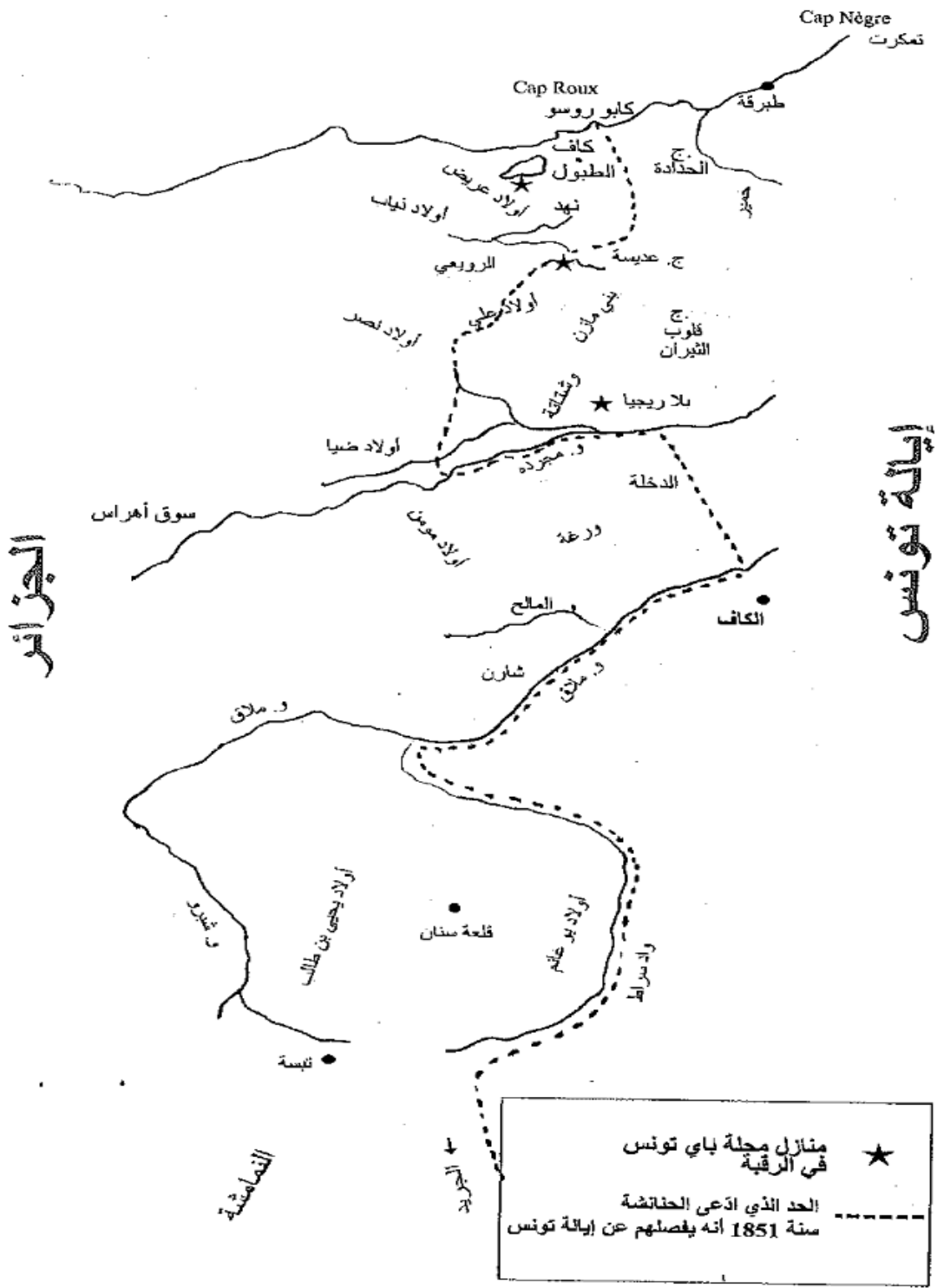
Henri Hugon, Les Emblèmes Des Beys De Tunis Ernest Leroux, P23.

الملحق رقم (11): رسم الحدود بين ايةالة تونس والجزائر سنة 1845م



بن سليمان فاطمة: الأرض والهوية، ص 297

الملحق رقم (12): خريطة الحد بين ايالة تونس والجزائر في سنة 1851م



بتصرف عن وثائق عدد 15

بن سليمان فاطمة: الأرض والهوية، ص 298

الملحق رقم (13): صورة الصفحة الأولى لأول عدد من صحيفة الرائد التونسية بتاريخ 22 جويلية 1860م.

العدد الأول • يوم الاحد رابع شهر الحرام سنة ١٢٧٧ هجرية الملال ٢٢ ربيعة العجمية سنة ١٨٩٠ مسيحية • السنة الأولى

• تبرز الصبغة مرة في الاسبوع

• المجتهد في الممارسة

• نقدا مصنف سنة مقلقة

• نقدا مصنف سنة أشهر

• المجتهد لسير بلدان الملكة

• نقدا مصنف سنة مقلقة

• نقدا مصنف سنة أشهر

• المجتهد لاسمك الجنيبة

• من سنة

• هي سنة أشهر

• فن الصبغة الواحدة رسالة

• أماكن يبعثها في الملكة

• في المصارف

• في القبول

• في مكاتب مكرويس البرقية

• في حرسه

• في محاربه

• أماكن يبعثها خارج الملكة

• في الجزائر عند مستبد كسي

• في تونس الغرب عند التجار ركركو انون

• في الاضطرورية عند التجار ومعلم سبا

• في بيروت عند مستبد التجار موسى شويكت

ricordo le Associazioni: in Parigi, de' Signori Meinmann et Cie, 15, quai Voltaire; — in Marsiglia, presso i Signori Cernaio fratelli; — in Malta presso il Signor Noir; nelle altre parti d'Europa presso i principali librai.

المعروف الأمتناجيه تستتبع اذاعة كرمين بكثرة الشغل وقصورا في الاثر من قوم الاتانة اذ كان قد استمرت على تلكه الحال لاصرة بهذا العاريف تن حد كطمانا الى ان اقيم الله طيلة من المكوي على استنباط الصناعات واستخراج جواهر العلوم * بغوس العلوم * الى انتشار هاته المطابع النافرة ببايسرهي في اقل زمن صغافر متكاثرة يذخر تحت لوح مرصود انخراج الجوزيات صحت الصلبي صغوفة في التعريف بحفظه * تجلثت به الاتانة بالكتابة لهيتها ويسر استعمالها اشتدات العلوم واستكالمها بتصادف الاكثر * التبادلة في الاطلاع والاعمال * وبش تلتاح الازار والويد الانبيل * واستجدابسا من شرايح الاذاني والاعمال واصبحت صناعة الطباعة بهاته الجودي التي غابت تغريف الاعمال وكارت ثلثيات الحسا * ذات رمان نوافر * في اميات المرافرة سبنا نواب اوريا * فان العمان شامت بانها مغرب شليلة لاصريه شمية للويها * وان ساطنيتها اسعد الناس باضراك غبارها واطفال ازهارها * لا حصارا على من تورق الحارف وتكاثرت الاثون وتكامل الصناعات المستوردة للغة والثرة وتنادت التعرّب وتقال الهوان وبها استقرت ماضرها الباغرة الرابحة في الفاضرة ظهور النص في الرابحة * نالك لارتباب ان من اعطها الصصاف البرومية والاسبوية * والفتحة نشر اراسر الدولة الحكريه وميات الرسوم السياسي * وتناج الاطلاع الصلبي * وحوادث الاطلاع التايه وديان الاسرار الوثنية نعمة الفضل * في فاق المرافع الي مايشاليسا من اوجه المرافق * مغرفة في تلب مقبول لسفر الطبايع بسهولة تدار * وعذوبة مفاطعه ومصلحه * وايهاز كله * وتلب سبداه وعنتيه * موشع صخر كدمه * صخر سوك الساقه * باسائل وحكم مرتداه * ولواحد وطريقات متعلمه * في صا احزته في هذه المقاصد التبيلة قد صحت بهذه الطبايع * وقوسج خيرة الانتفاع * غاصتهم وليلهم * وقوههم وضميلهم * لتعود كل منها بحسب وسعه * واحداث المناسبة لهما بايهمه * على لاكتساد تري بين الفهرم اميا * ولا عاريا من لوايدها غلبا

تسمر ريسوي

في هذا قد مالي تاه بين * بدنا وسولنا صعد وبي * انه وهجه ريس *

بذره المكتوب اميرالعلم انما حاسين مستشار الاسر الحريمه وريس المجلس البلدي حرمه الله تعالى بهن عنيتهم ما بين تسلح حليكم حرمه الله وركبته وبعد فلانا كنا حرمنا الوجهه اللجر الاكثر في الشهر ريشله هولما باسرا للوجع الثاني هجر جساد في القايه سنة التلخ لول مطبوعه بالغة العروبة وغيرها في حاضرتنا تونسيا فيها من القواد التي لا يصح ولا ياي بها الحد ولا تستصني تطبع بها الصبغة الدورية المرمولة بالوزن لانه عامه الناس الاواسر الحكيه ولا يخبر الخبير ولا يفسر الوثنية وحوادث الاضوان في قايص التبدان وغير ذلك مما يعم لصد في شروط منها ان الناظر في اعمالها وسير امورها وريس المجلس البلدي ومنها ان لا يخبر شي من الامور السياسي الا اذا سؤده له ترويس للذكر ومنها ان لا يطبع كلاما يتعلق باحد من الناس بما يكون العرف والمروة وار كان متقولا من جزوات البلدان والذي ناسرك به الا ان تشع في الهل ما تضمنه امرنا الذي بهد التناجر المذكور وان تصني صيغة الاعمال بلسر الزيد الترتبي وان مخصص منها قسما لذكر اسكاننا البرية التي ترد اليكم بواسطة وزيرنا الاكبر وزير الهل * والله تعالى يتولى اعانتكم ويحكم حلفكم ويحكمكم والسلام من القادر اليه تعني ميده المشير صمد الصادق باشا باي صاحب الملكة التونسية سدد الله افعاله ما يري

• وكتب في ٢٨ ذي الحجة الحرام سنة ١٢٧٧

تسمر ريسوي

قد جرت عادة المذهب للصبغيات الجورية ان يقتصر الصبغة الاول منها بقدرة مختصيه تنصم الاشارة الى اسول الملك * والدر وتواعد السياسات الرابحة بين زوايها ما يتوقف عليه فهم كثير من الكلام على احوالها ولا يفسر امة التلغرين نفس املحة التي لم تتشبه فيها تلك الصبغيات ولم يهتم اهلها باستلام حوايد اوريا وقواعد ملكها غير ان استيفاد تلك الاسود على وجه صوابي تصيف منه لطافات الصبغيات المحيطة فضلا عن صرح صرحة

• فوجب تقدمه الاشارة الى سماتها على وجه اجمال منسب لصال تاخر ان قسم اريا يحتمى الان على عدة ملك ودل منها دول نظام تجارة بالرتبة كدولة الكتيرة اي الاكلاب وارناسا واليوسا اي المرسوك واورترا اي التماسا وريوسا ودولة نال عمان وسوسا دول دولها غير الهامفاترة اي اشهرها دولة اسبانيا وسرانيا واسود والحدانوك واليهيوك والبريان واحكام هذه الدول نوعان مغرب وهم

بما طالبه لتفسير الصادق * اتتم بهذا الزيد الرابح بالهيك بالاعمال من نصها * متعلبا للصيد الفايك ريس من الادب ارضاره * صمسي لتناظر والتلف زان به الحضره ملكها * دامت به صمسي من الطرز ياصح عن لغواه تلي بقه * التي يخبر رايه ان انت

تسمر ريسوي

قد جرت عادة المذهب للصبغيات الجورية ان يقتصر الصبغة الاول منها بقدرة مختصيه تنصم الاشارة الى اسول الملك * والدر وتواعد السياسات الرابحة بين زوايها ما يتوقف عليه فهم كثير من الكلام على احوالها ولا يفسر امة التلغرين نفس املحة التي لم تتشبه فيها تلك الصبغيات ولم يهتم اهلها باستلام حوايد اوريا وقواعد ملكها غير ان استيفاد تلك الاسود على وجه صوابي تصيف منه لطافات الصبغيات المحيطة فضلا عن صرح صرحة

• فوجب تقدمه الاشارة الى سماتها على وجه اجمال منسب لصال تاخر ان قسم اريا يحتمى الان على عدة ملك ودل منها دول نظام تجارة بالرتبة كدولة الكتيرة اي الاكلاب وارناسا واليوسا اي المرسوك واورترا اي التماسا وريوسا ودولة نال عمان وسوسا دول دولها غير الهامفاترة اي اشهرها دولة اسبانيا وسرانيا واسود والحدانوك واليهيوك والبريان واحكام هذه الدول نوعان مغرب وهم

تسمر ريسوي

قد جرت عادة المذهب للصبغيات الجورية ان يقتصر الصبغة الاول منها بقدرة مختصيه تنصم الاشارة الى اسول الملك * والدر وتواعد السياسات الرابحة بين زوايها ما يتوقف عليه فهم كثير من الكلام على احوالها ولا يفسر امة التلغرين نفس املحة التي لم تتشبه فيها تلك الصبغيات ولم يهتم اهلها باستلام حوايد اوريا وقواعد ملكها غير ان استيفاد تلك الاسود على وجه صوابي تصيف منه لطافات الصبغيات المحيطة فضلا عن صرح صرحة

• فوجب تقدمه الاشارة الى سماتها على وجه اجمال منسب لصال تاخر ان قسم اريا يحتمى الان على عدة ملك ودل منها دول نظام تجارة بالرتبة كدولة الكتيرة اي الاكلاب وارناسا واليوسا اي المرسوك واورترا اي التماسا وريوسا ودولة نال عمان وسوسا دول دولها غير الهامفاترة اي اشهرها دولة اسبانيا وسرانيا واسود والحدانوك واليهيوك والبريان واحكام هذه الدول نوعان مغرب وهم

تسمر ريسوي

قد جرت عادة المذهب للصبغيات الجورية ان يقتصر الصبغة الاول منها بقدرة مختصيه تنصم الاشارة الى اسول الملك * والدر وتواعد السياسات الرابحة بين زوايها ما يتوقف عليه فهم كثير من الكلام على احوالها ولا يفسر امة التلغرين نفس املحة التي لم تتشبه فيها تلك الصبغيات ولم يهتم اهلها باستلام حوايد اوريا وقواعد ملكها غير ان استيفاد تلك الاسود على وجه صوابي تصيف منه لطافات الصبغيات المحيطة فضلا عن صرح صرحة

• فوجب تقدمه الاشارة الى سماتها على وجه اجمال منسب لصال تاخر ان قسم اريا يحتمى الان على عدة ملك ودل منها دول نظام تجارة بالرتبة كدولة الكتيرة اي الاكلاب وارناسا واليوسا اي المرسوك واورترا اي التماسا وريوسا ودولة نال عمان وسوسا دول دولها غير الهامفاترة اي اشهرها دولة اسبانيا وسرانيا واسود والحدانوك واليهيوك والبريان واحكام هذه الدول نوعان مغرب وهم

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

أولاً- الوثائق الأرشيفية:

أ-الأرشيف الوطني التونسي:

1.أ.و.ت: الدفتر رقم 85 مصاريف مختلفة بين 1755م-1758م فترة محمد الرشيد.

2.أ، و، ت: مل 58، ح 204.

3.أرشيف دار الباي بتونس: الدفتر 227

4.الدفتر رقم: 11.

5.و.ت: مل 412 ورقة رقم: 274

ثانياً-المصادر:

أ-المصادر المخطوطة:

1.حمودة بن عبد العزيز: الكتاب الباشي، مخطوط بدار الكتب الوطنية بتونس، رقم 1794.

2.ابن سلامة محمد الطيب: العقد المنضد في أخبار المشير الباشا أحمد، مخطوط بدار الكتب الوطنية بتونس، رقم: 18618.

ب-المصادر المطبوعة:

1-المصادر بالعربية:

1.ابن أبي دينار: محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني: المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، دار المسيرة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط3، 1993.

2.ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مج 5، دار الكتاب العربي، بيروت، 1965.

3.ابن المفتي: تاريخ باشوات الجزائر وعلمائها، جمع فارس كعوان، ط1، بيت الحكمة، الجزائر، 2009.

4.أحمد ابن أبي الضياف: إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمام، 8 أجزاء، تح: لجنة من كتابة الدولة للشؤون الثقافية والأخبار، الطبعات: 1963، 1977، 1999، 2004.

5.أحمد الشريف الزهار: مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار نقيب أشرف الجزائر،

- تح: أحمد توفيق، المدني الشركة الوطنية لنشر والتوزيع، الجزائر، 1974.
6. ايريس: ج.أو هابنسترايت رحلة إلى الجزائر وتونس وطرابلس (1732م-1145هـ)، ترجمة وتعليق ناصر الدين سعيدوني، ط1، دار الغرب الإسلامي، 2008.
7. حسين خوجة: ذيل بشائر أهل الايمان بفتوحات آل عثمان، تح وتق: الطاهر المعموري، الدار العربية للكتاب، تونس-ليبيا-1975م.
8. حمودة ابن عبد العزيز: الكتاب الباشي، تح: محمد ماضور، ج1، قسم السيرة، الدار التونسية للنشر، تونس، 1970.
9. الصغير بن يوسف: المشرع الملكي في سلطنة أولاد علي التركي، تق وتح: أحمد الطويلي، 3 أجزاء، المطبعة العصرية، تونس، 2009، 2008، 1998.
10. عبد الرحمان الجبرتي: عجائب الآثار في تراجم الأخبار، ج 4، تح: حسن محمد جوهر، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة، مصر.
11. عبد الرحمان بن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، مج 03، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1968.
12. عبد العزيز الثعالبي: تونس الشهيدة، تر: سامي الجندي: دار القدس، بيروت، 1975.
13. محمد ابن أحمد الهروي: تهذيب اللغة، ج11، تح: محمد عوض مرعب، دار احياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 2001.
14. محمد الباجي المسعودي: الخلاصة النقية في أمراء افريقية، تح: محمد زينهم محمد عزب، دار الأفاق العربية القاهرة، مصر، 2012.
15. محمد الباجي المسعودي: عقد الفرائد في تذييل الخلاصة وفوائد الرايد، مطبعة بيكار وشركائه، نهج أنبيال، العدد: 04، تونس، 1323هـ.
16. محمد الصالح العنتري: فريدة منسية في حال دخول الترك بلد قسنطينية واستلائهم على أوطانها، تح: يحي بوعزيز، دار هومة للنشر والطباعة والتوزيع، الجزائر، 2005.
17. محمد النيفر: عنوان الأريب عما نشأ بالمملكة التونسية من عالم وأديب، تذييل واستدراك علي النيفر، جزئين، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1996.

18. محمد الوزير السراج: الحلل السندسية في الأخبار التونسية، تح: محمد الحبيب الهللة، 3 أجزاء، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985م.
19. محمد بن الخوجة: تاريخ معالم التوحيد في القديم وفي الجديد، ط2، تح وتق: الجيلاني بن الحاج يحيى، حمادي الساحلي، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان، 1985.
20. محمد بن الخوجة: صفحات من تاريخ تونس، تق وتح: حمادي الساحلي والجيلاني بن الحاج يحيى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1986.
21. محمد بن عبد الله الزكشي: شرح الزركشي على مختصر الحزقي، تح: وتخرىج عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين، ج4، 1410هـ.
22. محمد بن عثمان الحشائشي: الهدية في العادات التونسية، تقديم وتح: احمد الطويلي، محمد العنابي، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، تونس، 2002.
23. محمد بن عثمان السنوسي: الرحلة الحجازية، ج1، تح: علي الشنوفي، الشركة التونسية للتوزيع، 1976.
24. محمد بن عثمان السنوسي: مسامرات الظريف بحسن التعريف، تح: محمد النيفر ومحمد الشاذلي، 3 أجزاء، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1994م.
25. محمد بن عمر السنوسي: تشحيد الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان، تح: خليل محمد عساكر ومصطفى محمد مسعد، الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1965.
26. محمد بيرم الخامس: صفوة الاعتبار بمستودع الأنصار والأقطار، جزئين، دار الكتب العلمية، لبنان، 1417هـ/1996.
27. محمد مخلوف: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، المطبعة السلفية ومكتبتها، جزئين، القاهرة، مصر، 1350هـ.
28. محمود مقديش: نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تح: علي الزواري ومحمد محفوظ، جزئين، دار الغرب الإسلامي بيروت، 1988.
29. هاينريش بارت: سبع رسائل مخطوطة عن رحلته إلى تونس 1845 – 1846 تح وتع: منير الفندري، درا بيت الحكمة، تونس، 1987.

30. الوازن حسن بن محمد: وصف إفريقيا، تح: محمد حجي وآخرون، ج2، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983.

2-المصادر بالأجنبية:

1. Frank Louis et Marcel Jean Joseph : Histoire de Tunis ،Précédé D'une description de Cette Régence Par le Dr.Louis Frank, Tounis Édition, Bouslama (2éme Edition)1979.
2. Saint Gervais :Memoire Historique Qui Concerne le Gouvernement de L'ancien et le Nouveau Rovaume de Tunis Paris.
3. Grand Champ Pierre: la France En Tunisien A la Fin du XVIIème Siecle Inventair de s Archives Du Cansulat de France À Tunis de (1583-1705) Tunis1920-1933, 10 Vol Umes.
4. Maggil Thomas: Nouveau Voyage A Tunis Publie En 1811 Editeur de de s Sienres Médicales Paris ،1981.
5. Pellissier de Reynaud (E):Description de la Régence de Tunis, Imprimerie,Tunis, 1980.
6. Peyssonnel et Desfontaines: Voyages Dans le Régences de Tunis et D'alger (1783-1786) Présentation et Nots de Valensi (Lucette) Paris Publication Centre Nationale de s Lettre 1987.
7. Plantet Eugéne: Correspondances de s Beys de Tunis et de s Consuls de France Avec la Cour (1577-1830), T3, Paris.

ثالثا-المراجع

أ-المراجع العربية:

1. إبراهيم شحاتة: أطور العلاقات المغربية العثمانية قراءة في تاريخ المغرب عبر خمس قرون (1510-1947)، منشأة المعارف، مصر، 1981.
2. أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985.
3. أحمد الحمروني: المورسكيون الأندلسيون في تونس دراسة بيبولوجرافيا، ميديا كوم، تونس، 1998.
4. أحمد السعداوي: تونس زمن حسين بن علي وعلي باشا (1705م-1756م)، وثائق أوقاف من العهد الحسيني، الشركة التونسية للنشر وتنمية فنون الرسم، تونس، 2015.
5. أحمد الطويلي: المواسم والأعياد بتونس، دار الطباعة والنشر، مطبعة أسود على

- أبيض، تونس، 1997.
6. أحمد الطويلي: تاريخ مدينة تونس الثقافي والحضاري، الشركة التونسية للنشر وتنمية فنون الرسم، تونس، 2002.
7. أحمد أمين: زعماء الإصلاح في العصر الحديث، ط3، مكتبة النهضة المصرية، مصر، 1971.
8. أحمد عبد السلام: رسائل حسين إلى خير الدين، ج3، بيت الحكمة، قرطاج، تونس، 1997.
9. الأزهر الصخراوي: مخطوطو السياسة الاستعمارية بتونس من برنار رو إلى شال سوماتييه (1881-1956)، ط1، دار المسير، 2018.
10. الأزهر الماجري: قبائل ماجر والفراشيش خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، منشورات كلية الآداب والفنون والانسانيات منوبة، تونس، 2007.
11. إسماعيل العربي: المدن المغربية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985.
12. الأكل رشاد: مؤسسة الرابطة في العهد الحديث، شهادة لنيل الدراسات المعمقة في التاريخ الحديث والمعاصر كليه العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، السنة الدراسية 2001/2000.
13. بلقاسم إبراهيم بن جمعة: الإقتصاد والمجتمع في الإيالة التونسية من 1861 إلى 1864، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، 2002، الشركة العامة للطباعة.
14. بلقرين أرتور: التاريخ المصور لتونس وضواحيها، تونس، 1955.
15. جمال بن الطاهر: الإقتصاد والمجتمع في القرن التاسع عشر، تونس عبر التاريخ، ج2، مركز الدراسات والبحوث الإقتصادية والاجتماعية، مطبعة سنباكت، تونس، 2007.
16. جميلة بينوس: تونس، دار الغرب الإسلامي، دار الجنوب للنشر والتوزيع، 1985.
17. حسن العنابي: حمودة باشا أوج السلطة الحسينية، تونس عبر التاريخ، ج2، من العهد الإسلامي إلى حركات الإصلاح، مطبعة سنباكت، مركز الدراسات والبحوث الإقتصادية والاجتماعية، تونس، 2007.

18. حسين محمد الخضر: تونس وجامع الزيتونة، جمع وتح: علي الرضا، الدار التونسية، تونس، 1971.
19. حمادي الساحلي: فصول في التاريخ والحضارة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1992.
20. خير الدين شطرة: الطلبة الجزائريون بجامع الزيتونة (1900-1956)، ج1، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2008.
21. دلندة الأرقش: الجباية الدولة والمجتمع في تونس الحديثة ساحل المنستير (1676م-1856م)، الجامعة التونسية 1983/1984.
22. رشاد الأمام: التفكير الإصلاحي في تونس في القرن التاسع عشر إلى صدور قانون عهد الأمان، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس 2010.
23. رشاد الإمام: سياسة حمودة باشا في تونس (1782-1814)، منشورات الجامعة التونسية، 1980.
24. زاهية قدورة: تاريخ العرب الحديث، دار النهضة العربية بيروت، لبنان، 1985.
25. زهير الذوايدي: الاستعمار وتأسيس الحركة الإصلاحية الوطنية التونسية، المطبعة المغربية للطباعة والنشر، تونس 2006.
26. سكيمة عصامي: آليات ومناهج تعليم الكتاتيب بالجريد التونسي من بداية القرن التاسع عشر إلى 1889.
27. سلوى هويدي: أعوان الدولة بالإيالة التونسية: الأفراد-المجموعات-شبكات العلاقات (1735م-1814م)، دكتوراه في التاريخ الحديث، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، مطبوعات مخبر، البحث اقتصاد المتوسط ومجتمعاته، 2014م.
28. سمير أبو حمدان: خير الدين التونسي أبو النهضة التونسية، دار الكتاب العالي، لبنان، 1993.
29. شكيب أرسلان: تاريخ الدولة العثمانية تح وتح: حسن السماحي سويدان دار ابن كثير للطباعة والنشر، دمشق، 2001.
30. الشيباني بن بلغيث: الجيش التونسي في عهد محمد الصادق باي (1859-1882م)،

- منشورات التميمي للبحث العلمي وجامعة سفاقص، 1995.
31. الصادق الرزقي: الأغاني التونسية، تونس، 1967.
32. عبد الباقي الهرماسي في كتابة: المجتمع والدولة في المغرب العربي، دراسات الوحدة العربية، ط3، بيروت، لبنان، 1999.
33. عبد الجليل التميمي: الحياة الإجتماعية في الولايات العربية أثناء العهد العثماني، ج1، منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية الموركسية زغوان، 1988.
34. عبد الحميد هنية: تونس العثمانية بناء الدولة والمجال، تير الزمان، تونس، 2012.
35. عبد الرحمان تشايجي: المسألة التونسية والسياسة العثمانية (1881-1913)، تع: عبد الجليل تميمي، دار الكتب الشرقية، تونس 1973.
36. عبد الفتاح أبو عليه وإسماعيل ياغي: تاريخ أوربا الحديث والمعاصر، دار المريخ للنشر، السعودية، 1993.
37. عبد الكافي أبو بكر: تاريخ تونس، منشورات التعاضدية العمالية للطباعة والنشر، صفاقص، 1966.
38. عبد الكريم غلاب: قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي، العهد التركي في تونس والجزائر، ج2، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2005.
39. عبد المجيد بلهادي: علاقة السلطة بالمجتمع الريفي في البلاد التونسية خلال القرن التاسع عشر، مثال قبيلة السواسي، (1836-1882)، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، 2013.
40. عبد المجيد كريم: وثائق معرض الحركة الاصلاحية بالبلاد التونسية بين 1815-1920، منشورات المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية، تونس، 1994.
41. عبد الوهاب حسن حسني: خلاصة تاريخ تونس، تح: حمادي الساحلي، دار الجنوب للنشر، تونس، 2007.
42. عبد الوهاب حسن حسني: شهيرات التونسيات، المطبعة التونسية، 1353.
43. عبد الوهاب حسن حسني: كتاب العمر، المجلد الأول، مراجعة وإكمال محمد العروسي المطوي، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1990.

44. عبد الوهاب حسن حسني: ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية، مج3، تونس، 1972.
45. علي المحجوبي: إنتصاب الحماية على تونس، منشورات الجامعة التونسية، تونس، 1977.
46. علي مصطفى المصراتي: غومة فارس الصحراء، منشورات مكتبة الفرجاني، طرابلس ليبيا، 1960.
47. عمار بن خروف: العلاقات السياسية بين الجزائر وتونس في القرن 18م /12هـ، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، تيزي وزو، الجزائر، 2017.
48. عمار حيدر: آفاق ووثائق في تاريخ ليبيا الحديث، الدار العربية للكتاب، 1991.
49. عمر الركباني: خلاصة تاريخ تونس، ط3، مطبعة النهضة، تونس، 1365هـ-1946م.
50. عمر بن قفصيه: أضواء على الصحافة التونسية (1860م-1970م)، دار بوسلامة للطباعة والنشر، تونس، 1972.
51. عمر علي بن اسماعيل: انهيار حكم الأسرة القرمانلية في ليبيا -1835م، مكتبة الفرجاني، طرابلس، ليبيا 1966.
52. فاضل بيات: الدولة العثمانية في المجال العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، 2007.
53. فاطمة بن سليمان: الأرض والهوية، نشوء الدولة الترابية في تونس، 1574م-1881م، منشورات كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تونس، 2009م.
54. كمال السيد أبو مصطفى: محاضرات في تاريخ المغرب والأندلس، مركز الإسكندرية للكتاب، مصر، 2003.
55. محمد البهلي النبال: الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامية، مطبعة النجاح، تونس.
56. محمد الصالح مزالي: الوراثة على العرش الحسيني، الدار التونسية للنشر، تونس، 1969.
57. محمد الطاهر ابن عاشور: أليس الصبح بقريب، المصرف التونسي للطباعة، تونس،

- 1967.
58. محمد الطوير: ثورة الشيخ غومة المحمودي على العثمانيين، ليبيا (1835 – 1858) منشورات مكتبة الفرجاني، طرابلس، ليبيا، ط 2، 1995.
59. محمد الفاضل بن عاشور: الحركة الأدبية والفكرية في تونس (في القرنين 13-14هـ/19-20م)، الرشيد للنشر والطباعة تونس، 2009.
60. محمد الهادي العامري: تاريخ المغرب العربي في 7 قرون بين الإزدهار والذبول، الشركة التونسية للتوزيع القصبة، تونس، 1974.
61. محمد عبد الباري: الإمتيازات الأجنبية مطبعة الاعتماد، مصر، 1930.
62. محمد محفوظ: تراجم المؤلفين التونسيين، 5 أجزاء، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1994.
63. المكنى عبد الواحد: شتات أهل وسلات (مقاربة في الإنثروبولوجيا التاريخية)، دار السحر، تونس، ط2، 2020.
64. المهدي جراد: عائلات المخزن بالإيالة التونسية خلال العهد الحسيني (1705-1881)، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية تونس، وحدة البحث التاريخ الإقتصادي والاجتماعي، أ، و، ت، 2011.
65. نور الدين عبد القادر: صفحات في تاريخ مدينة الجزائر، من أقدم عصورها إلى إنتهاء العهد التركي، ط2، دار الحضارة، الجزائر، 2006، ص ص 114-115.
66. الهادي التيمومي: تونس والتحديث (1831-1877) دار محمد علي للنشر، تونس، ط1، 2010.
67. الهادي جلاب: المجتمع التونسي بين التأصيل والتحديث 1881-1956، تونس، 1998.
68. الهادي حمودة العزي: الأدب التونسي في العهد الحسيني (1705-1881)، الدار التونسية للنشر-تونس، 1972.
69. يحي جلال: العالم العربي الحديث والمعاصر: ج1، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، مصر، 1998.

ب-المراجع المعربة:

1. أحمد عبد السلام: المؤرخون التونسيون في القرون 17م و18م و19م، تر: أحمد عبد السلام وعبد الرزاق الحليوي، بيت الحكمة، قرطاج، تونس.
2. أرنولد ه قرين: العلماء التونسيون: تر: حفناوي عمايريه وأسماء معلى، نشر دار سحنون للنشر والتوزيع والمجمع التونسي للعلوم والادارة والفنون، تونس، 1995.
3. ألفونس روسو: الحوليات التونسية من الفتح العربي حتى احتلال الجزائر، تع-تح: محمد عبد الكريم الوافي، منشورات قار يونس، بنغازي، 1992.
4. برنشفيك روبر: تاريخ إفريقية في القرن 13م إلى نهاية القرن 15م، تر: حمّادي الساحلي، ج2، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان، 1988.
5. توفيق البشروش: الولي الصالح والأمير في البلاد التونسية، ج1/ج2، ترجمة المؤلف، دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس، 2013.
6. شارل أندري جوليان: تاريخ إفريقيا الشمالية، تر: محمد مزالي والبشير بوسلامة، ج2، ط3، الدار التونسية للنشر، 1978.
7. فان كريكن: خير الدين والبلاد التونسية: تر: بشير بن سلامة، دار سحنون، تونس 1971.
8. محمد الهادي الشريف: تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال، تعريب: محمد الشاوش، محمد عجيبة، ط3، دار سيراس للنشر، تونس، 1993.
9. المختار باي: حسين بن علي، مؤسس الدولة الحسينية ترجمة البشير بن سلامة الأطلسية للنشر والطباعة، تونس، 2009.
10. موسكوا بوكليير: سميل سوفي، افريقيا، تعريب: منير الفندري والصحبي الثابتي، بيت الحكمة، تونس، 1987.

ج-المراجع الأجنبية:

1. Andreas Tunger _ Zanetti: la Cmmunication Entre Tunis et Istanbel 1860_ 1913 Imprimer Sur Les Presses de Lavauzelle Graphic L'harmattan 1996.
2. Bachrouch Toufik: Formation Social Barbaresque et Pouvoir à Tunis au

- XVIIIème siècle, Tunis, Publication de L'université de Tunis, 1977.
3. Ben Achour Mohamed El Aziz; Les Ulamaa à Tunis aux XVIIIème et XIXème Siècles, Thèse de 3ème Cycle, Soutenue de vant Université Paris-Sorbonne, 1977.
 4. Brunschfig Robert: Justice Religieuse et Justice Laïque Bon la Tunisie des Deys et des Baies la Salle Jusqu'à au Milieu de xixsiècle, In Studiaislamica, Tome XXII, 1965.
 5. Charles Cubisal: Notices Abrégées Sur la Régence de Tunis Libraire – Commissinaire Ala Librairie L'elmilik Tunis 1867.
 6. Cherif Mohamed Hadé: Pouvoir et société dans la Tunisie de Husayn Ben Ali. PU. Tunis. 1984-1986, Tom 1/2.
 7. De Grammont (H): Histoire d'Alger Sous la Déamination Turque (1515-1830) ,Paris ,1887 ,pp 288-289.
 8. El Mekhar Bey: Les Beys de Tunis 1705 -1957 , 2 Éme Édition, 2003.
 9. Fenina Abdelhamid; Les Monnaies de la Régence de Tunis sous les H'usaynides ,Tunis ,Faculté des Sciences Humaines et sociales de Tunis , 2003.
 10. Ganiage Jean: Les origines du protectorat Français en Tunis(1861-1881), Presses Universitaires de France, Paris, 1959.
 11. Guellouz Azzedine et Masmoudi Abdelkader et Smida Mongi: Histoire de la Tunisie des Temps Modernes, Tunis Société Tunisien de Diffusion, 1983.
 12. Guellouz Azzedine: la Tunisie Husseinite Au XVIII Es In Histoire de la Tunisie: Les Temps Moderens STD. 1983.
 13. Henri Hugon ,Les Emblèmes Des Beys De Tunis Ernest Leroux ,Editeur Rue Banapart ,Paris .
 14. J;Ganiage: Histoire Contemporaire Du Maghreb de 1830 A Nas Jours Paris Fayard 1994.
 15. J Henry Dunant: Notice Sur la Régence de Tunis Imprimerie de Jules Gfick Genève 1858.
 16. Jean Mallan: L'Influence Française Dans la Regence de Tunis Avant L'Établissement Du Protectorat Publication Colomial Paris 1931.
 17. Jules Ferry :La Tunisie Avant et de puis L'occupation Française. L'ibrairie Caloniale Paris 1893 Tom1.
 18. Khalifa Chater: Dépendance et Mutations Précoloniales: la Régence de Tunis de 1815 À 1857, Tunis, Faculté des Sciences Humaines et Sociales de Tunis, 1984.
 19. Kraiem Mustapha: la Tunisie Précoloniale, T2, Tunis, 1973.
 20. Valenci Lucette: le Maghrel Avant la Prise D'alger Flammarin Paris 1969.
 21. Valensi Lucette: Fellah Tunisiéns ,L' Èconomie Rural et la Vie de s

- Campagnes Aux XVIIIème et XIXème Siècles Mouton Paris, Lahaye, 1977.
22. M.Moreuil: Manual des Agents Consulaires Français et Étrangers . videocq
Fils Ainé.Édition Paris 1853.
23. Machuel Louis: L'enseignement Public Dans la Régence de Tunis
Imprimerie Nationale, Paris.
24. Mantran Robert :Imentaire Documents D'archives Tures de Dar Elbey _
Universitaires Presses France Paris 1961.
25. Mezali Mohamed Salah; L'héritité Dans la Dynastie Husseinite, Évolutions
et Violations.
26. Mongi Smida: Aux Arigines Du Commerce Francais En Tunisie Les Traités
Capitulaires Sud Édition, Tunis, 2001.
27. Mouloud Gaid: Les Berbères Dans L'histoire _ Lutte Contre le
Colonialisne1 Er Tr: Edition Mimouni ،Alger ،2009 ،T3
28. Faucon Narcisse : la Tunisie avant et de puit L'Occupation Française
Histoire et Colonisation T2 Libraire Colonial, Paris 1893.
29. Nora Laafi: Une Ville du Maghreb entre Ancien Régime et réformes
Ottomanes genèse des Institution Municipales à Tripoli de Barbarie (1795-
1911) ،Paris ،Harmattan ،2002.
30. Paul Sepag : Tunis au XVII ème siècle une cité au temps de la course,
Edition L'Harmattan, 1989.
31. Rouard de Card:Traité de la France Avec Les Pays de L'Afrique Du Nord
Algérie Tunisie Tribalitaine Maroc A Pédone Paris1906.
32. Bachrouch Toufik: Formation Social Barbaresque et Pouvoir à Tunis au
XVIIème siècle, Tunis, Publication de L'université de Tunis, 1977.

رابعاً-الرسائل الجامعية:

- 1.ريم غانمي: الحضور المسيحي بتونس من 1881 إلى 1930، رسالة ماجستير، المعهد
الأعلى لأصول الدين، جامعة تونس(2004-2005).
- 2.سماح بوزراعة: الإنتاج الفكري بتونس العثمانية، دكتوراه في التاريخ الحديث
والمعاصر، جامعة تونس الأولى، 2017.
- 3.الضاوي خوالدية: الذوات والأسر التونسية في القرن التاسع عشر من خلال إتحاف
أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، بحث معمق في البنيات الإجتماعية
والتقافة والإقتصادية والسياسة، تونس، بلا تاريخ.

4. عبد الحميد بن زيد: مدارس التعليم الاسلامي في القرن التاسع عشر بتونس، شهادة التعمق في البحث، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، 1978-1979.
5. عبد المجيد الجمل: بريطانيا العظمى والمغرب العربي «التنافس الإنجليزي الفرنسي بتونس والمغرب الأقصى» 1881 - 1939 رسالة دكتوراه في التاريخ المعاصر، جامعة تونسالأولى، 2006-2007.
6. عبد المجيد كريمة: طبيعة السلطة الجهوية بتونس في القرن التاسع عشر، شهادة الكفاءة في البحث، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة تونس الأولى، 1976-1977م.
7. العربي الحناشي: الحناشنة وعلاقتهم بالسلطة في تونس (1640-1740) مذكرة مقدمه لنيل شهادة الكفاءة في البحث، جامعة تونس الأولى، السنة الجامعة (1987-1988).
8. علي الزيدي: التعليم بصفاقس قبل انتصاب الحماية الفرنسية على البلاد التونسية في عهد محمد الصادق باي (1859-1881)، شهادة الكفاءة في البحث، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تونس الأولى، الموسم الجامعي 1979/1980.
9. فاروق المبسوط: مؤسسة بيت المال في البلاد التونسية خلال الفترة الحديثة القرن 17م و 19م، شهادة لنيل الدراسات المعمقة في التاريخ الحديث، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، السنة الجامعية 2002-2003.
10. فوزي محمد المستغانمي: بلاط باردو زمن حمودة باشا (1782-1814)، رسالة دكتوراه في التاريخ الحديث، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تونس، 2006-2007.
11. فوزي محمد المستغانمي: يوسف صاحب الطابع وعلاقته بربض باب السويقة نهاية القرن 18م، شهادة لنيل الدراسات المعمقة في التاريخ الحديث، كلية العلوم الإنسانية، جامعة تونس الأولى السنة الجامعية 2001/2000.
12. كريمة الزايري: مؤسسة الشيخ بمدينة تونس في القرنين 18 و 19، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تونس، 2000-2001.
13. ليسير فتحي: تجمع ورغمة تحت الإدارة العسكرية الفرنسية (1881 - 1939)، شهادة التعمق في البحث، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، 1999.

14. محمد الحبيب العريزي: ظاهرة الحكم المتجول، رسالة دكتوراه في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر.
15. محمد الحماس: الحركة التصنيعية في تونس في النصف الثاني من القرن 19، مذكرة ماجستير كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، 1998.
16. محمد المريمي: الفئات الاجتماعية بجزيرة وعلاقتها بالسلطة المركزية خلال العهد الحديث، شهادة الكفاءة في البحث كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، 1990.
17. محمود التايب: أولاد سعيد بين الولاء والمقاومة (1864-1881) عائلة بن الواعر، أنودجا مذكرة دكتوراه في التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، 2000.
18. مديحة مشرفية: المدارس الحرة الفرنسية في البلاد التونسية، شهادة التعمق في البحث، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تونس الأولى، 1990.
19. منصف التايب: بلاط باردو زمن الحسين بن علي، بحث المرحلة الثالثة، جامعة تونس الأولى، 1990.
20. منير عبيد: دور وكلاء وقناصل الإيالة التونسية باستانبول وطرابلس ومالطة على ضوء رسائلهم (1830-1881) أطروحة دكتوراه كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية جامعة تونس الأولى، 1995.
21. نبيهة العبيدي السلطاني: القوة العسكرية القارة بتونس وتكاليفها المالية من (1756-1814م)، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث، جامعة تونس الأولى، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، 1999-2000.
22. هالة الماسي: دار السكة التونسية في العهد الحسيني (1705-1881)، شهادة لنيل الكفاءة في البحث كلية الأدب والعلوم الإنسانية بتونس، 1978.
- خامسا- الملتقيات الوطنية والدولية**
أ- الملتقيات الوطنية:
1. عائشة بالضياف فرحات: المرأة عند ابن أبي الضياف، ملتقى ابن أبي الضياف للفكر السياسي والاجتماعي الحديث، تونس 1989.

خامسا: المقالات والدوريات

أ- المقالات والدوريات باللغة العربية:

1. محمد العزيز ابن عاشور: التعليم الزيتوني من ترتيب المشير أحمد باي إلى تأسيس مشيخة الجامع الأعظم وفروعه، م.ت.م، العدد 41-42، تونس، 1986.
2. أحمد قاسم: أوضاع إيالة تونس العثمانية على ضوء فتاوي ابن عضوم، م.ت.م، العدد 33-34 جويلية 1979.
3. دلندة الأرقش: التطور اللامتكافيء والهيمنة الخارجية الفئة الحنفية ومكانتها في المهدية والمنستير في القرن 19، م.ت.م، العدد 45/46، جوان 1987.
4. عبد الحميد الأرقش: المؤسسة البلدية-الهيكلية العمرانية الجديدة والتبعية في تونس خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر-، مجلة الحياة الثقافية، العدد 44، أكتوبر 1987.
5. الأزهر الكسراوي: الطرق الصوفية بالبلاد التونسية "مدينة صفاقص أنموذجا" القلم: العدد 7، صفاقص، 2001.
6. جمال بن الطاهر: وثيقة حول الأقلية السوداء بجزيرة جربة في أواسط القرن التاسع عشر، م.ت.م، العدد 99/100، ماي 2000.
7. وسيلة بن حمدة: الزاوية ودورها التربوي والاجتماعي، مجلة الهداية، العدد 4، جانفي 1995، تونس.
8. عمار بن خروف: «علاقات الجزائر السياسية مع تونس في عهد الدايات (1082-1246هـ / 1671-1830م)»، مجلة الدراسات التاريخية، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، العدد العاشر، 1977.
9. فاطمة بن سليمان: قراءة الأخباريين التونسيين للفتنة الباشية الحسينية وعملية بناء الذاكرة الرسمية، الكراسات التونسية، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد 164، تونس، 1993.
10. محمد عبد العزيز بن عاشور: المؤسسات السياسية في عهد الدولة الحسينية القرنان 18 و 19م، م.ت.م، العدد 5/6 فيفري 1992.
11. أحمد بن ميلاد: المستشفيات في تونس، مجلة الفكر، العدد 8/1977، تونس.

12. شيباني بنبلغيث: كفاح الشيخ غومة بن خليفة المحمودي في جنوب تونس، م.ت.م، العدد 68/67، أوت 1992.
13. جميلة بينوس: المدارس بين ماضيها وحاضرها، مجلة الصدى- العدد 6، تونس، 1974.
14. عبد الجليل التميمي: تقرير عن الأحداث السياسية بتونس خلال عشرين سنة (1838-1858)، م.ت.م، العدد 2، جويلية 1974.
15. عبد الجليل التميمي: من أجل كتابة تاريخ الحياة الإجتماعية «للأقلية الإفريقية السوداء» بالبلاد التونسية، مصادر وأفاق، م.ت.م، العدد 45/46، جوان 1987.
16. الحبيب الجحاني: الحركة الاصلاحية في تونس خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، حوليات الجامعة التونسية، العدد 06، السنة 1969، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية.
17. حسين بوجرة: الظاهرة الخمرية، وتطورها بالبلاد التونسية في العهد التركي، الكراسات التونسية الأعداد 151-152-153-154. 1990.
18. حسين بوجرة: في تاريخ دخول الدخان للبلاد التونسية ومصدره، الكراسات التونسية، العدد 161، نوفمبر 1992.
19. نور الدين الحلاوي: وثائق عن العلاقات بين تونس وإسبانيا في أوائل القرن التاسع عشر، م.ت.م، العدد 15-16، جويلية 1979.
20. خليفة الشاطر: البلاد التونسية والدولة العثمانية، مجلة تاريخ العرب والعالم، العدد 41، مارس 1981.
21. رشاد الإمام: الأندلسيون في البلاد التونسية في منتصف القرن التاسع عشر من خلال خزينة الوثائق التونسية، م.ت.م، العدد 23/24، نوفمبر 1981، الإتحاد العام التونسي للشغل.
22. رشاد الإمام: سياسة حمودة باشا الحسيني في المجال التجاري، م.ت.م، العدد 02، جويلية 1974.
23. رقية مراد: الجالية التركية بمدينة المهديّة وموقعها من البيئة الإقتصادية والإجتماعية

- من خلال دفتر الأملاك، رقم 971 لسنة 1867 / 1868، م.ت.م، العدد 6/5، فيفري، 1992.
24. سكيّنة عصامي، الطريقة القادرية بالجريد التونسي من النشأة إلى الاضمحلال (1843-1954)، المجلد 3، العدد 5، جوان 2017، المجلة الجزائرية للبحوث والدراسات التاريخية.
25. محمد العربي السنوسي: يهود تونس في بدايات نظام الحماية (1881-1911) مجلة الحياة الثقافية، وزارة الثقافة والإعلام، تونس، العدد 57، 1990.
26. درويش الشافعي: العلاقات التونسية الفرنسية (1577-1685) التميز والتنوع، مجلة روافد، مج4، ديسمبر 2020.
27. الشيباني بنغيث: دور الجنرال حسين في الحركة الاصلاحية بتونس خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، العدد 12/11 أكتوبر 1995، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات زغوان، تونس.
28. محمد ضيف الله: إزدواجية الخطاب والممارسة في تونس غداة الإعلان عن عهد الأمان على ضوء توجيه المحلة إلى قبلي سنة 1857، المجلة التاريخية المغربية، العدد 90 /89، ماي 1998.
29. أحمد الطويلي: الاحتفال بالمولد النبوي الشريف بتونس في العهدين الحفصي والحسيني، مجلة الهداية، العدد 174، السنة 2007.
30. فتحي المرزوقي: المؤسسات الدينية والمؤسسات الخيرية بمدينة تونس في القرن 18م، مقوماتها الاقتصادية ووظائفها الاجتماعية، م.ت.م، العدد 84/83، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات زغوان، تونس 1996.
31. فتحي معيفي: النخبة التونسية وحركة الاصلاح الوطني خلال القرن التاسع عشر، المجلة المغربية للدراسات التاريخية والاجتماعية، مج: 10 العدد 02/ديسمبر 2019.
32. فوزية لدغم: بيات الأسرة الحسينية بتونس، تكوينهم العلمي وأثرهم في الحركة العلمية (1705-1814م) (1117-1229هـ) مج3، العدد 2، سبتمبر 2020، مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية.

33. قاسم أحمد: التطيب بالبلاد التونسية في العهد العثماني، م.ت.م، العدد 22، سبتمبر 2002، تونس.
34. سالم لبيض: قراءة في علاقة مجتمع عكار بالسلطة المركزية في تونس بين (1850-1907)، مجلة إيبلا العدد 177 لسنة 1996.
35. محمد المختار بن محمود: جامع الزيتونة من أقدم الكليات العلمية في العالم، المجلة الزيتونية، العدد 57، مج2، ج2، 1386هـ/1937.
36. محمد المختار بن محمود: جامع الزيتونة، المجلة التونسية، مج2، ج2، 1356هـ/1977.
37. محمد بن الخوجة: كيف دخل الزي الأوروبي في العادات التونسية، المجلة الزيتونية، مج2، العدد 4، جانفي 1938م/1356هـ.
38. محمد بن الخوجة: كيف نشأت خزائن الكتب لدراسة العلوم بجامع الزيتونة، المجلة الزيتونية، هيئة مدرسي جامع الزيتونة، بتونس، مج 1، العدد 01، سنة 1936.
39. محمد بن الخوجة: هل كان لتونس نواب سياسيون يمثلونها في الخارج قبل عصر الحماية، المجلة الزيتونية، مج1، ج1، تونس، محرم 1356هـ/مارس 1937.
40. محمد بن الخوجة: كيف نشأت خزائن الكتب لدراسة العلوم بجامع الزيتونة المعمور، المجلة الزيتونية، مج1، العدد 1/1936.
41. محمد بوطيبي: التعليم في جامع الزيتونة خلال النصف الأول من القرن العشرين (دراسة في المنهج والبرامج)، المجلة المغاربية للمخطوطات، العدد 5، جوان 2017.
42. عبد الكريم المناعي: التونسيون وتعليم المرأة (1881-1956) دراسة في الثابت والمتحول في الذهن التونسية تجاه تعليم المرأة المسلمة، م.ت.م، العدد 90/89، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات زغوان، ماي 1998.
43. المنصف الشنوفي: رسالة أحمد بن أبي الضياف في المرأة (مخطوط)، حوليات الجامعة التونسية، العدد 05، السنة 1968.
44. عبد الجليل الميساوي: زوايا الوسط الغربي ودورها الاجتماعي، مجلة الحياة الثقافية، تونس، العدد 21، (ماي - جوان).

45. يحي بوعزيز: إسبانيا توسط الجزائر لإبرام صلح مع تونس، دفاتر التاريخ المغربية، وهران، العدد 1، 1987.
46. يحي بوعزيز: المراسلات الجزائرية الإسبانية في أرشيف التاريخ الوطني لمدريد (1780-1798)، دم.ج، الجزائر، 1993.

ب- المقالات والدوريات باللغة الأجنبية:

1. Soler Arnaldo: Chargé D'affaires D'Espagne A Tunis et Sa Corres Pondance 1808 _ 1810 In R_T , No. 12, ,1905.
2. Arnoulet,(F): la Pénétration Intellectuelle En Tunisie Avant le Protectarat In Revie Africaine. Vol 98, 1954.
3. François Arnoulet: Les installation du comptoir corailleur du Capnegro au 18ème siècle in R H M. N°: 25-26, Tunis,1982,p7.
4. Ben Achour, Mohamed El Aziz: Organisation de la Justice Religieuse dans la Tunisie Husaynite 18-19 Siècle, I-B-L-A N ° = 153/1984.
5. Cherif Mohamed Hadè: Intraduction de la Piastre Ispagnol Rial Dan la Régence de Tunis Au Début Du 17 Éme Siècle In C.T No. 61 Tunis 1968.
6. Paul Sebag: La Peste Dans la Régence de Tunis Aux 17ème et 18ème Siècles.IBLA No. 10 Tunis 1965.
7. Paul Sebag : Les Monnaies Tunisienne Au XVII Siècle, Revue Du Monde Musulman et de la Méditerranée, N 55-56, 1990.
8. Zmerli (S): Une Figure Aubllée ،Youssef Soheb Et – Tabaa ،RT ،N°:21 (1935)

سادسا: المعاجم والموسوعات

1. ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، ج9.
2. ابن منظور: لسان العرب، ج13، مادة "كتب"، دار صادر، لبنان، 2003.

سابعا: المواقع الإلكترونية

1. جمعة شيخة: الوقف بين التنظير والتطبيق والإلغاء التجربة التونسية أنموذجا، جامعة تونس. (Iefpedia.Com)

2. حسين جبار إبراهيم، إيالة تونس في عهد أحمد باشا باي (دراسة تاريخية) ينظر الموقع: <https://Platform.Almanhal.Com/Files/2/109815>، شوهذ بتاريخ: 02-08-2021، بتوقيت: 20:35.
3. روعة قاسم، مدينة الكاف موطن النسيم العليل والفن الأصيل، القدس العربي، 17 فبراير 2018، الموقع الإلكتروني: <https://www.alquds.co.uk>.

الفهراس

فهرس الأعلام

الصفحة	العَم
200-132-92-26-ح-ز	الحسين بن علي
-46-33-30-29-28-27-26-25-ط-ح-د-ب -101-100-93-92-82-75-74-72-70-60 -142-141-140-137-132-108-103-102 -200-190-189-188-176-155-151-149 -252-251-249-234-230-223-222-207 255	علي باشا
-74-71-60-58-40-33-32-31-30-16-ز -132-127-126-109-94-93-86-78-75 -200-189-168-165-164-155-150-149 255-238-234-231-230-224-223	علي باي
-230-200-127-82-78-58-43-39-36 255-233	محمد الرشيد
-36 -35 -34 -33 -32 -م-ك-ي-ز-د -64 -59 -58 -45 -43 -40 -39 -38 -37 -94 -86 -85 -84 -81 -80 -78 -77 -74 -106 -104 -103 -102 -99 -98 -96 -95 -123 -122 -121 -116 -109 -108 -107 -143 -141 -133 -132 -128 -127 -124 -164 -161 -160 -159 -158 -156 -146 -208 -198 -192 -186 -172 -166 -165 256 -238 -233 -231 -224 -222	حمودة باشا
234-58-40-39	عثمان باي

-133-109-96-95-46-43-40-33-32 231-225-200-169	محمود باي
-206-157-133-109-95-47-46-45-44 255-245-235-234-231-225-222	حسين باي
231-225-49-48-47-46-45	مصطفى باي
د-ز-47-49-50-51-52-54-59-80-81- -143-134-128-116-108-105-96-82 -159-158-157-151-149-147-146-144 -198-191-176-175-172-171-169-166 -239-236-225-220-217-211-209-201 257-252-245-244-240	أحمد باي
ح-16-21-29-32-34-47-52-54- -129-128-102-83-81-70-66-60 -175-172-169-166-157-148-144 -236-225-223-210-208-207-193 249-246	محمد باي
-157-145-134-97-86-83-67-56-54 -201-197-192-176-175-171-169-166 246-240-225-218	محمد الصادق باي
255-64-23-22-21-17	إبراهيم الشريف
60-16	محمد الحفصي
21	مراد الثالث
222-186-74-64-59-17-16	مراد باي
16- 18- 21- 22- 23- 25- 26- 28- 29- 30- 33- 34- 35- 36- 37-	ابن أبي الضياف

39- 40- 43- 44- 45- 46- 47- 48- 49- 51- 52- 53- 54- 60- 61- 63- 64- 66- 68- 69- 70- 77- 78- 79- 80- 81- 82- 83- 84- 85- 86- 87- 96- 97- 108- 109- 121- 124- 125- 126- 127- 128- 129- 134- 141- 142- 143- 144- 148- 149- 150- 151- 155- 156- 159- 165- 169- 173- 176- 186- 187- 189- 190- 191- 193- 194- 201- 203- 209- 210- 217- 218- 220- 221- 225- 231- 233- 240- 246- 255- 294-	
ط-25-79-140-187-200-207-229-230- 252	الصغير بن يوسف
222-221	محمود مقديش
ز-ط-25-27-30-31-34-86-142-155- 223-230-234-251	حمودة بن عبد العزيز
هـ-ل-30-41	عبد الحميد هنية
124-63	صباغ
245-150-82-50	محمود بن عياد
149-39-35	حميدة بن عياد
166	الجلولي
-103-86-84-78-45-44-43-40-39-37 -234-224-208-201-194-190-164-147 238	يوسف صاحب الطابع
ح-45-70-87-201-207-217-221-237-	حسين خوجة

253-252	
-208-201-197-190-176-128-125-76 251-249-248-245-240-212	إبراهيم الرياحي
147-134-85-48-47-46	شاكير صاحب الطابع

فهرس الأماكن والبلدان

الصفحة	الأماكن والبلدان
-75 -70 -60 -53 -48 -44 -29 -26 -22 -16 -148 -147 -138 -128 -127 -126 -124 -114 -181 -180 -179 -178 -176 -164 -161 -150 -212 -210 -208 -207 -199 -193 -187 -182 248 -235 -234 -230	الحاضرة
-140 -121 -103 -102 -101 -84 -32 -28 -21 241 -211 -208 -141	الكاف
أ-ب-ج-د-ه-و-ز-ح-ط-ي-ك-ل-م-أ- -26 -25 -24 -23 -22 -21 -19 -18 -17 -16 -37 -36 -34 -33 -32 -31 -30 -29 -28 -27 -52 -51 -50 -49 -48 -45 -43 -42 -41 -38 -63 -62 -60 -59 -58 -57 -56 -55 -54 -53 -77 -76 -74 -73 -72 -69 -68 -67 -66 -65 -93 -92 -90 -89 -87 -86 -84 -82 -81 -79 -102 -101 -100 -99 -98 -97 -96 -95 -94 -110 -109 -108 -107 -106 -105 -104 -103 -118 -117 -116 -115 -114 -113 -112 -111 -126 -125 -124 -123 -122 -121 -120 -119 -141 -140 -139 -138 -133 -132 -131 -129 -151 -150 -147 -146 -145 -144 -143 -142 -162 -161 -160 -159 -158 -157 -156 -154 -171 -170 -168 -167 -166 -165 -164 -163 -184 -182 -181 -180 -179 -178 -175 -172	تونس

-195 -194 -193 -192 -191 -190 -187 -185 -204 -203 -201 -200 -199 -198 -197 -196 -212 -211 -210 -209 -208 -207 -206 -205 -229 -228 -225 -224 -223 -218 -214 -213 -238 -237 -236 -235 -234 -232 -231 -230 -246 -245 -244 -243 -242 -241 -240 -239 258 -257 -255 -252 -251 -250 -247	
159 -99 -97 -96 -95 -44 -24	انجلترا
244 -241 -117 -89	إيطاليا
ك-ل- -24 -27 -32 -42 -47 -50 -51 -53 -96 -95 -94 -93 -92 -91 -90 -89 -83 -54 -161 -159 -134 -129 -117 -105 -104 -98 245 -240 -232 -231 -192 -166 -165 -162	فرنسا
160 -113 -107 -106 -105 -89 -24	اسبانيا
49 -24	النمسا
32 -24	هولندا
-143 -141 -138 -52 -31 -27 -26 -25 -16 255 -211 -210 -196 -193	القيروان
241 -222 -196 -158 -121 -52 -26 -16	سوسة
-196 -193 -164 -148 -147 -139 -121 -52 231 -221 -211	صفاقس
211 -196	توزر
211 -196 -141	قفصة
211 -198 -196 -150	نفطة
ل- -52 -116 -121 -170 -196 -232	المنستير

121 -116 -115	المهدية
أ- ب- ز- ل- 16- 17- 18- 21- 22- 26- 27- 28- 32- 33- 36- 37- 38- 41- 42- 47- 62- 63- 70- 75- 97- 99- 100- 101- 102- 103- 104- 105- 106- 108- 120- 127- 132- 133- 151- 152- 165- 197- 205- 229- 236- 241- 244- 255	الجزائر
-102 -98 -96 -89 -78 -77 -61 -42 -ل- ي- 104- 107- 112- 124- 145- 154- 160- 161- 166- 210- 231- 251- 256	الإيالة التونسية
أ- ه- 16- 18- 35- 36- 38- 44- 46- 64- 74- 97- 107- 108- 109- 133- 144- 165- 208- 209	طرابلس
أ- ل- 17- 27- 28- 41- 65- 83- 104- 114- 120- 150- 209- 228- 230- 233- 237- 249	المغرب
-205 -149 -147 -114 -104 -94 -89 -17 207- 236- 239- 240- 243- 247	مصر
97 -95 -64 -60 -59 -58 -42 -17	الباب العالي
-82 -48 -47 -46 -45 -44 -42 -33 -30 -ه- 125- 127- 128- 143- 154- 162- 165- 173	المملكة
أ- ه- ل- 22- 26- 30- 32- 42- 50- 53- 54- 59- 65- 70- 77- 84- 93- 112- 115- 116- 117- 120- 131- 137- 156- 186- 191- 193- 195- 197- 205- 211- 216- 228- 232- 233- 235- 237- 239- 246- 249	البلاد التونسية

-139 -101 -83 -78 -71 -65 -64 -63 -59 145 -144 -143	المحلة
-165 -108 -91 -69 -65 -61 -59 -49 -47 230	إسطنبول
-192 -187 -186 -87 -76 -50 -ح -ط -ي - -207 -205 -204 -203 -201 -200 -199 -193 -225 -224 -218 -217 -216 -214 -212 -211 251 -231	جامع الزيتونة
-176 -86 -81 -71 -54 -46 -44 -40 -32 239 -210 -201 -191	باردو
99 -96	صقلية
-158 -149 -142 -121 -117 -108 -103 -35 248 -222 -196 -171 -164 -161	جربة
99 -98 -96 -88	الدويلات الايطالية
297 -98	البندقية
99 -98	مملكة نابولي
244 -199 -195 -114 -113 -53	زغوان
105 -92 -27	طبرقة
196 -149 -115 -114 -113	الوطن القبلي
121 -114	تستور
225 -193	باب الجزيرة
297 -119	السياسب العليا
297	السياسب السفلى
118	مكثر
252 -250 -163 -141 -140 -86 -46 -17	باجة

195 -142 -133 -46	بلاد الجريد
144 -143 -118	مطماطة
أ- 145 -144 -21	قبلي
149 -145 -143 -21	الأعراض
151 -150	فريانة
163-114	بنزرت
208 -197 -188 -187 -117	حوانيت عاشور
215 -213 -211 -197 -196 -195 -194	الكتاتيب

فهرس القبائل والجماعات

الصفحة	القبائل والجماعات
104 -101 -65 -36	الجزائريين
255-132-108-33-32-28-22-18-17	أتراك الجزائر
255	أوجاق الجزائر
21	الشنانفة
21-18-17	صبايحية الترك
149 -24	اللزامة
172 -140 -138 -137 -133 -85 -24	القياد
139 -119-26	دريد
146-119-26-24	جلاص
26	أولاد عون
172-142-140-119-26	أولاد سعيد
151-143-141-139-132-27-26	الهمامة
161-26	مساكن
114-26	القلعة
-126 -125 -117 -83 -82 -81 -56 -41 -162 -161 -158 -157 -142 -135 -133 172 -171 -169 -166	جمال
ط- 142 -119 -118 -86 -30 -26 -25	جبل وسلات
152 -151 -146 -139 -119	الفراشيش
151 -143 -139 -135 -119 -26	ماجر
142-119-26	أولاد عيار
-116 -115 -73 -71 -70 -62 -24 -23 232 -193 -171 -146 -131 -120	الأتراك

210 -144 -115 -112 -78 -72 -71	العثمانيين
257 -252 -249 -238 -221 -162	الحسنين
-217 -211 -137 -78 -77 -70 -64 -16 257 -221	المراديين
-146-141-134-131-116-63-53-47 238-235-147	المماليك
-112 -93 -83 -76 -52 -43 -41 -31 157 -156 -155	البايلك
115 -113 -112	الأندلسيين
171-131-116	الكراغلة
256 -245 -171 -134 -116 -51 -50	العبيد
246 -171 -170 -164 -121 -117 -66 119	اليهود غريب أولاد يعقوب
140 -131 -119	القبائل المخزنية
143-141	الصبايحية
145	عكاره
-188 -149 -148 -147 -76 -72 -70 210 -209 -203 -190	النيفر
149-31	ابن عياد
151-101	الحنانشة
151-142	النمامشة
152-151	أولاد تليل
-189 -188 -187 -178 -77 -72 -ح-ل- 232 -217 -203 -193	المالكية
-189 -187 -116 -115 -77 -74 -72 -71	الحنفية

251 -217 -206 -193	
-232 -154 -141 -120 -113 -31 -24 -و 246	الأرياف
256 -182 -180 -178 -131 -24	البوادي
218 -190 -189 -186 -182 -148 -138	الشيوخ
-125 -124 -75 -31 -28 -22 -18 -ح -205 -204 -203 -202 -184 -182 -148 -229 -224 -223 -222 -217 -211 -210 257 -252 -251 -248 -240 -233	العلماء
-229-211-132-85-74-66-65-29-أ-ك 257-252	الدولة الحسينية
198	الطريقة القادرية
249-232-208-198-197	التجانية
232-198	الرحمانية
197	الشاذلية
197	زاوية علي بن عزوز

فهرس الموضوعات

إهداء
 شكر وتقدير.....
 قائمة المختصرات.....
 المقدمة..... أن

مدخل: الأوضاع السياسية في تونس قبل تأسيس الدولة الحسينية

الباب الأول: تونس الحسينية

الفصل الأول: الأطوار الكبرى للحكم الحسيني 26
 أولاً: مرحلة التأسيس والصراعات الداخلية (1705م-1756م) 27
 أ/- حسين بن علي وتأسيس الحكم الحسيني (1705م-1735م) 27
 ب/- الفتنة الباشية الحسينية (1728م -1740م): 31
 ج/- عهد علي باشا (1735م-1756م): 33
 ثانياً: مرحلة إعادة التأسيس والبناء والازدهار (1756م-1872م) 35
 أ/- استرجاع أبناء حسين بن علي الحكم: 35
 ب/- عهد محمد باي بن حسين بن علي: (1756م-1759م) 36
 ج/- عهد علي باي بن حسين بن علي (1759م-1782م): 36
 د/- عهد حمودة باشا الحسيني (1782م-1814م) 40
 ثالثاً: مرحلة ظهور الأزمة ومواجهة التحديات (محاولات الاصلاح) 47
 الفصل الثاني: مؤسسات نظام الحكم الحسيني 65
 أولاً- طبيعة نظام الحكم الحسيني في تونس: 66
 أ- انتقال السلطة داخل العائلة الحسينية: 66
 ب- مراسيم انتقال السلطة داخل البيت الحسيني: 66
 ج- علاقة النظام الحسيني بالدولة العثمانية: 66
 ثانياً- المؤسسات السياسية والقضائية: 67

67	أ-المؤسسات السياسية:
77	ب-المؤسسات والخطط القضائية:
85	ثالثا: المؤسسات المالية والادارية:
85	أ-المؤسسات المالية:
92	ب-المؤسسات والخطط الإدارية:
97	الفصل الثالث: العلاقات السياسية الخارجية للإيالة التونسية خلال العهد الحسيني....
98	أولا: العلاقات السياسية مع الدول الأوربية الكبرى
99	أ-العلاقات السياسية مع فرنسا:
105	ب- العلاقات السياسية مع إنجلترا:
107	ج-العلاقات السياسية مع إسبانيا:
109	ثانيا: العلاقات السياسية مع الدويلات الإيطالية:
111	ثالثا: العلاقات السياسية مع الإيالات المجاورة
111	أ-العلاقات السياسية مع إيالة الجزائر:
117	ب. العلاقات السياسية مع إيالة طرابلس:

الباب الثاني: الاقتصاد والمجتمع في تونس الحسينية

121	الفصل الأول: السكان والقضايا الإجتماعية في تونس
122	أولا: الواقع السكاني
133	ثانيا: الوضع الصحي
137	ثالثا: دور المرأة في المجتمع الحسيني
142	الفصل الثاني: علاقة المجتمع بالسلطة الحاكمة
143	أولا: طبيعة العلاقة ومحدداتها
148	ثانيا: تطورات العلاقة ومراحلها
158	ثالثا: نماذج من العائلات المخزنية

166	الفصل الثالث: الإقتصاد وأثره على المجتمع
167	أولاً: الأنشطة الإقتصادية الممارسة والتأثير
167	أ- الفلاحة:
171	ب- الصناعة:
176	ج- التجارة:
181	ثانياً: العملة والنظام النقدي
184	ثالثاً: التغييرات الاجتماعية للمجتمع التونسي
188	الفصل الرابع: عادات وتقاليد المجتمع التونسي
189	أولاً: المواسم والأعياد
192	ثانياً: الأكل واللباس
192	أ- الأكل:
192	ب- اللباس:
194	ثالثاً: عادات وتقاليد أخرى
194	أ- الزواج:
196	ب- الختان:
197	ج- الجنائز:

الباب الثالث: العلم والعلماء والثقافة في تونس الحسينية

199	الفصل الأول: المؤسسات العلمية والثقافية في تونس
200	أولاً: المدارس العلمية
207	ثانياً: الجوامع والكتاتيب
211	ثالثاً: الزوايا والأوقاف
214	رابعاً: المكتبات العامة والخاصة
217	الفصل الثاني: العلماء والتعليم خلال العهد الحسيني
218	أولاً: العلماء والمدرسون

226	ثانيا: السياسة التعليمية.....
237	ثالثا: جهود البايات الحسينيين في الاهتمام بالعلم والعلماء
243	الفصل الثالث: العلوم والثقافة بتونس الحسينية
244	أولا: نظرة عامة حول الإنتاج الفكري بتونس الحسينية
245	ثانيا: واقع الثقافة بتونس الحسينية
256	ثالثا: النهضة الإصلاحية بتونس وتداعياتها على السلطة والمجتمع
264	رابعا: أصناف العلوم المتداولة وأبرز أعلامها
272	الخاتمة
277	الملاحق
299	قائمة المصادر والمراجع
320	الفهارس
321	فهرس الأعلام
325	فهرس الأماكن والبلدان
330	فهرس القبائل والجماعات
333	فهرس الموضوعات

الملخص

تتمحور هذه الدراسة حول تتبع سيرورة التطورات السياسية و الاجتماعية و الثقافية في تونس خلال العهد العثماني زمن الأسرة الحسينية (1705م-1881م) فسياسيا استطاع البايات الحسينيون إرساء نظام حكم سياسي عبر مؤسسات مختلفة عملت على تشكيل كيان سياسي مستقل نسبيا عن الخلافة العثمانية و علاقات سياسية خارجية مع الدول الأوروبية الكبرى، بغية تعزيز استقلالها و تحقيق أهدافها، أما اجتماعيا فشملت الدراسة مكونات المجتمع التونسي و عاداته و تقاليده و فعالياته الاقتصادية و علاقته بالسلطة الحاكمة.

أما ثقافيا فقد شهدت تونس تطورا واضحا منذ بداية القرن 19م، فعرفت خلاله حركة إصلاحية شملت جميع المجالات لمسايرة الحداثة الأوروبية نتج عنها قيام أول نظام دستوري في العالم العربي و الإسلامي، و في مقابل هذا كله عرفت الإيالة التونسية بداية من القرن 19 م أزمة اقتصادية ظلت تتفاقم باستمرار حتى وصلت إلى الانهيار الشامل، فانتهى الكومسيون المالي، وكانت النتيجة، الحماية الفرنسية على البلاد سنة 1881م.

الكلمات المفتاحية: البايات الحسينيون - المجتمع التونسي - السلطة الحاكمة - الحركة الإصلاحية - الأزمة الاقتصادية.

Résumé

L'étude s'articule autour de retracer le processus des grandes évolutions politique, sociale et culturelle en Tunisie dans l'époque Othmane la famille Houcienia (1705-1881).

1-Politiquement, Bayattes Hocine mettait un régime politique travers plusieurs établissements sous l'objectif de formuler un état politique indépendant de la KhilafaOthamania, même des relation extérieurs avec les grands pays européen dans le but de valoriser leur indépendance et parvenir a ses fins .

2-Socialement, l'étude se base sur les caractéristiques de la société Tunisienne, ses traditions, la prospérité economique et la relation avec l'état .

3-culturelement, la Tunisie a connu Un grand développement depuis le debut du XIX è siècle après jésus dans tous les domaines en parallèle avec le progrès européen.C'est grâce au 1er système constitutionnel dans le monde Arabe Islamiques. En revanche Ayalas Tunisiennes a soumis au début du 19° siècle une crise economique jusqu'au l'effondrement total.C'est le résultat de l'occupation français en 1881.

Les mots clés: BayattesHouciennioune, la société Tunisienne, Autorité dirigeante, le mouvement de réforme.

Summary

The study revolves around tracing the progress in politics, society and culture in Tunisia between (1705_1881) under the coverment of Houcienia Family .

In politics, the BaiesHouciennioune could build a political system among many institution, it worked to forme an independante polity from the Caliphate Ottmane. Also making relation with the big europeancontries in order tirenforce its independance and get their target. Sociely, the study included the Tunisien basic as: tradition, growth of economy and the authority relation. Culturally, Tunisia has knowen a clear advance since the 19th centry such as the the reform movement in all fields to follow the europeانبrogess because of the first Islamic constitutional system in the Arabic world.

inretun of all that, the Tunisien Ayala has knowen in the begining of the 19th centry an economic crisis stool exacerbate till the total colapes. The erecrion of the financial commission. The result was the French invation over the contry in 1881.

keys words: BayattesHouciennioune, the Tunisian society, ruling authority, the redorm movement.